(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ مَكيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَسَبْعُونَ

سورة الزُّمَر من السور المكية التي تُعْنى بجانب العقيدة وركائز الإيمان ، وتكاد السورة الكريمة أن تكون مقصورةً على علاج « قضيةِ التوحيد » تلك القضية التي كانت الهدف الأولَ لأهداف السور المكية لأنها أصلُ الإيمان ، وأصلُ كلِ عملٍ صالح . سميت « سورةَ الزُّمَر » لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة ، وزمرة الأشقياء من أهل النار ، وذكر حال كلٍ من الفريقين يوم القيامة ، حيث يُساق المؤمنون الأبرار إلى الجنة أفواجاً أفواجاً مع الإحترام والإجلال والتكريم ، ويُساق الكفار الفجار إلى الجحيم أفواجاً أفواجاً مع الذلةِ والهَوَان والصغار .

تبتدىء السورة الكريمة بإثبات صدقِ الوحي ، وصدقِ القرآن المنزل على خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، وتأمر الرسول بإخلاص الدين لله ، وتنزيهَه عن الشرك في كل صورةٍ من صوره ﴿ تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم . إنّا أنزلنا إليك الكتابَ بالحق فاعبد اللهَ مخلصاً له الدين ، ألاَ لله الدين الخالص﴾ والخالصُ هو الصافي من شوائب الشرك والرياء ، وتذكر شبهة المشركين في عبادتهم لغير الله من الأوثان والأصنام وهي الأسطورة التي كانوا يواجهون بها دعوة التوحيد ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقربونا

إلى الله زُلفى ، إنَّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذِبٌ كفار﴾ ثم تكشف الآيات الكريمة عن سُخف ذلك التصور وتهافته ﴿لو أراد اللهُ أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ . وبعد ذلك تذكر الأدلة والبراهين ، على وحدانية رب العالمين ، في إبداع السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسخير الشمس والقمر ، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام ، وكلُّها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته ﴿خلق السمواتِ والأرضَ بالحق ، يكوِّر الليل على النهار ويكوِّر النهار على الليل ، وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمًّى ، ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفسٍ واحدة ، ثم جعلَ منها زوجَها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأنَّى تُصرفون﴾ وتتوالى الآيات يظللها جوُّ الآخرة ، ظلُّ الخوف من عذابها والرجاءِ في ثوابها ، وتبدأ بتوجيه الرسول عليه السلام إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة في صراحةٍ وإذعانٍ وإيمان حتى لا يلتبس على أحد طريقُ الهدى ، وطريقُ الضلال ﴿قل إني أُمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأُمرتُ لأن أكون أول المسلمين . قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يومٍ عظيم﴾ . ومرَّة أخرى يكرر هذا الإعلان ، ثم يعرض مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين ﴿قل اللهَ أعبدُ مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين . لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوِّف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾ وتذكر القرآن العظيم الذي أنزله الله عز وجل للتدبر والتفكر ، وضرب فيه الأمثال والعِبَر ليتعظ الناس ويعتبروا ﴿ولقد ضربنا للناس

في هذا القرآن من كل مثلٍ لعلهم يتذكرون. قرآناً عربياً غير ذي عِوَجٍ لعلهم يتقون﴾ ثم تعقَّب بذكر مثل يوضّح الفارق الكبير بين من يعبد الله، وبين من يعبد أرباباً سواه وهو مثل يصوّر حقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك بأوضح بيان، إنه مثل العبد المملوك الذي يملكه شركاء متخاصمون، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج، ولا يستقر على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتعارضة، والعبد الذي يملكه سيد واحد، يسيّره على نهجٍ واحد فهو مستقر مستريح ﴿ضربَ اللهُ مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون - أي متنازعون متخاصمون - ورجلاً سَلَماً لرجلٍ، هل يستويان مثلاً؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. إنك ميّتٌ وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ وبعد هذا البيان الواضح لحال من يشرك بالله، وحالِ من يؤمن به ويوحّده، يأتي الحديث عن الظلمة التي تفتعل في قلوب المشركين، فهم ينقبضون من اسم الله ويَهَشّون ويبشّون إذا سمعوا ذكر طواغيتهم وأوثانهم ﴿وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون. قلِ اللهمَّ فاطر السمواتِ والأرضِ، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وتتعاقب الآياتُ الكريمة تدعو العبادَ أن يعودوا إلى ربهم غير قانطين ولا يائسين؛ فهو تعالى الرءوف الرحيم، الذي يفتح أبواب رحمته أمام التائبين، ويقبل توبة الخاطئين ﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم﴾ وتكشف السورة عن عظمة الله وجلاله في يوم الحشر الأكبر، حيث لا يكون إلا العدل الإلهي والقسطاس المستقيم، وتشرق الأرض بالأنوار في ساحة العَرْض على المِلك الجبار ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتابُ،

وجيء بالنبيّن والشهداء ، وقُضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ . وتختم السورة الكريمة بمشهدٍ يغمر النفسَ بالروعة والرهبة والجلال ، وهو موقف الفصل بين المتقين والفجار ، فالمتقون يساقون إلى الجنة أفواجاً ، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد في خشوع واستسلام ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ .

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ [الزمر: ٣] الآية.

[٧٧٧] أخرج جويبر عن ابن عباس في هذه الآية قال: أنزلت في ثلاثة أحياء عامر وكنانة وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان ويقولون الملائكة بناته فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] الآية.

[٧٧٨] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾(٢) الآية قال: نزلت في عثمان بن عفان.

[٧٧٩] وأخرج ابن سعد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال نزلت في عمار بن ياسر.

[٧٨٠] وأخرج جويبر عن ابن عباس قال نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة.

[٧٨١] وأخرج جويبر عن عكرمة قال نزلت في عمار بن ياسر.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧ و١٨] الآية.

[٧٨٢] أخرج جويبر بسنده عن جابر بن عبدالله قال لما نزلت: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾(٣) الآية أتى رجل من الأنصار النبي [ﷺ] فقال: يا رسول الله إن لي سبعة مماليك وإني قد أعتقت لكل باب منها مملوكاً فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [الزمر: ١٧] الآية.

---

[٧٧٧] (١) سورة الزمر: الآية (٣).

[٧٧٨] (٢) سورة الزمر: الآية (٩).

[٧٨٢] (٣) سورة الحجر: الآية (٤٤).

(٤) سورة الزمر: الآية (١٧و١٨).

[٧٨٣] أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾ [الزمر: ٢٣] الآية.

[٧٨٤] تقدم سببها في سورة يوسف.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ [الزمر: ٣٦] الآية.

[٧٨٥] أخرج عبد الرزاق عن معمر قال لي رجل: قالوا للنبى [ﷺ]: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلنك فنزلت: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٤٥] الآية.

[٧٨٦] أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها نزلت في قراءة النبي [ﷺ] النجم عند الكعبة وفرحهم عند ذكر الآلهة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: ٥٣] الآية.

[٧٨٧] تقدم حديث الشيخين في سورة الفرقان.

[٧٨٨] وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة.

[٧٨٩] وأخرج الحاكم والطبراني عن ابن عمر قال: كنا نقول ما لمفتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته فلما قدم رسول الله [ﷺ] المدينة أنزل فيهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾(٢) الآية.

[٧٩٠] وأخرج الطبراني بسند فيه ضعف عن ابن عباس قال: بعث رسول الله [ﷺ] إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو زنى أو أشرك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾(٣) الآية فقال وحشي: هذا شرط شديد إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلعلي لا أقدر على هذا فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن

---

[٧٨٥] (١) سورة الزمر: الآية (٣٦).

[٧٨٩] (٢) سورة الزمر: الآية (٥٣) ـ والحديث رواه الواحدي بنحوه (٢١١) في أسباب النزول.

[٧٩٠] (٣) سورة الفرقان: الآية (٧٠).

يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] فقال وحشي: هذا أرى بعد مشيئة فلا أدري هو لي أم لا؟ فهل غير هذا فأنزل الله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[2] الآية قال وحشي: هذا نعم فأسلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤] الآية.

[٧٩١] سيأتي سبب نزولها في سورة الكافرون.

[٧٩٢] وأخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصري قال: قال المشركون للنبي [ﷺ] أتضلل آباءك وأجدادك يا محمد فأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3]. وأخرج الترمذي وصححه.

[٧٩٣] عن ابن عباس قال: مر يهودي بالنبي [ﷺ] فقال: كيف تقول أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على ذه؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[4] الآية. والحديث في الصحيح بلفظ فتلا دون فأنزل.

[٧٩٤] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال غدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[5].

[٧٩٥] ك.. وأخرج عن سعيد بن جبير قال: تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا بما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله الآية.

[٧٩٦] ك.. وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال: لما نزلت: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[6] قالوا يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف العرش؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[7] الآية.

* * *

---

(١) سورة النساء: الآية (٤٨).
(٢) سورة الزمر: الآية (٥٣).
[٧٩٢] (٣) سورة الزمر: الآية (٦٤ـ ٦٦).
[٧٩٣] (٤) سورة الزمر: الآية (٦٧).
[٧٩٤] (٥) سورة الزمر: الآية (٦٧).
[٧٩٦] (٦) سورة البقرة: الآية (٢٥٥).
(٧) سورة الزمر: الآية (٦٧).

سورة الزمر

سبعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الفراء والزجاج: في رفع (تَنْزِيلُ) وجهين أحدهما: أن يكون قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ خبر والثاني: أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب، فيضمر المبتدأ كقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١] أي هذه سورة، قال بعضهم: الوجه الأول لوجوه الأول: أن الإضمار خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا لضرورة، ولا ضرورة ههنا الثاني: أنا إذا قلنا: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة، الثالث: أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر، لأن هذا إشارة إلى السورة، والسورة ليست نفس التنزيل، بل السورة منزلة، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول: المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة.

المسألة الثانية: القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا: إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق، والجواب: أنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف.

المسألة الثالثة: الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلاً وآيات أخر تدل على كونه منزلاً.

أما الأول: فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

[فصلت: ٤٢] وقال: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢].

وأما الثاني: فقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وأنت تعلم أن كونه منزلاً أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلاً، فكونه منزلاً مجاز أيضًا لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الانفصال والنزول، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول، بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها إلى الرسول ﷺ.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادرًا على ما لا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، وأنه غني عن جميع الحاجات، إذا ثبت هذا فنقول: كونه تعالى: عزيزًا حكيمًا يدل على هذه الصفات الثلاثة، العلم بجميع المعلومات، والقدرة على كل الممكنات، والاستغناء عن كل الحاجات، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح، وإذا كان كذلك فكل ما يفعله يكون حكمة وصوابًا. إذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين أحدهما: أن يعلم أن القرآن كلام الله، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقًا، وثبت بالتواتر أنه كان يقول: «القرآن كلام الله» فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله، والأصل الثاني: أن الله أراد بهذه الألفاظ المعاني التي هي موضوعة لها، إما بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيسًا، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين، وثبت أنه لا سبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيمًا، وثبت أن لا سبيل إلى إثبات كونه حكيمًا إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزًا، فلهذا السبب قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

ففيه سؤالان:

السؤال الأول: لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجمًا على سبيل التدريج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما.

والجواب: إن صح الفرق بين التنزيل وبين الإنزال من الوجه الذي ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى إنا حكمنا حكمًا كليًا جزمًا بأن يوصل إليك هذا الكتاب، وهذا هو الإنزال، ثم أوصلناه نجمًا نجمًا إليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؟.

والجواب: فيه وجهان الأول: المراد أنزلنا الكتاب إليك ملتبسًا بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق وصدق

يجب العمل به والمصير إليه، الثاني: أن يكون المراد إنا أنزلنا إليك الكتاب بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته، ولو لم يكن معجزًا لما عجزوا عن معارضته.

ثم قال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما بين في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية، فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾، وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ لأن قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ يفيد الحصر، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور وينتفي عن غير المذكور، واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ما هي وأن الإخلاص ما هو وأن الوجوه المنافية للإخلاص ما هي؛ فهذه أمور ثلاثة لا بد من البحث عنها:

أما العبادة: فهي فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله.

وأما الإخلاص: فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال، فإن حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحًا على الجانب الآخر أو معادلاً له أو مرجوحًا. وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط، وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله راجحًا على الجانب الآخر فقد اختلفوا في أنه هل يفيد أم لا، وقد ذكرنا هذه المسألة مرارًا ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص؛ لأن قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وأما بيان الوجوه المنافية للإخلاص فهي الوجوه الداعية للشريك وهي أقسام أحدها: أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل، وثانيها: أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار، وثالثها: أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيرًا في إيجاب الثواب أو دفع العقاب، ورابعها: وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة، وهذا القول إنما يعتبر على قول المعتزلة.

المسألة الثانية: من الناس من قال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ المراد منه شهادة أن لا إله إلا الله، واحتجوا بما روي أن النبي ﷺ قال: «لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ حِصْنِي وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي» وهذا قول من يقول: لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر، وأما الأكثرون فقالوا: الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهي، وهذا هو الأولى لأن

قوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ عام، وروي أن امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلي الحسن البصري عليها، فلما صلى عليها ودفنت، قال للفرزدق: يا أبا فراس ما الذي أعددت لهذا الأمر؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، فقال الحسن رضي الله عنه: هذا العمود فأين الطنب؟ فبين بهذا أن عمود الخيمة لا ينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة، قال القاضي: فأما ما يروى أنه ﷺ قال لمعاذ وأبي الدرداء: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي الدَّرْدَاءِ»(١) فإن صح فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة وإلا لم يجز قبول هذا الخبر لأنه مخالف للقرآن، ولأنه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجورًا عن الزنى والسرقة، وأن لا يكون متعديًا بفعلهما لأنه مع شدة شهوته للقبيح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكأن ذلك إغراء بالقبيح، والكل ينافي حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضًا الإغراء بالقبيح، لأنا نقول: إن من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة إلا أنه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول: إن فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين.

هذا تمام كلام القاضي، فيقال له: أما قولك إن القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] أي حال ظلمهم كما يقال: رأيت الأمير

---

(١) ضعيف: رواه ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (٢/ ٥٧٥)، حديث رقم (٩٤٤) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي قال أخبرنا أبو معشر المدني عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله... فذكره.

وقال المؤلف: هذا حديث لا يصح وإسحاق بن بشر قد كذبه أبو بكر بن أبي شيبة وغيره وقال الدارقطني: هو في عداد من يطبع الحديث قال وأبو معشر ضعيف، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٣٤٨)، حديث رقم (١١٠٩).

وقال: رواه الطبراني في معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه، وذكر ابن أبي الفوارس في تاسع مخلصياته عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا أنه قال: الحجر يمين الله عز وجل في الأرض فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله، وكذا أخرجه الأزرقي في تاريخه، وأخرجه أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه، وفي لفظ أن هذا الركن الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها عباده مصافحة الرجل أخاه، ورواه القضاعي أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه، لكنه صحيح بلفظ: الركن يمين الله عز وجل يصافح بها خلقه والذي نفس ابن عباس بيده ما من مسلم يسأل الله عنده شيئًا إلا أعطاه إياه، ومثله مما لا مجال للرأي فيه، وله شواهد فالحديث حسن وإن كان ضعيفًا بحسب أصله كما قال بعضهم منها ما رواه الديلمي عن أنس بلفظ: الحجر يمين الله فمن مسحه بيمينه فقد بايع الله، ومنها ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر بلفظ: الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده، ومعناه كما قال المحب الطبري أن كل ملك إذا قدم عليه قبلت يمينه، ولما كان الحاج والمعتمر يسن لهما تقبيله نزل منزلة يمين الملك على سبيل التمثيل ولله المثل الأعلى، ولذلك من صافحه كان له عند الله عهد كما أن الملك يعطي العهد بالمصافحة، لطيفة: نقل المناوي عن السيوطي أنه قال في الساجعة ورد في الأثر ما بعث الله قط ملكًا ولا سحابًا إلا طاف بالبيت أولا ثم مضى، انتهى. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٢٢٣)، وقال: منكر.

على أكله وشربه أي حال كونه آكلاً وشاربًا، وقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[الزمر: ٥٣]، وأما قوله: إن ذلك يوجب الإغراء بالقبيح، فيقال له: إن كان الأمر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلاً، وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة، وأنت لا تقول به، لأن مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلاً، وأيضًا فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر وأما الفرق الذي ذكره القاضي فبعيد، لأنه إذا عزم على أن يتوب عنه في الحال علم أنه لا يضره ذلك الذنب ألبتة. ثم نقول مذهبنا أنا نقطع بحصول العفو عن الكبائر في الجملة، فأما في حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لأنه تعالى قال: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[النساء: ٤٨] فقطع بحصول المغفرة في الجملة، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران في حق كل أحد بل في حق من شاء وإذا كان كذلك كان الخوف حاصلاً فلا يكون الإغراء حاصلاً، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): قرئ الدين (بالرفع)، ثم قال: وحق من رفعه أن يقرأ مخلصًا بفتح اللام لقوله تعالى: ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾[النساء: ١٤٦] حتى يطابق قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ والخالص والمخلص واحد إلا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر، واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص في التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وعلى هذا التقدير فخبر (الذين) محذوف وهو قوله: يقولون، واعلم أن الضمير في قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ عائد على الأشياء التي عبدت من دون الله، وهي قسمان العقلاء وغير العقلاء، أما العقلاء فهو أن قومًا عبدوا المسيح وعزيزًا والملائكة، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة، وأما الأشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الأصنام، إذا عرفت هذا فنقول: الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء، أما بغير العقلاء فلا يليق، وبيانه من وجهين الأول: أن الضمير في قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام، الثاني: أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزيز والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله، أما يبعد من العاقل أن يعتقد في الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله، وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله، ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صورًا لها.

وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا: إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق

بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر، فهذا هو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه: الأول: أنه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ واعلم أن الرجل المبطل إذا ذكر مذهبًا باطلاً وكان مصرًّا عليه، فالطريق في علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار عن قلبه، فإذا زال الإصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه، فيكون هذا الطريق أفضى إلى المقصود. والأطباء يقولون: لا بد من تقديم المنضج على سقي المسهل فإن بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال، فإذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام، فكذلك ههنا سماع التهديد والتخويف أولاً يجري مجرى سقي المنضج أولاً، وإسماع الدليل ثانيًا يجري مجرى سقي المسهل ثانيًا. فهذا هو الفائدة في تقديم هذا التهديد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقي محرومًا عن الهداية، والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الاعتقاد، والأمر ههنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر. ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام، وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الأوثان لا مدخل لها في ذلك الإنعام، فالاشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق.

ثم قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ والمراد من هذا الكلام: إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهًا عن الولد وبيانه من وجوه الأول: أنه لو اتخذ ولدًا لما رضي إلا بأكمل الأولاد وهو الابن فكيف نسبتم إليه البنت، الثاني: أنه سبحانه واحد حقيقي والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد، أما أنه واحد حقيقي فلأنه لو كان مركبًا لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه الأول: أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد، وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه، الثاني: شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد، وإن لم يكن ذلك

التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلومًا بسبب منفصل، فلا يكون إلهًا واجب الوجود لذاته. فثبت أن كونه إلهًا واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحدًا في حقيقته، وكونه واحدًا في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له، فثبت أن كونه واحدًا يمنع من ثبوت الولد، الثالث: أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لا بد وأن يكونا من جنس واحد، فلو كان له ولد لما كان واحدًا بل كانت زوجته من جنسه، وأما أن كونه قهارًا يمنع من ثبوت الولد له، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهورًا بالموت، أما الذي يكون قاهرًا ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً، فثبت أن قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۞ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۞ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞﴾

اعلم أن الآية المتقدمة دلت على أنه تعالى بين كونه منزهًا عن الولد بكونه إلهًا واحدًا وقهارًا غالبًا أي: كامل القدرة، فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال الاستغناء، وأيضًا فإنه تعالى طعن في إلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التي باعتبارها تحصل الإلهية، واعلم أنا بينا في مواضع من هذا الكتاب أن الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات إلهيته، إما أن تكون فلكية أو عنصرية، أما الفلكية فأقسام أحدها: خلق السموات والأرض، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر من وجوه كثيرة شرحناها في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] والثاني: اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك تارة، وذلك هذا أخرى. وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى، والمراد من هذا التكوير أنه يزيد في كل واحد

منهما بقدر ما ينقص عن الآخر، والمراد من تكوير الليل والنهار ما ورد في الحديث: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ» أي: من الإدبار بعد الإقبال، واعلم أنه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ وبقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وبقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [فاطر: ١٣] وبقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢] والثالث: اعتبار أحوال الكواكب لا سيما الشمس والقمر، فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل، وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الأجل المسمى يوم القيامة، لا يزالان يجريان إلى هذا اليوم فإذا كان يوم القيامة ذهبا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] والمراد من هذا التسخير أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون على حد واحد إلى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطي السجل للكتب.

ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ والمعنى: أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزًا أي كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان، فإنه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفارًا يوجب كثرة الرحمة، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة، ثم إنه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الأسفل، فبدأ بذكر الإنسان فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ودلالة تكوُّن الإنسان على الإله المختار قد سبق بيانها مرارًا كثيرة، فإن قيل: كيف جاز أن يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ والزوج مخلوق قبل خلقهم؟ أجابوا عنه من وجوه الأول: أن كلمة (ثم) كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية، فكذلك تجيء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر، كقول القائل: بلغني ما صنعت اليوم، ثم ما صنعت أمس كان أعجب، ويقول أيضًا قد أعطيتك اليوم شيئًا، ثم الذي أعطيتك أمس أكثر، الثاني: أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها، الثالث: أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال بوجود الحيوان عليه فقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ وهي الإبل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع في قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وجوه: الأول: أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لأجل أنه كتب في اللوح المحفوظ كل كائن يكون، الثاني: أن شيئًا من الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء والتراب، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها، الثالث: أنه تعالى خلقها في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض، وقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز، والزوج اسم لكل واحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩].

ثم قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

وفيه أبحاث:

الأول: قرأ حمزة بكسر الألف والميم، والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم، والباقون ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بضم الألف وفتح الميم.

الثاني: أنه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الأنعام، وإنما خصها بالذكر لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان، ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام وهي كونها مخلوقة في بطون أمهاتهم وقوله: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ المراد منه ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ قيل: الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل: الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٣].

واعلم أنه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: ذلكم الشيء الذي عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم، وفي هذه الآية: دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزهًا عن الأجزاء والأعضاء وعلى كونه منزهًا عن الجسمية والمكانية، وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر إلا كونه فاعلاً لهذه الأشياء، ولو كان جسمًا مركبًا من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفًا للشيء بأجزاء حقيقته، ولو كان ذلك القسم ممكنًا لكان الاكتفاء بهذا القسم الثاني تقصيرًا ونقصًا وذلك غير جائز، فعلمنا أن الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعاليًا عن الجسمية والأعضاء والأجزاء.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ وهذا يفيد الحصر أي له الملك لا لغيره، ولما ثبت أنه لا ملك إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك، فإن كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكًا قادرًا ويجري بينهما التمانع كما ثبت في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وذلك محال، وإن لم يكن للثاني شيء من القدرة والملك فيكون ناقصًا ولا يصلح للإلهية، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا ملك إلا الله، وجب أن يقال: لا إله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه الأول: قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة. أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية: أنها صريحة

في أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم، وما ذاك الغير إلا الله، وأيضًا فدليل العقل يقوي ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علمنا أنه من غيره لا منه، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم: أن قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ تعجب من هذا الانصراف، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة، وذلك لأنه تعالى غني على الإطلاق، ويمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة، وإنما قلنا إنه غني لوجوه: الأول: واجب الوجود لذاته وواجب الوجود في جميع صفاته، ومن كان كذلك كان غنيًا على الإطلاق، الثاني: أنه لو كان محتاجًا لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة، والأول باطل وإلا لزم أن يخلق في الأزل ما كان محتاجًا إليه وذلك محال، لأن الخلق والأزل متناقض، والثاني باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعي إلى تحصيل النقصان لنفسه، الثالث: هب أنه يبقى الشك في أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو، وأن يضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غني عنهم.

ثم قال تعالى بعده: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ يعني أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر، واحتج الجبائي بهذه الآية من وجهين: الأول: أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب، قال: ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه، وذلك ضد الآية، الثاني: لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضًا برضاء الله تعالى، وأجاب الأصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه الأول: أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان: ٦٣] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[الإنسان: ٦] وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر: ٤٢] فعلى هذا التقدير قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ ولا يرضى للمؤمنين الكفر، وذلك لا يضرنا، الثاني: أنا نقول الكفر بإرادة الله تعالى ولا نقول إنه برضا الله لأن الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح: ١٨] أي يمدحهم ويثني عليهم، الثالث: كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول: الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض، وليس عبارة عن الإرادة، والدليل عليه قول ابن دريد:

رَضِيتُ قَسْرًا وَعَلَى الْقَسْرِ رِضَا مَنْ كَانَ ذَا سُخْطٍ عَلَى صَرْفِ الْقَضَا[(١)]

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه، والرابع: هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ عام، فتخصيصه بالآيات الدالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ والمراد أنه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلف القراء في هاء ﴿يَرْضَهُ﴾ على ثلاثة أوجه أحدها: قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير مشبعة، وثانيها: قرأ أبو عمرو وحمزة في بعض الروايات (يَرْضَهْ) ساكنة الهاء للتخفيف، وثالثها: قرأ نافع في بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائي مضمومة الهاء مشبعة، قال الواحدي رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واوًا، لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله، فكما أن هذا مشبع عند الجميع كذلك (يرضه)، ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو، لأن الأصل يرضاه والألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية، ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو فكذا ههنا.

المسألة الثانية: الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل؛ أما القول فهو الإقرار بحصول النعمة وأما الاعتقاد فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال الجبائي: هذا يدل على أنه تعالى لا يعذب أحدًا على فعل غيره، فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه، وأيضًا لا يجوز أن يعذب الأولاد بذنوب الآباء، بخلاف ما يقول القوم. واحتج أيضًا من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ واعلم أنا ذكرنا كثيرًا أن أهم المطالب للإنسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان، وأن يعرف ما يضره وما ينفعه في هذه الحياة الدنيوية، وأن يعرف أحواله بعد الموت، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى والعالم الأسفل على كمال قدرة الصانع وعلمه وحكمته، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾.

---

(١) هذا البيت للشاعر ابن دريد الأزدي وهو ابن دريد الأزدي هو: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي القحطاني، أبو بكر. ٢٢٣ - ٣٢١هـ/ ٨٣٨ - ٩٣٢م، من أئمة اللغة والأدب، كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء، وهو صاحب المقصورة الدريدية، ولد في البصرة وانتقل إلى عمان فأقام اثني عشر عامًا وعاد إلى البصرة ثم رحل إلى نواحي فارس فقلده آل ميكال ديوان فارس، ومدحهم بقصيدته المقصورة، ثم رجع إلى بغداد واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارًا فأقام إلى أن توفي.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المشبهة تمسكوا بلفظ ﴿إِلَيۡ﴾ على أن إله العالم في جهة وقد أجبنا عنه مرارًا.

المسألة الثانية: زعم القوم أن هذه الأرواح كانت قبل الأجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود في هذه الآية وفي سائر الآيات.

المسألة الثالثة: دلت هذه الآية على إثبات البعث والقيامة.

ثم قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وهذا تهديد للعاصي وبشارة للمطيع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كالعلة لما سبق، يعني أنه يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم، لأنه عالم بجميع المعلومات، فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَقْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قلوبكم وأعمالكم**».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذي يجب أن يعبد، بين في هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك في بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كل الأحوال فثبت أن طريقتهم في هذا الباب متناقضة.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ فقيل المراد بالإنسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره.

وقيل: المراد به الكافر الذي تقدم ذكره، لأن الكلام يخرج على معهود، تقدم.

وأما قوله: ﴿ضُرّٞ﴾ فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان في جسمه أو في ماله أو أهله وولده، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ أي استجار بربه وناداه ولم يؤمل في كشف الضر سواه، فلذلك قال: ﴿مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ أي راجعًا إليه وحده في إزالة ذلك الضر لأن الإنابة هي الرجوع ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ أي أعطاه، قال صاحب (الكشاف): وفي حقيقته وجهان أحدهما: جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال، إذا كان متعهدًا له حسن القيام به ومنه ما

روي عن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالْمَوْعِظَةِ» (١) والثاني: جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر، وفي المعنى قالت العرب:

إِنَّ الْغَنِيَّ طَوِيلُ الذَّيْلِ مَيَّاسُ

ثم قال تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه، و(ما) بمعنى (من) كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] وقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] وقيل نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه والمراد من قوله: ﴿نَسِيَ﴾ أن ترك دعاءه كأنه لم يفزع إلى ربه، ولو أراد به النسيان الحقيقي لما ذمه عليه، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسي أن لا يفزع، وأن لا إله سواه فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليَضل) بفتح الياء والباقون ﴿لِّيُضِلَّ﴾ بضم الياء على معنى ليضل غيره.

المسألة الثانية: المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه. ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه في حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر، وهذا المعنى باق في حال الراحة والفراغ كان في تقرير حالهم في هذين الوقتين بما يوجب المناقضة وقلة العقل.

المسألة الثالثة: معنى قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أنه لا يقتصر في ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره إما بفعله أو قوله إلى أن يشاركه في ذلك، فيزداد إثمًا على إثمه، واللام في قوله ﴿لِّيُضِلَّ﴾ لام العاقبة كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وليس المراد منه الأمر بل الزجر، وأن يعرفه قلة تمتعه في الدنيا، ثم يكون مصيره إلى النار.

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين، ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحقين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضائل الله، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وحمزة (أمَن) مخففة الميم والباقون بالتشديد، أما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (العلم)، باب: (ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة) (١/ ٣٨)، حديث رقم (٦٨)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٧٢/ ٢٨٢١)، كلاهما من طريق الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود... به.

التخفيف ففيه وجهان الأول: أن الألف ألف الاستفهام داخلة على من، والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك، وقيل كالذي جعل لله أندادًا فاكتفى بما سبق ذكره، والثاني: أن يكون ألف نداء كأنه قيل يا من هو قانت من أهل الجنة، وأما التشديد فقال الفراء: الأصل أم من فأدغمت الميم في الميم وعلى هذا القول هي أم التي في قولك أزيد أفضل أم عمرو.

المسألة الثانية: القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة، ومنه قوله ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ صَلَاةُ الْقُنُوتِ**» وهو القيام فيها، ومنه القنوت في الصبح لأنه يدعو قائمًا، عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾. وعن ابن عباس: القنوت طاعة الله، لقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] أي مطيعون، وعن قتادة ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعات الليل أوله ووسطه وآخره، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار، ويؤكده وجوه الأول: أن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء، الثاني: أن الظلمة تمنع من الإبصار ونوم الخلق يمنع من السماع، فإذا صار القلب فارغًا عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلي، وهو معرفة الله وخدمته، الثالث: أن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر، الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] وقوله: ﴿سَاجِدًا﴾ حال، وقرئ (ساجد) و(قائم) على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين.

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فكونه قانتًا ساجدًا قائمًا، وأما العلم فقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية.

الفائدة الثانية: أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظبًا عليه، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائمًا بما يجب عليه من الطاعات، وذلك يدل على أن العلم إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان، وقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الفائدة الثالثة: أنه قال في مقام الخوف: ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فما أضاف الحذر إلى نفسه، وفي مقام الرجاء أضافه إلى نفسه، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى.

المسألة الثالثة: قيل: المراد من قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ عثمان لأنه كان يحيي الليل في ركعة واحدة ويقرأ القرآن في ركعة واحدة، والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفًا بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقتصرة عليه.

المسألة الرابعة: لا شبهة في أن في الكلام حذفًا، والتقدير أمن هو قانت كغيره، وإما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتقدير الآية قل هل يستوي الذين يعلمون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل سجدًا وقيامًا، والذين لا يعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون، فإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون، لأنهم وإن آتاهم الله العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم، فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولي الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] قال صاحب (الكشاف): أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون، وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء، وهو تنبيه على أن من لا يعمل فهو غير عالم، ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لا يعرفه أيضًا إلا أولوا الألباب، قيل لبعض العلماء: إنكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء، فأجاب العالم بأن هذا أيضًا يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين نفي المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم، أتبعه بأن أمر رسوله بأن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام:

النوع الأول: قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ والمراد أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن

يضموا إلى الإيمان التقوى، وهذا من أول الدلائل على أن الإيمان يبقى مع المعصية، قال القاضي: أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم، لأن عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب وبالإقدام عليها يحبط، فيقال له: هذا بأن يدل على ضد قولك أولى، لأنه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على أنه يبقى مؤمنًا مع عدم التقوى، وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الإيمان.

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما في هذا الاتقاء من الفوائد، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ فقوله: ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ يحتمل أن يكون صلة لقوله: ﴿أَحْسَنُوا﴾ أو لـ ﴿حَسَنَةٌ﴾، فعلى التقدير الأول معناه: للذين أحسنوا في هذه الدنيا كلهم حسنة في الآخرة، وهي دخول الجنة، والتنكير في قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ للتعظيم يعني حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها. وأما على التقدير الثاني فمعناه: الذين أحسنوا فلهم في هذه الدنيا حسنة، والقائلون بهذا القول قالوا: هذه الحسنة هي الصحة والعافية، وأقول: الأولى أن تحمل على الثلاثة المذكورة في قوله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهَا نِهَايَةٌ: الْأَمْنُ وَالصِّحَّةُ وَالْكِفَايَةُ» (١) ومن الناس من قال: القول الأول أولى ويدل عليه وجوه الأول: أن التنكير في قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ يدل على النهاية والجلالة والرفعة، وذلك لا يليق بأحوال الدنيا، فإنها خسيسة ومنقطعة، وإنما يليق بأحوال الآخرة، فإنها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض، والثاني: أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل في الآخرة قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧] وأيضًا فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار، وأيضًا فحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن، كما قال ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» (٢) وقال تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]، الثالث: أن قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يفيد الحصر، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا، وهذا باطل. أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر، فكأنه حمله على حسنة الآخرة أولى، ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وفيه قولان الأول: المراد أنه لا عذر ألبتة للمقصرين في الإحسان، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفرة على الإحسان وصرف الهمم إليه، قل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم، ليزدادوا إحسانًا إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم، والمقصود منه الترغيب في الهجرة من مكة إلى

---

(١) لم أجده.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٧٢/ ٢٩٥٦) من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة... به، وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٤٦٢)، حديث رقم (٦٨٧).

المدينة والصبر على مفارقة الوطن، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. والقول الثاني: قال أبو مسلم: لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله، ثم بين أن من اتقى فله في الآخرة الحسنة، وهي الخلود في الجنة، ثم بين أن أرض الله، أي جنته واسعة، لقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والقول الأول عندي أولى، لأن قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يليق إلا بالأول. **وفي هذه الآية مسائل:**

المسألة الأولى: أما تحقيق الكلام في ماهية الصبر، فقد ذكرناه في سورة البقرة، والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى.

المسألة الثانية: تسمية المنافع التي وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل على الثواب، لأن الأجر هو المستحق، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجرًا بحسب الوعد، لا بحسب الاستحقاق.

المسألة الثالثة: أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب، وفيه وجوه الأول: قال الجبائي: المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلاً فهو بغير حساب، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حسابًا، قال القاضي: هذا ليس بصحيح، لأن الله تعالى وصف الأجر بأنه بغير حساب، ولو لم يعطوا إلا الأجر المستحق، والأجر غير التفضل، الثاني: أن الثواب له صفات ثلاثة أحدها: أنها تكون دائمة الأجر لهم، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ معناه بغير نهاية، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه، فما لا نهاية له كان خارجًا عن الحساب، وثانيها: أنها تكون منافع كاملة في أنفسها، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنه ذلك الثواب، قال ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١) وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه، وما لا يتوقعه الإنسان، فقد يقال إنه ليس في حسابه، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ محمول على هذا المعنى، والوجه الثالث: في التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال، روى صاحب (الكشاف) عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَنْصِبُ اللَّهُ الْمَوَازِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيؤتى بأهل الصَّلاةِ فَيُوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الصَّدَقَةِ فَيُوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلاَ يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ، وَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الأَجْرُ صَبًّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حَتَّى يَتَمَنَّى أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا أَنَّ**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، باب: (صفة الجنة) (٦/ ٣٩٦)، حديث رقم (٣٢٤٤) دون الجزء الأول من طريق الأعرج... به، ومسلم في كتاب (الجنة)، باب: (دوام نعيم أهل الجنة) (٤/ ٢١/ ٢١٨١) من طريق أبي رافع... به، كلاهما عن أبي هريرة... به.

أَجْسَادَهُمْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الفضل» (١).

النوع الثاني: من البيانات أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى! فأنزل الله: قل يا محمد: إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين، وأقول: إن التكليف نوعان أحدهما: الأمر بالاحتراز عما لا ينبغي، والثاني: الأمر بتحصيل ما ينبغي، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة، إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى قدم الأمر بإزالة ما ينبغي فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ لأن التقوى هي الاحتراز عما لا ينبغي ثم ذكر عقيبه الأمر بتحصيل ما ينبغي فقال: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا يشتمل على قيدين أحدهما: الأمر بعبادة الله، الثاني: كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلي وشوائب الشرك الخفي، وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير، وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لا شبهة في أن المراد إني أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها، وفي هذه الآية فائدتان:

الفائدة الأولى: كأنه يقول: إني لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعًا فيه وأكثرهم مداومة عليه.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام، فإن النبي ﷺ فسر الإسلام في خبر جبريل عليه السلام (٢) بالأعمال الظاهرة، وهو المراد بقوله في هذه الآية: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وليس لقائل أن يقول ما الفائدة في تكرير لفظ (أمرت) لأنا نقول: ذكر لفظ (أمرت) أولاً في عمل القلب وثانيًا في عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريرًا.

الفائدة الثالثة: في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ التنبيه على كونه رسولاً من عند الله

---

(١) **إسناده ضعيف**: لأسد بن موسى في (الزهد) (١/ ٨٠)، حديث رقم (٧٠) من طريق ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشي عن أنس... به، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٤١٨) من طريق إبراهيم بن محمد الضحاك حدثنا نصر بن مرزوق حدثنا أسيد بن موسى حدثنا بكر بن حبيش عن ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشي عن أنس... به، وفي إسناده ضرار بن عمرو الرقاشي ضعيفان.

(٢) هذا إشارة إلى حديث جبريل المشهور حينما سئل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان.

صحيح: أخرجه البخاري في (خلق أفعال العباد) (٥٢)، حديث رقم (١٤٤) من طريق محمد بن سلام... به، وأبو داود في كتاب (السنن)، باب: (في القدر) (٤/ ٢٢٤)، حديث رقم (٤٦٩٨) من طريق عثمان بن أبي شيبة... به، والنسائي في كتاب (الإيمان وشرائعه)، باب: (صفة الإيمان والإسلام) (٤/ ٤٣٦)، حديث رقم (٥٠٠٦) من طريق محمد بن قدامة عن جرير... به، كلاهما (محمد، وعثمان) عن جرير... به.

واجب الطاعة، لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ، ولما بين الله تعالى أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة، وكان الأمر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين أن ذلك الأمر للوجوب فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن الله أمر محمدًا ﷺ أن يجري هذا الكلام على نفسه، والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي، لأنه مع جلالة قدرة وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفًا حذرًا عن المعاصي فغيره بذلك أولى.

الفائدة الثانية: دلت الآية على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب، وهذا يطابق قولنا: إن الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة، فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لا نفس حصول العقاب.

الفائدة الثالثة: دلت هذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب، وذلك لأنه قال في أول الآية: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ ثم قال بعده: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذي تقدم ذكره، وذلك يقتضي أن يكون تارك الأمر عاصيًا، والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب، ولا معنى للوجوب إلا ذلك.

النوع الثالث: من الأشياء التي أمر الله رسوله أن يذكرها قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ فإن قيل ما معنى التكرير في قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾؟ قلنا هذا ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة، والثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحدًا غيره، وذلك لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ لا يفيد الحصر وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر يعني: الله أعبد ولا أعبد أحدًا سواه، والدليل عليه أنه لما قال بعد: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ قال بعده: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ ولا شبهة في أن قوله: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ ليس أمرًا بل المراد منه الزجر، كأنه يقول: لما بلغ البيان في وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ لوقوعها في هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه، وخسروا أهليهم أيضًا لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة، فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا رجوع بعده ألبتة، وقال ابن عباس: إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخدمًا في الجنة، فإن أطاع أعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين، والخاسر المغبون، ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ كان التكرير لأجل التأكيد، الثاني: أنه تعالى ذكر في أول هذه الكلمة حرف (ألا) وهو للتنبيه، وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم

كأنه قيل: إنه بلغ في العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها فتنبهوا لها، الثالث: أن كلمة (هو): في قوله: ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فإنه يصير في مقابلته كل خسران، الرابع: وصفه بكونه (مُبِينًا): يدل على التهويل، وأقول: قد بينا أن لفظ الآية يدل على كونه خسرانًا مبينًا فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسرانًا مبينًا، وأقول: نفتقر إلى بيان أمرين إلى أن يكون خسرانًا ثم كونه مبينًا أما الأول: فتقريره أنه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل، وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال، أما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة في الآخرة.

وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هي رأس المال والنظر، والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية، فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر في رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح، وأيضًا حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال، واستعمال تلك القوة في تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر في رأس المال، وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح، إذا ثبت هذا فنقول: إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير ألبتة كان محرومًا عن الربح بالكلية، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسرانًا، فهذا بيان كونه خسرانًا، وأما الثاني: وهو بيان كون ذلك الخسران مبينًا فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار، فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضًا مزيد ضرر، أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التي هي رأس مالهم في استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات، واستعملوا قواهم وقدرهم في أفعال الشر والباطل والفساد، فهم قد جمعوا بين أمور في غاية الرداءة أولها: أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلبًا في تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة، وثانيها: أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة، وثالثها: أن تلك المتاعب الشديدة التي كانت موجودة في الدنيا في نصرة تلك الضلالات تصير أسبابًا للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت، وعند الوقوف على هذه المعاني يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم، ولا حرمان أعظم من حرمانهم، ونعوذ بالله منه.

ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم، بين أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيره في الأحوال النفسانية إحاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان، فإن قيل: الظلل ما على الإنسان فكيف سمى ما تحته بالظلل؟ والجواب من وجوه الأول: أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، الثاني: أن

الذي يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات، والثالث: أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة، قال الحسن: هم بين طبقتين من النار لا يدرون ما فوقهم أكثر مما تحتهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أي ذلك الذي تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ خبر، وفي قوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ قولان الأول: التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذي يخوف الله به عباده أي المؤمنين، لأنا بينا أن لفظ العباد في القرآن مختص بأهل الإيمان، وإنما كان تخويفًا للمؤمنين لأجل أنهم إذا سمعوا أن حال الكفار ما تقدم خافوا فأخلصوا في التوحيد والطاعة، الوجه الثاني: أن هذا الكلام في تقدير جواب عن سؤال، لأنه يقال إنه تعالى غني عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الإيذاء، فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين إلى هذا الحد العظيم، وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال، فإذا كان التكليف لا يتم إلا بالتخويف والتخويف لا يكمل الانتفاع به إلا بإدخال ذلك الشيء في الوجود وجب إدخال ذلك النوع من العذاب في الوجود تحصيلاً لذلك المطلوب الذي هو التكليف، والوجه الأول عندي أقرب، والدليل عليه أنه قال بعده: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ الأظهر منه أن المراد منه المؤمنون فكأنه قيل: المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فيا أيها المؤمنون بالغوا في الخوف والحذر والتقوى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأصنام والأوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد أبدًا فيحصل كمال الترغيب والترهيب.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلبًا بتقديم اللام على العين، وفي هذا اللفظ أنواع من المبالغة أحدها:

التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشيء الطغيان، وثانيها: أن البناء بناء المبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط، وثالثها: ما ذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن المراد من الطاغوت هاهنا الشيطان أم الأوثان، فقيل إنه الشيطان فإن قيل: إنهم ما عبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم، قلنا: الداعي إلى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان، وقيل: المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لأنه لا فعل لها، والطغاة هم الذين يعبدونها إلا أنه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها، وصفت بهذه الصفة إطلاقًا لاسم المسبب على السبب بحسب الظاهر، وقيل: كل ما يعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت، ويقال في التواريخ إن الأصل في عبادة الأصنام، أن القوم كانوا مشبهة اعتقدوا في الإله أنه نور عظيم، وفي الملائكة أنها أنوار مختلفة في الصغر والكبر، فوضعوا تماثيل وصورًا على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد أنهم يعبدون الله والملائكة، وأقول: حاصل الكلام في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي أعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله. قوله تعالى: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي رجعوا بالكلية إلى الله، ورأيت في السفر الخامس من التوراة، أن الله تعالى قال لموسى: يَا مُوسَى أَجِبْ إِلَهَكَ بِكُلِّ قَلْبِكِ[1]. وأقول: ما دام يبقى في القلب التفات إلى غير الله فهو ما أجاب إلهه بكل قلبه، وإنما تحصل الإجابة بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ما سوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع أنه بالحس يشاهد الأسباب المفضية إلى المسببات في هذا العالم، قلنا ليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقضي عليها بالعدم فإن ذلك دخول في السفسطة وهو باطل، بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد، وأن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكنًا لذاته فإنه لا يوجد إلا بتكوين الواجب وإيجاده، ثم إنه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهي عالم السموات والروحانيات، ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الأسفل، فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله، وأنه لا مدبر إلا هو ولا مؤثر غيره، وحينئذٍ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الأول والموجد الأول، فإنه إن كان قد وضع الأسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأدى إلى هذا المطلوب، فهذا الشيء يحصل وإن كان قد وضع بحيث لا يفضي إلى حصول هذا الشيء لم يحصل، وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى في قلبه التفات إلى شيء إلا إلى الموجود الأول، وقد اتفق أني كنت أنصح بعض الصبيان في حفظ العرض والمال فعارضني وقال: لا يجوز الاعتماد

---

(١) لم أجده.

على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره، فقلت: هذه كلمة حق سمعتها ولكنك ما عرفت معناها، وذلك لأنه لا شبهة أن الكل من الله تعالى إلا أنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين منها ما جعل حدوثه وحصوله معلقًا بأسباب معلومة ومنها ما يحدثه من غير واسطة هذه الأسباب.

أما القسم الأول: فهو حوادث هذا العالم الأسفل.

وأما القسم الثاني: فهو حوادث هذا العالم الأعلى، وإذا ثبت هذا فنقول: من طلب حوادث هذا العالم الأسفل لا من الأسباب التي عينها الله تعالى كان هذا الشخص منازعًا لله في حكمته مخالفًا في تدبيره، فإن الله تعالى حكم بحدوث هذه الأشياء بناءً على تلك الأسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب، فهذا هو الكلام في تحقيق الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ إشارة إلى الإعراض عن غير الله وقوله تعالى: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الإقبال بالكلية على عبادة الله، ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء أحدها: قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ واعلم أن هذه الكلمة تتعلق بجهات أحدها: أن هذه البشارة متى تحصل؟ فنقول: إنها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع في القبر وعند الوقوف في عرصة القيامة وعندما يصير فريق في الجنة وفريق في السعير وعندما يدخل المؤمنون الجنة، ففي كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان، وثانيها: أن هذه البشارة فبماذا تحصل؟ فنقول: إن هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات، أما زوال المكروهات فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] والخوف إنما يكون من المستقبل والحزن إنما يكون بسبب الأحوال الماضية فقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ يعني لا تخافوا فيما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من خيرات الدنيا، ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال أيضًا في آية أخرى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢] وقال أيضًا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١] والثالث: أن المبشر من هو؟ فنقول: يحتمل أن يكون هم الملائكة، إما عند الموت فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ [النحل: ٣٢] وإما بعد دخول الجنة فقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ويحتمل أن يكون هو الله سبحانه كما قال: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

واعلم أن قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ فيه أنواع من التأكيدات أحدها: أنه يفيد الحصر فقوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي لهم لا لغيرهم، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل بالكلية على الله تعالى، وثانيها: أن الألف واللام في لفظ (البشرى) مفيد للماهية فيفيد أن

هذه الماهية بتمامها لهؤلاء، ولم يبق منها نصيب لغيرهم، وثالثها: أن لا فرق بين الإخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات، إذا عرفت هذا فنقول كل ما سمعوه في الدنيا من أنواع الثواب والخير إذا سمعوه عند الموت أو في القبر فذاك لا يكون إلا إخبارًا، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوها في الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]ورابعها: أن المخبر بقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر في حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الاجتناب عما سوى الله تعالى والإقبال بالكلية على الله والسلطان العظيم إذا ذكر شرطًا عظيمًا ثم قال لمن أتى بذلك الشرط العظيم: أبشر، فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على أن الذي وقعت البشارة به قد بلغ في الكمال والرفعة إلى حيث لا يصل إلى شرحها العقول والأفكار، فثبت أن قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى:لما قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجري مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وأراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى، والإقبال بالكلية على طاعة الله، والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا، هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيهًا على هذا الحرف، ومنهم من قال: إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأولون، وقصر السعادة عليهم يقتضي الحرمان للأكثرين، وذلك لا يليق بالرحمة التامة، لا جرم جعل الحكم أعم فقال: كل من اختار الأحسن في كل باب كان في زمرة السعداء.

واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد:

الفائدة الأولى:وجوب النظر والاستدلال، وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة، فإنه يختار منها ما هو الأحسن الأصوب، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع، لأن السماع صار قدرًا مشتركًا بين الكل، لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ يدل على أن السماع قدر مشترك فيه، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الأمر على النظر والاستدلال.

الفائدة الثانية:أن الطريق إلى تصحيح المذاهب والأديان قسمان: أحدهما: إقامة الحجة

والبينة على صحته على سبيل التحصيل، وذلك أمر لا يمكن تحصيله إلا بالخوض في كل واحد من المسائل على التفصيل، والثاني: أنا قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب وأضدادها على عقولنا، فكل ما حكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كان أولى بالقبول، مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن إله العالم حي عالم قادر حليم حكيم رحيم، أولى من إنكار ذلك، فكان ذلك المذهب أولى، والإقرار بأن الله تعالى لا يجري في ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجري في سلطان الله على خلاف إرادته، وأيضًا الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى من القول بكونه متبعضًا مؤلفًا، وأيضًا القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه إليهما، وأيضًا القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه ألبتة، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن في أبواب الاعتقادات.

وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين: منها ما يكون من أبواب العبادات، ومنها ما يكون من أبواب المعاملات، فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التي يذكر في تحريمها الله أكبر وتكون النية فيها مقارنة للتكبير، ويقرأ فيها سورة الفاتحة، ويؤتى فيها بالطمأنينة في المواقف الخمسة، ويقرأ فيها التشهد، ويخرج منها بقوله السلام عليكم، فلا شك أنها أحسن من الصلاة التي لا يراعى فيها شيء من هذه الأحوال، وتوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة، وأن يترك ما سواها، وكذلك القول في جميع أبواب العبادات. وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية والعفو، ولكنه ندب إلى العفو فقال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وعن ابن عباس أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه.

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ وفي ذلك دقيقة عجيبة، وهي أن حصول الهداية في العقل والروح أمر حادث، ولا بد له من فاعل وقابل: أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأما القابل فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فإن الإنسان ما لم يكن عاقلاً كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية في قلبه. وإنما قلنا إن الفاعل لهذه الهداية هو الله، وذلك لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل، وإذا كان الشيء قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما على السوية، ومتى كان الأمر كذلك امتنع كون ذلك القابل سببًا لرجحان أحد الطرفين، ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية، امتنع أن تصير ذات الجسم سببًا لرجحان أحد الطرفين على الآخر، فإن قالوا: لا نقول إن ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان، بل نقول: إنه يريد

تحصيل أحد الطرفين، فتصير تلك الإرادة سببًا لذلك الرجحان، فنقول: هذا باطل، لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه الإرادة، فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة، فيمتنع كون جوهر النفس سببًا لتلك الإرادة، فثبت أن حصول الهداية لا بد لها من فاعل ومن قابل أما الفاعل: فيمتنع أن يكون هو النفس، بل الفاعل هو الله تعالى، وأما القابل: فهو جوهر النفس، فلهذا السبب قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ثم قال: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في لفظ الآية سؤال وهو أنه يقال إنه قال: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ولا يصح في الكلام العربي أن يدخل حرف الاستفهام على الاسم وعلى الخبر معًا، فلا يقال: أزيد أتقتله، بل ههنا شيء آخر، وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء، فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معًا وهو قوله: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ﴾، ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ ولأجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوهًا الأول: قال الكسائي: الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب، أفأنت تحميه، أفأنت تنقذ من في النار، الثاني: قال صاحب (الكشاف): أصل الكلام: أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه، وهي جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير: أأنت مالك أمرهم، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير، والآية على هذا جملة واحدة، الثالث: لا يبعد أن يقال إن حرف الاستفهام إنما ورد ههنا لإفادة معنى الإنكار، ولما كان استنكاره هذا المعنى كاملاً تامًا، لا جرم ذكر هذا الحرف في الشرط وأعاده في الجزاء تنبيهًا على المبالغة التامة في ذلك الإنكار.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ فإذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الإيمان والطاعة، وإلا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذبًا، وانقلاب علمه جهلاً وهو محال، والوجه الثاني: في الاستدلال بالآية أنه تعالى حكم بأن حقية كلمة العذاب توجب الاستنكار التام من صدور الإيمان والطاعة عنه، ولو كان ذلك ممكنًا ولم تكن حقيقة كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى.

المسألة الثالثة: احتج القاضي بهذه الآية على أن النبي ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر، قال: لأنه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والاستبعاد، فيقال له: لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾

[النساء: ٤٨] ومع قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، والله أعلم.

النوع الثاني: من الأشياء التي وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ وهذا كالمقابل لما ذكر في وصف الكفار ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ﴾ [الزمر: ١٦] فإن قيل: ما معنى قوله ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾؟ قلنا: لأن المنزل إذا بني على منزل آخر تحته كان الفوقاني أضعف بناء من التحتاني فقوله: ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ معناه أنه وإن كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل، والحاصل أن المنزل الفوقاني والتحتاني حصل في كل واحد منهما فضيلة ومنقصة، أما الفوقاني ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة، وأما التحتاني فبالضد منه، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهي عالية مرتفعة وتكون في غاية القوة والشدة، وقال حكماء الإسلام: هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض، مثاله من الأحوال النفسانية العلوم الكسبية فإن بعضها يكون مبنيًّا على البعض والنتائج الآخرة التي هي عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون في غاية القوة بل تكون في القوة والشدة كالعلوم الأصلية البديهية.

ثم قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ وذلك معلوم، ثم ختم الكلام فقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ في معنى وعدهم الله ذلك وفي الآية دقيقة شريفة، وهي أنه تعالى في كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وأنه لا يخلف وعده ولم يذكر في آيات الوعيد ألبتة مثل هذا التأكيد والتقوية، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف ما يقوله المعتزلة، فإن قالوا: أليس أنه قال في جانب الوعيد ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]؟ قلنا: قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] ليس تصريحًا بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعني الوعد والوعيد، فثبت أن الترجيح الذي ذكرناه حق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان في الأرض فهو من السماء، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع في الأرض، أي فيدخله وينظمه ينابيع في الأرض عيونًا، ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام، يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، أو مختلفًا أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج، وذلك لأنه إذا تم جفافه جاز له أن

ينفصل عن منابته، وإن لم تتفرق أجزاؤه، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطامًا يابسًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ يعني أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء، ثم تكون عاقبته الموت. فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات تذكره حصول مثل هذه الأحوال في نفسه وفي حياته، فحينئذ تعظم نفرته في الدنيا وطيباتها. والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة، وذكر في هذه الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا، فشرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة الله، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا، لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض، فهذا تمام الكلام في تفسير الآية، بقي ههنا ما يتعلق بالبحث عن الألفاظ، قال الواحدي: والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائي والفراء، وقوله ﴿يَنَابِيعَ﴾ نصب بحذف الخافض لأن التقدير فسلكه في ينابيع ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ [الحديد: ٢٠]أي يخضر، والحطام ما يجف ويتفتت ويكسر من النبت.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا بين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

واعلم أنا بالغنا في سورة الأنعام في تفسير قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ

﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] في تفسير شرح الصدر وفي تفسير الهداية، ولا بأس بإعادة كلام قليل هاهنا، فنقول: إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة في الاتصال بالروحانيات، وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة إلى الجسمانيات، وفي هذا التفاوت أمر حاصل في جواهر النفوس البشرية، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك، إذا عرفت هذا فنقول: المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود في فطرة النفس، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلاً كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب، مثل الكبريت الذي يشتعل بأدنى نار، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية، بل كانت مستغرقة في طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للإلهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل. إذا عرفت هذه القاعدة فنقول: أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة، وما لم يحصل شرح الصدر أولا لم يحصل النور ثانيًا، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع ألبتة بسماع الدلائل، وربما صار سماع الدلائل سببًا لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الإنسان حتى يمكنه الوقوف على معاني هذه الآيات، أما استدلال أصحابنا في مسألة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هناك، والله أعلم.

المسألة الثانية: من محذوف الخبر كما في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩] والتقدير: أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته، والجواب متروك لأن الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤال، وهو أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فكيف جعله في هذه الآية سببًا لحصول قسوة القلب، والجواب أن نقول إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة، فإن سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح، وقد نرى إنسانًا واحدًا يذكر كلامًا واحدًا في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال كل واحد منهم: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤] فقال رسول الله ﷺ: «اكتب فهكذا

أُنزِلَتْ» فازداد عمر إيمانًا على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفرًا على كفر، إذا عرفت هذا لم يبعد أيضًا أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية، إذا عرفت هذا فنقول: إن رأس الأدوية التي تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سببًا لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضًا لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت في نهاية الشر والرداءة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا كلام كامل محقق، ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفًا بهذه الصفات، ثم إنه في حق ذلك الإنسان صار سببًا لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ في الرداءة والخساسة إلى أقصى الغايات، فنقول: إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال.

الصفة الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه: الأول: أنه تعالى وصفه بكونه حديثًا في هذه الآيات وفي آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] والحديث لا بد وأن يكون حادثًا، قالوا: بل الحديث أقوى في الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق، وهذا عتيق وليس بحادث، فثبت أن الحديث هو الذي يكون قريب العهد بالحديث، وسمي الحديث حديثًا لأنه مؤلف من الحروف والكلمات، وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة، فهذا تمام تقرير هذا الوجه.

أما الوجه الثاني: في بيان استدلال القوم أن قالوا: إنه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون في محل تصرف الغير، وما يكون كذلك فهو محدث وحادث.

وأما الوجه الثالث: في بيان استدلال القوم أن قالوا: إن قوله أحسن الحديث يقتضي أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضي أن يكون زيد مشاركًا لأولئك الأقوام في صفة الأخوة ويكون من جنسهم، فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث، ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضًا أن يكون القرآن حادثًا.

أما الوجه الرابع: في الاستدلال أن قالوا: إنه تعالى وصفه بكونه كتابًا والكتاب مشتق من الكتبة وهي الاجتماع، وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف، وذلك يدل على كونه محدثًا، والجواب: أن نقول: نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات، وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق، والله أعلم.

المسألة الثانية: كون القرآن أحسن الحديث، إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه.

القسم الأول: أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين: الأول: أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة، الثاني: أن يكون بحسب النظم في الأسلوب، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر، ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل هو نوع يخالف الكل، مع أن كل ذي طبع سليم يستطيبه ويستلذه.

القسم الثاني: أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى، وفيه وجوه: الأول: أنه كتاب منزه عن التناقض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات، الوجه الثاني: اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل، الوجه الثالث: أن العلوم الموجودة فيه كثيرة جدًا.

وضبط هذه العلوم أن نقول: العلوم النافعة هي ما ذكره الله في كتابه في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥] فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة.

أما القسم الأول: وهو الإيمان بالله، فاعلم أنه يشتمل على خمسة أقسام: معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء؛ أما معرفة الذات فهي أن يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه، وأما معرفة الصفات فهي نوعان:

أحدهما: ما يجب تنزيهه عنه، وهو كونه جوهرًا ومركبًا من الأعضاء والأجزاء وكونه مختصًا بحيز وجهة، ويجب أن يعلم أن الألفاظ الدالة على التنزيه أربعة: ليس ولم وما ولا، وهذه الأربعة المذكورة، مذكورة في كتاب الله تعالى لبيان التنزيه.

أما كلمة ليس، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١] وأما كلمة لم، فقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ٣، ٤] وأما كلمة ما، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم: ٦٤]، ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾[مريم: ٣٥] وأما كلمة لا، فقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[الأنعام: ١٤]، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[المؤمنون: ٨٨]، وقوله في سبعة وثلاثين موضعًا من القرآن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[الصافات: ٣٥].

وأما النوع الثاني: وهي الصفات التي يجب كونه موصوفًا بها من القرآن فأولها العلم بالله، والعلم بكونه محدثًا خالقًا، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ١] وثانيها: العلم بكونه قادرًا، قال تعالى في أول سورة القيامة: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة: ٤] وقال في آخر هذه السورة: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[القيامة: ٤٠] وثالثها: العلم بكونه تعالى عالمًا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[الحشر: ٢٢] ورابعها: العلم بكونه عالمًا بكل المعلومات، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا

هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ [الرعد: ٨] وخامسها: العلم بكونه حيًّا، قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥] وسادسها: العلم بكونه مريدًا، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وسابعها: كونه سميعًا بصيرًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وثامنها: كونه متكلما، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وتاسعها: كونه آمرًا، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] وعاشرها: كونه رحمانًا رحيمًا مالكًا، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣، ٤] فهذا ما يتعلق بمعرفة الصفات التي يجب اتصافه بها.

وأما القسم الثالث: وهو الأفعال، فاعلم أن الأفعال إما أرواح وإما أجسام. أما الأرواح فلا سبيل للوقوف عليها إلا للقليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وأما الأجسام، فهي إما العالم الأعلى وإما العالم الأسفل؛ أما العالم الأعلى فالبحث فيه من وجوه أحدها: البحث عن أحوال السموات، وثانيها: البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وثالثها: البحث عن أحوال الأضواء، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] ورابعها: البحث عن أحوال الظلال، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥] وخامسها: اختلاف الليل والنهار، قال الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] وسادسها: منافع الكواكب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] وسابعها: صفات الجنة، قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] وثامنها: صفات النار، قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] وتاسعها: صفة العرش، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧] وعاشرها: صفة الكرسي، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وحادي عشرها: صفة اللوح والقلم؛ أما اللوح، فقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وأما القلم، فقوله تعالى: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

وأما شرح أحوال العالم الأسفل فأولها: الأرض، وقد وصفها بصفات كثيرة إحداها: كونه مهدًا، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] وثانيها: كونه مهادًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦] وثالثها: كونه كفاتًا، قال تعالى: ﴿كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] ورابعها: الذلول، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥] وخامسها: كونه

بساطًا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠] والكلام فيه طويل، وثانيها: البحر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]، وثالثها: الهواء والرياح؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ورابعها: الآثار العلوية كالرعد والبرق، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣] ومن هذا الباب ذكر الصواعق والأمطار وتراكم السحاب، وخامسها: أحوال الأشجار والثمار وأنواعها وأصنافها، وسادسها: أحوال الحيوانات، قال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾ [النحل: ٥]، وسابعها: عجائب تكوين الإنسان في أول الخلقة، قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وثامنها: العجائب في سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه، وتاسعها: تواريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى آخر قيام القيامة، وعاشرها ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت، وكيفية البعث والقيامة، وشرح أحوال السعداء والأشقياء، فقد أشرنا إلى عشرة أنواع من العلوم في عالم السموات، وإلى عشرة أخرى في عالم العناصر، والقرآن مشتمل على شرح هذه الأنواع من العلوم العالية الرفيعة.

وأما القسم الرابع: وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه، فنقول: هذه التكاليف إما أن تحصل في أعمال القلوب أو في أعمال الجوارح.

أما القسم الأول: فهو المسمى بعلم الأخلاق وبيان تمييز الأخلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل ما لا بد منه في هذا الباب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأما الثاني: فهو التكاليف الحاصلة في أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه، والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه.

وأما القسم الخامس: وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فهذا كله يتعلق بمعرفة الله.

وأما القسم الثاني: من الأصول المعتبرة في الإيمان الإقرار بالملائكة كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال وأخرى على طريق التفصيل، أما بالإجمال فقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ وأما بالتفصيل فمنها ما يدل على كونهم رسل الله قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] ومنها أنها مدبرات لهذا العالم، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤] ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١] ومنها حملة العرش قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] ومنها

الحافون حول العرش قال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] ومنها خزنة النار، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦] ومنها الكرام الكاتبون قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] ومنها المعقبات قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [الرعد: ١١] وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين.

وأما القسم الثالث: من الأصول المعتبرة في الإيمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] ومنها أحوال صحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] ومنها أحوال التوراة والإنجيل والزبور.

وأما القسم الرابع: من الأصول المعتبرة في الإيمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

القسم الخامس: ما يتعلق بأحوال المكلفين وهي على نوعين الأول: أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، الثاني: أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم في تلك الأعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير في مواقف العبودية بحسب المكاشفات في مطالعة عزة الربوبية أكثر، كانت المكاشفات في تقصير العبودية أكثر وكان قوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] أكثر.

القسم السادس: معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وهذا هو الإشارة إلى معرفة المطالب المهمة في طلب الدين، والقرآن بحر لا نهاية له في تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى في مشارق الأرض ومغاربها كتابًا يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها. ومن تأمل في هذا التفسير علم أنا لم نذكر من بحار فضائل القرآن إلا قطرة، ولما كان الأمر على هذه الجملة، لا جرم مدح الله عز وجل القرآن فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، والله أعلم.

الصفة الثانية: من صفات القرآن قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أما الكتاب فقد فسرناه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] وأما كونه متشابهًا فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] يدل على كون البعض متشابهًا دون البعض. وأما كونه كله متشابهًا كما في هذه الآية، فقال ابن عباس: معناه أنه يشبه بعضه بعضًا، وأقول: هذا التشابه يحصل في أمور أحدها: أن الكاتب البليغ إذا كتب كتابًا طويلاً، فإنه يكون بعض كلماته فصيحًا، ويكون البعض غير فصيح، والقرآن يخالف ذلك فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه، وثانيها: أن الفصيح

إذا كتب كتابًا في واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتابًا آخر في غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في الكتاب الأول، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة في الفصاحة، وثالثها: أن كل ما فيه من الآيات والبيانات فإنه يقوي بعضها بعضًا ويؤكد بعضها بعضًا، ورابعها: أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التي عددناها متشابهة متشاركة في أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى الدين وتقرير عظمة الله، ولذلك فإنك لا ترى قصة من القصص إلا ويكون محصلها المقصود الذي ذكرناه، فهذا هو المراد من كونه متشابهًا، والله الهادي.

الصفة الثالثة: من صفات القرآن كونه مثاني وقد بالغنا في تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧] وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل: الأمر والنهي، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، وأحوال السموات والأرض، والجنة والنار، والظلمة والضوء، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسي، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج ويدل على أن كل شيء مبتلى بضده ونقيضه وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه.

الصفة الرابعة: من صفات القرآن قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى (تقشعر جلودهم) تأخذهم قشعريرة وهي تغير يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف، قال المفسرون: والمعنى أنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم إلى ذكر الله، وأقول: إن المحققين من العارفين قالوا: السائرون في مبدأ إجلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا، ويجب علينا أن نذكر في هذا الباب مزيد شرح وتقرير، فنقول: الإنسان إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة، فهنا يقشعر جلده، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم، مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود، أما إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون فردًا أحدًا، وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله، وأيضًا إذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الأزل فيتقدم في ذهنه بمقدار ألف ألف سنة ثم يتقدم أيضًا بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف ألف سنة، ولا يزال يحتال ويتقدم ويتخيل في الذهن، فإذا بالغ وتوغل وظن أنه استحضر معنى الأزل قال العقل هذا ليس بشيء، لأن كل ما استحضرته في فهو متناه والأزل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية، فههنا يتحير العقل ويقشعر الجلد، وأما إذا ترك هذا الاعتبار وقال ههنا موجود والموجود إما واجب وإما ممكن، فإن كان واجبًا فهو دائمًا منزه عن الأول

والآخر وإن كان ممكنًا فهو محتاج إلى الواجب فيكون أزليًا أبديًا، فإذا اعتبر العقل فهم معنى الأزلية فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله، فثبت أن المقامين المذكورين في الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة، بل ذاك أول تلك المراتب وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول تلك الحالتين المذكورتين.

المسألة الثانية: روى الواحدي في (البسيط) عن قتادة أنه قال: القرآن دل على أن أولياء الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات، تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، وليس فيه أن عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب، فدل هذا على أن تلك الأحوال لو حصلت لكانت من الشيطان، وأقول ههنا بحث آخر وهو أن الشيخ أبا حامد الغزالي أورد مسألة في كتاب إحياء علوم الدين، وهي أنا نرى كثيرًا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل والهجر، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة، وأنا أقول: إني خلقت محرومًا عن هذا المعنى، فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي وقف على شعري وحصلت في قلبي دهشة وروعة، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل علي وما وجدت ألبتة في نفسي منها أثرًا، وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا، وبيانه من وجوه الأول: أن تلك الأشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق، وإثباته في حق الله تعالى كفر، وأما الانتقال من تلك الأحوال إلى معان لائقة بجلال الله فلا يصل إليها إلا العلماء الراسخون في العلم، وأما المعاني التي يشتمل عليها القرآن فهي أحوال لائقة بجلال الله، فمن وقف عليها عظم الوله في قلبه، فإن من كان عنده نور الإيمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] إلى آخر الآية، والثاني: وهو أني سمعت بعض المشايخ قال: كما أن الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر، لأن قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام في الروح، والقائل في القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم، والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور، والثالث: أن مدار القرآن على الدعوة إلى الحق قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] أما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦] فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة، وأما ما يتعلق بالوجدان من النفس فإن كل أحد إنما يخبر عما يجده من نفسه والذي وجدته من النفس والعقل ما ذكرته، والله أعلم.

المسألة الثالثة: في بيان ما بقي من المشكلات في هذه الآية ونذكرها في معرض السؤال والجواب.

السؤال الأول: كيف تركيب لفظ القشعريرة؟ الجواب: قال صاحب (الكشاف): تركيبه من حروف التقشع وهو الأديم اليابس مضمومًا إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيًا ودالاً على معنى زائد يقال: اقشعر جلده من الخوف وقف شعره، وذلك مثل في شدة الخوف.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وما الوجه في تعديه بحرف إلى؟ والجواب: التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله وهو لا يحس بالإدراك.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: إلى ذكر رحمة الله؟ والجواب: أن من أحب الله لأجل رحمته فهو ما أحب الله، وإنما أحب شيئًا غيره، وأما من أحب الله لا لشيء سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية، فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمة الله بل قال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وقد بين الله تعالى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وفي قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وأيضًا قال لأمة موسى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال أيضًا لأمة محمد ﷺ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

السؤال الرابع: لم قال في جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط، وفي جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معًا؟ والجواب: لأن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف، لأن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح، والله أعلم.

ثم إنه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب وهو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده وهو الذي شرح صدره أولاً لقبول هذه الهداية ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي من جعل قلبه قاسيًا مظلمًا بليد الفهم منافيًا لقبول هذه الهداية ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أما قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وبحكم في الآخرة، أما حكمهم في الدنيا فهو الضلال التام كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] وأما حكمهم في الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وتقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة، وهو أيضًا صومعة الحواس، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه، وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر إلا في الوجه قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢] ويقال لمقدم

القوم: يا وجه العرب، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشيء وجه كذا هو كذا، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه، فإذا وقع الإنسان في نوع من أنواع العذاب فإنه يجعل يده وقاية لوجهه وفداءً له، وإذا عرفت هذا فنقول: إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء، ونظيره قول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ[1]

أي لا عيب فيهم إلا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم إذن بوجه من الوجوه، فكذا ههنا لا يقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه إلا بالوجه وهذا ليس باتقاء، فلا قدرة لهم على الاتقاء ألبتة، ويقال أيضًا: إن الذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ولا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه، إذا عرفت هذا فنقول: جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره، وسوء العذاب شدته.

ثم قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم في الآخرة بين أيضًا كيفية وقوعهم في العذاب في الدنيا فقال: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا تنبيه على حال هؤلاء لأن الفاء في قوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ تدل على أنهم إنما أتاهم العذاب بسبب التكذيب، فإذا كان التكذيب حاصلاً ههنا لزم حصول العذاب استدلالاً بالعلة على المعلول، وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يحسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها، بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التي توقعوا الأمن منها، ولما بين أنه أتاهم العذاب في الدنيا بين أيضًا أنه أتاهم الخزي وهو الذل والصغار والهوان، والفائدة في ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو أن يحصل فيه الألم مقرونًا بالهوان والذل.

ثم قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني أن أولئك وإن نزل عليهم العذاب والخزي كما تقدم ذكره، فالعذاب المدخر لهم في يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذي وقع. والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب، فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة في هذه المطالب، بين تعالى أنه بلغت هذه البيانات إلى حد الكمال والتمام فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمقصود ظاهر، وقالت المعتزلة دلت الآية على أن أفعال الله وأحكامه معللة، ودلت أيضًا على أنه يريد الإيمان والمعرفة من الكل لأن قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ مشعر بالتعليل، وقوله في آخر الآية: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ مشعر بالتعليل أيضًا، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم، ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة في القرآن، لا جرم وصف القرآن بالمدح والثناء،

---

(١) تقدمت ترجمة النابغة.

فقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه الأول: أن قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يدل على أنه تعالى إنما ذكر هذه الأمثال ليحصل لهم التذكر، والشيء الذي يؤتى به لغرض آخر يكون محدثًا، فإن القديم هو الذي يكون موجودًا في الأزل، وهذا يمتنع أن يقال إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا، والثاني: أنه وصفه بكونه عربيًّا وإنما كان عربيًّا لأن هذه الألفاظ إنما صارت دالة على هذه المعاني بوضع العرب وباصطلاحهم، وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقًا محدثًا، الثالث: أنه وصفه بكونه قرآنًا والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلاً ومفعولاً، والجواب: أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والأصوات وهي حادثة ومحدثة.

المسألة الثانية: قال الزجاج قوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال والمعنى: ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه ويجوز أن ينتصب على المدح.

المسألة الثالثة: أنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة أولها: كونه قرآنًا، والمراد كونه متلوًّا في المحاريب إلى قيام القيامة، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وثانيها: كونه عربيًّا والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨]، وثالثها: كونه ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ والمراد براءته عن التناقض، كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] وأما قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فالمعتزلة يتمسكون به في تعليل أحكام الله تعالى.

وفيه بحث آخر: وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه، حصل الاتقاء والاحتراز، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل ما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوسًا وشكسًا إذا عسر، وهو رجل شكس، أي عسر وتشاكس إذا تعاسر، قال الليث: التشاكس التنازع والاختلاف، ويقال الليل والنهار متشاكسان، أي أنهما متضادان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر، وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو (سالمًا) بالألف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون ﴿سَلَمًا﴾ بفتح السين واللام بغير الألف، ويقال أيضًا بفتح السين وكسرها مع سكون العين أما من قرأ (سالمًا) فهو اسم الفاعل تقدير مسلم فهو سالم، وأما سائر القراءات فهي مصادر سلم والمعنى ذا سلامة، وقوله: ﴿لِّرَجُلٍ﴾ أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم: سلمت له الضيعة، وقرئ بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل.

المسألة الثالثة: تقدير الكلام: اضرب لقومك مثلاً وقل لهم ما يقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعي أنه عبده فهم يتجاذبونه في حوائجهم وهو متحير في أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيرًا لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته، فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص، وذلك المخدوم يعينه على مهماته، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأنًا، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢] وقال: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[المؤمنون: ٩١] فيبقى ذلك المشرك متحيرًا ضالاً، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد، وممن يطلب رزقه، وممن يلتمس رفقه، فهمه شفاع، وقلبه أوزاع. أما من لم يثبت إلا إلهًا واحدًا فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه، فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول، وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد، فإن قيل: هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات، فليس بينها منازعة ولا مشاكسة، قلنا: إن عبدة الأصنام مختلفون منهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة، فهم في الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة، ثم إن القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة، ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الأعظم، والمشتري هو السعد الأعظم، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكية، والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية، وحينئذٍ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة، وحينئذٍ يكون المثل مطابقًا، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا، فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الأشخاص

من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله، والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن المحق هو ذلك الرجل الذي هو على دينه، وأن من سواه مبطل، وعلى هذا التقدير أيضًا ينطبق المثال، فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود.

أما قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ فالتقدير هل يستويان صفة، فقوله: ﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالتاهما، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ (مثلين)، ثم قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والمعنى أنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد، وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق، ثبت أن الحمد له لا لغيره، ثم قال بعده: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره، وقيل المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة، قال: الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها، ولما تمم الله هذه البيانات قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضًا سيموتون، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه، وحينئذٍ يتميز المحق من المبطل، والصديق من الزنديق، فهذا هو المقصود من الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم في أعداد الموتى، لأن كل ما هو آت آت، ثم بين تعالى نوعًا آخر من قبائح أفعالهم، وهو أنهم يكذبون ويضمون إليه أنهم يكذبون القائل المحق؛ أما أنهم يكذبون، فهو أنهم أثبتوا لله ولدًا وشركاء، وأما أنهم مصرون على تكذيب الصادقين، فلأنهم يكذبون محمدًا ﷺ بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقًا في ادعاء النبوة، ثم أردفه بالوعيد فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ومن الناس من تمسك بهذه الآية في تكفير المخالف من أهل القبلة، وذلك لأن المخالف في المسائل القطعية كلها يكون كاذبًا في قوله، ويكون مكذبًا للمذهب الذي هو الحق، فوجب دخوله تحت هذا الوعيد.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ تقديره: والذي جاء بالصدق والذي صدق به، وفيه قولان الأول: أن المراد شخص واحد فالذي جاء بالصدق محمد، والذي صدق به هو أبو بكر، وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضي الله عنهم، والثاني: أن المراد منه كل من جاء بالصدق، فالذي جاء بالصدق الأنبياء، والذي صدق به الأتباع، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذي جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

المسألة الثانية: أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة: المرسِل والمرسَل والرسالة والمرسل إليه، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق، فأول شخص أتى بالتصديق هو الذي يتم به الإرسال، وسمعت بعض القاصين من الذي يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**دَعُوا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ مِنْ تَتِمَّةِ النُّبُوَّةِ**».

واعلم أنا سواء قلنا المراد بالذي صدق به شخص معين، أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، فإن أبا بكر داخل فيه.

أما على التقدير الأول: فدخول أبي بكر فيه ظاهر، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما علي، وحمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى، لأن عليًّا عليه السلام كان وقت البعثة صغيرًا، فكان كالولد الصغير الذي يكون في البيت، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة، أما أبو بكر فإنه كان رجلاً كبيرًا في السن كبيرًا في المنصب، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة في الإسلام، فكان حمل هذا اللفظ إلى أبي بكر أولى.

وأما على التقدير الثاني: فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلاً فيه.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): قرئ (وصَدَق) بالتخفيف أي صدق به الناس، ولم يكذبهم يعني أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف، وقيل صار صادقًا به أي بسببه، لأن القرآن معجزة، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح فيصير المدعي للرسالة صادقًا بسبب تلك المعجزة وقرئ ﴿وَصَدَّقَ﴾.

واعلم أنه تعالى أثبت للذي جاء بالصدق وصدق به أحكامًا كثيرة.

فالحكم الأول: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء، والآتي بأحد الضدين يكون تاركًا للضد الثاني، فالآتي

بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركًا للشرك الذي هو أخس الأشياء وأرذلها، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين.

الحكم الثاني: للمصدقين قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب المكلف فيه، فإن قيل لا شك أن الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته، وأهل الجنة لا شك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التي هي للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة، والعلم بالشيء من حيث إنه كمال، وخير يوجب الميل إليه والرغبة فيه، وإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية، وأيضًا فإن لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا في الغصة ووحشة القلب، وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة، وذلك يقتضي أن أحوالهم في الآخرة بخلاف أحوالهم في الدنيا، ومن الناس من تمسك بهذه الآية في أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة، قالوا: إن الذين يعتقدون أنهم يرون الله تعالى لا شك أنهم داخلون تحت قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ لأنهم صدقوا الأنبياء عليهم السلام، ثم إن ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ فإن قالوا: لا نسلم أن أهل الجنة يشاءون ذلك، قلنا: هذا باطل لأن الرؤية أعظم وجوه التجلي وزوال الحجاب، ولا شك أنها حالة مطلوبة لكل أحد نظرًا إلى هذا الاعتبار، بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فإنه يترك طلبه، لا لأجل عدم المقتضى للطلب، بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعًا في نفسه، فثبت أن هذه الشبهة قائمة والنص يقتضي حصول كل ما أرادوه وشاءوه فوجب حصولها.

واعلم أن قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والإخلاص كما في قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]واعلم أن المعتزلة تمسكوا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على أن هذا الأجر مستحق لهم على إحسانهم في العبادة.

الحكم الثالث: قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه، فقيل المراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم فيما أوتوا فإن الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان، ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب، وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوئ، واعلم أن مقاتلاً كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان، كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر، واحتج بهذه الآية فقال: إنها تدل على أن من صدق الأنبياء والرسل فإنه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ولا يجوز حمل هذا الأسوأ على الكفر السابق، لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل

في حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التي يأتي بها بعد الإيمان، فتكون هذه الآية تنصيصًا على أنه تعالى يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر.

الحكم الرابع: أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غني عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات، وهو ليس بخيلاً ولا محتاجًا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات، فلهذا قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثًا وباطلاً، قرأ أكثر القراء ﴿عَبْدَهُۥ﴾ بلفظ الواحد وهو اختيار أبي عبيدة لأنه قال له: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ روي أن قريشًا قالت للنبي ﷺ: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقرأ جماعة: (عباده) بلفظ الجميع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحًا كفاه الغرق، وإبراهيم النار، ويونس بالإنجاء مما وقع له، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ﴾ [غافر: ٥] وكفاهم الله شر من عاداهم.

واعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل الحق فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يعني هذا الفضل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ تهديد للكفار.

واعلم أن أصحابنا يتمسكون في مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون على صحة مذهبهم في هاتين المسألتين بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ

ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام، وبنى هذا التزييف على أصلين:

الأصل الأول: هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ واعلم أن من الناس من قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم.

والأصل الثاني: أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم، وثبت أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية، وكان الاعتماد عليه كافيًا وهو المراد من قوله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وقرئ: (كاشِفاتُ ضُرِّهِ) و(مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ) بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف، فإن قيل كيف قوله: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ و﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ على التأنيث بعد قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؟ قلنا: المقصود التنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة، ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التي لا دفع لها قال بعده على وجه التهديد: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي أنتم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم، فإني عامل أيضًا في تقرير ديني ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أن العذاب والخزي يصيبني أو يصيبكم والمقصود منه التخويف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ
حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ

﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن النبي ﷺ كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ [الكهف: ٦] وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] فلما أطنب الله تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقرونًا بالحق وهو المعجز الذي يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ والمعنى أنك لست مأمورًا بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم، وذلك لتسلية الرسول في إصرارهم على الكفر، ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى، وذلك لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم، وكما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله عز وجل وإيجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى، ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى في القدر، ومن عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب، فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سببًا لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول ﷺ فهذا وجه النظم في الآية، وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى في إثبات أنه الإله العالم ليدل على أنه بالعبادة أحق من هذه الأصنام.

المسألة الثانية: المقصود من الآية أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى وهي النائمة إلى أجل مسمى أي إلى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يعني أنه تعالى يتوفى الأنفس التي يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها إلى البدن وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ يعني أن النفس التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى، وذلك الأجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهي مطابقة للحقيقة، ولكن لا بد فيه من مزيد بيان، فنقول: النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء وهو الحياة، فنقول: إنه في وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوءه عن باطن البدن، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن

الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه أحدها: أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة، وثانيها: أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم، وثالثها: أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت، فثبت أن الموت والنوم يشتركان في كون كل واحد منهما توفيًا للنفس، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة في صفات معينة، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم، وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل أن يعبد إلهًا موصوفًا بهذه القدرة وبهذه الحكمة وأن لا يعبد الأوثان التي هي جمادات لا شعور لها ولا إدراك، واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً، فقالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها، والأول: باطل لأن هذه الجمادات وهي الأصنام لا تملك شيئًا ولا تعقل شيئًا فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها، والثاني: باطل لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئًا ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ ثم بين أنه لا ملك لأحد غير الله بقوله: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ومنهم من تمسك في نفي الشفاعة مطلقًا بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ وهذا ضعيف لأنا نسلم أنه سبحانه ما لم يأذن في الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة، فإن قيل قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] فيه سؤال لأن هذا يدل على أن المتوفى هو الله فقط، وتأكد هذا بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] وبقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وبقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] ثم إن الله تعالى قال في آية أخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وقال في آية ثالثة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وجوابه أن المتوفي في الحقيقة هو الله، إلا أنه تعالى فوض في عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو رئيس وتحته أتباع وخدم فأضيف التوفي في هذه الآية إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية، وفي الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس في هذا العمل وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وأما ذكر الأصنام التي هي الجمادات الخسيسة، فهو رأس الجهالات والحماقات، فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد، قال صاحب (الكشاف): وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورًا حتى يظهر أثر ذلك السرور في بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية، ولما حكى عنهم هذا الأمر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين أحدهما: أنه ذكر الدعاء العظيم، فوصفه أولا بالقدرة التامة وهي قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وثانيًا بالعلم الكامل وهو قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾، وإنما قدم فذكر القدرة على ذكر العلم لأن العلم بكونه تعالى قادرًا متقدم على العلم بكونه عالمًا، ولما ذكر هذا الدعاء قال: ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ يعني أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم الفساد ببديهة العقل، ومع ذلك، القوم قد أصروا عليه، فلا يقدر أحد على إزالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل إلا أنت، عن أبي سلمة قال: سألت عائشة: بِمَ كان يفتتح رسول الله ﷺ صلاته بالليل؟ قالت «كَانَ يَقُولُ اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وإسرافيل فاطر السموات وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر في وعيدهم أشياء أولها: أن هؤلاء الكفار لو ملكوا كل ما في الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد، وثانيها: قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي ظهرت

لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم، وكما أنه ﷺ قال في صفة الثواب في الجنة: «فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خطر عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» فكذلك في العقاب حصل مثله وهو قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيئات التي اكتسبوها أي ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيئات التي اكتسبوها. ثم قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به، فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده، فإن كان مالاً قال: إنما حصل بكسبي، وإن كان صحة قال: إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني، وهذا تناقض عظيم، لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل إلى الله وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله، وأسنده إلى كسب نفسه، وهذا تناقض قبيح، فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة، فقال ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يعني النعمة التي خولها هذا الكافر فتنة، لأن عند حصولها يجب الشكر، وعند فواتها يجب الصبر، ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتي النعمة، كما يقال فتنت الذهب بالنار، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمعنى ما قدمنا أن هذا التخويل إنما كان لأجل الاختبار. وبقي في الآية أبحاث نذكرها في معرض السؤال والجواب.

السؤال الأول: ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ههنا، وعطف مثلها في أول السورة بالواو؟ والجواب: أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا في الضر والبلاء والتجئوا إلى الله تعالى وحده، كان الفعل الأول مناقضًا للفعل الثاني، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون في المناقضة الصريحة في الحال، وأنه ليس بين الأول والثاني فاصل مع أن كل واحد

منهما مناقض للثاني، فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب ههنا. فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم في التناقض في الحال، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء.

السؤال الثاني: ما معنى التخويل؟ الجواب: التخويل هو التفضل، يعني نحن نتفضل عليه وهو يظن أنه إنما وجده بالاستحقاق.

السؤال الثالث: ما المراد من قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾؟ الجواب: يحتمل أن يكون المراد، إنما أوتيته على علم الله بكوني مستحقًا لذلك، ويحتمل أن يكون المراد، إنما أوتيته على علمي بكوني مستحقًا له، ويحتمل أن يكون المراد، إنما أوتيته على علم لأجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضًا فيعالج نفسه، فيقول إنما وجدت الصحة لعلمي بكيفية العلاج، وإنما وجدت المال لعلمي بكيفية الكسب.

السؤال الرابع: النعمة مؤنثة، والضمير في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ عائد على النعمة، فضمير التذكير كيف عاد إلى المؤنث، بل قال بعده: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ فجعل الضمير مؤنثًا فما السبب فيه؟ والجواب: أن التقدير حتى إذا خولناه شيئًا من النعمة، فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر، فلا جرم جاز الأمران.

ثم قال تعالى: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ الضمير في ﴿قَالَهَا﴾ راجع إلى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ لأنها كلمة أو جملة من المقول، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ هم قارون وقومه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ وقومه راضون به فكأنهم قالوها، ويجوز أيضًا أن يكون في الأمم الخالية قائلون مثلها.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذي اكتسبوه من عذاب الله شيئًا بل أصابهم سيئات ما كسبوا، ولما بين في أولئك المتقدمين فإنهم أصابهم سيئات ما كسبوا أي عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي لا يعجزونني في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ يعني: أو لم يعلموا أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء تارة، ويقبض تارة أخرى، وقوله: ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي ويقتر ويضيق، والدليل عليه أنا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه ولا بد من سبب، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله، لأنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق، ونرى الجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة، وليس ذلك أيضًا لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك لأن في الساعة التي ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر، قد ولد فيها أيضًا عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الإنسان، ويولد أيضًا في تلك الساعة عالم من النبات، فلما شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة،

علمنا أنه ليس المؤثر في السعادة والشقاوة هو الطالع، ولما بطلت هذه الأقسام، علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه، وصح بهذا البرهان العقلي القاطع على صحة قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

قال الشاعر:

فَلاَ السَّعْدُ يَقْضِي بِهِ الْمُشْتَرِي وَلاَ النَّحْسُ يَقْضِي عَلَينَا زحل
ولكنه حكم رب السما ء وقاضي القضاة تعالى وجل

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد، أردفه بشرح كمال رحمته وفضله وإحسانه في حق العبيد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر، فقالوا: إنّا بيَّنّا في هذا الكتاب أن عرف القرآن جارٍ بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين(١) قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ولأن لفظ العباد مذكور في معرض التعظيم، فوجب أن لا يقع إلا على المؤمنين، إذا ثبت هذا ظهر أن قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ مختص بالمؤمنين، ولأن المؤمن هو الذي يعترف بكونه عبد الله، أما المشركون فإنهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح(٢)، فثبت أن قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ لا يليق إلا بالمؤمنين. إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا عام في حق جميع المسرفين، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ وهذا يقتضي كونه غافرًا لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين، وذلك هو المقصود. فإن قيل: هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها، وإلا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعًا، وأنتم لا تقولون به، فما هو مدلول هذه الآية لا تقولون به، والذي

---

(١) الصواب أن يقال: بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين إذا أضيف إلى الله تعالى، كما في الآية والآيتين اللتين استشهد بهما وإلا فإن هذا يعارضه قول الله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] فالذين يستهزئون برسل الله ليسوا بمؤمنين، والذين يتحسر عليهم لم يُذكروا في معرض التعظيم وإنما ذُكروا في معرض الذم والإهانة كما هو صريح الآية، ولو صح ذلك لم يحتج إلى نعت العباد ووصفهم بصفات تقتضي المدح أو القدح، فلفظ العباد يشمل المؤمن والكافر ولذا خصصه بالصفة.

(٢) وهذا أيضًا هو الغالب، وإلا فقد سموا عبد الله كثيرًا قبل الإسلام وبعده؛ لأن الكافرين لا ينكرون وجود الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥].

تقولون به لا تدل عليه هذه الآية، فسقط الاستدلال، وأيضًا إنه تعالى قال عقيب هذه الآية: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعًا، لَمَا أمر عقيبه بالتوبة، ولَمَا خوَّفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون، وأيضًا قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ولو كانت الذنوب كلها مغفورة، فأي حاجة به إلى أن يقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؟ وأيضًا فلو كان المراد ما يدل عليه ظاهر لفظ الآية، لكان ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاقًا في الإقدام عليها، وذلك لا يليق بحكمة الله، وإذا ثبت هذا وجب أن يُحمل على أن يقال: المراد منه التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من العذاب ألبتة، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله، إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة، فمعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي بالتوبة والإنابة.

والجواب: قوله: الآية تقتضي كون كل الذنوب مغفورة قطعًا وأنتم لا تقولون به. قلنا: بل نحن نقول به ونذهب إليه، وذلك لأن صيغة (يغفر) صيغة المضارع، وهي للاستقبال، وعندنا أن الله تعالى يُخرج من النار من قال: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعًا، إما قبل الدخول في نار جهنم، وإما بعد الدخول فيها، فثبت أن ما يدل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا.

أما قوله: لو صارت الذنوب بأسرها مغفورة لما أمر بالتوبة، فالجواب: أن عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم، فإنا لا نقطع بإزالة العقاب بالكلية، بل نقول: لعله يعفو مطلقًا، ولعله يعذب بالنار مدة ثم يعفو بعد ذلك، وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الأسئلة، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوه: الأول: أنه سمى المذنب بالعبد، والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج. الثاني: أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب. الثالث: أنه تعالى قال: ﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم، فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها إليهم، ولا حاجة إلى إلحاق ضرر آخر بهم. الرابع: أنه قال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمرًا بالرجاء، والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم. الخامس: أنه تعالى قال أولاً: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ وكان الأليق أن يقول: (لا تقنطوا من رحمتي) لكنه ترك هذا اللفظ وقال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لأن قولنا (الله) أعظم أسماء الله وأجلُّها، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل. السادس: أنه لما قال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ كان الواجب أن يقول: (إنه يغفر الذنوب جميعًا) ولكنه لم يقل ذلك، بل أعاد اسم الله وقرن به لفظة (إنَّ) المفيدة لأعظم وجوه التأكيد، وكل ذلك يدل على المبالغة في

الوعد بالرحمة. السابع: أنه لو قال: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ لكان المقصود حاصلاً، لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال (جميعًا) وهذا أيضًا من المؤكدات. الثامن: أنه وصف نفسه بكونه غفورًا، ولفظ الغفور يفيد المبالغة. التاسع: أنه وصف نفسه بكونه رحيمًا، والرحمة تفيد فائدة على المغفرة، فكان قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ إشارة إلى إزالة موجبات العقاب، وقوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب. العاشر: أن قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يفيد الحصر، ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو، وذلك يفيد الكمال في وصفه سبحانه بالغفران والرحمة. فهذه الوجوه العشرة مجموعة في هذه الآية، وهي بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران، ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته.

المسألة الثالثة: ذكروا في سبب النزول وجوهًا: قيل: إنها نزلت في أهل مكة فإنهم قالوا: يزعم محمد أن مَن عَبَد الأوثان وقَتَل النفس لم يُغفر له، وقد عَبَدْنا وقَتَلْنا فكيف نُسْلم؟ وقيل: نزلت في وحشي قاتِل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا تُقبل توبته، فلما نزلت الآية أسلم، فقيل لرسول الله ﷺ: هذه له خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال «بَلْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً»[(١)]. وقيل: نزلت في أناس أصابوا ذنوبًا عظامًا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام أشفقوا أن لا يقبل الله توبتهم، وقيل: نزلت في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا ثم فُتنوا فافتتنوا، وكان المسلمون يقولون فيهم: (لا يقبل الله منهم توبتهم) فنزلت هذه الآيات فكتبها عمر، وبعث بها إليهم فأسلموا وهاجروا. واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فنزول هذه الآيات في هذه الوقائع لا يمنع من عمومها.

المسألة الرابعة: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم (ياعباديَ) بفتح الياء، والباقون وعاصم في بعض الروايات بغير فتح، وكلهم يقفون عليه بإثبات الياء لأنها ثابتة في المصحف، إلا في بعض رواية أبي بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء. وقرأ أبو عمرو والكسائي (تقنِطوا) بكسر النون والباقون بفتحها وهما لغتان. قال صاحب (الكشاف): وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود: (يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): أي وتوبوا إليه وأسلِموا له، أي وأخلِصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه. وأقول: هذا الكلام ضعيف جدًا لأن عندنا التوبة عن المعاصي واجبة فلم يلزم من ورود الأمر بها طعن في الوعد بالمغفرة، فإن قالوا: لو

---

(١) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٤٠١) من طريق المؤمل بن الحسن بن عيسى قال: حدثنا الحسن بن محمد قال: حدثنا حجاج عن ابن جريج قال: أخبرني يعلى - يعني ابن مسلم - عن سعيد بن جبير سمعه يحدث عن ابن عباس... فذكره. وأورده الفراء في (معاني القرآن) (٤/ ١٢٠). قال: وحدثني أبو إسحاق التيمي عن أبي روق عن إبراهيم التيمي عن ابن عباس... به، وفي إسناده انقطاع بين إبراهيم التيمي وابن عباس فإنه لم يسمع منه.

كان الوعد بالمغفرة حاصلًا قطعًا لما احتيج إلى التوبة؛ لأن التوبة إنما تراد لإسقاط العقاب، فإذا سقط العقاب بعفو الله عنه فلا حاجة إلى التوبة، فنقول: هذا ضعيف لأن مذهبنا أنه تعالى وإن كان يغفر الذنوب قطعًا ويعفو عنها قطعًا، إلا أن هذا العفو والغفران يقع على وجهين: تارة يقع ابتداء، وتارة يعذب مدة في النار ثم يخرجه من النار ويعفو عنه، ففائدة التوبة إزالة هذا العقاب، فثبت أن الذي قاله صاحب (الكشاف) ضعيف ولا فائدة فيه.

ثم قال: ﴿وَاتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ واعلم أنه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بأشياء: فالأول: أمر بالإنابة وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ والثاني: أمر بمتابعة الأحسن، وفي المراد بهذا الأحسن وجوه: الأول: أنه القرآن ومعناه: واتبعوا القرآن. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزمر: ٢٣] الثاني: قال الحسن: معناه: والتزموا طاعة الله واجتنبوا معصية الله، فإن الذي أُنزل على ثلاثة أوجه: ذكر القبيح ليجتنب عنه، والأدون لئلا يرغب فيه، والأحسن ليتقوى به ويُتبع. الثالث: المراد بالأحسن الناسخ دون المنسوخ لأن الناسخ أحسن من المنسوخ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] ولأن الله تعالى لما نسخ حكمًا وأثبت حكمًا آخر كان اعتمادنا على المنسوخ.

ثم قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والمراد منه التهديد والتخويف، والمعنى أنه يفجأ العذاب وأنتم غافلون عنه، واعلم أنه تعالى لما خوَّفهم بالعذاب بيّن تعالى أن بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون؟ فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلمات:

فالأول: قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَن تَقُولَ﴾ مفعول له، أي كراهة أن تقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ وأما تنكير لفظ النفس ففيه وجهان: الأول: يجوز أن تراد نفس ممتازة عن سائر النفوس لأجل اختصاصها بمزيد إضرار بما لا ينفي رغبتها في المعاصي. والثاني: يجوز أن يراد به الكثرة، وذلك لأنه ثبت في علم أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بأن ذلك الحكم معلل بذلك الوصف، فقوله: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ يدل على غاية الأسف ونهاية الحزن، وأنه مذكور عقيب قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ والتفريط في طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة، وهذا يقتضي حصول تلك الحسرة عند حصول هذا التفريط، وذلك يفيد العموم بهذا الطريق.

المسألة الثانية: القائلون بإثبات الأعضاء لله تعالى استدلوا على إثبات الجنب بهذه الآية، واعلم أن دلائلنا على نفي الأعضاء قد كثرت، فلا فائدة في الإعادة، ونقول: بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضوًا مخصوصًا لله تعالى، فإنه يمتنع وقوع التفريط فيه، فثبت أنه لا بد من المصير إلى التأويل، وللمفسرين فيه عبارات: قال ابن عباس: يريد ضيعت من ثواب الله.

وقال مقاتل: ضيعت من ذكر الله. وقال مجاهد: في أمر الله. وقال الحسن: في طاعة الله. وقال سعيد بن جبير: في حق الله. واعلم أن الإكثار من هذه العبارات لا يفيد شرح الصدور وشفاء الغليل، فنقول: الجنب سمي جنبًا لأنه جانب من جوانب ذلك الشيء، والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه، فلما حصلت هذه المشابهة بين الجنب الذي هوَ العضو وبين ما يكون لازمًا للشيء وتابعًا له، لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة، قال الشاعر:

أَمَا تتقين الله جنب وامق   له كبد حَرَّى عليك تقطع[1]

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): قرئ: (يَا حَسْرَتى) على الأصل و(يا حَسْرَتَايَ) على الجمع بين العوض والمعوض عنه.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي أنه ما كان مكتفيًا بذلك التقصير بل كان من المستهزئين بالدين، قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها. ومحل ﴿وَإِن كُنتُ﴾ نصب على الحالة كأنه قال: فرطت في جنب الله وأنا ساخر أي فرطت في حال سخريتي.

النوع الثاني من الكلمات التي حكاها الله تعالى عن أهل العذاب أنهم يذكرونه بعد نزول العذاب عليهم: قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

النوع الثالث: قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وحاصل الكلام أن هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء: أولها: الحسرة على التفريط في الطاعة. وثانيها: التعلل بفقد الهداية. وثالثها: بتمني الرجعة. ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال التعلل بفقد الهداية باطل؛ لأن الهداية كانت حاضرة والأعذار زائلة، وهو المراد بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: (بلى) جواب النفي، وليس في الكلام لفظ النفي إلا أنه حصل فيه معنى النفي، لأن معنى قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أنه ما هداني، فلا جرم حسن ذكر لفظة ﴿بَلَىٰ﴾ بعده.

---

(١) هذا البيت لجميل بثينة وهو هكذا:

أَلا تَتَّقِين اللَّهَ في قَتلِ عاشِقٍ   لَهُ كَبِدٌ حَرّى عَلَيكِ تَقَطَّعُ

وجميل بثينة هو: جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو. ؟- ٨٢هـ/ ؟- ٧٠١م، شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما. شعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر، كانت منازل بني عذرة في وادي القرى من أعمال المدينة ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبية. فقصد جميل مصر وافدًا على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه وأمر له بمنزل فأقام قليلاً ومات فيه.

المسألة الثانية: قال الواحدي رحمه الله: القراءة المشهورة واقعة على التذكير في قوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى فخوطب المذكر، وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ على التأنيث[(١)]، قال أبو عبيد: لو صح هذا عن النبي ﷺ لكان حجة لا يجوز لأحد تركها ولكنه ليس بمسند؛ لأن الربيع لم يدرك أم سلمة، وأما وجه التأنيث فهو أنه ذكر النفس ولفظ النفس ورد في القرآن في أكثر الأمر على التأنيث بقوله: ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦] و﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] و﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧].

المسألة الثالثة: قال القاضي: هذه الآيات دالة على صحة القول بالقدر من وجوه: الأول: أنه لا يقال: (فلان أسرف على نفسه) على وجه الذم إلا لما يكون من قِبله، وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قِبلهم لا من قِبل الله تعالى. وثانيها: أن طلب الغفران والرجاء في ذلك أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبد، وثالثها: إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب، وذلك لا يكون إلا مع تمكنه من محاولتهما مع نزول العذاب، ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وذلك لا يتم إلا بما هو المختار للاتباع. وخامسها: ذمُّه لهم على أنهم لا يشعرون بما يوجب العذاب، وذلك لا يصح إلا مع التمكن من الفعل. وسادسها: قولهم: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن يفعله. وسابعها: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ومن لا يقدر على الإيمان كما يقول القوم ولا يكون الإيمان من فعله - لا يكون مفرطًا. وثامنها: ذمُّه لهم بأنهم من الساخرين، وذلك لا يتم إلا أن تكون السخرية فعلهم وكان يصح منهم أن لا يفعلوه. وتاسعها: قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي مكنني ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وعلى هذا قولهم إذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه؟ وعاشرها: قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعلى قولهم لو رده الله أبدًا كرة بعد كرة، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسنًا. والحادي عشر: قوله تعالى موبخًا لهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبيّن تعالى أن الحجة عليهم لله، لا أن الحجة لهم على الله، ولو أن الأمر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا: قد جاءتنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها. والثاني عشر: أنه تعالى وَصَفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على وجه الذم، ولو لم تكن هذه الأشياء أفعالاً لهم لما صح الكلام، والجواب عنه: أن هذه الوجوه معارضة بما أن القرآن مملوء من أن الله تعالى يضل ويمنع ويصدر منه اللين والقسوة والاستدراج، ولما كان هذا التفسير مملوءًا منه لم يكن إلى الإعادة حاجة.

---

(١) لم أجده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد:
أما الوعيد فقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

وفيه بحثان:

أحدهما: أن هذا التكذيب كيف هو؟

والثاني: أن هذا السواد كيف هو؟

البحث الأول: عن حقيقة هذا التكذيب، فنقول: المشهور أن الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه، ومنهم من قال: هذا القدر لا يكون كذبًا بل الشرط في كونه كذبًا أن يقصد الإتيان بخبر يخالف المخبر عنه. إذا عرفت هذا الأصل فنذكر أقوال الناس في هذه الآية:

قال الكعبي: ويرد الجبر بأن هذه الآية وردت عقيب قوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ [الزمر: ٥٧] يعني أنه ما هداني بل أضلني، فلما حكى الله عن الكفار ثم ذكر عقيبه ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ وجب أن يكون هذا عائدًا إلى ذلك الكلام المتقدم، ثم روي عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ الذُّنُوبَ عَلَى الْعِبَادِ، وَهُمْ كَذَبَةٌ عَلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ مُسَوِّدٌ وُجُوهَهُمْ»(١). واعلم أن أصحابنا قالوا: آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل لأنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وهذا يدل على أن أولئك الذين صارت وجوههم مسودة أقوام متكبرون، والتكبر لا يليق بمن يقول أنا لا أقدر على الخلق والإعادة والإيجاد، وإنما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى، أما الذين يقولون: إن الله يريد شيئًا وأنا أريد بضده، فيحصل مرادي ولا يحصل مراد الله، فالتكبر بهذا القائل أليق، فثبت أن هذا التأويل الذي ذكروه فاسد. ومن الناس من قال: إن هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى. ومنهم من قال: إنه مختص بمشركي العرب. قال القاضي: يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة، وكذلك كل من وصف الله بما لا يليق به نفيًا وإثباتًا، فأضاف إليه ما يجب تنزيهه عنه أو نزهه عما يجب أن يضاف إليه، فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية؛ لأنهم كذبوا على الله، فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة أو اليهود والنصارى لا يجوز. واعلم: أنا لو أجرينا هذه الآية على عمومها كما ذكره القاضي لزمه تكفير الأمة، لأنك لا ترى فرقة من فرق الأمة إلا وقد حصل بينهم اختلاف شديد في صفات الله تعالى، ألا ترى أنه

(١) لم أجده.

حصل الاختلاف بين أبي هاشم وأهل السنة في مسائل كثيرة من صفات الله تعالى؟! ويلزم على قانون قول القاضي تكفير أحدهما، فثبت أنه يجب أن يُحمل الكذب المذكور في الآية على ما إذا قصد الإخبار عن الشيء، مع أنه يعلم أنه كاذب فيما يقول، ومثال هذا: كفار قريش فإنهم كانوا يصفون تلك الأصنام بالإلهية مع أنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنها جمادات، وكانوا يقولون: إن الله تعالى حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، مع أنهم كانوا ينكرون القول بأن الله حرم كذا وأباح كذا، وكان قائله عالمًا بأنه كذب. وإذا كان كذلك فإلحاق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل - (يكون) مناسبًا، أما من لم يقصد إلا الحق والصدق لكنه أخطأ، يبعد إلحاق هذا الوعيد به.

البحث الثاني: الكلام في كيفية السواد الحاصل في وجوههم، والأقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السواد، وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله، وأقول: إن الجهل ظلمة، والظلمة تتخيل كأنها سواد، فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم، وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث أحوال القيامة. فلما ذكر الله هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ الآية، قال القاضي: المراد به من اتقى كل الكبائر إذ لا يوصف بالاتقاء المطلق إلا من كان هذا حاله. فيقال له: أمرك عجيب جدًّا!! فإنك قلت لما تقدم قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] وجب أن يُحمل قوله (وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ) على الذين قالوا ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ فعلى هذا القانون لما تقدم قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾. ثم قال تعالى بعده: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وجب أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب، فهذا يقتضي أن كل من لم يتصف بذلك الكذب أنه يدخل تحت ذلك الوعد المذكور بقوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وأن يكون قولك: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ المراد منه من اتقى كل الكبائر فاسدًا، فثبت أن التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة، بل الحق أن تقول المتقي هو الآتي بالاتقاء والآتي بالاتقاء في صورة واحدة آتٍ بمسمى الاتقاء، وبهذا الحرف قلنا: الأمر المطلق لا يفيد التكرار، ثم ذلك الاتقاء غير مذكور بعينه في هذه اللفظة فوجب حمله على الاتقاء عن الشيء الذي سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى، فثبت أن ظاهر الآية يقتضي أن من اتقى عن تلك الصفة وجب دخوله تحت هذا الوعد الكريم.

ثم قال تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (بمفازاتهم) على الجمع، والباقون (بمفازتهم) على التوحيد، وحكى الواحدي عن الفرّاء أنه قال: كلاهما صواب، إذ يقال في الكلام: قد تبين أمر القوم وأمور القوم. قال أبو علي الفارسي: الإفراد للمصدر ووجه الجمع أن المصادر قد تُجمع إذا اختلفت أجناسها، كقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] ولا

شك أن لكل متقٍ نوعًا آخر مِن المفازة.

المسألة الثانية: المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة، فكأن المعنى أن النجاة في القيامة حصلت بسبب فوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات، فعبر عن الفوز بأوقاتها ومواضعها.

ثم قال: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمراد أنه كالتفسير لتلك النجاة، كأنه قيل: كيف ينجيهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذه كلمة جامعة لأنه إذا علم أنه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال عما وقع في قلبه بسبب فوات الماضي، فحينئذٍ يظهر أنه سلم عن كل الآفات، ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنه وكرمه.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب في القيامة، وتأكد هذا بقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

واعلم أنه لما أطال الكلام في شرح الوعد والوعيد، عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في سورة الأنعام أن أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] على أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى، وأطنبنا هناك في الأسئلة والأجوبة، فلا فائدة ههنا في الإعادة، إلا أن الكعبي ذكر هاهنا كلمات فنذكرها ونجيب عنها، فقال: إن الله تعالى مدح نفسه بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبائح فلا يصح أن يحتج المخالف به، وأيضًا فلم يكن في صدر هذه الأمة خلاف في أعمال العباد، بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة في خلق الأمراض والسباع والهوام، فأراد الله تعالى أن يبين أنها جمع من خلقه، وأيضًا لفظة (كل) قد لا توجب العموم لقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] وأيضًا لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما أضافها إليهم بقوله: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] ولَمَا صح قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨] ولَمَا صح قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧] فهذا جملة ما ذكره الكعبي في تفسيره، وقال الجبائي: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ سوى أفعال خلقه التي صح فيها الأمر والنهي واستحقوا بها الثواب والعقاب، ولو كانت أفعالهم خلقًا

لله تعالى ما جاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله في ألوانهم وصورهم . وقال أبو مسلم : الخلق هو التقدير لا الإيجاد، فإذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر ذلك الفعل، فيصح أن يقال : إنه تعالى خلقه وإن لم يكن موجدًا له .

واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قد ذكرناه بالاستقصاء في سورة الأنعام، فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضوع من هذا الكتاب، والله أعلم .

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فالمعنى أن الأشياء كلها موكولة إليه، فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك، وهذا أيضًا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى؛ لأن فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول إلى الله تعالى، فلم يكن الله تعالى وكيلاً عليه، وذلك ينافي عموم الآية .

ثم قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى أنه سبحانه مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها، ومنه قولهم : (فلان أُلقيت مقاليد المُلك إليه) وهي المفاتيح، قال صاحب (الكشاف) : ولا واحد لها من لفظها، وقيل : مقليد ومقاليد، وقيل : مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح، وقيل : إقليد وأقاليد، قال صاحب (الكشاف) : والكلمة أصلها فارسية إلا أن القوم لما عربوها صارت عربية .

واعلم أن الكلام في تفسير قوله : ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قريب من الكلام في قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقد سبق الاستقصاء هناك، قيل : سأل عثمان رسول الله ﷺ عن تفسير قوله : ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال : «**يَا عُثْمَانُ مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، تَفْسِيرُهَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(١) . هكذا نقله صاحب (الكشاف) .

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى : صريح الآية يقتضي أنه لا خاسر إلا كافر، وهذا يدل على أن كل من لم يكن

---

(١) ضعيف : الثعلبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٤٥١) من طريق أبي حامد أحمد بن جعفر المستملي، حدثنا عمر بن أحمد بن شنبه، حدثنا إسماعيل بن سعيد الخدري، حدثنا أغلب بن تميم عن مخلد أبي الهذيل عن عبد الرحمن أخيه قال ابن عيينة عن عبد الله بن عمر عن عثمان بن عفان أنه سأل رسول الله ﷺ . . . فذكره .

وأخرجه أبو يعلى كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١١٥) قال الهيثمي : فيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف . والعقيلي (٤/ ٢٣١، ترجمة ١٨٢٥ مخلد أبو الهذيل)، وقال : في إسناده نظر . وأخرجه أيضًا : الرافعي (٤/ ١٦٣) قال المنذري (١/ ٢٦٢) : رواه ابن أبي عاصم وأبو يعلى وابن السني وهو أصلحهم إسنادًا وغيرهم، وفيه نكارة وقد قيل فيه : موضوع، وليس ببعيد، والله أعلم .

كافرًا فإنه لا بد وأن يحصل له حظ من رحمة الله .

المسألة الثانية: أورد صاحب (الكشاف) سؤالاً، وهو أنه بمَ اتصل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الزمر: ٦١] أي ينجي الله المتقين بمفازتهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ واعترض ما بينهما أنه خالق للأشياء كلها، وأن له مقاليد السموات والأرض. وأقول: هذا عندي ضعيف من وجهين: الأول: أن وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد. الثاني: أن قوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ جملة فعلية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ جملة اسمية، وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز، بل الأقرب عندي أن يقال: إنه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الإلهية والجلالية، وهو كونه خالقًا للأشياء كلها، وكونه مالكًا لمقاليد السموات والأرض بأسرها، قال بعده: والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة أولئك هم الخاسرون.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر: (تأمرونني) بنونين ساكنة الياء، وكذلك هي في مصاحف الشام، قال الواحدي: وهو الأصل. وقرأ ابن كثير: (تأمرونِّي) بنون مشددة على إسكان الأولى وإدغامها في الثانية. وقرأ نافع: (تأمرونِي) بنون واحدة خفيفة، على حذف إحدى النونين، والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة.

المسألة الثانية: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ منصوب بأعبد وتأمروني اعتراض، ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم؟ وذلك حين قال له المشركون أسلِم ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك. وأقول: نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] وقد ذكرنا في تلك الآية وجه الحكمة في تقديم الفعل.

المسألة الثالثة: إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقًا للأشياء وبكونه مالكًا لمقاليد السموات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومَن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة؛ فقد بلغ في الجهل مبلغًا لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

واعلم أن الكلام التام مع الدلائل القوية، والجواب عن الشبهات في مسألة الإحباط قد ذكرناه في سورة البقرة فلا نعيده، قال صاحب (الكشاف): قرئ: (لَيُحبَطن عملك) على البناء للمفعول وقرئ بالياء والنون أي: ليحبطن الله أو الشرك.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: كيف أوحي إليه وإلى من قبله حال شركه على التعيين؟

والجواب: تقدير الآية: أوحي إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك مثله. أو أوحي إليك وإلى كل واحد منهم: (لئن أشركت)، كما تقول: (كسانا حلة) أي كل واحد منا.

السؤال الثاني: ما الفرق بين اللامين؟

الجواب: الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب.

السؤال الثالث: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟

والجواب: أن قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها، ألا ترى أن قولك: (لو كانت الخمسة زوجًا لكانت منقسمة بمتساويين) قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا.

السؤال الرابع: ما معنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾؟

والجواب: كما أن طاعات الأنبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم، فكذلك القبائح التي تصدر عنهم فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] فكان المعنى ضعف الشرك الحاصل منه، وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره في جانب غضب الله أقوى وأعظم.

واعلم أنه تعالى لما قدَّم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، والمقصود منه ما أمروه به من الإسلام ببعض آلهتهم، كأنه قال: إنكم تأمرونني بأن لا أعبد إلا غير الله. لأن قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ يفيد أنهم عينوا عليه عبادة غير الله، فقال الله إنهم بئسما قالوا ولكن أنت على الضد مما قالوا، فلا تعبد إلا الله. وذلك لأن قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ يفيد الحصر. ثم قال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ على ما هداك إلى أنه لا يجوز إلا عبادة الإله القادر على الإطلاق العليم الحكيم، وعلى ما أرشدك إلى أنه يجب الإعراض عن عبادة كل ما سوى الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ

وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الأصنام، ثم إنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم، وأمَر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئًا آخر سواه، بَيَّن أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له في المعبودية، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج بعض الناس بهذه الآية على أن الخلق لا يعرفون حقيقة الله. قالوا: لأن قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ يفيد هذا المعنى. إلا أنا ذكرنا أن هذا صفة حال الكفار فلا يلزم من وصف الكفار بأنهم ما قدروا الله حق قدره وَصْف المؤمنين بذلك، فسقط هذا الكلام.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه، وهذه الآية مذكورة في سور ثلاث: في سورة الأنعام، وفي سورة الحج، وفي هذه السورة.

واعلم أنه تعالى لما بَيَّن أنهم ما عظموه تعظيمًا لائقًا به، أردفه بما يدل على كمال عظمته ونهاية جلالته فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قال القفال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كقول القائل: وما قدرتني حق قدري وأنا الذي فعلت كذا وكذا، أي لما عرفت أن حالي وصفتي هذا الذي ذكرت، فوجب أن لا تحطني عن قدري ومنزلتي، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه؟! فكذا هاهنا، والمعنى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ إذ زعموا أن له شركاء وأنه لا يقدر على إحياء الموتى، مع أن الأرض والسموات في قبضته وقدرته؟! قال صاحب (الكشاف): الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه - تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز، وكذلك ما روي أن يهوديًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال[1]، قال صاحب (الكشاف): وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول كل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة، التي هي الدلالة على القدرة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (وما قدروا الله حق قدره) (٤/ ١٨١)، حديث رقم (٤٥٣٣)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٤٧/ ٢٧٨٦)، كلاهما من طريق إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله . . . به.

الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام ولا تكتنهها الأذهان هينة عليه. قال: ولا نرى بابًا في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب. فيقال له: هل تُسلِّم أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة، وأنه إنما يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز عند قيام الدلالة على أن حمله على حقيقته ممتنع، فحينئذٍ يجب حمله على المجاز، فإن أنكر هذا الأصل فحينئذٍ يُخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة، فإن لكل أحد أن يقول: المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود، ولا ألتفت إلى الظواهر. مثاله من تمسك بالآيات الواردة في ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار، قال: المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين، وأنا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود، ولا أُثبت الأكل والشرب ولا سائر الأحوال الجسمانية. ومن تمسك بالآيات الواردة في إثبات وجوب الصلاة فقال: المقصود منه إيجاب تنوير القلب بذكر الله، فأنا أكتفي بهذا القدر ولا أوجب هذه الأعمال المخصوصة. وإذا عرفت الكلام في هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الأصولية والفروعية، وحينئذٍ يخرج القرآن عن أن يكون حجة في المسائل الأصولية والفروعية، وذلك باطل قطعًا، وأما إن سَلَّم أن الأصل في علم القرآن أن يعتقد أن الأصل في الكلام حمله على حقيقته، فإن قام دليل منفصل على أنه يتعذر حمله على حقيقته، فحينئذٍ يتعين صرفه إلى مجازه، فإن حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه إلى مجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين، فنقول: هاهنا لفظ اليمين حقيقة في الجارحة المخصوصة، ولا يمكنك أن تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى إلا إذا أقمت الدلالة على أن حمل هذه الألفاظ على ظواهرها ممتنع، فحينئذٍ يجب حملها على المجازات، ثم تبين بالدليل أن المعنى الفلاني يصح جعله مجازًا عن تلك الحقيقة، ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أَوْلى من غيره، وإذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذي عليه تعويل أهل التحقيق، فأنت ما أتيت في هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب، بل هو عين ما ذكره أهل التحقيق، فثبت أن الفرح الذي أظهره من أنه اهتدى إلى الطريق الذي لم يعرفه غيره - طريق فاسد، دال على قلة وقوفه على المعاني. ولنرجع إلى الطريق الحقيقي فنقول: لا شك أن لفظ القبضة واليمين مُشعر بهذه الأعضاء والجوارح، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى، فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز، فنقول: إنه يقال: (فلان في قبضة فلان) إذا كان تحت تدبيره وتسخيره. قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون: ٦] والمراد منه كونه مملوكًا له، ويقال: هذه الدار في يد فلان، وفلان صاحب اليد، والمراد من الكل القدرة، والفقهاء يقولون في الشروط: وقبض فلان كذا وصار في قبضته، ولا يريدون إلا خلوص ملكه، وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صونًا لهذه النصوص عن التعطيل، فهذا هو الكلام الحقيقي في هذا الباب، ولنا كتاب مفرد في إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية

والمكان، سميناه بتأسيس التقديس، من أراد الإطناب في هذا الباب فليرجع إليه.

المسألة الثالثة: في تفسير ألفاظ الآية: قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ المراد منه الأرضون السبع، ويدل عليه وجوه: الأول: قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فإن هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع، ونظيره قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٢، ٣] فإن هذه الألفاظ الملحة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع، فكذا هاهنا. والثاني: أنه قال بعده: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ فوجب أن يكون المراد بالأرض الأرضون. الثالث: أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم، فهذا مقتضى المبالغة. وأما القبضة فهي المرة الواحدة من القبض، قال تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] والقُبضة بالضم: المقدار المقبوض بالكف، ويقال أيضًا (أعطني قُبضة من كذا)، يريد معنى القبضة، تسمية بالمصدر، والمعنى والأرضون جميعًا قبضته، أي ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة من قبضاته، يعني أن الأرضين مع ما لها من العظمة والبسطة لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته، أما إذا أريد معنى القبضة، فظاهر لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. فإن قيل: ما وجه قراءة من قرأ (قبضتَه) بالنصب؟ قلنا: جعل القبضة ظرفًا. وقوله: ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ من الطي الذي هو ضد النشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمينه، ثم قال صاحب الكشاف: وقيل: قبضته ملكه ويمينه قدرته، وقيل: مطويات بيمينه أي مفنيات بقسمه لأنه أقسم أن يقبضها. ولما ذكر هذه الوجوه عاد إلى القول الأول بأنها وجوه ركيكة، وأن حمل هذا الكلام على محض التمثيل أولى، وبالغ في تقرير هذا الكلام فأطنب، وأقول: إن حال هذا الرجل في إقدامه على تحسين طريقته، وتقبيح طريقة القدماء - عجيب جدًّا، فإنه إن كان مذهبه أنه يُجوز ترك ظاهر اللفظ والمصير إلى المجاز من غير دليل، فهذا طعن في القرآن وإخراج له عن أن يكون حجة في شيء، وإن كان مذهبه أن الأصل في الكلام الحقيقة، وأنه لا يجوز العدول عنه إلا لدليل منفل، فهذا هو الطريقة التي أطبق عليها جمهور المتقدمين، فأين الكلام الذي يزعم أنه علمه؟ وأين العلم الذي لم يعرفه غيره؟ مع أنه وقع في التأويلات العسرة والكلمات الركيكة، فإن قالوا: المراد أنه لما دل الدليل على أنه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الأعضاء، وجب علينا أن نكتفي بهذا القدر ولا نشتغل بتعيين المراد، بل نفوض علمه إلى الله تعالى. فنقول: هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون: إنا نعلم أنه ليس مراد الله من هذه الألفاظ هذه الأعضاء، فأما تعيين المراد فإنا نفوض ذلك العلم إلى الله تعالى، وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات، فثبت أن هذه التأويلات التي أتى بها هذا الرجل ليس تحتها شيء من الفائدة أصلاً، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما بَيَّن عظمته من الوجه الذي تقدم قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني أن هذا القادر القاهر العظيم الذي حارت العقول والألباب في وصف عظمته - تنزّه وتقدس عن أن تُجعل الأصنام شركاء له في المعبودية، فإن قيل: السؤال على هذا الكلام من وجوه:

الأول: أن العرش أعظم من السموات السبع والأرضين السبع، ثم إنه قال في صفة العرش: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وإذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم، فكيف يجوز تقدير عظمة الله بكونه حاملاً للسموات والأرض؟

السؤال الثاني: أن قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ شرح حالة لا تحصل إلا في يوم القيامة، والقوم ما شاهدوا ذلك، فإن كان هذا الخطاب مع المصدقين للأنبياء فهم يكونون معترفين بأنه لا يجوز القول بجعل الأصنام شركاء لله تعالى، فلا فائدة في إيراد هذه الحجة عليهم، وإن كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوّة وهم ينكرون قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فكيف يمكن الاستدلال به على إبطال القول بالشرك؟

السؤال الثالث: حاصل القول في القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الأجسام العظيمة، وكما أن حِفظها وإمساكها يوم القيامة ليس إلا بقدرة الله، فكذلك الآن، فما الفائدة في تخصيص هذه الأحوال بيوم القيامة؟

الجواب عن الأول: أن مراتب التعظيم كثيرة، فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادرًا على حفظ هذه الأجسام العظيمة، ثم بعد تقرير عظمته بكونه قادرًا على إمساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش.

الجواب عن الثاني: أن المقصود أن الحق سبحانه هو المتولي لإبقاء السموات والأرضين على وجوه العمارة في هذا الوقت، وهو المتولي لتخريبها وإفنائها في يوم القيامة، فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الإيجاد والإعدام، وتنبيه أيضًا على كونه غنيًّا على الإطلاق، فإنه يدل على أنه إذا حاول تخريب الأرض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد إفناءها، وذلك يدل على كمال الاستغناء.

الجواب عن الثالث: أنه إنما خصص تلك بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا، فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما قرر كمال عظمته بما سبق ذكره، أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضًا على كمال قدرته وعظمته، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة لأن نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ واختلفوا في الصعقة: منهم من قال: إنها غير الموت بدليل قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] مع أنه لم يمت، فهذا هو النفخ الذي يورث الفزع الشديد، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد، وهو المذكور في

سورة النمل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين.

والقول الثاني: أن الصعقة عبارة عن الموت. والقائلون بهذا القول قالوا: إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت. وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات أولها: نفخة الفزع وهي المذكورة في سورة النمل. والثانية: نفخة الصعق. والثالثة: نفخة القيام. وهما مذكورتان في هذه السورة.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ففيه وجوه: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: عند نفخة الصعق يموت من في السموات ومن في الأرض إلا جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يميت الله ميكائيل وإسرافيل ويبقي جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل.

والقول الثاني: أنهم هم الشهداء لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «هُمُ الشُّهَدَاءُ، مُتَقَلِّدُونَ أَسْيَافَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ»(١).

القول الثالث: قال جابر: هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لأنه صعق مرة فلا يُصعق ثانيًا.

القول الرابع: أنهم الحور العين وسكان العرش والكرسي.

والقول الخامس: قال قتادة: الله أعلم بأنهم من هم، وليس في القرآن والأخبار ما يدل على أنهم من هم.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وفيه أبحاث:

الأول: لفظ القرآن دل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الأولى؛ لأن لفظ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التراخي، قال الحسن رحمه الله: القرآن دل على أن هذه النفخة الأولى. وروي عن النبي ﷺ: «أَنَّ بَيْنَهُمَا أَرْبَعِينَ» وَلاَ أَدْرِي أَرْبَعُونَ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعُونَ سَنَةً أَوْ أَرْبَعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ(٢).

الثاني: قوله ﴿أُخْرَىٰ﴾ تقدير الكلام: ونُفخ في الصور نفخة واحدة ثم نُفخ فيه نفخة أخرى، وإنما حسن الحذف لدلالة (أخرى) عليها ولكونها معلومة.

الثالث: قوله ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ يعني قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الأخيرة في الحال من غير تراخ لأن الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ تدل على التعقيب.

الرابع: قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ وفيه وجهان: الأول: ينظرون: يُقَلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم. والثاني: ينظرون ماذا يُفعل بهم. ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والخمود في مكان لأجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم.

ولما بيَّن الله تعالى هاتين النفختين قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

---

(١) الثعلبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٤٥٩) من طريق محمد بن مصفى، حدثنا بقية عن محمد عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة. . . به، في إسناده محمد بن مصفى بن بهلول، صدوق له أوهام، وكان يدلس، وشيخه بقية بن الوليد كثير التدليس عن الضعفاء.

(٢) لم أجده.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض التي يُقعد عليها الآن؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ٤٨] وبدليل قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾[الحاقة: ١٤] بل هي أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة.

المسألة الثانية: قالت المجسمة: إن الله تعالى نور محض، فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده، أشرقت تلك الأرض بنور الله. وأكدوا هذا بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥].

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه: الأول: أنا بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥] أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نورًا بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة، وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يُستعمل في هذا المعنى، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى: أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك. كما يقولون: أظلمت البلاد بجورك. وقال ﷺ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١). وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ ومعلوم أن المجيء بالشهداء ليس إلا لإظهار العدل، وأيضًا قال في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم، فكأنه تعالى فتح هذه الآية بإثبات العدل وختمها بنفي الظلم. والوجه الثاني في الجواب عن الشبهة المذكورة: أن قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يدل على أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى؛ لأنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب، فلما كان ذلك النور من خلق الله وشَرَّفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور الله، كقوله: بيت الله، وناقة الله. وهذا الجواب أقوى من الأول؛ لأن في هذا الجواب لا يُحتاج إلى ترك الحقيقة والذهاب إلى المجاز. والوجه الثالث: أنه قد يقال: فلان رب هذه الأرض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض ملكًا من الملوك، وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نورًا.

المسألة الثالثة: أنه تعالى ذكر في هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء: أولها: قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وقد سبق الكلام فيه. وثانيها: قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وفي المراد بالكتاب وجوه: الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت قيام القيامة. الثاني: المراد كُتُب الأعمال، كما قال تعالى في سورة سبحان: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المظالم)، باب: (عفو المظلوم) (٢/ ٨٦٤)، حديث رقم (٢٣١٥)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٩٦/ ٢٥٧٨)، كلاهما من طريق عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر... به.

أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وقال أيضًا في آية أخرى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩] وثالثها: قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ والمراد أن يكونوا شهداء على الناس، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٩] ورابعها: قوله ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ والمراد ما قاله في ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] أو أراد بالشهداء المؤمنين، وقال مقاتل: يعني الحفظة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] وقيل: أراد بالشهداء المستشهدين في سبيل الله. ولما بيَّن الله تعالى أنه يحضر في محفل القيامة جميع ما يحتاج إليه في فصل الحكومات وقطع الخصومات، بيّن تعالى أنه يوصل إلى كل أحد حقه، وعبّر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات: أولها: قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وثانيها: قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي وفيت كل نفس جزاء ما عملت، ورابعها: قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يعني أنه تعالى إذا لم يكن عالمًا بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضي بالحق لأجل عدم العلم، أما إذا كان عالمًا بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ في ذلك الحكم، فثبت أنه تعالى عبّر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة، والمقصود المبالغة في تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال فقال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠] بيّن بعده كيفية أحوال أهل العقاب، ثم كيفية أحوال أهل الثواب، وختم السورة.

أما شرح أحوال أهل العقاب فهو المذكور في هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ﴾ قال ابن زيدان: سَوْق الذين كفروا إلى جهنم يكون بالعنف والدفع، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي يُدفعون دفعًا، نظيره قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] أي يدفعه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وأما الزمر، فهي الأفواج المتفرقة بعض في أثر بعض، فبين الله تعالى أنهم يساقون إلى جهنم، فإذا جاءوها فتحت أبوابها، وهذا يدل على أن أبواب جهنم إنما تُفتح عند وصول أولئك

إليها، فإذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فإن قيل: فلمَ أضيف اليوم إليهم؟ قلنا: أراد لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار، لا يوم القيامة، واستعمال لفظ اليوم والأيام في أوقات الشدة مستفيض، فعند هذا تقول الكفار: بلى قد أتونا وتلوا علينا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وفي هذه الآية مسألتان:

المسألة الأولى: تقدير الكلام أنه حقت علينا كلمة العذاب، ومن حقت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه الخلاص من العذاب؟ وهذا صريح في أن السعيد لا ينقلب شقيًّا، والشقي لا ينقلب سعيدًا، وكلمات المعتزلة في دفع هذا الكلام معلومة، وأجوبتنا عنها أيضًا معلومة.

المسألة الثانية: دلت الآية على أنه لا وجوب قبل مجيء الشرع؛ لأن الملائكة بينوا أنه ما بقي لهم علة ولا عذر بعد مجيء الأنبياء عليهم السلام، ولو لم يكن مجيء الأنبياء شرطًا في استحقاق العذاب لما بقي في هذا الكلام فائدة، ثم إن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ قالت المعتزلة: لو كان دخولهم النار لأجل أنه حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فائدة، بل هذا الكلام إنما يبقى مقيدًا إذا قلنا: إنهم إنما دخلوا النار لأنهم تكبروا على الأنبياء، ولم يقبلوا قولهم، ولم يلتفتوا إلى دلائلهم، وذلك يدل على صحة قولنا، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب في الآية المتقدمة، شرح أحوال أهل الثواب في هذه الآية، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فإن قيل: السَّوق في أهل النار للعذاب معقول؛ لأنهم لما أُمروا بالذهاب إلى موضع العذاب والشقاوة لا بدّ وأن يساقوا إليه، وأما أهل الثواب فإذا أُمروا بالذهاب إلى موضع الكرامة والراحة والسعادة، فأي حاجة فيه إلى السَّوق؟

والجواب من وجوه: الأول: أن المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فإذا قيل لواحد منهم: اذهب إلى

الجنة. فيقول: لا أدخلها حتى يدخلها أحبائي وأصدقائي. فيتأخرون لهذا السبب، فحينئذٍ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة. والثاني: أن الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار، فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم عن الرغبة في الجنة، فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة. والثالث: أن النبي ﷺ قال: «**أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِلأَبْرَارِ**»(١) فلهذا السبب يساقون إلى الجنة. والرابع: أن أهل الجنة وأهل النار يساقون إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يُفعل بالأسير إذ سيق إلى الحبس والقيد، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يُفعل بمن يُشرف ويُكرم من الوافدين على الملوك، فشتان ما بين السوقين.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ الآية، واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود: القيد الأول: هو مجيئهم إلى الجنة. والقيد الثاني: قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ فإن قيل: قال في أهل النار: فتحت أبوابها بغير الواو، وقال هاهنا بالواو فما الفرق؟ قلنا: الفرق أن أبواب جهنم لا تُفتح إلا عند دخول أهلها فيها، فأما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدمًا على وصولهم إليها بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] فلذلك جيء بالواو، كأنه قيل: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها. القيد الثالث: قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ فبيّن تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب

---

(١) منكر: القضاعي في (مسند الشهاب) (٢/ ١١٠)، حديث رقم (٩٨٩) من طريق يحيى بن الربيع العبدي، أنبأنا عبد السلام بن محمد الأموي، حدثنا سعيد بن كثير بن عفير، حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عقيل عن ابن شهاب عن أنس... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ١٢٦)، حديث رقم (١٣٦٧) من طريق عقيل عن ابن شهاب عن أنس... به. وأورده ابن عدي في (الكامل في ضعفاء الرجال) (٣/ ٣١٣) بإسناد البيهقي وقال: وهذا الحديث بهذا الإسناد منكر. ورواه الهروي في (المطبوع) (١/ ٥٧/ ٣٤). وقال: رواه البزار مضعفًا والقرطبي مصححًا وروي بزيادة (وعليون لذوي الألباب) وهي ليس لها أصل. وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٨٦)، حديث رقم (٤٩٥). وقال: رواه البيهقي والبزار والديلمي والخلعي بسند فيه لين عن أنس رفعه، وله شاهد عند البيهقي من حديث مصعب بن ماهان عن جابر، لكن قال عقبه: إنه بهذا الإسناد منكر. وقال القاري في الموضوعات: وصححه في التذكرة، وليس كذلك، بل قال ابن عدي: إنه منكر. انتهى وقال فيها أيضًا: وروي بزيادة (وعليون لذوي الألباب) ولم يوجد لها أصل كما قال العراقي، بل هي مدرجة من كلام أحمد بن أبي الحواري. انتهى وأقول: لكنه في التذكرة ذكرها تعقب وجاء عن سهل التستري في تفسير البله بأنهم الذين ولهت قلوبهم وشُغلت بالله عز وجل. وعن أبي عثمان: الأبله في دنياه: الفقيه في دينه. وروى البيهقي عن الأوزاعي أنه قال: هو الأعمى عن الشر البصير بالخير. ومثله قول القرطبي: هم البله عن معاصي الله. وقال في النهاية: البله هم الذين غلبت عليهم بالإجماع الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة، فأما الأبله وهو الذي لا عقل له فغير مُرادٍ في الحديث وأنشدوا:

ولقد لهوت بطفلة ميالة بلهاء تطلعني على أسرارها

هذه الكلمات الثلاث. فأولها: قولهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات. وثانيها: قولهم: ﴿طِبۡتُمۡ﴾ والمعنى طبتم من دنس المعاصي وطُهرتم من خبث الخطايا وثالثها: قولهم ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ والفاء في قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾ يدل على كون ذلك الدخول معللاً بالطيب والطهارة، قالت المعتزلة: هذا يدل على أن أحدًا لا يدخلها إلا إذا كان طاهرًا عن كل المعاصي. قلنا: هذا ضعيف لأنه تعالى يبدل سيئاتهم حسنات، وحينئذٍ يصيرون طيبين طاهرين بفضل الله تعالى، فإن قيل: فهذا الذي تقدم ذكره هو الشرط فأين الجواب؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أن الجواب محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره. الثاني: أن الجواب هو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ والواو محذوف، والصحيح هو الأول. ثم أخبر الله تعالى بأن الملائكة إذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات، قال المتقون عند ذلك: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ في قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ والمراد بالأرض أرض الجنة، وإنما عبر عنه بالإرث لوجوه: الأول: أن الجنة كانت في أول الأمر لآدم عليه السلام؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]فلما عادت الجنة إلى أولاد آدم كان ذلك سببًا لتسميتها بالإرث. الثاني: أن هذا اللفظ مأخوذ من قول القائل: هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا. فلما كانت طاعتهم قد أفادتهم الجنة، لا جرم قالوا: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ والمعنى أن الله تعالى أورثنا الجنة بأن وفقنا للإتيان بأعمال أورثت الجنة. الثالث: أن الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع، فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون في الجنة كيف شاءوا وأرادوا، والمشابهة علة حسن المجاز. فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿حَيۡثُ نَشَآءُ﴾ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟ قلنا: يكون لكل أحد جنة لا يحتاج معها إلى جنة غيره، قال حكماء الإسلام: الجنات نوعان: الجنات الجسمانية والجنات الروحانية: فالجنات الجسمانية لا تحتمل المشاركة فيها، أما الروحانيات فحصولها لواحد لا يمنع من حصولها للآخرين. ولما بيّن الله تعالى صفة أهل الجنة قال: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ قال مقاتل: ليس هذا من كلام أهل الجنة، بل من كلام الله تعالى لأنه لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة قال بعده: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ ولما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال: كما أن دار ثواب المتقين المؤمنين هي الجنة، فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش وأطرافه. فلهذا قال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي محفين بالعرش. قال الليث: يقال: حف القوم بسيدهم يحفون حفًا، إذا طافوا به. إذا عرفت هذا فنقول: بيّن تعالى أن دار ثوابهم هو جوانب العرش وأطرافه ثم قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ وهذا مُشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح، وحينئذٍ رجع حاصل الكلام إلى أن أعظم درجات الثواب استغراق قلوب

العباد في درجات التنزيه ومنازل التقديس.

ثم قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ والمعنى أنهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة، فلكل واحد منهم في درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه، وهو المراد من قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الملائكة لما قضي بينهم بالحق قالوا: الحمد لله ربّ العالمين على قضائه بيننا بالحق، وههنا دقيقة أعلى مما سبق وهي أنه سبحانه لما قضى بينهم بالحق، فهم ما حمدوه لأجل ذلك القضاء، بل حمدوه بصفته الواجبة وهي كونه ربًّا للعالمين، فإن من حمد المنعم لأجل أن إنعامه وصل إليه فهو في الحقيقة ما حمد المنعم وإنما حمد الإنعام، وأما من حمد المنعم لا لأنه وصل إليه النعمة فههنا قد وصل إلى لجة بحر التوحيد، هذا إذا قلنا: إن قوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ شرح أحوال الملائكة في الثواب، أما إذا قلنا: إنه من بقية شرح ثواب المؤمنين، فتقريره أن يقال: إن المتقين لما قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ فقد ظهر منهم أنهم في الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره بالمدح والثناء، فبيّن تعالى أنه كما أن حرفة المتقين في الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد، فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح، ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة، وحينئذٍ يظهر منه أن المؤمنين المتقين وأن الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق في تحميد الله وتسبيحه، فكان ذلك سببًا لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد.

ثم قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بين البشر.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والمعنى أنهم يقدمون التسبيح، والمراد منه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بالإلهية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالمراد وصفه بصفات الإلهية، فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتنزيهه عن كل ما لا يليق به وهو صفات الجلال.

وقوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عبارة عن الإقرار بكونه موصوفًا بصفات الإلهية، وهي صفات الإكرام، ومجموعهما هو المذكور في قوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] وهو الذي كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وفي قوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دقيقة أخرى، وهي أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو، والمقصود من هذا الإبهام التنبيه على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتأكد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

قال المصنف رحمه الله تعالى: تم تفسير هذه السورة في ليلة الثلاثاء آخر ذي القعدة من سنة

ثلاث وستمائة. يقول مصنف هذا الكتاب: الملائكة المقربون عجزوا عن إحصاء ثنائك، فمَن أنا؟ والأنبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور، فمن أنا؟ وليس معي إلا أن أقول: أنت أنت وأنا أنا، فمنك الرحمة والفضل والجود والإحسان، ومني العجز والذلة والخيبة والخسران، يا رحمن يا ديان يا حنان يا منان أَفِض عليَّ سجال الرحمة والغفران برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

سورة الزُّمَر

ويقال: سورة الغرف. قال وهب بن مُنبِّه: مَن أحبَّ أن يعرفَ قضاءَ الله عز وجل في خَلْقه فَلْيقرَأْ سورة الغرف[1]. وهي مكيةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة؛ إحداهما: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الآية:٢٣] والأُخرى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [٥٣]. وقال آخرون: إلا سبعَ آيات؛ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشيٍّ وأصحابه على ما يأتي[2].

روى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ «الزمر» وبني إسرائيل[3]. وهي خمسٌ وسبعون آية[4]. وقيل: اثنتان وسبعون آية[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٤٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٣ ، وينظر زاد المسير ٧/ ١٦٠ .

(٣) سنن الترمذي (٣٤٠٥).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٧١ .

(٥) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤ .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى: هذا تنزيلٌ، قاله الفراء[١]. وأجاز الكسائي والفراء أيضاً «تَنْزِيلَ» بالنصب على أنه مفعول به[٢]. قال الكسائي: أي: اتَّبِعوا واقرؤوا «تنزِيلَ الكتاب». وقال الفراء: هو على الإغراء، مثل قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤] أي: الزموا[٣]. والكتاب القرآن سُمِّي بذلك لأنه مكتوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: هذا تنزيلُ الكتاب من الله، وقد أنزلناه بالحقّ؛ أي: بالصِّدق، وليس بباطل وهَزْل.

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: «مُخْلِصاً» نصب على الحال، أي: مُوحِّداً لا تُشرك به شيئاً ﴿لَّهُ ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعة. وقيل: العبادة[٤]. وهو مفعول به.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: الذي لا يَشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، إني أَتصدَّق بالشيء، وأصنع الشيء أُريد به وجهَ الله وثَناءَ الناس. فقال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يقبلُ اللهُ شيئاً شُورك فيه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[٥].

وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» و«النساء» و«الكهف» مستوفىً[٦].

الثانية: قال ابن العربي[٧]: هذه الآيةُ دليلٌ على وجوب النية الخالصة[٨] في كل عمل، وأعظمُه الوضوء الذي هو شَطْر الإيمان، خلافاً لأبي حنيفة والوليد بن مسلم

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤١٤ .

(٢) قرأ بها عيسى بن عمر وإبراهيم بن أبي عبلة، كما في القراءات الشاذة ص١٣١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، والحديث لم نقف عليه.

(٦) ٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤ و٦/ ٢٩٧ وما بعدها و١٣/ ٣٩٨ وما بعدها.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٤ .

(٨) قوله: الخالصة، ليس في (م) ولا في أحكام القرآن.

عن مالك اللَّذَيْن يقولان: إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطراً، ولا لِيُخرِجَ الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني الأصنام، والخبر محذوف. أي: قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: مَن ربُّكم وخالقُكم؟ ومَن خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم الأصنامَ؟ قالوا: ليُقرِّبونا إلى الله زُلفى، ويشفعوا لنا عنده[2].

قال الكلبي: جواب هذا الكلام في «الأحقاف»: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ [الآية:٢٨] والزُّلفى القُربة؛ أي: لِيقرِّبونا إليه تقريباً، فوضع «زُلفى» في موضع المصدر[3].

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد: «والذين اتَّخذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلياءَ قالوا ما نَعبُدُهم إلَّا لِيقرِّبونا إلى الله زُلْفَى» وفي حرف أُبَيّ: «والذين اتَّخذُوا مِنْ دُونه أَوْلياءَ ما نَعْبُدُكُمْ إلَّا لِتُقرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى» ذكره النحاس[4]. قال: والحكاية في هذا بيِّنة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الأديان يومَ القيامة فيُجازي كلّاً بما يستحقّ[5]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: مَنْ سبق له القضاء بالكُفر لم يهتدِ؛ أي: للدِّين الذي ارتضاه، وهو دين الإسلام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣] وفي هذا ردٌّ على القدرية وغيرهم على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: لو أراد

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤.

(٤) في معاني القرآن ٦/ ١٥٠ - ١٥١، وذكرالقراءتين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١٨.

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٢.

أن يُسمِّيَ أحداً من خَلْقه بهذا ما جعله عزَّ وجلَّ إليهم. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له عن[1] الولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: هو القادرُ على الكمال، المُستغني عن الصاحبة والولد، ومَن كان هكذا فحقُّه أن يُفرَدَ بالعبادة، لا أنه يُشرَكُ به. ونبَّه بهذا على أن له أن يَتعبَّد العباد بما شاء، وقد فعل.

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال الضحاك: أي: يُلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة[2]، وهو طرح الشيء بعضه على بعض؛ يقال: كوَّر المَتاع، أي: ألقى بعضَه على بعض؛ ومنه كَوْر العِمامة[3].

وقد رُوي عن ابن عباس [غير] هذا في معنى الآية. قال: ما نقصَ من الليل دخلَ في النهار، وما نقصَ من النهار دخلَ في الليل[4]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١].

وقيل: تكوير الليل على النهار: تَغْشيته إيَّاه حتى يُذهِبَ ضوءَه، ويُغشي النهار

(١) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس (والكلام منه) ٤/ ٤: من، والمثبت من (م).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤.

(٣) زاد المسير ٧/ ١٦٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤، وما بين حاصرتين منه.

على الليل فَيُذهب ظُلمته، وهذا قول قتادة[١]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: بالطُّلوع والغُروب لمنافع العباد. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في فَلَكه إلى أن تنصرمَ الدنيا، وهو يومُ القيامة حتى[٢] تنفطر السماء وتنتثر الكواكب. وقيل: الأجلُ المسمى هو الوقتُ الذي ينتهي فيه سَيْرُ الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لِغُروبها وطُلوعها.

قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يُجاوزانه. وقد تقدَّم بيانُ هذا في سورة «يس»[٣]. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ «ألا» تنبيه، أي: تنبَّهوا، فإني أنا «العزيزُ» الغالب «الغفَّارُ» الساتر لذنوب خلقه برحمته.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدمَ عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: لِيحصل التناسلُ، وقد مضى هذا في «الأعراف»[٤] وغيرها.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أخبر عن الأزواج بالنُّزول، لأنها تكوَّنت بالنبات، والنبات بالماء المُنزَل. وهذا يُسمَّى التدريج[٥]؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية [الأعراف: ٢٦]. وقيل: أنزل: أنشأ وجعل. وقال سعيد بن جُبير: خَلَق. وقيل: إنَّ الله تعالى خَلَق هذه الأنعامَ في الجنة، ثم أنزلها إلى الأرض[٦]؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آدمَ لما هبطَ إلى الأرض أُنزل معه الحديد. وقيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: أعطاكم. وقيل: جعل الخلق

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١١٥ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٠ بنحوه.

(٢) كذا في النسخ: حتى، وفي هامش (ز): لعلّه حين. قلنا: هو أوجه.

(٣) ١٧/ ٤٥٠ وما بعدها، وسلف قول الكلبي ١٧/ ٤٤٤ .

(٤) ٩/ ٤٠٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٥ .

إنزالاً؛ لأن الخَلْق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنى: خلقَ لكم كذا بأمره النازل[١].

قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضَّأْن اثنين، ومن المَعْز اثنين، كل واحد زوج[٢]. وقد تقدّم هذا[٣].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال قتادة والسّدّي: نُطفةً، ثم علقةً، ثم مُضْغةً، ثم عظماً، ثم لحماً. ابن زيد: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: خلقاً في بطون أمهاتِكم من بعد خَلْقكم في ظهر آدم. وقيل: في ظهر الأب، ثم خلقاً في بطن الأمّ، ثم خلقاً بعد الوضع. ذكره الماوردي[٤].

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظُلمة البطن وظُلمة الرحم وظُلمة المَشِيمَة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك[٥]. وقال ابن جُبير: ظُلمة المَشيمَة وظُلمة الرَّحِم وظُلمة الليل[٦]. والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صُلْب الرجل وظُلمة بطن المرأة وظُلمة الرَّحِم. وهذا مذهب أبي عُبيدة[٧]. أي: لا تمنعه الظُّلمة كما تمنع المخلوقين[٨]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره[٩].

وقرأ حمزة: «إِمِّهَاتِكُمْ» بكسر الهمزة والميم. والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠ بنحوه.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٣ .
(٣) ٩/ ٧٦ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٥ ، وأقوال قتادة والسدي وابن زيد أخرجها الطبري ٢٠/ ١٦٤ - ١٦٥ .
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٥ - ١٦٦ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٦ دون نسبة.
(٧) مجاز القرآن ٢/ ١٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٥٤ .
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .
(٩) تفسير الطبري ٢٠/ ١٦٧ .
(١٠) قراءة حمزة والكسائي في الوصل. السبعة ص٢٢٧ - ٢٨٨ ، والتيسير ص٩٤ .

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: أن يكفروا، أي: لا يُحبُّ ذلك منهم. وقال ابن عباس والسّدي: معناه: لا يرضى لعباده المؤمنين الكُفر، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي: المؤمنون[١]. وهذا على قول مَن لا يُفرق بين الرِّضا والإرادة.

وقيل: لا يرضى الكُفْرَ وإن أراده؛ فالله تعالى يُريد الكفر من الكافر وبإرادته كَفَر، ولايرضاه[٢] ولا يُحِبُّه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خَلْقَ إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرِّضا. وهذا مذهبُ أهل السنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى الشُّكر لكم؛ لأنّ «تَشْكُرُوا» يدلُّ عليه. وقد مضى القولُ في الشُّكر في«البقرة»[٤] وغيرها. ويَرضى بمعنى يُثيب ويُثني، فالرِّضا على هذا إما ثوابُه فيكون صفةَ فعل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وإما ثناؤه، فهو صفةُ ذات.

و«يَرْضَهْ» بالإسكان في الهاء قرأ أبو جعفر[٥] وأبو عمرو وشيبة وهُبيرة عن عاصم. وأشبع الضَّمَّة ابنُ ذكوان وابنُ كثير وابنُ محيصن والكسائي وورش عن

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٢، وأخرجه بنحوه عنهما الطبري ٢٠/ ١٦٨.

(٢) في (م): كفر لا يرضاه.

(٣) ذكر هذه المسألة الرازي في تفسيره ٢٦/ ٢٤٦ -٢٤٧.

(٤) ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

(٥) قراءة أبي جعفر في رواية ابن جمّاز.

نافع[١]. واختلس الباقون.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تقدَّم في غير موضع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدّة من الفقر والبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه، مُخْبتاً مطيعاً له، مُستغيثاً به في إزالة تلك الشِّدَّة عنه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه ومَلَّكه. يقال: خوّلك الله الشيء، أي: ملّكك إياه؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هُنَالِكَ إن يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلوا ... وإن يُسألُوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا[٣]

وخَوَلُ الرجل: حَشَمُه، الواحد خائل[٤]. قال أبو النَّجم:

أَعْطَى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ ... كُومَ الذُّرى مِن خَوَلِ المُخَوِّلِ[٥]

---

(١) المشهور عن ورش أنه قرأ بضم الهاء من غير صلة. السبعة ص٥٦٠، والتيسير ص١٨٩، والنشر ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) ٩/ ١٤٥ و١٣/ ٤٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥٥، والبيت لزهير، ويروى: هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا يُخْبِلوا.. وقد سلف بهذه الرواية ١/ ٤٤٨. وقوله: إن يَيْسِروا يُغلوا، أي: إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الجزر فيقامرون عليها، ولا ينحرون إلا غالية. قاله الشنتمري في شرح ديوان زهير ص٢٢.

(٤) الصحاح (خول).

(٥) ديوان أبي النجم ص١٧٥.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربَّه الذي كان يدعوه من قبل في كَشْف الضُّر عنه. فـ «ما» على هذا الوجه لله عز وجل، وهي بمعنى الذي. وقيل: بمعنى مَنْ، كقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] والمعنى واحد. وقيل: نسي الدعاءَ الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل. أي: ترك كونَ الدعاء منه إلى الله، فـ «ما» والفعل على هذا القول مصدر[1]. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أوثاناً وأصناماً. وقال السّدي: يعني: أنداداً من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم[2]. ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ليقتديَ به الجُهَّال.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: قُلْ لهذا الإنسان: «تَمَتَّع» وهو أمرُ تهديد، فمتاع الدنيا قليل. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مصيرك إلى النار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضَى ذِكْره. وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «أَمَّنْ» بالتشديد. وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة: «أَمَنْ هو» بالتخفيف على معنى النداء[3]؛ كأنه قال: يا من هو قانت. قال الفراء[4]: الألف بمنزلة يا، تقول: يا زيدُ أقبِلْ، وأزيدُ أقبِلْ. وحُكِيَ ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال أوسُ بن حَجَر:

أَبَـنـي لُـبَـيْـنَـى لـسـتُـمُ بِـيَـدٍ ... إلَّا يـداً لـيـسـت لـهـا عَـضُـدُ[5]

وقال آخر هو ذو الرُّمَّة:

أداراً بِـحُـزْوَى هِـجْـتِ لِـلـعـيـنِ عَـبْـرَةً ... فـمـاءُ الـهـوى يَـرْفَـضُّ أو يَـتَـرَقْـرَقُ[6]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٣ بنحوه.

(٣) السبعة ص٥٦١ ، والتيسير ص١٨٩ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤١٦ .

(٥) ديوان أوس بن حَجَر ص٢١ .

(٦) ديوان ذي الرُّمة ١/ ٤٥٦ . قال شارحه أبو نصر: ماء الهوى، أراد الدمع الذي يدمعه من الهوى، يرفضّ: يسيل متفرقاً.

فالتقدير على هذا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ يا مَنْ هو قانتٌ، إنَّك من أصحاب الجنة؛ كما يقال في الكلام: فلانٌ لا يُصلِّي ولا يصوم، فيا من يُصلِّي ويَصوم أبْشِرْ؛ فحذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل: إنَّ الألفَ في «أَمَنْ» ألفُ استفهام، أي: «أَمَنْ هو قَانتٌ آناءَ الليل» أفضلُ؟ أمْ مَنْ جعل لله أنداداً؟ والتقدير: الذي هو قانتٌ خيرٌ.

ومَنْ شدَّد «أمَّنْ» فالمعنى: العاصون المتقدِّم ذِكْرهم خيرٌ «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ»؟، فالجملة التي عادلت أمْ محذوفة، والأصل: أَمْ مَنْ، فأدغمت في الميم. النحاس[1]: وأم بمعنى بل، ومَن بمعنى الذي؛ والتقدير: بل[2] الذي هو قانتٌ أفضلُ ممن ذُكِرَ.

وفي قانت أربعةُ أوجه: أحدها: أنه المُطيع؛ قاله ابن مسعود. الثاني: أنه الخاشعُ في صلاته؛ قاله ابن شهاب. الثالث: أنه القائم في صلاته؛ قاله يحيى بن سلّام. الرابع: بأنه الداعي لربه[3]. وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعةٌ لله عزّ وجلّ»[4]. ورُوي عن جابر عن النبي ﷺ أنه سُئل: أيُّ الصلاة أفضل؟ فقال: «طولُ القنوت»[5] وتأوَّله جماعةٌ من أهل العلم على أنه طُول القيام.

وروى عُبيد الله[6] عن نافع عن ابن عمر سُئل عن القنوت فقال: ما أعرفُ القنوت إلا طولَ القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طولُ الركوع وغضُّ البصر، وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضُّوا أبصارَهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٥ - ٦ وما قبله منه بنحوه، وينظر الحجة للفارسي ٦/ ٩٢ - ٩٣.

(٢) في النسخ: أم، والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) وفي إسناده رِشْدين بن سعد، وهو ضعيف، كما في التقريب وسلف ١٦/ ٤١٦.

(٥) أخرجه مسلم (٧٥٦)، وسلف ٢/ ٣٣٤.

(٦) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ (والكلام منه): عبد الله، والمثبت موافق لمصادر التخريج، وهو عبيد الله بن عمر العمري، والأثر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٦، والطبري ٢٠/ ١٧٦.

صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين.

قال النحاس[١]: أصلُ هذا أن القنوت الطاعة، فكلُّ ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلُّها داخلةٌ في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر: قُمْ فصلِّ، فقمتُ أُصلِّي وكان عليَّ ثوبٌ خَلَقٌ، فدعاني فقال لي: أرأيتَ لو وجَّهتك في حاجة، أكنتَ تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزيَّن، قال: فاللهُ أحقُّ أن تتزيَّن له[٢].

واختلف في تعيين القانت هاهنا، فذكر يحيى بن سلام أنه رسولُ الله ﷺ. وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر: هو عثمانُ ﷺ. وقال مقاتل: إنه عمَّار بن ياسر. الكلبي: صُهَيب وأبو ذرّ وابن مسعود. وعن الكلبي أيضاً أنه مرسلٌ فيمن كان على هذه الحال[٣].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال الحسن: ساعاته؛ أوله وأوسطه وآخره. وعن ابن عباس: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ جوف الليل[٤]. قال ابن عباس: مَن أحبَّ أن يُهوِّن الله عليه الوقوفَ يومَ القيامة، فَلْيَرَهُ اللهُ في ظُلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمةَ ربِّه[٥]. وقيل: ما بين المغرب والعشاء[٦]. وقول الحسن عامّ.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ قال سعيد بن جُبير: أي: عذاب الآخرة[٧].

﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ أي: نعيم الجنة. ورُوي عن الحسن أنه سُئل عن رجل يتمادى

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٦، وما قبله منه.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في المصنف (١٣٩٠) و(١٣٩١).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٧٣، وزاد المسير ٧/ ١٦٦ - ١٦٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٧.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦.

في المعاصي ويرجو فقال: هذا مَتَمَنٍّ[١].

ولا يقف على قوله: «رَحْمَةَ رَبِّهِ» مَن خفَّف «أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ» على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متصلٌ إلا أن يُقدَّر في الكلام حذفٌ، وهو أيسر[٢]، على ما تقدَّم بيانُه. قال الزجاج[٣]: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المُطيع والعاصي.

وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة مَن لم يعلم.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قل: يا محمد لعبادي المؤمنين: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اتقوا معاصِيَه، والتاء مُبدَلة من واو، وقد تقدم[٤]. وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة[٥]. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني بالحسنة الأُولى الطاعة، وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى: للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا، يكون ذلك زيادةً على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحةُ والعافية والظَّفَر والغَنيمة[٦]. قال القُشَيري: والأول أصحُّ؛ لأن الكافر قد ينال[٧] نِعَمَ الدنيا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ - ٥٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٧، وما بعده منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧، وتقدم ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٨ بنحوه.

(٧) في (م): نال.

قلت: وينالها معه المؤمن ويُزاد الجنةَ إذا شكر تلك النِّعم. وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناءَ الحسن، وفي الآخرة الجزاء.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ فهاجِروا فيها ولا تُقيموا مع من يعمل بالمعاصي. وقد مضى القولُ في هذا مستوفى في «النساء»[١]. وقيل: المراد أرضُ الجنة؛ رغَّبهم في سَعَتها وسَعَةِ نعيمها[٢]؛ كما قال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والجنة قد تُسمَّى أرضاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر: ٧٤] والأول أظهرُ، فهو أمر بالهجرة. أي: ارحلوا من مكةَ إلى حيث تأْمَنوا[٣].

الماوردي[٤]: ويَحتمِلُ أن يُريدَ بسعة الأرض سَعَةَ الرِّزق؛ لأنه يرزقُهم من الأرض فيكون معناه: ورِزْقُ الله واسعٌ، وهو أشبهُ؛ لأنه أخرج سعتها مُخْرَجَ الامتنان.

قلت: فتكون الآيةُ دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية إلى الأرض الراخية؛ كما قال سفيان الثوري: كن في موضعٍ تملأ فيه جِرابك خبزاً بدرهم.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير. وقيل: يُزاد على الثواب؛ لأنه لو أُعطيَ بقدر ما عَمِلَ لكان بحساب. وقيل: «بغير حسابٍ» أي: بغير متابعة ولا مُطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا[٥].

و«الصَّابِرُونَ» هنا الصائمون؛ دليله قولُه عليه الصلاة والسلام مُخبراً عن الله عزَّ وجلَّ: «الصومُ لي وأنا أجزي به»[٦]. قال أهل العلم: كلُّ أجرٍ يُكال كيلاً ويُوزَن

---

(١) ٧/ ٦٥ وما بعدها.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٥٣ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧ .

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، وسلف ٢/ ٦٧ .

وزناً إلا الصبر[١]، فإنه يُحثَى حَثْواً ويُغرَف غَرْفاً؛ وحُكي عن علي ﷺ.

وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: هو الصبرُ على فجائع الدنيا وأحزانها. ولا شكَّ أن كل مَن سلَّم فيما أصابه، وترك ما نُهي عنه، فلا مقدارَ لأجره[٢].

وقال قتادة: لا والله، ما هناك مِكيال ولا ميزان؛ حدثني أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «تُنصَبُ الموازين، فَيُؤتَى بأهل الصَّدَقة فَيُوفَّون أُجورَهم بالموازين، وكذلك الصلاة والحج، ويُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا يُنشر لهم ديوان، ويُصَبُّ عليهم الأجر بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهلُ العافية في الدنيا أن أجسادهم تُقرَض بالمقاريض مما يذهبُ به أهل البلاء من الفضل»[٣].

وعن الحسن بن علي[٤] رضي الله عنهما قال: سمعتُ جدي رسول الله ﷺ يقول: «أَدِّ الفرائضَ تكن من أعبدِ الناس، وعليك بالقُنوع تكن من أغنى الناس، يا بُنيّ، إن في الجنة شجرةً يقال لها: شجرة البلوى، يُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، يُصبُّ عليهم الأجر صبّاً، ثم تلا النبيُّ ﷺ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»[٥].

ولفظ صابر يُمدح به، وإنما هو لمن صَبَر عن المعاصي، وإذا أردتَ أنه صبر على

---

(١) في النسخ: الصوم، والمثبت موافق لمعنى ما في المصادر. ينظر النكت والعيون ٥/ ١١٩، وتفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٤ - ١٦٤٥.

(٣) قول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٩، وحديث أنس ﷺ أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٣٢٣.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الحسين بن علي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لمصادر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٦٠) دون قوله: «. . إن في الجنة شجرة. .» إلى آخره، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٣٥: وفيه سعد بن طريف، وهو ضعيف جداً. قلنا: قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع. وقوله منه: «أدِّ الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس» أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٨٤ من حديث ابن مسعود ﷺ، وقال الدارقطني: رفعه وهم، والصحيح من قول ابن مسعود ﷺ.

المصيبة قلت: صابر على كذا؛ قاله النحاس[١]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ تقدَّم أول السورة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمة، وكذلك كان؛ فإنه كان أولَ من خالفَ دينَ آبائه، وخلع الأصنام وحطَّمها، وأسلم لله وآمنَ به، ودعا إليه ﷺ.

واللام في قوله: «لِأَنْ أَكُونَ» صلة زائدة؛ قاله الجُرجاني وغيره. وقيل: لام أَجْل. وفي الكلام حذف، أي: أُمرت بالعبادة «لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد عذابَ يوم القيامة. وقاله حين دعاه قومُه إلى دين آبائه؛ قاله أكثرُ أهل التفسير[٣].

وقال أبو حمزة الثُّمالي وابن المسيَّب: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فكانت هذه الآيةُ من قبل أن يُغفر ذنبُ النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ «اللهَ» نصب بـ «أَعْبُدُ»[٤] ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أمرُ تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقيل: منسوخة بآية السيف[٥].

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٧.

(٢) ٢/ ٤٦٣ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧.

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٩، قال ابن الجوزي: وهذا باطل، لأنه لو كان أمراً، كان منسوخاً، فأما أن يكون بمعنى الوعيد فلا وجه لنسخه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وقد خلق اللهُ له زوجةً في الجنة، فإذا دخل النارَ خَسِرَ نَفْسَه وأهلَه[1]. وفي رواية عن ابن عباس: فمن عَمِلَ بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبلَ ذلك[2]، وهو قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمَّى ما تحتهم ظُللاً؛ لأنها تُظِلُّ مَن تحتهم، وهذه الآية نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[3] [الأعراف: ٤١]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: يا أوليائي فخافون. وقيل: هو عامٌّ في المؤمن والكافر. وقيل: خاصٌّ بالكفار.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ قال الأخفش[4]: الطاغوت جمع، ويجوز أن تكون واحدةً مؤنثة. وقد تقدم[5]. أي: تباعدوا من الطاغوت، وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن. وقيل: إنه اسمٌ أعجمي مثل:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨.

(٥) ٦/ ٤٦١.

طالوت وجالوت وهاروت، ماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطُّغيان[١]، و«أن»في موضع نصب بدلاً من الطاغوت، تقديره: والذين اجتنبوا عبادةَ الطاغوت. ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: رَجَعوا إلى عبادته وطاعته .﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العُقبى.

رُوي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير ﷺ؛ سألوا أبا بكر ﷺ فأخبرهم بإيمانه فآمنوا. وقيل: نزلت في زيد بن عمرو ابن نُفيل وأبي ذرّ وغيرهما ممن وحّد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ[٢].

وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس: هو الرجلُ يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكفُّ عن القبيح فلا يتحدَّث به[٣]. وقيل: يستمعون القرآنَ وغيره فيتَّبعون القرآن[٤]. وقيل: يستمعون القرآن وأقوالَ الرسول فيتَّبعون أحسنه، أي: محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عَزْماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل: يستمعون العقوبةَ الواجبةَ لهم والعفوَ فيأخذون بالعفو[٥].

وقيل: إنَّ أحسنَ القول على من جعل الآية فيمن وحَّد الله قبلَ الإسلام «لا إله إلا الله».

وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نُفيل وأبي ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي، اجتنَبوا الطاغوتَ أن يعبدوها في جاهليتهم، واتَّبعوا أحسنَ ما صار من القول إليهم[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٠ ، وقول مجاهد وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٢١ بنحوه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٣ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٢١ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٥ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لما يرضاه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: الذين انتفعوا بعقولهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ كان النبي ﷺ يَحرِصُ على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشَّقاوة، فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: يُريد أبا لهب وولده ومَن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان[1]. وكرَّر الاستفهام في قوله: «أَفَأَنْتَ» تأكيداً لِطُول الكلام، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] على ما تقدَّم. والمعنى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أفأنت تُنقذه. والكلام شرط وجوابه. وجيء بالاستفهام؛ ليدلَّ على التوقيف والتقرير. وقال الفراء[2]: المعنى: أفأنتَ تُنقذ من حقَّت عليه كلمةُ العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب ينجو منه، وما بعده مُستأنَف.

وقال: «أفمن حَقَّ عليه» وقال في موضع آخر: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [يونس: ٣٣] لأن الفعلَ إذا تقدَّم ووقع بينه وبين الموصوف به حائلٌ جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيثَ هنا ليس بحقيقي، بل الكلمة في معنى الكلام والقول؛ أي: أفمن حقَّ عليه قول العذاب.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ لما بيَّن أن للكفار ظُللاً من النار مِن فوقهم

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ بنحوه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٦٣ - ١٦٤، وما قبله وما بعده فيه بنحوه.

ومن تحتهم بيَّن أن للمتقين غُرَفاً فوقَها غرف؛ لأن الجنةَ درجاتٌ يعلو بعضُها بعضاً و«لَكِن» ليس للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفي، كقوله: ما رأيتُ زيداً لكن عَمراً، بل هو لترك قصةٍ إلى قصة مُخالفةٍ للأُولى، كقولك: جاءني زيدٌ لكن عمرو لم يأتِ.

﴿غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ قال ابن عباس: مِن زَبَرجد وياقوت ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: هي جامعةٌ لأسباب النُّزهة.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر؛ لأن معنى «لهم غُرَفٌ»: وَعَدَهم الله ذلك وعداً. ويجوز الرفع بمعنى: ذلك وَعْدُ الله(١). ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: ما وعدَ الفريقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: إنه لا يُخلف الميعاد في إحياء الخَلْق، والتميز بين المؤمن والكافر، وهو قادرٌ على ذلك كما أنه قادرٌ على إنزال الماء من السماء.

«أنزلَ مِنَ السَّماءِ» أي: من السَّحاب «ماءً» أي: المطر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي: فأدخله في الأرض وأسكنه فيها؛ كما قال: ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. ﴿يَنَـٰبِيعَ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع يَنْبُع ويَنْبَع ويَنْبِعُ، بالرفع والنصب والخفض ـ النحاس(٢): وحكى لنا ابنُ كَيْسان في قول الشاعر:

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ(٣)

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٨.

(٢) في إعراب القرآن ٤/٨، وما قبله منه.

(٣) قائله عنترة، وهو من معلقته. الديوان ص٢٢. وعجزه: زيَّافة مثل الفنيق المُكْدَم. والذِّفْرى من القفا: الموضع الذي يعرق من الإبل خلفَ الأذن، والغضوب: الناقة العبوس، والجَسْرة: الماضية في سيرها، والزيَّافة: مبالغة زائف؛ إذا تبختر في مشيه، والفنيق: الفحل. والمُكْدَم: الذي لا يُؤذى ولا يُركَب لكرامته على أهله. خزانة الأدب ١/١٢٤ - ١٢٥.

أنَّ معناه: يَنْبَع، فأشبع الفتحةَ فصارتْ ألفاً ـ نُبوعاً: خرج. واليَنْبوع عينُ الماء والجمع الينابيع[١]. وقد مضى في «سبحان»[٢].

«ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ» أي: بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿زَرْعًا﴾ هو للجنس، أي: زروعاً شتى لها ألوانٌ مختلفة، حُمرة وصُفرة وزُرقة وخُضرة ونوراً. قال الشعبي والضحاك: كلُّ ماء في الأرض فمن السماء نزل، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة، ثم تقسم منها العيون والرَّكايا. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ أي: بعد خُضرته ﴿مُصْفَرًّا﴾[٣].

قال المبرد: قال الأصمعي: يقال: هاجت الأرض تهيجُ إذا أدبر نَبْتُها وولّى. قال: وكذلك هاج النبتُ. قال: وكذلك قال غير الأصمعي[٤].

وقال الجوهري[٥]: هاج النبتُ هِياجاً، أي: يَبِسَ. وأرضٌ هائجة يَبِسَ بَقْلُها أو اصفرَّ، وأهاجت الريحُ النَّبْتَ: أيْبسَتْه، وأهيجنا الأرضَ، أي: وجدْناها هائجةَ النبات، وهاج هائجه، أي: ثار غضبه، وهدأ هائجه، أي: سكنت فَوْرته.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتاً مُكَسَّراً، من: تحطَّم العودُ، إذا تفتَّتَ من اليبس[٦]. والمعنى: أن مَن قَدَر على هذا قَدَر على الإعادة. وقيل: هو مَثَلٌ ضربه الله للقرآن ولصدور مَن في الأرض، أي: أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ديناً مُختلفاً بعضُه أفضلُ من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً، وأما الذي في قلبه مرضٌ فإنه يهيج كما يهيج الزرع. وقيل: هو مثلٌ ضربه الله للدنيا؛ أي: كما يتغير النبت الأخضر فيصفرّ كذلك الدنيا بعد بَهْجتها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(١) الصحاح (نبع).
(٢) ١٣/ ١٧٤.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٦ بنحوه، وقول الشعبي أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٨.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨ - ٩.
(٥) في الصحاح (هيج).
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحَ: فتح ووسَّع. قال ابن عباس: وسَّع صدره للإسلام حتى ثبتَ فيه. وقال السدي: وسَّع صَدْره بالإسلام للفرح به والطُّمأنينة إليه؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشَّرح قبلَ الإسلام(١).

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ أي: على هُدىً من ربِّه كمن طبع على قلبه وأقساه. ودلَّ على هذا المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾(٢). قال المبرد: يقال: قسا القلبُ، إذا صَلُب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها. وقلبٌ قاسٍ، أي: صُلْب لا يرقّ ولا يَلين(٣). والمراد بمن شرح الله صَدْرَه هاهنا فيما ذكر المفسرون عليٌّ وحمزةُ رضي الله عنهما(٤). وحكى النقَّاش أنه عمرُ بن الخطاب ﷺ. وقال مقاتل: عمار بن ياسر. وعنه أيضاً والكلبي: رسولُ الله ﷺ(٥).

والآية عامةٌ فيمن شرح اللهُ صَدْره بِخَلْق الإيمان فيه.

وروى [عمرو بن] مُرَّة [عن أبي عبيدة](٦) عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسولَ الله، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرح وانفتح»قلنا: يا رسولَ الله، وما علامةُ ذلك؟. قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢١، ونسب القول الأول لابن عباس رضي الله عنهما والسدي، ولم ينسب الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٢٢ .

(٦) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج، وينظر التعليق التالي.

قبلَ نُزوله»(١)، وخرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي: المؤمنين أكيسُ؟ قال: «أكثرُهم للموت ذِكْراً، وأحسنُهم له استعداداً، وإذا دخل النورُ في القلب انفسح واستوسع» قالوا: فما آيةُ ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت»(٢) فذكر ﷺ خِصالاً ثلاثة، ولا شكَّ أن من كانت فيه هذه الخِصال فهو الكامل الإيمان، فإنَّ الإنابةَ إنما هي أعمال البر؛ لأن دارَ الخُلود إنما وضعت جزاءً لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضعَ في تنزيله، ثم قال بعقب ذلك: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] فالجنةُ جزاء الأعمال؛ فإذا انكمش العبدُ في أعمال البر فهو إنابتُه إلى دار الخلود، وإذا خَمَد حِرْصه عن الدنيا، ولَها عن طلبها، وأقبل على ما يُغنيه منها فاكتفى به وقَنِعَ، فقد تجافى عن دار الغرور. وإذا أَحكم أموره بالتقوى فكان ناظراً في كل أمر، واقفاً متأدِّباً مُتثبِّتاً حَذِراً يتورَّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه، فقد استعدَّ للموت. فهذه علامتُهم في الظاهر. وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دارُ الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤيةُ بالنور الذي وَلَج القلب(٣).

وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ قيل: المراد أبو لهب وولده، ومعنى: «مِنْ ذِكْرِ اللهِ» أن قلوبهم تزداد قسوةً من سماع ذِكْره. وقيل: إن «مِن» بمعنى عن والمعنى: قَسَتْ عن قَبول ذِكْر الله. وهذا اختيار الطبري(٤).

(١) وهو حديث ضعيف جداً، قال الدارقطني في العلل١٨٩/٥ : يرويه عمرو بن مرة، واختلف عنه... وذكر عدة طرق له ثم قال: وكلها وهم، والصواب: عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، كذلك قاله الثوري، وعبد الله بن المسور هذا متروك. اهـ قلنا: وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود ﷺ، وقد سلف الحديث ٢٣/٩ ، ينظر ما ذكرناه ثمة.

(٢) نوادر الأصول ص١٢٥ - ١٢٦ . وأخرجه مختصراً ابن ماجه (٤٢٥٩) وفي إسناده نافع بن عبد الله عن فروة بن قيس، وهما مجهولان كما في التقريب.

(٣) نوادر الأصول ص١٢٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٩٠/٢٠ ، وينظر زاد المسير ١٧٤/٧ .

وعن أبي سعيد الخُدري أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: اطلُبوا الحوائج من السُّمَحاء، فإني جعلتُ فيهم رحمتي، ولا تطلبوها من القاسية قُلوبهم، فإني جعلتُ فيهم سَخَطي»(١).

وقال مالك بن دينار: ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوة قلب، وما غَضِبَ الله على قوم إلا نَزَعَ الرحمةَ من قلوبهم(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن لما قال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ بيَّن أن أحسنَ ما يُسمع ما أنزله الله، وهو القرآن. قال سعدُ بن أبي وقَّاص: قال أصحابُ رسول الله ﷺ: لو حدَّثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقالوا: لو قصصتَ علينا فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] فقالوا: لو ذكَّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية(٣) [الحديد:١٦].

وعن ابن مسعود ﷺ أن أصحابَ رسول الله ﷺ مَلُّوا مَلَّة فقالوا له: حدِّثنا، فنزلتْ(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/٢٨٦، بلفظ: «إن الله يقول: اطلبوا الفضل من الرُّحَماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم...». وفي إسناده محمد بن مروان السدي كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، لا يحل كتابة حديثه إلا على جهة الاعتبار، قاله ابن حبان، وينظر لسان الميزان ٣/٤٤٦ - ٤٤٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٥٢٧، وتفسير البغوي ٤/٧٦.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/٤٠٨، وسلف ١١/ ٢٤٠ دون قولهم: لو ذكّرتنا...

(٤) المحرر الوجيز ٣/٢١٨ - ٢١٩.

والحديث ما يُحدِّثُ به المُحدِّث. وسُمِّي القرآن حديثاً؛ لأن رسولَ الله ﷺ كان يُحدِّث به أصحابَه وقومَه، وهو كقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩] وقوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

قال القشيري: وتوهَّم قومٌ أن الحديثَ من الحُدوث، فليدلَّ على أن كلامه مُحدَث، وهو وهم؛ لأنه لا يُريد لفظَ الحديث على ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وقد قالوا: إنَّ الحُدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المَتْلوّ، وهو كالذِّكر مع المذكور، إذا ذكرنا أسماءَ الربّ تعالى.

﴿كِتَٰبًا﴾ نصب على البدل من «أَحْسَنَ الحَدِيثِ» ويَحتمل أن يكون حالاً منه. ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ يُشبه بعضُه بعضاً في الحُسن والحِكمة ويُصدِّق بعضُه بعضاً[1]، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلاف. وقال قتادة: يُشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف. وقيل: يُشبه كُتبَ الله المُنزلة على أنبيائه؛ لما يتضمَّنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإنْ كان أعمَّ وأعجزَ[2]. ثم وصفه فقال: ﴿مَّثَانِىَ﴾ تُثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وثُني للتلاوة فلا يُمَلّ.

﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عند آية الرحمة. وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: «إلى ذِكْرِ اللهِ» يعني الإسلام.

الثانية: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحابُ النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن كما نَعَتَهم الله؛ تدمع أعينُهم وتقشعرُّ جلودهم. قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خَرَّ أحدُهم مَغْشِيّاً عليه. فقالت: أعوذُ بالله

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٢٢ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٩١ .

من الشيطان الرجيم.

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجُمحي: مرَّ ابنُ عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قُرئ عليه القرآن وسَمِعَ ذِكْر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لَنخشى الله وما نسقط. ثم قال: إن الشيطانَ يدخلُ في جوف أحدِهم؛ ما كان هذا صنيعَ أصحاب محمد ﷺ[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: ذُكر عند ابن سيرين الذين يُصرعون إذا قُرئ عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدُهم على ظهر بيت باسطاً رجليه، ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإنْ رمى بنفسه فهو صادق[٢].

وقال أبو عِمران الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذاتَ يوم فشقّ رجلٌ قميصه، فأوحى الله إلى موسى: قل لصاحب القميص: لا يشقَّ قميصَه، فإني لا أُحِبُّ المُبذرين؛ يشرح لي عن قلبه[٣].

الثالثة: قال زيد بن أسلم: قرأ أُبيّ بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه[٤] فرقّوا، فقال النبيُّ ﷺ: «اغتنموا الدُّعاء عند الرِّقة، فإنها رحمةٌ»[٥]. وعن العباس أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: «إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمن من مَخافةِ الله تحاتَّتْ عنه خطاياه كما يَتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقُها»[٦].

وعن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما اقشعرَّ جلدُ عبدٍ من خَشيةِ الله إلا حرَّمه اللهُ على النار»[٧]. وعن شهر بن حَوْشَب عن أُمِّ الدرداء قالت: إنما الوجل في

(١) أخرج الخبرين البغوي في تفسيره ٤/ ٧٧، وذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٨.

(٢) المصدران السابقان دون ذكر عمر بن عبد العزيز ﷺ، ولم نقف عليه من قوله.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣١٤ - ٣١٥.

(٤) قوله: ومعه أصحابه، من (م).

(٥) أخرجه الشهاب في مسنده (٦٩٢) وهو مرسل، فإن زيداً لم يدرك أبياً ﷺ.

(٦) أخرجه البزار في مسنده (١٣٢٢).

(٧) لم نقف عليه.

قلب الرجل كاحتراق السَّعفة، أما تَجِدُ إلا قُشَعْريرة؟ قلت: بلى؛ قالت: فادعُ اللهَ، فإن الدعاء عند ذلك مُستجاب[١]. وعن ثابت البُناني قال: قال فلان: إني لأعلمُ متى يُستجاب لي. قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعرَّ جلدي، ووَجِلَ قلبي، وفاضتْ عيناي، فذلك حين يُستجاب لي[٢].

يقال: اقشعرّ جلدُ الرجل اقشعراراً فهو مُقْشَعِرّ، والجمع قشاعر، فَتُحذَف الميم، لأنها زائدة؛ يقال: أخذَتْه قُشَعْريرة[٣]. قال امرؤ القيس:

فَبِتُّ أكابِدُ ليلَ التِّمَا م والقلبُ مِن خشيةٍ مُقْشَعِرّ[٤]

وقيل: إن القرآنَ لما كان في غاية الجَزالة والبلاغة، فكانوا إذا رَأَوْا عَجْزَهم عن معارضته، اقشعرَّت الجلودُ منه إعظاماً له، وتَعجُّباً من حُسن ترصيفه[٥] وتَهَيُّباً لِمَا فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالتصدُّع قريبٌ من الاقشعرار، والخُشوع قريبٌ من قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى لين القلب رِقّته وطمأنينته وسُكونه.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن هُدَى الله. وقيل: أي: الذي وهبه اللهُ لهؤلاء من خَشية عقابه ورجاء ثوابه هُدَى الله[٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَذَله فلا مُرشِدَ له. وهو يردُّ على القَدَرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كلّه مستوفىً في غير موضع، والحمد لله.

ووقف ابن كثير وابن مُحيصن على قوله: «هادٍ» في الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء[٧].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٣٨).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١١٣٩)، وذكره الحكيم في نوادر الأصول ص١١٤.
(٣) الصحاح (قشعر).
(٤) ديوان امرئ القيس ص١٥٨. قال شارحه: ليل التِّمام: أطول ليل في الشتاء.
(٥) في (م): ترصيعه.
(٦) المحرر الوجيز ٤/٥٢٨، وزاد المسير ٧/١٧٨ بمعناه.
(٧) السبعة ص٣٦٠، والتيسير ص١٣٣.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد: يُرْمَى به مكتوفاً في النار، فأوّل شيء تَمَسُّ منه النار وجهه. وقال مجاهد: يُجَرُّ على وجهه في النار. وقال مقاتل: هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولةً يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو مُعلّق عنقه، فحرُّها ووَهجها على وجهه؛ لا يُطيق دَفْعها عن وجهه من أجل الأغلال(١).

والخبر محذوف. قال الأخفش(٢): أي: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أفضلُ أَمْ من سَعِدَ، مثل: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وتقول الخزنة للكافرين: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاءَ كَسْبِكُم من المعاصي. ومثله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدَّم معناه(٣). وقال المبرد: يقال لكلِّ ما نال الجارحة من شيء: قد ذاقته، أي: وصل إليها كما تَصِلُ الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخِزي المكروه(٤)، والخَزاية من الاستحياء(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٩.

(٣) ٢/ ٣٢٤.

(٤) في (م): من المكروه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ - ١٠.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وقيل: أي: ما ذكرنا[١] من إهلاك الأُمم السالفة مَثَلٌ لهؤلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتّعظون.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال. قال الأخفش[٢]: لأن قوله جلّ وعزّ: «في هذا القرآن» معرفة. وقال علي بن سليمان: «عَرَبيّاً» نصب على الحال، و«قُرْآناً» توطئة للحال كما تقول: مررتُ بزيد رجلاً صالحاً، فقولك: صالحاً هو المنصوبُ على الحال. وقال الزجاج[٣]: «عَرَبيّاً» منصوب على الحال و«قُرْآناً» توكيد.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ النحاس[٤]: أحسنُ ما قيل فيه قول الضحاك: قال: غير مختلف. وهو قول ابن عباس، ذكره الثعلبي[٥]. وعن ابن عباس أيضاً: غير مخلوق، ذكره المهدوي[٦] وقاله السدي فيما ذكره الثعلبي. وقال عثمان بن عفان: غير مُتضاد. وقال مجاهد: غير ذي لَبْس. وقال بكر بن عبد الله المُزَني: غير ذي لَحْن[٧]. وقيل: غير ذي شكّ. قاله السُّدي فيما ذكره الماوردي[٨]. قال:

---

(١) في (م): ما ذكرناه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ ، وما قبله منه.

(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٨) في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ .

وقـد أتـاكَ يـقِـيـنٌ غـيـرُ ذي عِـوَجٍ مِـن الإلـهِ وقـولٌ غـيـرُ مـكـذوبِ[١]

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكُفرَ والكذب.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ قال الكسائي: نصب «رَجُلاً» لأنه ترجمةٌ للمَثَل وتفسيرٌ له[٢]، وإن شئتَ نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلاً برجل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾[٣].

قال الفرّاء[٤]: أي: مختلفون. وقال المبرّد: أي: متعاسرون، من: شَكِسَ يَشْكَسُ شَكَساً، فهو شَكِسٌ، مثل: عَسِرَ يَعْسَرُ عَسَراً، فهو عَسِرٌ، يقال: رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرسٌ وضَبِسٌ. ويقال: رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ، أي: شَرِسٌ عَسِر شَكِسٌ؛ قاله الجوهري[٥].

الزمخشري[٦]: والتشاكسُ والتشاخسُ الاختلافُ. يقال: تشاكسَتْ أحوالُه وتشاخسَتْ أسنانُه.

ويقال: شاكسني فلان، أي: ماكسني وشاحّني في حقّي. قال الجوهري[٧]: رجل شَكْس ـ بالتسكين ـ أي: صَعْب الخُلُق. قال الراجز:

شَـكْـسٌ عَـبُـوسٌ عَـنْـبَـسٌ عَـذَوَّرُ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٩٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٥) في الصحاح (ضبس).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٩٧.

(٧) في الصحاح (شكس).

وقوم شُكْسٌ، مثال: رَجلٌ صَدْق، وقوم صُدْق. وقد شَكِس ـ بالكسر ـ شَكَاسةً. وحكى الفراء[١]: رجل شَكِسٌ. وهو القياس، وهذا مَثَلُ مَنْ عَبَدَ آلهةً كثيرة.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً لِسيِّد واحد، وهو مَثَلُ مَنْ يعبد اللهَ وحدَه. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا الذي يخدُم جماعةَ شُركاءَ، أخلاقُهم مختلفة، ونيَّاتهم مُتباينة، لا يلقاه رجلٌ إلا جرَّه واستخدمه؛ فهو يَلقى منهم العَناء والنَّصَب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كلِّه لا يُرضي واحداً منهم بخدمته لِكَثْرة الحقوق في رقبته، والذي يخدُم واحداً لا يُنازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحدَه عَرَفَ ذلك له؛ وإن أخطأ صَفَحَ عن خطئه، فأيهما أقلُّ تعباً أو على هُدى مستقيم[٢].

وقراءة أهل الكوفة وأهل المدينة: «وَرَجُلاً سَلَماً» وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدَري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «وَرَجُلاً سَالِماً»[٣] واختاره أبو عُبيد لِصحة التفسير فيه. قال: لأن السالمَ الخالصُ ضدُّ المُشتَرك، والسَّلم ضِدّ الحرب، ولا موضعَ للحربِ هنا.

النحاس[٤]: وهذا الاحتجاجُ لا يلزم، لأن الحرفَ إذا كان له مَعنيان لم يُحمل إلا على أولاهما، فهذا وإن كان السَّلمُ ضدَّ الحرب فله موضعٌ آخر؛ كما يقال: لك في هذا المنزل شُركاء فصار سَلَماً لك. ويلزمه أيضاً في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال: شيء سالم، أي: لا عاهةَ به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة.

واختار أبو حاتم قراءةَ أهل المدينة «سَلَماً» قال: وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جُبير وعكرمة وأبو العالية ونصر: «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام[٥].

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شكس).

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٢٤، والكشاف ٣/ ٣٩٦ - ٣٩٧، وزاد المسير ٧/ ١٧٩-١٨٠.

(٣) السبعة ص ٥٦٢، والتيسير ص١٨٩، والنشر ٢/ ٣٦٢.

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ - ١١، وما قبله منه.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ عن سعيد بن جبير.

وسِلْماً وسَلَماً مصدران، والتقدير: ورجلاً ذا سلم فحذف المضاف. و«مَثَلاً» صفةً، على التمييز، والمعنى: هل تستوي صِفتاهما وحالاهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لِبيان الجنس[١]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيتبعونه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقرأ ابن مُحيصن وابن أبي عَبْلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إِنَّكَ مَائِتٌ وإِنَّهُمْ مَائِتُونَ» وهي قراءةٌ حسنةٌ، وبها قرأ عبدالله ابن الزُّبير[٢]. النحاس[٣]: ومثل هذه الألف تُحذف في الشواد[٤]، و«مائت» في المستقبل كثيرٌ في كلام العرب؛ ومثلُه: ما كان مريضاً وإنه لمارض من هذا الطعام.

وقال الحسن والفراء والكسائي: الميّت بالتشديد: من لم يَمُتْ وسيموت، والمَيْت بالتخفيف: مَنْ فارقته الروح؛ فلذلك لم تُخفف هنا[٥]. قال قتادة: نُعِيتْ إلى النبي ﷺ نَفْسُه، ونُعِيَتْ إليكم أنفسُكم[٦]. وقال ثابت البُناني: نَعَى رجلٌ إلى صِلَةَ ابن أَشْيَم أخاً له فوافقه يأكل، فقال: ادْنُ فَكُلْ، فقد نُعِيَ إليَّ أخي منذ حين؛ قال: وكيف وأنا أوّل من أتاك بالخبر. قال: إن الله تعالى نعاه إليّ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٧].

وهو خطابٌ للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم؛ فاحتمل خمسةَ أوجه: أحدها أن

(١) الكشاف ٣/٣٩٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ١١ ، وما قبله منه.

(٤) في (د) و(ز) و(م): الشواذ، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن.

(٥) ذكر قول الفراء والكسائي البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ١٨/ ٦٠ .

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٣٨ . وصلة بن أَشْيَم: أبو الصهباء، العدوي، البصري، زوج العالمة معاذة العدوية، مات سنة (٦٢هـ). السير ٣/ ٤٩٧ .

يكون ذلك تحذيراً من الآخرة. الثاني: أن يُذكِّره حثّاً على العمل. الثالث: أن يُذكِّره توطئة للموت. الرابع: لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأُمَمُ في غيره، حتى إن عمرَ ﷺ لما أنكر موتَه احتجَّ أبو بكر ﷺ بهذه الآية فأمسك. الخامس: لِيُعْلمه أن الله تعالى قد سوَّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لِتكثر فيه السَّلوة وتقلَّ فيه الحَسْرة[١].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ابن عباس[٢] وغيره. وفي خبر فيه طول: إن الخصومةَ تبلغ يومَ القيامة إلى أن يُحاجَّ الروحُ الجسد[٣].

وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، أيُكَرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب؟ قال: «نعم، لَيُكرَّرنَّ عليكم حتى يؤدَّى إلى كل ذي حقٍّ حقَّه» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد[٤].

وقال ابن عمر: لقد عِشنا بُرهةً من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابَيْن ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فقلنا: وكيف نختصمُ ونبينا واحد وديننا واحد، حتى رأيتُ بعضنا يضربُ وجوهَ بعض بالسيف؛ فعرفتُ أنها فينا نزلت[٥].

وقال أبو سعيد الخُدري: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبيُّنا واحد فما هذه الخصومة. فلما كان يوم صِفِّين وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٥ ، وخبر إنكار عمر ﷺ موتَ النبي ﷺ عند البخاري (١٢٤١) وسلف ٥/ ٣٤٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠١ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١٤٣٤) بهذا اللفظ، وأخرجه الترمذي (٣٢٣٦) بنحوه مختصراً.

(٥) ذكره بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ ، وأخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (١١٣٨٣)، والطبري ٢٠/ ٢٠٢ ، وقوله: حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف. يعني فتنة مقتل عثمان ﷺ.

وقال إبراهيم النَّخَعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قُتل عثمان ﷺ قالوا: هذه خصومتنا بيننا(١).

وقيل: تخاصُمهم هو تحاكُمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مَظْلِمته، ويردُّها في حسنات مَن وَجَبتْ له.

وهذا عامٌّ في جميع المظالم، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المُفْلس؟» قالوا: المُفْلس فينا مَن لا درهمَ له ولا مَتاع. قال: «إنَّ المفلسَ من أمّتي مَن يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دم هذا، وضرب هذا، فيعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يُقْضى(٢) ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحت عليه، ثم طُرِحَ في النار» خرجه مسلم(٣). وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «آل عمران».

وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «من كانت له مَظْلِمةٌ لأحد(٤) من عِرْضه أو شيء فَلْيتحلله منه اليومَ قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرهم، إن كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بقدر مَظْلِمته وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئات صاحبه فحمل عليه»(٥) وفي الحديث المسند: أوّلُ ما تقع الخُصومات في الدنيا(٦). وقد ذكرنا هذا الباب كلَّه في «التذكرة» مستوفى(٧).

---

(١) ذكر هذا الخبر والذي قبله البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ . وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٢ .

(٢) في النسخ: قبل انقضاء، والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح مسلم، والحديث منه كما سيأتي.

(٣) الحديث (٢٥٨١)، وسلف ٥/ ٤١٤ .

(٤) في النسخ: من كانت له عنده لأخيه مظلمة. والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح البخاري.

(٥) صحيح البخاري (٢٤٤٩) وسلف ٢/ ٧٦ .

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (برواية نعيم بن حماد) (٣٨٨) من قول ابن مسعود ﷺ مطولاً بلفظ: إن الله يجمع الناس في صعيد واحد... ثم يكون أول ما يبدؤون من الخصومات في الدنيا، فيؤتى بالقاتل والمقتول...

(٧) ص٢٦٧ .

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعم أنَّ له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ يعني القرآن، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ استفهامُ تقرير ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مقامٌ للجاحدين[١]، وهو مشتقٌّ من: ثَوَى بالمكان، إذا أقام به يَثْوِي ثَوَاء وثُوِيّاً، مثل: مَضَى مَضَاء ومُضِيّاً[٢]، ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى. وهذا يدلّ على أن ثَوَى هي اللغةُ الفصيحة. وحكى أبو عُبيدة[٣]: أثوى، وأنشد قول الأعشى:

أَثْـوَى وقَـصَّـر لَـيْـلَـةً لِـيُـزَوَّدا ومَضَى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدا[٤]

والأصمعيُّ لا يعرف إلا ثَوَى، ويروي البيت: أَثَوَى، على الاستفهام. وأَثْوَيتُ غيري يتعدَّى ولا يتعدَّى[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٦]، واختلف في الذي جاء بِالصدقِ وصَدَّقَ بِهِ؛ فقال عليٌّ ﷺ: «الذي جاءَ بالصِّدْق» النبيُّ ﷺ، «وَصدَّقَ بِهِ» أبو بكر ﷺ[٧]. وقال مجاهد: النبيُّ عليه الصلاة والسلام وعليّ ﷺ[٨]. السّدي: الذي جاء بالصِّدق جبريلُ ﷺ، والذي صدَّق به

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩ .
(٢) الصحاح (ثوي).
(٣) في النسخ: أبو عبيد، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١ ، والكلام منه.
وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠٧ .
(٤) ديوان الأعشى ص٢٧٧ .
(٥) الصحاح (ثوي).
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ .
(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٤ .
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١ .

محمدٌ ﷺ[١]. وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة: «الذي جاءَ بِالصِّدْق» النبيُّ ﷺ «وَصَدَّقَ به» المؤمنون. واستدلوا على ذلك بقوله: «أولئك هم المُتَّقُونَ»[٢]، كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال النَّخَعي ومجاهد: «الذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّقَ به» المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يومَ القيامة فيقولون: هذا الذي أعطيتمُونا قد اتَّبعنا ما فيه[٣]؛ فيكون «الذي» على هذا بمعنى جمع، كما تكون مَنْ بمعنى جمع، وقيل: بل حُذفت منه النون لِطُول الاسم. وتأوَّله الشعبي على أنه واحد، وقال: «الذي جاءَ بِالصِّدْقِ» محمد ﷺ، وصدَّق به محمد ﷺ[٤]، فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظَّم: هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا.

وقيل: إن ذلك عامٌّ في كل مَن دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله ابن عباس وغيره، واختاره الطبري[٥].

وفي قراءة ابن مسعود: «والذي جَاؤُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ»[٦] وهذه قراءة على التفسير. وفي قراءة أبي صالح الكوفي: «والذي جاءَ بِالصِّدْق وصَدَقَ به» مُخَفَّفاً على معنى: وصَدَقَ بمجيئه به، أي: صَدَقَ في طاعة الله عز وجل[٧]، وقد مضى في «البقرة» الكلامُ في «الَّذِي» وأنه يكون واحداً ويكون جمعاً[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٩، وقول قتادة وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٥.
(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٦ عن مجاهد.
(٤) قوله وصدَّق به محمد ﷺ، ليس في (د) و(ز) و(م)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ وعبارته: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدَّق به أبو بكر الصديق ﷺ والصحابة. والمثبت من (ظ) ونسخة من إعراب القرآن للنحاس أشار إليها محققه، وهو الصواب.
(٥) في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٦، وأخرج قول ابن عباس ﷺ ٢٠/ ٢٠٤.
(٦) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والدر المصون ٩/ ٤٢٧، ووقع في القراءات الشاذة: جاء، بدل: جاؤوا.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢، وقراءة أبي صالح في المحتسب ٢/ ٢٣٧.
(٨) ١/ ٣٢٠ - ٣٢١.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ أي: من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرامٌ عندي؛ أي: ينالك: مني ذلك. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الثَّناء في الدنيا والثوابُ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: صَدَّقوا «لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم» ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: يُكرمهم ولا يُؤاخذهم بما عملوا قبلَ الإسلام ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: يُثيبهم على الطاعات في الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ حُذفت الياء من «كاف» لِسُكونها وسكون التنوين بعدها؛ وكان الأصل ألا تُحذف في الوقف لِزوال التنوين، إلا أنها حُذفت لِيُعْلَمَ أنها كذلك في الوصل. ومن العرب من يُثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي[(١)].

وقراءة العامة: «عَبْدَهُ» بالتوحيد؛ يعني محمداً ﷺ يَكفيه اللهُ وعيدَ المشركين وكَيْدَهم. وقرأ حمزة والكسائي: «عِبادَهُ»[(٢)] وهم الأنبياء، أو الأنبياء والمؤمنون بهم. واختار أبو عُبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[(٣)]. ويَحتمِلُ أن يكون العبدُ لفظ الجنس؛ كقوله عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] وعلى هذا تكون القراءةُ الأولى راجعةً إلى الثانية.

والكفاية [من][(٤)] شر الأصنام، فإنهم كانوا يُخوِّفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢.

(٢) السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٨٨.

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٨١.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

﴿بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال الجُرجاني: إنَّ الله كافٍ عبدَه المؤمن وعبدَه الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وذلك أنهم خوَّفوا النبيَّ ﷺ مَضرَّةَ الأوثان، فقالوا: أتسبُّ آلهتنا؟ لئن لم تَكُفَّ عن ذِكْرها لَتَخْبِلَنَّكَ أو تُصيبنَّك بسوء[1]. وقال قتادة: مشى خالدُ بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرَها بالفأس، فقال له سادِنها: أُحَذِّرُكَها يا خالد، فإن لها شدّةً لا يقوم لها شيء، فعَمَدَ خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس[2]. وتخويفُهم لخالد تخويفٌ للنبيِّ ﷺ؛ لأنه الذي وجَّه خالداً. ويدخل في الآية تخويفُهم النبيّ ﷺ بِكَثْرة جَمْعهم وقُوَّتِهم؛ كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تقدَّم. ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ممن عاداه أو عادَى رُسُلَه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئن سألتَهم يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ بيَّنَ أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرُّون بأنَّ الخالقَ هو الله، وإذا

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٠.

كان الله هو الخالقَ فكيف يُخوِّفونَك بآلهتهم التي هي مخلوقةٌ لله تعالى، وأنت رسولُ اللهِ الذي خلقها وخلقَ السماواتِ والأرضَ؟!.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أي: قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا: «أفرأيتُم» ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ نعمة ورَخاء ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبيُّ ﷺ فسكتوا[١]. وقال غيره: قالوا: لا تَدْفَعُ شيئاً قدَّره الله، ولكنها تشفع، فنزلت: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني فسيقولون: لا، فـ «قُلْ» أنت: «حَسْبِيَ اللهُ» أي: عليه توكَّلتُ، أي: اعتمدتُ و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المعتمدون[٢]. وقد تقدّم الكلام في التوكل[٣].

وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصماً: «كَاشفَاتُ ضُرِّه» بغير تنوين[٤]. وقرأ أبو عمرو وشيبة ـ وهي المعروفة من قراءة الحسن ـ وعاصم[٥]: «هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ»، «مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ» بالتنوين على الأصل[٦]، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجودَ. قال الشاعر:

الضاربون عُمَيْراً عن بيوتهم ... بالليل يوم عُمَير ظالمٌ عادي[٧]

ولو كان ماضياً لم يَجُزْ فيه التنوين، وحذفُ التنوين على التخفيف[٨]، فإذا

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٠.
(٢) الكلام السالف في تفسير الطبري ٢٠/ ٢١١-٢١٢ بنحوه.
(٣) ٥/ ٢٩١ و٣٨٥.
(٤) السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠، وقراءة عاصم المشهورة عنه بغير تنوين، وقرأ بها ابن عامر أيضاً.
(٥) هذه رواية الكسائي عن أبي بكر عن عاصم، كما في السبعة ص٥٦٢، وهو غير المشهورة عنه.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣.
(٧) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٨٨، وفي الحُلل للبطليوسي ص١١٩.
(٨) في (ف) و(م): التحقيق، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣، والكلام منه.

حذفت التنوين لم يَبْقَ بين الاسمين حاجزٌ، فخفضت الثاني بالإضافة. وحذفُ التنوين كثيرٌ في كلام العرب موجودٌ حسن؛ قال الله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ [القمر: ٢٧] قال سيبويه: ومثل ذلك ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] وأنشد سيبويه(١):

هل أنتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتِنا ... أو عَبْدَ رَبٍّ أخا عَوْنِ بنِ مِخْراقِ(٢)

وقال النابغة:

احْكُمْ كَحُكْمِ فتاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ ... إلى حَمَامِ شِراعٍ وارِدِ الثَّمدِ(٣)

معناه: واردِ الثَّمَدَ، فحذف التنوين؛ مثل «كَاشِفَاتُ ضُرِّه»(٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي، أي: على جهتي التي تمكَّنَتْ عندي(٥) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقرأ أبو بكر: «مَكَانَاتِكُمْ» وقد مضى في «الأنعام»(٦). ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُهينه ويُذِلُّه، أي: في الدنيا، وذلك بالجوع والسيف. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقدَّم الكلامُ في هذه الآيةِ مستوفىً في غير موضع(٧).

---

(١) في الكتاب ١/ ١٧١.

(٢) قال البغدادي في الخزانة ٨/ ٢١٩: والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وقال ابن خلف: وقيل: هو لجابر بن رألان السِّنبسي، وسِنبس: أبو حي من طيئ، ونسبه غير خَدمة سيبويه إلى جرير، وإلى تأبط شرًّا، وإلى أنه مصنوع. اهـ.

(٣) ديوان النابغة ص٣٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣-١٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤.

(٦) ٩/ ٣٥، وقراءة أبي بكر في السبعة ص٢٦٩، والتيسير ص١٠٧.

(٧) ١١/ ٦٠.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يَقْبِضها عند فَناء آجالها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ اختلف فيه. فقيل: يَقْبِضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي النائمة، فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى[(١)]. وقال الفراء[(٢)]: المعنى: ويَقْبِض التي لم تَمُتْ في منامها عند انقضاء أَجَلها. قال: وقد يكون تَوَفِّيها نَوْمَها؛ فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمتْ وفاتُها نومُها.

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواحَ الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعُها الرُّجوعَ إلى الأجساد أَمْسك الله أرواحَ الأموات عنده، وأرسل أرواحَ الأحياء إلى أحسادها.

وقال سعيد بن جُبير: إن الله يقبض أرواحَ الأموات إذا ماتوا وأرواحَ الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فيُعيدها[(٣)].

قال علي ﷺ: فما رأته نَفْسُ النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقيها الشياطين، وتُخيِّل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة[(٤)]. وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموتُ

---

(١) النكت والعيون ٥/١٢٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ .

(٣) في (م): أي: يعيدها.

(٤) النكت والعيون ٥/١٢٨ - ١٢٩ ، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٥ .

وفاة[١]. وعن النبي ﷺ قال: «كما تنامون فكذلك تموتون، وكما توقظون فكذلك تُبعثون»[٢]. وقال عمر: النوم أخو الموت. ورُوي مرفوعاً من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسولَ الله، أينام أهلُ الجنة؟ قال: «لا، النومُ أخو الموت، والجنةُ لا موتَ فيها» خرجه الدارقطني[٣]. وقال ابن عباس: في ابن آدم نفسٌ وروح بينهما مثلُ شعاع الشمس، فالنفسُ التي بها العقل والتمييز، والروحُ التي بها النَّفَسُ والتحريك، فإذا نام العبدُ قبضَ اللهُ نَفْسَه ولم يقبضْ رُوحَه[٤]. وهذا قولُ ابن الأنباري والزجاج[٥].

قال القشيري أبو نصر: وفي هذا بُعْدٌ، إذ المفهوم من الآية أنّ النَّفْسَ المقبوضة في الحالين شيء واحد؛ ولهذا قال: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذاً يَقبِضُ اللهُ الروحَ في حالين، في حالة النوم وحالة الموت، فما قبضَه في حال النوم فمعناه أنه يَغْمُرُه بما يَحْبِسُه عن التصرف، فكأنه شيء مقبوض، وما قبضَه في حال الموت فهو يُمسكه ولا يُرسله إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: يُزيل الحابسَ عنه فيعود كما كان. فَتوفِّي الأنفس في حال النوم بإزالة الحِسّ وخَلْق الغَفْلة والآفة في مَحَلّ الإدراك. وتوفِّيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالةِ الحِسّ بالكُلِّية.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بألا يَخلُقَ فيها الإدراكَ، كيف وقد خلقَ فيها الموت؟ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بأنْ يُعيدَ إليها الإحساسَ.

الثانية: وقد اختلف الناسُ من هذه الآية في النفس والروح؛ هل هما شيءٌ واحد أو شيئان على ما ذكرنا. والأظهر أنهما شيءٌ واحد، وهو الذي تدلُّ عليه

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٦ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) لم نقف عليه عند الدارقطني، وسلف ٥/ ١٥٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٦ .

الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب، من ذلك حديث أُمِّ سلمة قالت: دخل رسولُ الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقَّ بصرُه فأغمضه، ثم قال: «إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِض تَبِعه البصرُ» وحديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألم تروا الإنسانَ إذا مات شَخَصَ بَصرُه» قال: «فذلك حين يَتْبع بَصَرُه نَفْسَه» خرجهما مسلم[(١)].

وعنه عن النبي ﷺ قال: «تحضرُ الملائكةُ فإذا كان الرجلُ صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النَّفْسُ الطَّيِّبة كانت في الجسدِ الطَّيِّب، اخرجي حميدةً، وأَبشري برَوْح ورَيْحان وربٍّ راضٍ غيرِ غَضْبان، فلا يزالُ يقال لها ذلك حتى تخرجَ، ثم يُعرج بها إلى السماء» وذكر الحديث، وإسناده صحيح، خرجه ابن ماجه[(٢)]؛ وقد ذكرناه في «التذكرة»[(٣)].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: «إذا خَرَجَتْ روحُ المؤمن تلقَّاها مَلَكان يَصْعَدان بها». وذكر الحديث[(٤)].

وقال بلال في حديث الوادي: أخذ بنَفْسي يا رسول الله الذي أَخَذَ بنفسك[(٥)]. وقال رسولُ الله ﷺ مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: «يا أيها الناس، إن الله قبضَ أرواحَنا، ولو شاء ردَّها إلينا في حينٍ غيرِ هذا»[(٦)].

الثالثة: والصحيح فيه أنه جسمٌ لطيفٌ مُشابِكٌ للأجسام المحسوسة، يُجذَب ويُخْرج وفي أكفانه يُلَف ويُدرَج، وبه إلى السماء يُعرَج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أوّل وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة؛ كما في حديث

(١) برقم (٩٢٠) و(٩٢١)، والحديث الأول أخرجه أحمد (٢٦٥٤٣).

(٢) الحديث (٤٢٦٢)، وهو في مسند أحمد (٨٧٦٩).

(٣) ص٥٠.

(٤) صحيح مسلم (٢٨٧٢).

(٥) أخرجه مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه مالك ١/ ١٤ بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٦١١)، والبخاري (٥٩٥) من حديث أبي قتادة ﷺ.

أبي هريرة. وهذه صفةُ الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبارَ بهذا كلِّه في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»[1]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣] يعني النَّفْس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفةُ الجسم. والله أعلم.

الرابعة: خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدُكم إلى فِراشه فَلْيأخُذْ داخِلةَ إزاره فلينفُضْ بها فِراشَه وَلْيُسَمِّ اللهَ، فإنه لا يعلم ما خَلَفَهُ بعده[2] على فراشه، فإذا أرادَ أن يضطجعَ فَلْيضطجِعْ على شِقِّه الأيمن، وليقل: سبحانك ربي، بك[3] وضعتُ جنبي وبك أَرفعه، إن أمسكتَ نَفْسي فاغفِرْ لها». وقال البخاري وابن ماجه والترمذي: «فارحمها» بدل«فاغفر لها»، «وإنْ أَرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» زاد الترمذي «وإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردَّ عليَّ روحي، وأَذِنَ لي بذِكْره»[4].

وخرج البخاري عن حُذَيْفة قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أخذ مَضْجعه من الليل وضعَ يدَه تحت خدِّه؛ ثم يقول: «اللهم باسمك أموتُ وأحيا» وإذا استيقظ قال «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتَنا وإليه النُّشور»[5].

قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمَّى الفاعل «الموْتَ» نصباً؛ أي: قضى الله عليها، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عُبيد؛ لقوله في أول الآية: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ فهو يقضي عليها.

---

(١) ص٥٧ وما بعدها.

(٢) في النسخ: بعد، والمثبت من صحيح مسلم.

(٣) قوله: بك، ليس في (د) و(ز) و(م)، وفي (ف): لك وأثبتناه من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٢٠)، وصحيح مسلم(٢٧١٤)، وسنن ابن ماجه (٣٨٧٤) وسنن الترمذي (٣٤٠١). وهو في مسند أحمد (٧٨١١)، وقوله: بداخلة إزاره: أي: بالطرف الذي يلي الجسد. قاله السندي في حاشية مسند أحمد.

(٥) صحيح البخاري (٦٣١٤)، وهو في مسند أحمد (٢٣٢٨٦).

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي: «قُضِيَ عليها الموتُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]. النحاس[٢]: والمعنى واحدٌ غير أن القراءةَ الأُولى أبينُ وأشبهُ بنسق الكلام؛ لأنهم قد أجمعوا على «وَيُرْسِلُ» ولم يقرؤوا: «ويُرسَل».

وفي الآية تنبيهٌ على عظيم قُدرته وانفراده بالألوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويُحيِي ويُميت، لا يقدر على ذلك سواه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني في قبض الله نَفْسَ الميت والنائم، وإرساله نَفْسَ النائم وحَبْسه نَفْسَ الميت ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال الأصمعي: سمعتُ معتمراً يقول: روحُ الإنسان مثلُ كُبَّة الغَزْل، فترسل الروح، فتمضي ثم تمضي، ثم تُطوى فتجيء فتدخل، فمعنى الآية أنه يُرسَل من الروح شيء في حال النوم ومعظمُها في البدن متصلٌ بما يخرج منها اتصالاً خفيّاً، فإذا استيقظ المرءُ جذب معظمَ روحه ما انبسط منها فعاد. وقيل غير هذا؛ وفي التنزيل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: لا يعلم حقيقته إلا الله. وقد تقدّم في «سبحان».

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي: بل اتَّخذوا، يعني: الأصنام، وفي الكلام ما يتضمَّن لم؛ أي: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لم يتفكَّروا، ولكنهم اتَّخذوا آلهتهم شُفعاء.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ١٤، وما قبله منه.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: أتتخذونهم شُفعاءَ وإن كانوا لا يَملِكون شيئاً من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنها جمادات[١]. وهذا استفهامُ إنكار.

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نصٌّ في أن الشفاعةَ لله وحدَه كما قال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فلا شافعَ إلا من شفاعته ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

«جَميعاً» نصب على الحال. فإن قيل: «جَميعاً» إنما يكون للاثنين فصاعداً والشفاعة واحدة. فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدَّى عن الاثنين والجميع[٢] ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ قال المبرد: انقبضت[٣]. وهو قول ابن عباس ومجاهد[٤]. وقال قتادة: نفرتْ واستكبرتْ وكَفرتْ وتعصَّتْ[٥]. وقال المُؤَرِّج: أنكرت. وأصلُ الاشمئزاز النُّفور والازورار. قال عمرو بن كُلْثوم:

إذا عَضَّ الثِّقَافُ بِها اشْمَأَزَّتْ ... وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونا[٦]

وقال أبو زيد: اشمأزَّ الرجلُ: ذُعِرَ من الفَزَع، وهو المذعور[٧]. وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله نفروا وكفروا[٨]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني

(١) تفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٦ بنحوه.

(٦) معلقة عمرو بن كلثوم (بشرح ابن كيسان) ص٨٥. قال الشارح: الثِّقاف: الخشبة التي تُقوِّم بها الرماح، والعَشَوْزنة: الناقة السيئة الخلق التي تزبن من يحتلبها، أي: تدفعه بيدها ورجلها.

(٧) الصحاح (شمز).

(٨) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٦.

الأوثان حين ألقى الشيطان في أُمنية النبي ﷺ عند قراءته سورة «والنجم»: تلك الغَرانيقُ العُلَى وإن شفاعتَهم تُرْتَجَى. قاله جماعةُ المفسرين[١]. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يظهر في وجوههم البِشر والسُّرور.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نصب لأنه نداء مضاف، وكذا ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتاً[٢].

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشةَ رضي الله عنها: بأي شيء كان النبيُّ ﷺ يستفتح صلاتَه إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاتَه: «اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ اهدني لما اختُلف فيه من الحقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[٣].

ولـمَّا بلغ الربيع بن خُثيم[٤] قَتْلَ الحسين بن علي ﷺ قرأ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه، وقصة الغرانيق باطلة موضوعة، وسلفت ١٤/ ٤٢٧ ، ينظر الكلام عليها ثمة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ .

(٣) صحيح مسلم (٧٧٠)، وأخرجه أحمد (٢٥٢٢٥).

(٤) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): خيثم، والمثبت من (ز) وكتب الرجال.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١].

وقال سعيد بن جُبير: إني لأعرفُ آيةً ما قرأها أحدٌ قطُّ فسألَ اللهَ شيئاً إلاَّ أعطاه إيَّاه؛ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كذَّبوا وأشركوا ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: من سوء عذاب ذلك اليوم. وقد مضى هذا في سورة «آل عمران» و«الرعد»[٣].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ من أجلِّ ما رُوي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عَمِلوا أعمالاً توهَّموا أنها حسناتٌ فإذا هي سيئات. وقاله السدي. وقيل: عملوا أعمالاً توهَّموا أنهم يتوبون منها قبلَ الموت، فأدركهم الموتُ قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنُّوا أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهَّموا أنه يُغفر لهم من غير توبة فـ ﴿بَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار[٤].

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويلٌ لأهل الرِّياء، ويلٌ لأهل الرِّياء، هذه آيتُهم وقصَّتُهم. وقال عكرمة بن عمار[٥]: جَزِعَ محمدُ بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آيةً من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١١١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٣) ٥/ ١٩٨ وما بعدها و١٢/ ٥٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ دون قوله: وقاله السدي، وذكره عن السدي البغوي في تفسيره ٤/ ٨٢ .

(٥) أبو عمار العجلي، البصري، الحافظ، من حملة الحجة وأوعية الصدق، مات سنة (١٥٩هـ). السير ٧/ ١٣٤ . وقوله هذا في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٥ ، وقول سفيان الذي قبله فيه وفي الكشاف ٣/ ٤٠١ .

﴿لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشى أن يبدوَ لي ما لم أكن أحتسب.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: عقابُ ما كسبوا من الكُفر والمعاصي. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ قيل: إنها نزلت في أبي[(١)] حُذَيفة بن المغيرة.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ قال قتادة: «على عِلْم»[(٢)] عندي بوجوه المكاسب، وعنه أيضاً «على عِلْم» على خير عندي. وقيل: «على عِلْم» أي: على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: «على عِلْم» أي: بعلم علَّمني اللهُ إيَّاه[(٣)]. وقيل: المعنى أنه قال: قد علمتُ أني إذا أُوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلةً؛ فقال الله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بل النِّعم التي أُوتيتَها فتنةٌ تُختبر بها[(٤)].

قال الفراء[(٥)]: أنَّثَ «هي» لِتأنيث الفتنة، ولو كان: بل هو فتنة لجاز. النحاس: التقدير: بل أُعطِيتَهُ فتنةً.

---

(١) لفظة: أبي، ليست في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٢) قوله قال: قتادة: «على علم» من (م).

(٣) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٦ ، والنكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس٦/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٥ .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن إعطاءهم المالَ اختبار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أنَّث على تأنيث الكلمة[1] ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني الكفار قبلَهم، كقارون وغيره حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ «ما» للجحد، أي: لم تُغن عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من عذاب الله شيئاً[2]. وقيل: أي: فما الذي أغنى أموالهم؟ ف«ما» استفهام.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓا۟﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم. وقد يُسمَّى جزاء السيئة سيئةً. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أشركوا ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأمة ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: بالجوع والسيف. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين الله ولا سابقيه. وقد تقدّم[3].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصَّ المؤمن بالذِّكر؛ لأنه هو الذي يتدبَّر الآياتِ وينتفع بها. ويعلم أن سَعةَ الرِّزق قد يكون مكراً واستدراجاً، وتقتيره رِفعةً وإعظاماً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وإنْ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٨٢ بنحوه.

(٣) ٩/ ٣٥ و١١/ ٨.

شئتَ حذفتَ الياء؛ لأن النداء موضع حذف. النحاس[1]: ومن أجلّ ما رُوي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: لما اجتمعنا على الهجرة، اتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمي وعَيَّاش بن أبي ربيعة بن عُتْبة[2]، فقلنا: الموعد أَضاةَ[3] بني غفار، وقلنا: من تأخَّر منا فقد حُبِس فَلْيمضِ صاحبُه، فأصبحتُ أنا وعيَّاش بن عُتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عَرَفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتُها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمَتْ عليَّ خرجت بها إلى ذي طُوًى، فقلت: اللهم فَهِّمْنيها، فَعَرَفْتُ أنها نزلت فينا، فرجَعْتُ فجلست على بعيري، فلحقتُ برسول الله ﷺ[4].

وعن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان قومٌ من المشركين قَتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبيِّ ﷺ، أو بعثوا إليه: إنَّ ما تدعو إليه لحسن، لو تُخبرنا[5] أن لنا توبةً؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[6]

---

(١) إعراب القرآن ٤/١٦ ، وما قبله منه.

(٢) كذا في النسخ: عيَّاش بن أبي ربيعة بن عتبة، وفي إعراب القرآن للنحاس: عيَّاش بن عتبة، والذي في المصادر: عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله القرشي المخزومي. الإصابة ٧/ ١٨٤ ، والقصة فيها في ترجمة هشام بن العاص ١٠/٢٤٦ وصحَّح الحافظ ابن حجر إسنادها.

(٣) الأضاة: الغدير. اللسان (أضي).

(٤) السيرة النبوية ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦ ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٠-٣٩١ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): أو تخبرنا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/١٦ .

ذكره البخاري بمعناه[١]. وقد مضى في آخر «الفرقان»[٢].

وعن ابن عباس أيضاً نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أن مَن عَبَدَ الأوثانَ وقتلَ النَّفس التي حرَّم الله لم يُغفر له، وكيف نُهاجر ونُسْلم وقد عَبَدنا مع الله إلهاً آخرَ، وقتلنا النَّفْس التي حرَّم الله؟! فأنزل الله هذه الآية[٣].

وقيل: إنها نزلتْ في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة، وخافوا ألّا يتقبلَ منهم لذنوب سبقتْ لهم في الجاهلية.

وقال ابن عباس أيضاً وعطاء: نزلت في وحشيّ قاتل حمزةَ؛ لأنه ظنَّ أن الله لا يقبل إسلامَه. وروى ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أتَى وَحْشيٌّ إلى النبيّ ﷺ؛ فقال: يا محمد، أتيتُك مُستجيراً فأجِرْني حتى أسمعَ كلامَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «قد كنتُ أُحِبُّ أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مُستجيراً فأنت في جواري حتى تسمعَ كلامَ الله» قال: فإني أشركتُ بالله وقتلتُ النفس التي حرم الله وزنيتُ، هل يقبلُ الله مني توبة؟ فصمتَ رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] إلى آخر الآية، فتلاها عليه؛ فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمعَ كلام الله. فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلي ممن لا يشاء، أنا في جوارك حتى أسمع كلامَ الله. فنزلت: ﴿يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً. فأسلم[٤].

---

(١) الحديث (٤٨١٠)، والسائل هو وحشي بن حرب قاتل حمزة رضي الله عنهما فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٥٠.

(٢) ١٥/ ٤٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٩.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٧١٤٠)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٤٩ - ٣٥٠.

وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ: «قُلْ يا عبادِيَ الذين أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحمةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جمِيعاً ولا يُبالي، إِنَّه هو الغَفُورُ الرحيمُ»[1]. وفي مصحف ابن مسعود: «إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً لِمَنْ يشاءُ»[2].

قال أبو جعفر النحاس[3]: وهاتان القراءتان على التفسير، أي: يغفر الله لمن يشاء. وقد عرَّف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرةً ولم تكن له كبيرة، ودلّ على أنه يريد التائب ما بعده «وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ» فالتائب مغفور له ذنوبُه جميعاً، يدل على ذلك ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] فهذا لا إشكالَ فيه.

وقال عليّ بن أبي طالب: ما في القرآن آيةٌ أوسعَ من هذه الآية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[4] وقد مضى هذا في «سبحان»[5].

وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن، فردَّ عليهم ابن عباس وقال: أرجى آية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[6] وقد مضى في «الرعد» [الآية: ٦].

وقُرِئَ: «لا تَقْنِطُوا» بكسر النون وفتحها[7]. وقد مضى في «الحجر» بيانه[8].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة. لمَّا بيَّن أن من تاب

---

(١) أخرجه الدوري في قراءات النبي ﷺ (٦٠)، والترمذي (٣٢٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر بن حوشب. وأسماء: هي بنت يزيد أم سلمة الأنصارية رضي الله عنها.

(٢) ذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٤/ ١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣١ .

(٥) ١٠/ ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

(٧) قرأ بكسر النون أبو عمرو والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٨) ١٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

من الشِّرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابةُ الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُۥ﴾ أي: اخضعوا له وأطيعوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تُمنعون من عذابه. ورُوي من حديث جابر أن رسولَ الله ﷺ قال: «مِن السعادة أن يُطيل اللهُ عُمُرَ المرء في طاعة الله[1] ويرزقه الإنابةَ، وإنَّ من الشَّقاوة أن يعملَ المرءُ ويُعجب بعمله»[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ» هو القرآن، وكلُّه حسنٌ، والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعتَه، واجتنبوا معصيتَه. وقال السدّي: الأحسنُ ما أمر الله به في كتابه[3].

وقال ابن زيد: يعني المُحكمات، وكِلُوا عِلْمَ المُتشابه إلى عالمه. وقيل: أنزل الله كُتباً: التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن، وأمر باتّباعه، فهو الأحسن، وهو المُعجِز. وقيل: هذا أحسنُ، لأنه ناسخٌ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خيَّر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بين العفو والقِصاص. وقيل: ما علَّم الله النبيَّ عليه الصلاة والسلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أُوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأُمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ «أنْ» في موضع نصب، أي: كراهةَ «أنْ تقولَ» وعند الكوفيين: لئلا تقول[4]، وعند البصريين حَذَرَ «أنْ تقولَ». وقيل: أي:

---

(١) في (م): الطاعة.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨٩)، وفي إسناده كثير بن زيد الأسلمي. ضعَّفه أكثرهم. كما في الميزان ٣/ ٤٠٤ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

من قبل «أَنْ تقولَ نَفْسٌ» لأنه قال قبل هذا: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[١].

الزمخشري[٢]: فإنْ قلتَ: لم نُكِّرتْ؟ قلت: لأن المُرادَ بها بعضُ الأنفس، وهي نفسُ الكافر. ويجوز أن يُريد نفساً متميزة من الأنفس، إمّا بلجاج في الكفر شديد، أو بعقاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير كما قال الأعشى:

وربَّ بَقيعٍ لو هَتَفْتُ بِجَوِّهِ ... أتاني كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضَبا[٣]

وهو يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً، ونظيره: رُبَّ بلدٍ قطعتُ، وربَّ بطلٍ قارعتُ، ولا يقصد إلا التكثير[٤].

«يا حَسْرَتا» والأصل «يا حَسْرَتي» فأُبدل من الياء ألف؛ لأنها أخفُّ وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت[٥]، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء:

يا مَرْحَباهِ بحمارٍ ناجِيَهْ ... إذا أَتى قَرَّبْتُه لِلسَّانِيَهْ[٦]

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدلَّ على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر: «يا حَسْرتايَ»[٧]. والحَسْرة الندامة.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنْبِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: في طاعة الله[٨]. وقال الضحاك: أي: في ذكر الله عزّ وجلّ. قال: يعني القرآن والعمل به[٩]. وقال أبو عُبيدة: «في جَنْب

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٩٢ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٣) ديوان الأعشى ص١٦٥ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٢ ، وفيه: ناهيه، بدل ناجيه. والرجز في الخزانة ٢/ ٣٨٧ . وفيها: السانية: الدلو العظيمة وأداتها.

(٧) النشر ٢/ ٣٦٢ .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٥ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

الله» أي: في ثواب الله[1]. وقال الفراء: الجَنْب القُرب والجوار؛ يقال: فلان يعيشُ في جَنْبِ فلان، أي: في جِواره؛ ومنه ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ [النساء:٣٦] أي: على ما فرَّطْتُ في طلب جِواره وقُربه، وهو الجنة[2]. وقال الزجاج[3]: أي: على ما فرَّطتُ في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه.

والعرب تُسمِّي السببَ والطريق إلى الشيء جَنْباً؛ تقول: تجرعتُ في جَنْبك غصصاً؛ أي: لأجلك وسببك ولأجل مَرْضاتك. وقيل: «في جَنْبِ اللهِ» أي: في الجانب الذي يؤدِّي إلى رضا الله عزّ وجلّ وثوابه، والعرب تُسمِّي الجانبَ جَنْباً[4]، قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُوداً لِذاكَ القَلْبُ النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ[5]

يعني: الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفةَ: أي: تركتُ من أمر الله؛ يقال: ما فعلت ذلك في جَنْب حاجتي؛ قال كُثَيِّر:

ألا تَتَّقِينَ اللهَ في جَنْبِ عاشِقٍ لهُ كَبِدٌ حرَّى عليكِ تَقَطَّعُ[6]

وكذا قال مجاهد؛ أي: ضيعت من أمر الله[7]. ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلسَ رجلٌ مَجْلِساً، ولا مَشَى ممشى، ولا اضطجع مُضطجعاً لم يذكُرِ اللهَ عزَّ وجلَّ فيه إلا كان عليه تِرَةً يومَ القيامة» أي: حسرةً؛ خرجه أبو داود بمعناه[8]. وقال إبراهيم التيمي: من الحَسَرات يومَ القيامة أن يرى الرجلُ مالَه الذي آتاه اللهُ في الدنيا يومَ

(١) في مجاز القرآن، ٢/ ١٩٠ لأبي عبيدة: «في جنب الله» وفي ذات الله واحد.

(٢) ذكره عن الفراء ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٩٢ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٥) لم نقف على قائل هذا الرجز، وأورد البيت الثاني الأخفش في معاني القرآن ١/ ٤٤٦ .

(٦) ديوان كُثَيِّر ص١٧٧ ، وفيه: حبّ، بدل: جنب، وتصدّع، بدل: تقطّع.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨ بنحوه.

(٨) سنن أبي داود (٤٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٩٥٨٣) بنحوه، واللفظ الذي أورده المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

القيامة في ميزان غيره قد وَرِثه وعَمِلَ فيه بالحق، كان له أجرُه وعلى الآخر وِزْرُه، ومن الحَسَرات أن يرى الرجلُ عبدَه الذي خوَّله الله إياه في الدنيا أقربَ منزلةً من الله عزّ وجلّ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يومَ القيامة وعَمِيَ هو[1].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المُستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا بأولياء الله، قال قتادة: لم يَكْفِهِ أن ضيَّع طاعةَ الله حتى سَخِرَ من أهلها[2].

ومحلّ «إن كنت» النصب على الحال؛ كأنه قال: فرَّطْتُ وأنا ساخر؛ أي: فرَّطت في حال سُخريتي[3]. وقيل: وما كنت إلا في سُخرية ولعب وباطل؛ أي: ما كان سعيي إلا في عبادة غيرِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه النَّفس ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي: أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الشِّركَ والمعاصي. وهذا القولُ: لو أن الله هداني لاهتديت، قولُ صِدْق. وهو قريبٌ من احتجاج المشركين فيما أخبر الربُّ جلّ وعزّ عنهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] فهي كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل؛ كما قال عليٌّ ﷺ لمَّا قال قائلٌ من الخوارج: لا حكم إلا لله[4].

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ يعني هذه النَّفس ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رَجْعة. ﴿فَأَكُونَ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفاً على «كَرَّةً» لأن معناه: أنْ أكرَّ؛ كما قال الشاعر:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبُّ إليَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ[5]

وأنشد الفراء:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٤ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٤) أخرجه مسلم (١٠٦٦): (١٥٧).

(٥) قائلته ميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف الشطر الأول ٨/ ٥٠ ، ينظر تخريجه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨ .

فما لكَ مِنها غيرُ ذِكْرى وخَشْيَةٍ وتسألَ عن رُكْبانِها أين يَمَّمُوا[١]

فنصب وتسألَ على موضع الذِّكرى؛ لأن معنى الكلام: فمالكَ منها إلا أن تذكرَ. ومنه: لَلُبْسُ عباءة وتَقَرَّ؛ أي: لأنْ أَلْبَسَ عباءةً وتقرَّ.

وقال أبو صالح: كان رجلٌ عالم في بني إسرائيل وجد رقعة: إنَّ العبدَ لَيعملُ الزمانَ الطويل بطاعة الله، فيختمُ له عملُه بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجلَ لَيعمل الزمنَ الطويل بمعصية الله، ثم يختمُ له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال: ولأي شيء أُتعِبُ نفسي، فترك عملَه وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس: لك عمرٌ طويل، فتمتَّعْ في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق وأنفق مالَه في الفجور، فأتاه ملكُ الموت في ألذِّ ما كان، فقال: يا حسرتا على ما فرَّطتُ في جَنْب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه النَّدم؛ فأنزل الله خبره في القرآن[٢].

وقال قتادة: هؤلاء أصناف؛ صِنْفٌ منهم قال: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وصنفٌ منهم قال: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقال آخر: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣]. فقال الله تعالى ردّاً لِكلامهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾.

قال الزجاج[٤]: «بلى» جوابُ النفي، وليس في الكلام لفظُ النفي، ولكن معنى «لو أنَّ الله هَدَانِي» ما هداني، وكأن هذا القائلَ قال: ما هُدِيت؛ فقيل: بلى، قد بُيِّن لك طريق الهُدى، فكنت بحيث لو أردتَ أن تُؤمِنَ أمكنك أن تُؤمن.

«آيَاتِي» أي: القرآن. وقيل: عنى بالآياتِ المُعجزاتِ؛ أي: وَضَحَ الدليل فأنكرته وكذَّبته ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: تكبَّرت عن الإيمان ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقال: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ﴾ وهو خِطاب الذَّكَر؛ لأن النَّفس تقع على الذَّكَر

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٣، وفيه: وحسبة، بدل: وخشية. ولم نهتد إلى قائله.

(٢) ذكر القصة بنحوها ومختصرة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٠٤ ولم ينسبها.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٦.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

والأُنثى. يقال: ثلاثة أنفس. وقال المبرّد: تقول العرب: نفسٌ واحدٌ، أي: إنسان واحد.

وروى الربيع بن أنس عن أُمِّ سَلَمة عن النبي ﷺ قرأ: «قد جاءَتْكِ آياتي فَكَذَّبْتِ بِهَا واستَكْبَرْتِ وكنت من الكافرين»(١).

وقرأ الأعمش: «بلى قد جاءَتْهُ آيَاتي»(٢) وهذا يدلُّ على التذكير. والربيع بن أنس لم يَلْحَقْ أُمَّ سَلَمَةَ إلا أن القراءةَ جائزة؛ لأن النَّفس تقع للمذكَّر والمؤنث. وقد أنكر هذه القرءاةَ بعضُهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول: وكنتِ من الكوافر أو من الكافرات.

قال النحاس(٣): وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبلَه «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّـٰخِرِينَ﴾ ولم يقل: من السواخر، ولا من الساخرات. والتقدير في العربية على كسر التاء: «واستَكْبَرْتِ وكنتِ» من الجمع(٤) الساخرين، أو من الناسِ الساخرين، أو من القوم الساخرين.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ أي: مما حاط بهم من غضب الله ونِقمته. وقال الأخفش(٥): «تَرَى» غير عامل في قوله:

---

(١) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ (٩٩)، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣١ ، والكلام من معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨ .

(٣) في معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ ، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: الجميع، والمثبت من (م).

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٢ .

«وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» إنما هو ابتداءٌ وخبر.

الزمخشري[١]: جملة في موضع الحال إنْ كان «تَرَى» من رؤية البصر، ومفعولٌ ثانٍ إنْ كان من رؤية القلب.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبيَّن رسولُ الله ﷺ معنى الكِبْر فقال عليه الصلاة والسلام: «سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ الناس» أي: احتقارهم. وقد مضى في «البقرة»[٢] وغيرها.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «يُحشَرُ المُتكبِّرون يومَ القيامة كالذَّرِّ يلحقهم الصَّغار حتى يُؤتى بهم إلى سجن جهنم»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقُرئ: «ويُنْجي»[٤] أي: من الشِّرك والمعاصي. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على التوحيد قراءة العامة؛ لأنها مصدر. وقرأ الكوفيون: «بمَفَازَاتِهِمْ»[٥]، وهو جائز كما تقول: بسعاداتهم.

وعن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: «يَحشُر اللهُ مع كلِّ امرئ عملَه، فيكون عملُ المؤمن معه في أحسن صورة وأطيبِ ريح، فكلما كان رُعْبٌ أو خَوْفٌ قال له: لا تُرَعْ، فما أنت بالمُراد به، ولا أنت بالمَعْنيِّ به، فإذا كَثُرَ ذلك عليه قال: فما أحسنك، فمن أنت؟! فيقول: أما تَعرفني، أنا عَمَلُكَ الصالح حملتَني على ثِقَلي، فوالله لأحملنَّكَ ولأدفعنَّ عنك، فهي التي قال الله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[٦].

---

(١) الكشاف ٣/٤٠٦.

(٢) ١/٤٤١، والحديث أخرجه أحمد (٦٥٨٣) مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «.. الكِبْر بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ الناس».

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. والكلام السالف من إعراب القرآن للنحاس ٤/١٩.

(٤) قرأ بها يعقوب في رواية روح. النشر ٢/٢٥٩.

(٥) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «بمفازاتهم» بالألف على الجمع، والباقون بغير ألف على التوحيد. السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ونقله المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/١٩.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ﴾ أي: حافظ وقائم به. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ واحدُها مِقْليد. وقيل: مِقْلاد، وأكثر ما يُستعمل فيه إقليد. والمَقاليد المفاتيح؛ عن ابن عباس وغيره. وقال السُّدي: خزائن السماوات والأرض[(١)]. وقال غيره: خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات[(٢)]. وفيه لغةٌ أخرى: أقاليد، وعليها يكون واحدُها إقليد[(٣)].

قال الجوهري[(٤)]: والإقليد المِفْتاح، والمِقْلَد مِفْتاحٌ كالمِنْجل، ربما يُقلد به الكلأ كما يُقلد القَتُّ إذا جعل حِبالاً؛ أي: يُفتل، والجمع المَقاليد. وأقلدَ البحرُ على خلقٍ كثير، أي: غرَّقهم، كأنه أُغلقَ عليهم.

وخرَّج البيهقي عن ابن عمر أن عثمانَ بن عفان ﷺ سأل رسولَ الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ فقال رسولُ الله ﷺ: «ما سألني عنها أحدٌ؛ لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، يُحيي ويُميت؛ بيده الخير وهو على كل شيء قدير»[(٥)]. ذكره الثعلبي في «تفسيره»، وزاد: «مَنْ قالها إذا أصبح أو أمسى عشرَ مرات أعطاه الله ستَّ خِصال: أولها: يُحرَس من إبليس، والثانية: يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة: يُعطى قنطاراً من الأجر، والرابعة: تُرفع له درجة، والخامسة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والسادسة: يكون له من الأجر كمن قرأ القرآنَ والتوراةَ والإنجيل والزَّبور، وله أيضاً من الأجر كمن حجَّ واعتمر فَقُبلت

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٩، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠، وقولا ابن عباس رضي الله عنهما والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٢٤٢.

(٢) زاد المسير ٧/ ١٩٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٢.

(٤) في الصحاح (قلد).

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي (١٩)، وينظر التعليق التالي.

حجَّته وعُمرته، فإنْ مات من ليلته مات شهيداً»[١].

وروى الحارث[٢] عن عليٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسير المقاليد فقال: «يا عليّ، لقد سألتَ عن عظيم، المقاليد: هو أن تقول عشراً إذا أصبحت وعشراً إذا أمسيت: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وأستغفر الله، ولا قوّة إلا بالله الأوّلِ والآخرِ والظاهرِ والباطنِ، له الملك وله الحمد، بيده الخيرُ وهو على كلِّ شيء قدير» من قالها عشراً إذا أصبح وعشراً إذا أمسى أعطاه الله خِصالاً ستّاً: أولها يَحْرُسه من الشيطان وجنودِه، فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية: يُعطى قِنطاراً في الجنة هو أثقلُ في ميزانه من جبل أحد، والثالثة: تُرفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والخامسة: يشهده اثنا عشرَ ألف مَلَك يكتبونها له في رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يومَ القيامة، والسادسة: يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حجَّ واعتمر فَقَبِلَ اللهُ حِجَّته وعُمرتَه، وإنْ مات من يومه أو ليلته أو شهره طُبِعَ بطابَع الشهداء.

وقيل: المقاليد الطاعة يقال: ألقى إلى فلان بالمقاليد، أي: أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية: له طاعةُ من في السماوات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بالقرآن والحُجَج والدلالات. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ وذلك حين دعوا النبيَّ ﷺ إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دينُ آبائك.

---

(١) أخرجه بتمامه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٩٦ - ٩٧، وقال: وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ، لأنه مُنزَّه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد. قال الذهبي في الميزان ٤/ ٨٤ - ٨٥ بعد أن أورد الحديث: هذا موضوع فيما أرى، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١١٢: غريب، فيه نكارة شديدة، وفي صحته نظر.

(٢) هو الحارث بن عبد الله الهمداني الأعور، كذّبه الشعبي وابن المديني، وكان ابن سيرين يرى أن عامَّة ما يرويه عن علي ﷺ باطل. ميزان الاعتدال ١/ ٤٣٦.

و«غير» نصب بـ «أَعْبُدُ» على تقدير: أعبدُ غيرَ اللهِ فيما تأمرونني. ويجوز أن ينتصب بـ «تَأْمُرُونِّي» على حَذْف حرف الجرّ؛ التقدير: أتأمرونِّي بغير الله أن أعبُدَه، لأنّ أن مُقَّدرة، وأنْ والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير: أتأمرونّي بعبادة غير الله[١].

وقرأ نافع: «تَأْمُرُونيَ» بنون واحدة مخففَّة وفتح الياء. وقرأ ابن عامر: «تَأْمُرُونَنِي» بنونين مُخفَّفتين على الأصل. الباقون بنون واحدة مُشدَّدة على الإدغام[٢]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة. وقرأ نافع على حذف النون الثانية، وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها، وأيضاً حذفُ الأُولى لا يجوز؛ لأنها دلالةُ الرفع. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه عند قوله تعالى: «أَتُحَاجُونِّي»[٣].

«أَعْبُدُ» أي: أن أعبدَ، فلما حذف «أن» رفع؛ قاله الكسائي[٤]. ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَذا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى[٥]

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ: «أَعْبُدَ» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ قيل: إنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً؛ والتقدير: لقد أُوحي إليك لئن أشركتَ، وأُوحي إلى الذين من قبلك

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٣٢ .

(٢) السبعة ص٥٦٣ ، والتيسير ص١٩٠ .

(٣) ٨/ ٤٤٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠ .

(٥) قائله طرفة، وسلف بتمامه ١٤/ ١٨ .

كذلك. وقيل: هو على بابه[١]؛ قال مقاتل: أي: أُوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد محذوف. ثم قال: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ» يا محمد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهو خِطابٌ للنبي ﷺ خاصَّةً. وقيل: الخِطاب له والمُراد أُمته؛ إذْ قد عَلِمَ اللهُ أنه لا يُشرِك، ولا يقع منه إشراك. والإحباطُ الإبطالُ والفساد. قال القُشيري: فمن ارتدَّ لم تنفعه طاعاته السابقة، ولكن إحباط الرِّدة العملَ مشروطٌ بالوفاة على الكُفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧] فالمُطلق ها هنا محمولٌ على المُقيّد؛ ولهذا قلنا: مَن حَجَّ ثم ارتدَّ؛ ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادةُ الحجِّ.

قلت: هذا مذهب الشافعي. وعند مالك تجب عليه الإعادة، وقد مضى في «البقرة» بيانُ هذا مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ النحاس[٣]: في كتابي عن أبي إسحاق[٤] لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ «اعبُدْ» قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين.

قال النحاس: وقال الفراء[٥] يكون منصوباً بإضمار فعل. وحكاه المهدوي عن الكسائي. فأما الفاء، فقال الزجاج: إنها للمجازاة. وقال الأخفش: هي زائدة.

وقال ابن عباس: «فاعْبُدْ» أي: فوحّد. وقال غيره: «بَلِ اللهَ» فأطِعْ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمه بخلاف المشركين[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٠ بنحوه.

(٢) ٣/ ٤٣٠ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ٢١ .

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٦١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٤ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ قال المبرد: ما عظَّموه حقَّ عَظَمته من قولك: فلانٌ عظيم القدر. قال النحاس[١]: والمعنى على هذا: وما عظَّموه حقَّ عَظَمته إذ[٢] عبدوا معه غيره، وهو خالقُ الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قُدرته وعَظَمته، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾.

ثم نزّه نفسَه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، إنَّ الله يُمسك السماوات على إصبع [والأرَضين على إصبع، والجبال على إصبع] والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه، ثم قال: «ومَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

وفي البخاري ومسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامة ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين مُلوكَ الأرض»[٤]. وفي الترمذي: عن عائشة أنها سألت رسولَ الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ قالت: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جِسْر جهنم» في رواية «على الصِّراطِ يا عائشة» قال:

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٢١ - ٢٢، وما قبله منه.

(٢) في (م): إذا، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٨)، وأخرجه أحمد (٤٠٨٧)، والبخاري (٧٤١٤)، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٥١٩)، وصحيح مسلم (٢٧٨٧)، وأخرجه أحمد (٨٨٦٣).

حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[١].

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾، و«يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ» عبارة عن قُدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته[٢]؛ يقال: ما فلان إلا في قبضتي بمعنى: ما فلان إلا في قُدرتي، والناس يقولون: الأشياء في قبضته، يريدون في مُلكه وقُدرته. وقد يكون معنى القَبْض والطَّي إفناءَ الشيء وإذهابَه فقوله جلّ وعزّ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون المرادُ به: والأرض جميعاً ذاهبةٌ فانيةٌ يومَ القيامة. والمراد بالأرض الأَرَضون السَّبع؛ يشهد لذلك شاهدان: قوله: «والأَرْضُ جميعاً»، ولأن الموضعَ موضعُ تفخيم، فهو مُقتضٍ للمبالغة. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ليس يريد به طيّاً بعلاج وانتصاب، وإنما المرادُ بذلك الفَناء والذَّهاب؛ يقال: قد انطوى عنّا ما كنا فيه وجاءنا غيره. وانطوى عنّا دهرٌ بمعنى المُضِيّ والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القُدرة والمُلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] يريد به الملك؛ وقال ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي: بالقوّة والقُدرة، أي: لأخذنا قوته وقُدرتَه. قال الفرّاء[٣] والمبرد: اليمين القوّة والقدرة. وأنشدا:

إِذا مــا رَايَــةٌ رُفِـعَـتْ لِـمَـجْـدٍ ... تَـلَـقَّـاهـا عَـرابـةُ بِـالـيَـمِـيـنِ[٤]

قال آخر:

ولـمّـا رَأَيْـتُ الـشَّـمْـسَ أَشْـرَق نـورُهـا ... تَـنـاولـتُ مِـنـهـا حـاجـتـي بِـيَـمـيـنِ

قـتـلـتُ شُـنَـيْـفـاً ثـم فـارانَ بَـعـده ... وكـان عـلـى الآيـات غـيـرَ أمـيـنِ

وإنما خصَّ يوم القيامة بالذِّكر وإن كانت قُدرته شاملةً لكل شيء أيضاً؛ لأن

(١) سنن الترمذي (٣٢٤١) و(٣٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٥٦) و(٢٤٠٦٩).

(٢) الصواب إثبات صفة القبضة لله عز وجل من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة البيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٥٩ - ١٦٠، والكلام السالف منه.

(٤) قائله الشماخ بن ضرار، وسلف ٦/ ٣٨.

الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] وقال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ حسب ما تقدَّم في «الفاتحة»[١] ولذلك قال في الحديث: «ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرض» وقد زدنا هذا الباب في «التذكرة» بياناً[٢]، وتكلَّمنا على ذكر الشِّمال في حديث ابن عمر قوله: «ثم يطوي الأرضَ بشماله»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ بيَّن ما يكون بعد قبض الأرض وطيِّ السماء، وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخَلْق في الأُولى منهما ويحيون في الثانية، وقد مضى الكلامُ في هذا في «النمل» و«الأنعام» أيضاً[٤]. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيلُ عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريلُ؛ لحديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ صاحِبَي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يُلاحظان النَّظر متى يُؤمران» خرجه ابن ماجه في «السنن»[٥].

وفي كتاب أبي داود: عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسولُ الله ﷺ صاحبَ الصُّور، وقال: «عن يمينه جبرائيلُ وعن يساره ميكائيلُ»[٦].

واختلف في المُستثنى مَنْ هم. فقيل: هم الشهداء مُتقلِّدين أسيافَهم حولَ العرش. روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري[٧]، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي.

---

(١) ١/ ٢١٥ وما بعدها.

(٢) ص١٩٠ .

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) وفيه: الأرضين، بدل: الأرض.

(٤) ١٣/ ٢٣٩ وما بعدها، ٨/ ٤٣٠ وما بعدها.

(٥) الحديث (٤٢٧٣)، وفي إسناده الحجاج بن أرطاة وعطية العوفي، وكلاهما ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٣٥٦ و٣/ ١١٤ .

(٦) سنن أبي داود (٣٩٩٩)، وأخرجه أحمد (١١٠٦٩)، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف كما ذكرنا في التعليق السابق.

(٧) وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٧) .

وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام.ورُوي من حديث أنس أن النبي ﷺ تلا ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقالوا: يا نبيَّ الله، مَنْ هم الذين استثنى الله تعالى؟ قال: «هم جبريلُ وميكائيل وإسرافيلُ ومَلَك الموت، فيقول الله تعالى لمَلَك الموت: يا مَلَكَ الموت، مَن بقي من خَلْقي، وهو أعلمُ فيقول: يا رب، بقي جبريلُ وميكائيل وإسرافيل وعبدُك الضعيف مَلَكُ الموت، فيقول الله تعالى: خُذْ نَفْسَ إسرافيلَ وميكائيلَ، فَيَخِرَّان ميتين كالطَّوْدين العظيمين، فيقول: مُتْ يا مَلَك الموت، فيموت، فيقول الله تعالى لجبريل: يا جبريل، مَن بقي، فيقول: تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام، وجهُك الباقي الدائم وجبريلُ الميتُ الفاني، فيقول الله تعالى: يا جبريل، لا بدَّ من موتك فيقع ساجداً يخفقُ بجناحيه يقول: سبحانك ربي، تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام» فقال النبي ﷺ: «إنَّ فَضْلَ خَلْقه على خَلْق ميكائيل كالطَّود العظيم على الظَّرِب من الظِّراب» ذكره الثعلبي[١]. وذكره النحاس أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ في قوله جلّ وعزّ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال: «جبريلُ وميكائيلُ وحَمَلَةُ العرش ومَلَك الموت وإسرافيل»[٢].

وفي هذا الخبر[٣] أنَّ آخرَهم موتاً جبريل عليه وعليهم السلام، وحديث أبي هريرة في الشهداء أصحُّ على ما تقدَّم في «النمل»[٤].

وقال الضحاك: هو رضوان والحور ومالك والزَّبانية. وقيل: عقاربُ أهل النار وحيَّاتُها.

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٨) وسنده ضعيف فيما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٧١ . والظَّرِب: الجبل الصغير. القاموس (ظرب).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٩٣ - ١٩٤ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٤ من طريق محمد بن إسحاق به ويزيد الرَّقاشي ضعيف كما في تهذيب التهذيب ٤/ ٤٠٣ .

(٣) في (م): الحديث.

(٤) ١٣/ ٢٤١ .

وقال الحسن: هو اللهُ الواحد القهَّار وما يدعُ أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقَه الموت[١]. وقال قتادة: اللهُ أعلمُ بِثُنْياه[٢].

وقيل: الاستثناء في قوله: «إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ» يرجع إلى مَنْ مات قبلَ النفخةِ الأُولى؛ أي: فيموت مَن في السماوات والأرض إلا من سبق موتُه؛ لأنهم كانوا قد ماتوا.

وفي «الصحيحين» وابن ماجه - واللفظ له - عن أبي هريرة قال: قال رجلٌ من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البَشر؛ فرفع رجلٌ من الأنصار يدَه فَلَطمه؛ قال: تقولُ هذا وفينا رسولُ الله ﷺ. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قال الله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فأكون أوّلَ من رفع رأسَه، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أرَفَعَ رأسَه قبلي أو كان ممن استثنى اللهُ؟ ومن قال: أنا خيرٌ من يونس بن متّى فقد كذب»[٣] وخرَّجه الترمذي أيضاً وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[٤].

قال القشيري: ومَن حمل الاستثناءَ على موسى والشهداء فهؤلاءِ قد ماتوا غير أنهم أحياءٌ عند الله. فيجوز أن تكون الصَّعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكونَ بالموت، ولا يبعدُ أن يكونَ الموتُ والحياة، فكلٌّ ذلك مما يُجوِّزه العقلُ، والأمر في وقوعه موقوفٌ على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا تُخيِّروني

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٦ مختصراً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٨ .

(٣) صحيح البخاري (٣٤١٤) و(٣٤١٥)، وصحيح مسلم (٢٣٧٣)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٤)، وأخرجه أحمد (٩٨٢١).

(٤) سنن الترمذي (٣٢٤٥).

على موسى، فإنَّ الناسَ يَصْعَقون، فأكونُ أوّلَ من يُفيق، فإذا موسى باطِشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي أَمْ كان ممن استثنى الله؟» خرجه مسلم(١). ونحوه عن أبي سعيد الخدري(٢)؛ والإفاقةُ إنما تكون عن غشيةٍ وزوالِ عقل، لا عن موت بردِّ الحياة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: فإذا الأمواتُ من أهل الأرض والسماء أحياء بُعثوا من قبورهم، وأُعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يُؤمرون. وقيل: قيامٌ على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وُعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي: ينتظرون ما يفعل بهم.

وأجاز الكسائي قياماً بالنصب؛ كما تقول: خرجتُ فإذا زيدٌ جالساً(٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراقُها إضاءتها؛ يقال: أشرقت الشمسُ إذا أضاءتْ، وشَرَقت إذا طَلَعتْ. ومعنى: «بِنُورِ رَبِّها» بعدل ربِّها؛ قاله الحسن(٤) وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربِّها؛ والمعنى واحد؛ أي: أنارتْ وأضاءتْ بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظُّلم ظُلُماتٌ والعَدْل نور.

وقيل: إن الله يخلقُ نوراً يومَ القيامة يُلبسه وجهَ الأرض فتُشرق الأرضُ به.

وقال ابن عباس: النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نورٌ

---

(١) الحديث (٢٣٧٣): (١٦٠)، وهو في صحيح البخاري (٢٤١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٧)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/١٣٦ .

يخلقه اللهُ فيضيء به الأرض. وروي أن الأرضَ يومئذ من فضة تُشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى: أنها أشرقتْ بنورٍ خَلَقه الله تعالى، فأضاف النورَ إليه على حدِّ إضافة المُلك إلى المالك. وقيل: إنه اليومُ الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهارٌ لا ليلَ معه.

وقرأ ابن عباس وعُبيد بن عُمير: «وأُشْرِقَتِ الأَرْضُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[1]، وهي قراءة على التفسير.

وقد ضلَّ قومٌ ها هنا فتوهَّموا أن الله عزّ وجلّ من جنس النور والضِّياء المحسوس، وهو مُتعالٍ عن مُشابهة[2] المحسوسات، بل هو مُنوِّر السماوات والأرض، فمنه كلُّ نور خلقاً وإنشاء.

وقال أبو جعفر النحاس[3]: وقوله عز وجل ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يُبيِّن هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح: «تنظرون إلى الله عزّ وجلّ لا تُضامون في رؤيته»[4] وهو يُروى على أربعة أوجه: لا تُضامُون، ولا تضارُون، ولا تضامُّون، ولا تضارُّون؛ فمعنى «لاتُضامُون» لا يلحقكم ضَيْم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و«لا تُضارُون» لا يلحقكم ضَيْر. و«لا تَضامُّون» لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يُريه. و«لا تضارُّون» لا يُخالف بعضُكم بعضاً؛ يقال: ضارَّه مُضارَّة وضِراراً، أي: خالفه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٣٩.

(٢) في النسخ الخطية: مباينة. وهو خطأ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ بلفظ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر، لا تُضامون في رؤيته...» وسلف ٤/ ١٨٠. وأخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً وفيهما: «.. ما تُضارّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تُضارّون في رؤية أحدهما..» يعني الشمس والقمر، وهو في مسند أحمد (١٩١٩٠) و(١١١٢١) ينظر أحاديث الباب ثمة.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قال ابن عباس: يريد اللَّوح المحفوظ[(١)]. وقال قتادة: يُريد الكتب[(٢)] والصُّحف التي فيها أعمال بني آدم، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله[(٣)]. ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أُممهم.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين شَهِدوا على الأُمم من أُمة محمد ﷺ[(٤)]؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: المرادُ بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يومَ القيامة لمن ذبَّ عن دين الله؛ قاله السُّدي. وقال ابن زيد: هم الحَفَظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] فالسائق يسوقُها إلى الحساب والشهيدُ يشهد عليها، وهو المَلَكُ المُوكَّل بالإنسان، على ما يأتي بيانُه في «ق». ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق والعَدْل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال سعيد بن جُبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم[(٥)]. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شرٍّ. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا، ولا حاجةَ به عزَّ وجلَّ إلى كتابٍ ولا شاهد، ومع ذلك فتشهد الكُتب والشهود إلزاماً لِلحُجَّة.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ هذا بيانُ توفية كلِّ نفس

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٢ دون نسبة، وقال: وهذا شاذ، وليس فيه معنى التوعّد، وهو مقصد الآية.

(٢) في (م): الكتاب.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٣٦، وزاد المسير ٧/ ١٩٨ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٨ وزاد المسير ٧/ ١٩٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

عملها، فيساقُ الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة. والزُّمَر: الجماعاتُ، واحدتها زُمْرة، كظُلْمة وغُرْفة. وقال الأخفش وأبو عبيدة[١]: «زُمَراً» جماعاتٍ متفرقةً بعضها إثر بعض. قال الشاعر:

وتَـرى الـنَّـاسَ إلـى مَـنْـزِلـهِ زُمَـراً[٢] تَـنْـتَـابُـه بَـعْـدَ زُمَـر

وقال آخر:

حـتّـى احْـزَأَلَّـتْ زُمَـرٌ بـعـد زُمَـرْ[٣]

وقيل: دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار[٤].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جواب إذا، وهي سبعةُ أبواب. وقد مضى في «الحجر»[٥].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ واحدهم خازن، نحو سَدَنة وسادِن، يقولون لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: الكُتب المُنزلة على الأنبياء، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ أي: يُخوِّفونكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءتنا، وهذا اعترافٌ منهم بقيام الحُجَّة عليهم، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا جهنم. وقد مضَى الكلامُ في

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٩١، وقول الأخفش ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٨.

(٢) في النسخ الخطية: زمرة، والمثبت من (م). والبيت لم نقف عليه.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٠، والسمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٤٦، وقوله: احزألَّت، جاء في اللسان (حزل): احزألَّت الإبل، إذا اجتمعت ثم ارتفعت عن متن من الأرض في ذهابها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

(٥) ١٢/ ٢١٧ وما بعدها.

أبوابها. قال وهب: تستقبلُهم الزَّبانية بمقامعَ من نار، فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع في الدَّفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعةَ ومُضر. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدَّم بيانُه[١].

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يعني من الشهداء والزُّهَّاد والعلماء والقُرَّاء وغيرهم، ممن اتَّقى الله تعالى وعَمِلَ بطاعته. وقال في حقِّ الفريقين: «وَسِيق» بلفظ واحد، فسوقُ أهل النار طَرْدُهم إليها بالخِزْي والهَوان، كما يُفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سِيقوا إلى حَبْس أو قتل، وسَوْقُ أهل الجِنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرِّضوان؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين كما يُفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السَّوقين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قيل: الواو ها هنا للعطف عطف على جملة، والجواب محذوف. قال المبرد: أي: سعدوا وفُتحت، وحذفُ الجواب بليغٌ في كلام العرب. وأنشد:

فلو أنَّها نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعةً ... ولكنَّها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أنْفُسا[٢]

فحذف جواب لو، والتقدير: لكان أروح.

وقال الزجاج[٣]: «حتى إذا جاءُوها» دخلوها، وهو قريبٌ من الأول. وقيل:

---

(١) ١٢/٣١٧.

(٢) قائله امرؤ القيس، وسلف ١٢/ ٧١، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ - ٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٤.

الواو زائدة. قاله الكوفيون، وهو خطأ عند البصريين[١].

وقد قيل: إن زيادةَ الواو دليلٌ على أن الأبوابَ فُتحت لهم قبلَ أن يأتوا، لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاءوها وأبوابُها مفتحة، بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفُتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم. ذكره المهدوي، وحكى معناه النحاس قبلَه. قال النحاس[٢]: فأما الحِكمة في إثبات الواو في الثاني وحَذْفِها من الأول، فقد تكلّم فيه بعضُ أهل العلم بقول لا أعلمُ أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عزّ وجلّ في أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مغلقةً، ولما قال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مُفتحةً قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم.

وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يَعُدُّون من الواحد فيقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، فإذا بلغوا السبعة قالوا: وثمانية. قاله أبو بكر بن عياش[٣].

قال الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] ثم قال في الثامن: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢] وقال ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ٥] وقد مضى القول في هذا في «براءة» مستوفى، وفي «الكهف» أيضاً[٤].

قلت: وقد استدلَّ بهذا مَن قال: إن أبوابَ الجنة ثمانية؛ وذكروا حديثَ عمر بن الخطاب، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ يتوضأ فيُبْلِغُ ـ أو فيُسْبِغ ـ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣ .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٠٠ ، ونسبه للثعلبي.

(٤) ١٠/ ٣٩٧ و١٣/ ٢٤٦ .

الوضوء، ثم قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدُه ورسوله إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانية يدخلُ من أيِّها شاء» خرَّجه مسلم وغيره(١). وقد خرج الترمذي حديثَ عمر هذا وقال فيه: «فُتِحَ له من أبواب الجنة ثمانيةُ أبواب يومَ القيامة»(٢) بزيادة «مِن»، وهو يدلُّ على أن أبوابَ الجنة أكثرُ من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»(٣) وانتهى عددُها إلى ثلاثةَ عشرَ باباً، وذكرنا هناك عِظَم أبوابها وسَعتها حَسَبَ ما ورد في الحديث من ذلك، فمن أراده وَقَفَ عليه هناك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ قيل: الواو مُلغاة تقديره: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قال لهم خَزَنَتُها»(٤).

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاه النقاش، والمعنى واحد(٥). وقال مقاتل: إذا قطعوا جسرَ جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، بمعنى التحية ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾(٦).

قلت: خرج البخاري حديثَ القنطرة هذا في «جامعه» من حديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار فَيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأَحدهم أهدى

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٤)، وأخرجه أحمد (١٧٣١٤).

(٢) سنن الترمذي (٥٥) والمثبت في مطبوعه مثل رواية مسلم السالفة، وذكر محققو سنن الترمذي أنه في أكثر النسخ: ثمانية أبواب من الجنة.

(٣) ص٤٥٥ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٨ .

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٩ بنحوه ونسبه لقتادة.

بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»(١).

وحكى النقَّاش: إنَّ على باب الجنة شجرةً ينبع من ساقها عينان، يشرب المؤمنون من أحداهما فتطهر أجوافُهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيبُ أبشارهم، فعندها يقول لهم خزنتُها: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ وهذا يُروى معناه عن عليٍّ ﷺ(٢).

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: إذا دخلوا الجنة قالوا هذا، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة. قيل: إنهم وَرِثوا الأرضَ التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسُّدي وأكثرُ المفسرين وقيل: إنها أرضُ الدنيا على التقديم والتأخير(٣).

قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ قيل: هو من قولهم، أي: نعم الثوابُ هذا. وقيل: هو مِن قول الله تعالى؛ أي: نعم ثواب المُحسنين هذا الذي أعطيتُهم(٤).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ يا محمد ﴿حَآفِّينَ﴾ أي: مُحدِقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ في ذلك اليوم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُتلذِّذين بذلك لا مُتعبدين به؛ أي: يُصلّون حولَ العرش شُكراً لربهم. والحافُّون أُخِذَ من حافَّات الشيء ونواحيه. قال الأخفش: واحدُهم حافٌّ. وقال الفرَّاء: لا واحدَ له إذْ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين(٥).

ودخلت «مِن» على «حَوْل» لأنه ظرف، والفعل يتعدَّى إلى الظرف بحرف وبغير

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٣٥)، وأخرجه أحمد (١١٠٩٥).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٦٦ - ٢٦٧ عن علي ﷺ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٨ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٧، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣ .

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٣ عن مقاتل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣ .

حرف. وقال الأخفش[١]: «مِنْ» زائدة، أي: حافّين حولَ العرش. وهو كقولك: ما جاءني من أحد، فمن توكيد.

الثعلبي: والعرب تُدخل الباء أحياناً في التسبيح وتحذفها أحياناً، فيقولون: سبِّح بحمدِ ربِّك، وسبِّح حمداً لله؛ قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بين أهل الجنة والنار. وقيل: قُضي بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أُممهم بالحقّ والعَدْل[٢].

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يقول المؤمنون: الحمدُ لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونَصرنا على مَن ظَلَمنا.

وقال قتادة في هذه الآية: افتتح اللهُ أولَ الخَلْق بالحمد لله، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١] وخَتَم بالحمد، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]. فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كلِّ أمر بحمده وخاتمته بحمده.

وقيل: إن قول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾من قول الملائكة، فعلى هذا يكون حَمْدُهم لله تعالى على عَدْله وقضائه[٤]. ورُوِيَ من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة «الزمر» فتحرَّك المِنبر مرَّتين[٥].

تم تفسير سورة «الزمر».

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٣ .

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٢ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٩ .

(٥) أخرجه أحمد (٥٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٨) بنحوه، وأورده بلفظ المصنف الذهبي في الميزان ٢/ ٣٧٨ وفي إسناده عبّاد بن ميسرة، ضعَّفه أحمد ويحيى فيما قاله الذهبي.

سُورَةُ الزُّمَرِ

مَكِّيَّةٌ، إلَّا قولَه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾ الآيةَ[1]. وآيُها خمسٌ وسَبعونَ أو ثنتانِ وسبعونَ[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرُ مَحذوفٍ مثل: هذا، أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وهو على الأوَّلِ صِلَةُ التَّنزيلِ، أو خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ عملَ فيها معنى الإشارةِ أو التنزيلِ، والظَّاهرُ أنَّ (الكتاب) على الأوَّلِ: السُّورةُ، وعلى الثَّاني: القُرآنُ.

وقُرِئَ: (تنزيلَ) بالنَّصبِ[3] على إضمارِ فعلٍ نحو: اقرَأْ أو الزَمْ.

(٢) - ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُلتَبِسًا بالحقِّ، أو بسببِ إثباتِ الحقِّ وإظهارِه وتَفصيلِه.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢١٦)، وفيه: «مَكِّيَّة، قال ابن عبَّاس وعطاء: إلاَّ ثلاث آيات منها فإنها نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة، وهن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾».

(٢) انظر المصدر السابق، وفيه: «وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي، وثلاث في الشَّامي، واثنتان في عدد الباقين، اختلافها سبع آيات...». وتنظر ثمة.

(٣) هي قراءة عيسى بن عمر، وإبراهيم بن أبي عبلة كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١).

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ مُمَحِّضًا له الدِّينَ مِن الشِّركِ والرِّياءِ.

وقُرِئَ برفعِ (الدِّينُ)[1] على الاستئنافِ لتَعليلِ الأَمرِ، وتقديمُ الخبرِ لتأكيدِ الاختصاصِ المستفادِ مِن اللامِ كما صَرَّحَ بهِ مُؤكِّدًا، وأجراه مُجرى المعلومِ المقرَّرِ لِكَثرةِ حُجَجِهِ وظهورِ بَراهينِهِ فقال:

(٣) ـ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: ألا هو الذي وجبَ اختصاصُهُ بأن تُخلَصَ له الطَّاعةُ، فإنَّه المتفرِّدُ بصفاتِ الألوهيَّةِ والاطِّلاعِ على الأسرارِ والضَّمائرِ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمـلُ المُتَّخِذِينَ مِن الكفرَةِ والمُتَّخَذينَ مِـن الملائكـةِ وعيسـى والأصنام علـى حذفِ الرَّاجـعِ، وإضمـارُ المُشـركينَ مِن غيرِ ذكـرٍ لدلالـةِ المسـاقِ عليهم، وهـو مُبتـدأٌ خبـرُه علـى الأوَّلِ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ بإضمـارِ القَـوْلِ، أو ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وهـو مُتعيِّـنٌ علـى الثَّانـي، وعلـى هذا يكـونُ القـولُ المُضمَرُ بما في حَيِّـزِه حَالًا أو بـدلًا مِن الصِّلَـةِ، و﴿زُلْفَىٰ﴾ مصدرٌ أو حالٌ.

---

(١) هي قراءة ابن أبي عبلة كما في «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٩)، و«البحر» (١٨/ ٣٠٦). ونفى الزجاج أن تكون قراءة، وذلك في معرض رده على الفراء الذي أجاز الرفع دون التصريح بكونه قراءة، على أن تكون الجملة قد انتهت عند ﴿مُخْلِصًا﴾، ويكون ﴿لَّهُ الدِّينَ﴾ ابتداء؛ كأنك قلت: اعبد الله مُطيعًا، فَلَه الدين. فقال الزجاج: وهذا لا يجوز من جهتين: إحداهما: أنه لم يقرأ به، والأخرى: أنه يفسده ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، فيكون ﴿له الدينُ﴾ مكرراً في الكلام لا يحتاج إليه، قال: وإنما الفائدة في ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ تحسن بقوله: ﴿مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٤٣ـ ٣٤٤).

وقُرِئَ: (قالوا ما نعبدُهم)(١)، و(ما نعبدُكُم إلا لتُقرِّبُونَا)(٢) حكايةً لِمَا خاطَبُوا به آلهتَهُم، و(نُعْبُدهم) بضمِّ النُّونِ(٣) إتبَاعًا.

﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِـن الدِّينِ بإدخالِ المحقِّ الجنَّةَ والمبطلِ النَّارَ، والضَّميرُ للكَفَرةِ ومُقابليهِم.

وقيل: لَهُم ولِمَعبوديهِم، فإنَّهُم يرجُونَ شَفاعتَهُم وهم يَلعنونَهُم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يُوفِّقُ للاهتداءِ إلـى الحـقِّ ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فإنَّهُما فاقِدا(٤) البصيرةِ.

(٤) ـ ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كـما زَعـموا ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إذ لا موجودَ سِواهُ إلَّا وهو مخلوقُه لقيامِ الدَّلالةِ على امتناعِ وجودِ واجِبَيْنِ ووجوبِ استنادِ ما عدا الواجبَ إليه، ومِن البَيِّنِ أنَّ المخلوقَ لا يُماثِلُ الخالقَ فيقومُ مقامَ الولدِ له، ثمَّ قَرَّر ذلك بقولِه:

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فإنَّ الألوهيَّةَ الحقيقيَّةَ تتبعُ الوُجوبَ المُستلزِمَ للوحدةِ الذَّاتيَّةِ وهي تُنافي المماثلةَ فضلًا عن التَّوالُدِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن المثلينِ مُركَّبٌ مِن الحقيقةِ المُشتركَةِ والتَّعيُّنِ المخصوصِ، والقَهَّاريَّةُ المُطلقَةُ تنافي قبولَ الزَّوالِ المُحْوِجِ إلى الولدِ، ثمَّ استدلَّ على ذلك بقولِه:

---

(١) هي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ١٥٦)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ١٥٠)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١٠٤).

(٢) وهي قراءة أبي رضي الله عنه، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ١٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٤٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ١٥١).

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٦٦) و«البحر» (١٨/ ٣٠٨).

(٤) في نسخة الخيالي: «عادما»، وفي نسخة الفاروقي: «فإنهما في علم الله كذلك لعدم».

(٥) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يُغْشِي كلُّ واحدٍ مِنْهُما الآخرَ، كأنَّه يَلُفُّ عليه لَفَّ اللباسِ باللابسِ، أو يُغيبُهُ به كما يُغَيَّبُ الملفوفُ باللِّفافَةِ، أو يجعلُه كارًّا عليهِ كرورًا مُتَتابعًا تتابُعَ أكوارِ العِمامَةِ.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو مُنتهى دورِهِ، أو مُنقَطَعُ حركتِهِ.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ على كلِّ ممكنٍ، الغالبُ على كلِّ شيءٍ.

﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ حيثُ لم يُعاجِلْ بالعُقوبَةِ وسَلْبِ ما في هذه الصَّنائعِ مِن الرَّحمةِ وعُمومِ المنفعةِ.

(٦) ـ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ استدلالٌ آخرُ بما أوجدَهُ في العالمِ السُّفليِّ مبدوءًا بهِ مِن خلقِ الإنسانِ لأنَّه أقربُ وأكثرُ دلالةً وأعجَبُ، وفيه على ما ذكرَه ثلاثُ دلالاتٍ:

خلقُ آدمَ أوَّلًا مِن غيرِ أبٍ وأُمٍّ.

ثمَّ خلقُ حوَّاءَ مِن قُصَيْراهُ[1].

ثمَّ تَشعيبُ الخلقِ الفائتِ للحَصرِ مِنْهُما.

و(ثمَّ) للعَطفِ على مَحذوفٍ هو[2] صِفَةُ ﴿نَّفْسٍ﴾، مثل: خَلَقَها، أو على مَعنى ﴿وَٰحِدَةٍ﴾، أي: مِن نَفسٍ وُحِّدَت ثمَّ جعلَ منها زوجَها فشفعَها بها، أو على ﴿خَلَقَكُم﴾ لتَفاوُتِ ما بين الآيتينِ؛ فإنَّ[3] الأولى عادةٌ مُستمرَّةٌ دونَ الثَّانيةِ.

---

(١) قال الجوهريُّ: (القُصْرى والقُصَيرى): الضِّلعُ التي تلي الشَّاكلةَ، وهي الواهنةُ في أسفلِ الأضلاعِ، انظر: «الصحاح»: (مادة: قصر).

(٢) في نسخة التفتازاني: «وهو».

(٣) في نسخة الخيالي زيادة: «الآية».

وقيل: أخرجَ مِن ظهرِهِ ذُرِّيَّته كالذَّرِّ، ثمَّ خلقَ منها[1] حوَّاءَ.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقضى أو قسمَ لَكُم؛ فإنَّ قَضاياهُ وقَسْمَهُ توصَفُ بالنُّزولِ مِن السَّماءِ حيثُ كَتَبَ في اللوحِ، أو أحدثَ لَكُم بأسبابٍ نازلةٍ كأشعَّةِ الكواكبِ والأمطارِ. ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكرًا وأُنثى مِن الإبلِ والبقرِ والضَّأنِ والمعزِ.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ خلقِ ما ذكرَ مِن الأناسيِّ والأنعامِ إظهارًا لِمَا فيها مِن عَجائبِ القُدرَةِ، غيرَ أنَّه غلَّبَ أولي العقلِ أو خصَّهُم بالخطابِ لأنَّهُم المَقصودونَ.

﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ حَيوانًا سَوِيًّا مِن بعدِ عظامٍ مَكسوَّةٍ لحمًا مِن بعدِ عظامٍ عاريةٍ مِن بعدِ مُضَغٍ مِن بعدِ عَلَقٍ مِن بعدِ نُطَفٍ ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمةُ البَطنِ والرَّحمِ والمشيمةِ، أو الصُّلبِ والرَّحِمِ والبطنِ.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الـذي هـذه أفعالُـه ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحقُّ لعِبادَتِكُـم والمالكُ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يُشارِكُه في الخلقِ غيرُه.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يُعْدَلُ[2] بكم عن عِبادَتِه[3] إلى الإشراكِ.

(٧) - ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ عَـن إيمـانِكُـم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ لاستضرارِهِم به رحمةً عليهِم.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنَّه سَببُ فَلاحِكُم. وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ في روايةٍ وأبو

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «منه»، وفي نسخة الطبلاوي: «ثم خلق منها بعد ذلك». قال الخفاجي في «حاشيته»: (٧/ ٣٢٨): قوله: «ثم خلق منها» أي: من قصيراه، وفي نسخة: منه، أي من آدم عليه الصلاة والسلام، ومن أرجع ضمير منها للذرية فقد سها.

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «كيف يعدل».

(٣) في نسخة الفاروقي: «العبادة».

عمرٍو والكِسائيُّ بإشباعِ ضَمَّةِ الهاءِ لأنَّها صارَتْ بحَذفِ الألفِ موصولةً بمُتحرِّكٍ، وعن أبي عمرٍو ويعقوبَ إسكانُها وهو لُغَةٌ فيها[١].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمُحاسبَةِ والمُجازاةِ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تَخفى عليه خافيَةٌ من أعمالِكُم.

(٨) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ لزوالِ ما ينازِعُ العقلَ في الدلالةِ على أنَّ مبدأَ الكلِّ منه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاهُ، مِن الخَوَلِ وهو التَّعهُّدُ، أو الخَوْلِ وهو الافتخارُ.

﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ مِن اللهِ.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي نَسِيَ الضرَّ الذي كانَ يدعو اللهَ إلى كشفِهِ، أو ربَّهُ الذي كان يَتضرَّعُ إليه، و(ما) مثله الذي في قولِه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾.

﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ النعمَةِ.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورُوَيسٌ بفتحِ الياءِ[٢]،

---

(١) قرأ نافع وعاصم ويعقوب وحمزة بضم الهاء من غير صلة، وابن كثير وابن ذكوان والكسائي وابن وردان وخلف في اختياره بالضم مع الصلة، والسوسي وابن جماز بإسكانها، وللدوريّ عن أبي عمرو وجهان: الإسكان والضم مع الصلة، ولهشام وجهان أيضاً: الإسكان والضم من غير صلة، هذا ما يؤخذ له من «الشاطبية»، ولكن صاحب «النشر» ذكر أن الإسكان له ليس من طرق «التيسير» و«الشاطبية» وإن كان صحيحاً عنه، وعلى هذا ينبغي الاقتصار له على وجه الضم مع عدم الصلة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٠ـ٥٦١)، و«التيسير» (ص: ١٨٩)، و«النشر» (١/ ٣٠٥)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٢٧٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤)، و«النشر» (١/ ٣٠٧)، وهي بخلاف عن رويس كما ذكر ابن الجزري، وقراءة الباقين بالضم.

والضَّلالُ والإضلالُ لَمَّا كانا نتيجةَ جَعلِه؛ صحَّ تعليلُهُ بهما وإن لم يكونَا غَرَضينِ[١].

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمرُ تَهديدٍ فيه إشعارٌ بأنَّ الكُفرَ نوعُ تَشَهٍّ لا سندَ له، وإقناطٌ للكافرِ مِن التَّمتُّعِ في الآخرةِ، ولذلك علَّلَه بقولِه: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ على سبيلِ الاستئنافِ للمُبالغَةِ.

(٩) ـ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ قائم بوظائفِ الطَّاعاتِ.

﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاتِه، و(أم) مُتَّصلَةٌ بمحذوفٍ تَقديرُه: الكافرُ خيرٌ أم مَن هوَ قانِتٌ، أو مُنقطعَةٌ والمعنى: بل أَمَن هو قانِتٌ كمَنْ هو بضِدِّه. وقرأ الحِجازيَّانِ وحمزةُ بتَخفيفِ الميم[٢] بمعنى: أَمَن هو قانتٌ للهِ كمَن جعلَ له أنداداً.

﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ حالانِ مِن ضميرِ ﴿قَانِتٌ﴾، وقُرئَا بالرَّفعِ[٣] على الخبرِ بعدَ الخبرِ، والواوُ للجمعِ بينَ الصِّفتَينِ. ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ في مَوقعِ الحالِ أو الاستئنافِ للتَّعليلِ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفيٌ لاستواءِ الفَريقَيْنِ باعتبارِ القُوَّةِ العِلميَّةِ بعدَ نَفيِهَا باعتبارِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ على وجهٍ أبلغَ لِمَزيدِ فضلِ العلمِ.

---

(١) قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «والضلال والإضلال... إلخ» يعني: أن اللام هنا لام العاقبة والمآل لترتب ما ذكر على هذا الجعل، وهي مستعارة من لام التعليل الداخلة على الغرض استعيرت لما ذكر كما مر تحقيقه، لكن فيه أن الضلال ليس نتيجة جعل الأنداد بل سبب مقدم عليه كما لا يخفى، والإضلال لا يمتنع فيه أن يكون غرضاً إلا أن يقال: المترتب عليه الضلال الكامل أو ضلال مخصوص أو استمراره، والإضلال وإن قصد من فعلهم لكنهم لا يعتقدون أو لا يظهرون أنه إضلال بل إرشاد، والمراد بالنتيجة ما يؤدي إليه الفعل، والغرض ما يقصد ترتبه على الفعل.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٦١)، و«التيسير» (ص: ١٨٩)، وقرأ الباقون بالتشديد.

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٢٣)، و«البحر» (١٨/ ٣١٧)، عن الضحاك.

وقيل: تقريرٌ للأوَّلِ على سبيلِ التَّشبيهِ؛ أي: كمَا لا يَستَوِي العالِمُونَ والجاهلونَ لا يَستَوِي القانِتونَ والعاصونَ[1].

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بأمثالِ هذه البياناتِ. وقُرِئَ: (يذَّكَّرُ) بالإدغامِ[2].

(١٠) - ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ بلزومِ طاعتِه.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي للذينَ أحسَنُوا بالطَّاعاتِ في الدُّنيا مثوبةٌ حَسنةٌ في الآخرةِ. وقيل معناهُ: للذينَ أحسَنُوا حسنةٌ في الدُّنيا هي الصِّحَّةُ والعافيةُ، وفي ﴿هَٰذِهِ﴾ بيانٌ لِمَكانِ ﴿حَسَنَةٌ﴾.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمَن تعسَّرَ عليه التوفُّرُ على الإحسانِ في وَطنِه فليُهاجِر إلى حيثُ يتمكَّنُ منه.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على مَشاقِّ الطَّاعةِ مِن احتمالِ البلاءِ ومُهاجرةِ الأوطانِ لها ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أجرًا لا يهتدي إليه حسابُ الحُسَّابِ.

وفي الحديثِ: أنَّه «يُنصَبُ الموازينُ يومَ القيامةِ لأهلِ الصَّلاةِ والصَّدقَةِ والحجِّ فيوفونَ بها أجورَهُم، ولا يُنصبُ لأهلِ البَلاءِ بل يُصَبُّ عليهم الأجرُ صَبًّا حتَّى يَتمنَّى أهلُ العافِيَةِ في الدُّنيا أنَّ أجسادَهُم تُقرضُ بالمَقاريضِ ممَّا يذهَبُ به أهلُ البلاءِ مِن الفَضلِ»[3].

---

(١) وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون، ويفتنُّون فيها ثم يُفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء. انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٧٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٧٧)، و«البحر» (١٨/ ٣١٨).

(٣) رواه ابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٢)، من حديث أنس رضى الله عنه. قال الحافظ: وإسناده ضعيف جدًّا. =

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مُوَحِّدًا له ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأُمِرتُ بذلك لأجلِ أَنْ أكونَ مُقدَّمَهُم في الدُّنيا والآخرةِ لأنَّ قصبَ السَّبقِ في الدِّينِ بالإخلاصِ، أو لأنَّهُ أَوَّلُ مَن أسلمَ وجهَهُ للهِ مِن قُرَيشٍ ومَن دانَ بدينِهم، والعَطفُ لِمُغايرَةِ الثَّاني الأَوَّلَ بتَقيُّدِهِ بالعِلَّةِ والإشعارِ بأنَّ العِبادةَ المقرونَةَ بالإخلاصِ وإن اقتضَتْ لذاتِها أن يُؤمرَ بها؛ فهيَ أيضًا تقتضيهِ لِمَا يلزمُهُ مِن السبقَةِ في الدِّينِ.

ويجوزُ أن تجعلَ اللامُ مَزيدَةً كما في: أَرَدْتُ لِأَنْ أفعلَ، فيكونُ أمرًا بالتقدُّمِ في الإخلاصِ والبدءِ بنَفسِهِ في الدُّعاءِ إليه بعدَ الأمرِ به.

(١٣) ـ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بتركِ الإخلاصِ والميلِ إلى ما أَنتُم عليه مِن الشِّركِ والرِّياءِ.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمةِ ما فيه.

(١٤) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ أمرٌ بالإخبارِ عن إخلاصِه[1]، وأن[2] يكونَ

= ورواه بنحوه الطَّبراني في «الكبير» (١٢٨٢٩) عن ابن عبَّاس مرفوعاً بلفظ: «يُؤتَى بالشَّهيد يوم القيامة فينصبُ للحساب، ويُؤتَى بالمتصدق فينصبُ للحساب، ثم يُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصبُ لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، فيُصبُّ عليهم الأجر حتى إن أهل العافية لَيَتَمَنَّوْن في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله لهم».

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٠٥): فيه مجاعة بن الزبير، وثقه أحمد وضعفه الدارقطني. ولقوله في آخره: «حتى يتمنَّى أَهْلُ العَافية...» شاهد من حديث جابر رضي الله عنه، رواه الترمذي (٢٤٠٢) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرِفُه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وقد رَوَى بعضُهم هذا الحديثَ عن الأعمش، عن طلحة بن مُصَرِّفٍ، عن مسروقٍ قولَه شيئًا من هذا.

(١) في نسخة التفتازاني: «أمرٌ بإخلاصه».

(٢) في نسخة التفتازاني: «وعن أن».

مُخلِصًا لـه دينَهُ بعدَ الأمرِ بالإخبارِ[1] عن كونِه مأمورًا بالعبادةِ والإخلاصِ خائفًا عن المُخالفَةِ مِـن العقابِ قَطْعًا لأطماعِهِم، ولذلك رتَّـبَ عليهِ قولَه: (١٥) ـ ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ تهديدًا وخذلانًا لهم.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الكامليـنَ فـي الخُسـرانِ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالضَّـلالِ، ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالإضـلالِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حيـن يَدخلـونَ النَّارَ بـدلَ الجنَّـةِ لأنَّهُم جمعوا وُجوهَ الخُسـرانِ.

وقيل: فخَسِرُوا أهلِيهِم لأنَّهُم إنْ كانوا مِن أَهلِ النَّارِ فقد خَسِرُوهم كما خَسِرُوا أنفُسَهُم، وإن كانوا مِن أهلِ الجنَّةِ فقَدْ ذهبُوا عنهم ذَهابًا لا رُجوعَ بعدَهُ.

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مُبالغةٌ في خُسرانِهم لِمَا فيهِ من الاستئنافِ والتَّصديرِ بـ(ألا) وتوسيطِ الفصلِ وتَعريفِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ ووصفِه بـ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾.

(١٦) ـ ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ شرحٌ لخُسرانِهم ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ أطباقٌ مِن النَّارِ هي ظللُ الآخرينَ.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ذلـك العَـذابُ هـو الـذي يُخَوِّفُهـم بـه ليَجتَنِبُـوا مـا يُوقِعُهـم فيه.

﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرَّضُوا لِمَا يوجِبُ سَخَطِي.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ البالغَ غايةَ الطُّغيانِ، (فَعَلُوتٌ) مِنه بتَقديمِ اللامِ على العينِ، بُنِيَ للمُبالغَةِ في المصدرِ كالرَّحَموتِ، ثمَّ وُصِفَ به للمُبالغَةِ في النَّعتِ، ولذلك اختصَّ بالشَّيطانِ ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ منه ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾

---

(١) في نسخة الخيالي: «بعد الإخبار».

وأقبَلُوا إليه بشَراشِرِهم عمَّا سِواهُ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثَّوابِ على ألسِنَةِ الرُّسُلِ، أو الملائكةِ عندَ حُضورِ المَوتِ.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وُضِعَ فيه الظَّاهِرُ مَوضِعَ ضميرِ (الذين اجتنَبُوا) للدَّلالةِ على مبدأِ اجتِنابِهم وأنَّهُم نُقَّادٌ في الدِّينِ يَمِيزُونَ بينَ الحقِّ والباطلِ، ويُؤثرونَ الأفضلَ فالأفضلَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لدينِه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقولِ السَّليمَةِ عن مُنازعَةِ الوَهمِ والعادةِ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ الهِدايةَ تَحصُلُ بفعلِ اللهِ وقَبولِ النَّفسِ لها.

(١٩) ـ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ شَرطيَّةٌ مَعطوفَةٌ[1] على محذوفٍ دلَّ عليه الكَلامُ، تقديرُهُ: أأنتَ مالِكُ أمرِهم فمَنْ حَقَّ عليه العَذابُ فأنتَ تُنقِذُهُ؟! فكُرِّرَت الهمزةُ في الجزاءِ لتأكيدِ الإنكارِ والاستبعادِ، ووُضِعَ ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ موضِعَ الضَّميرِ لذلك، وللدَّلالةِ على أنَّ مَن حُكِمَ عليه بالعذابِ كالواقعِ فيه؛ لامتناعِ الخُلْفِ فيه، وأنَّ اجتهادَ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ في دُعائِهم إلى الإيمانِ سَعيٌ في إنقاذِهم مِن النَّارِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ جُملَةً مُستأنَفَةً للدَّلالةِ على ذلك والإشعارِ بالجَزاءِ المَحذوفِ.

(٢٠) ـ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ عَلاليَ بعضُها فوقَ بَعضٍ ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بُنِيَتْ بناءَ المنازلِ على الأرضِ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي مِن تحتِ تلك الغُرَفِ.

---

(١) قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «جملة شرطية معطوفة... إلخ» هو أحد قولين للنحاة فيه؛ فمنهم من يجعله عطفًا على المقدَّر الذي دخلت عليه الهمزة كما ذكره المصنف، ومنهم من يجعل الهمزة متقدمةً من تأخير لأصالتها في الصَّدارة، وهو الذي رجحه في «المغني». وانظر: «مغني اللبيب»: (ص: ٤٣).

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ لأنَّ قولَه: لهم غُرَفٌ في مَعنى الوَعدِ.

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لأنَّ الخُلْفَ نقصٌ، وهو على اللهِ مُحَالٌ.

(٢١) - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطرُ ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخلَهُ ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هي عيونٌ ومجارٍ كائنةٌ فيها، أو مياهٌ نابعاتٌ فيها، إذ الينبوعُ جاءَ للمَنبعِ وللنَّابعِ[1]، فنصبُها على المصدرِ أو الحالِ[2].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافُه مِن بُرٍّ وشَعيرٍ وغيرِهما، أو كيفيَّاتُه مِن خُضرةٍ وحُمرةٍ وغيرِهما.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ثم يَتِمُّ جَفافُه، لأنَّه إذا تَمَّ جَفافهُ حانَ له أن يثورَ عن منبتِه.

﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ مِن يُبْسِهِ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ لَتذكيرًا بأنَّهُ لا بُدَّ مِن صانعٍ حكيمٍ دبَّره وسَوَّاهُ، وبأنَّه مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا فلا يُغترُّ بها.

﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إذ لا يَتذكَّرُ[3] به غيرُهُم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «للمنبع والينابيع» وفي نسخة الفاروقي: «للمنبع والنابع».

(٢) الخفاجي في «حاشيته»: (٧/ ٣٣٤ - ٣٣٥): قوله: «فنصبها» أي: الينابيع، فيه أنه سواءٌ جعل اسماً للمجرى، أو لما جرى فيه اسم عين، فلا ينتصبُ على المصدريَّة ولا الحاليَّة، بل الظَّاهرُ أنه على الأوَّل منصوبٌ على الظَّرفية، أو بنزع الخافضِ، وأصلُه: في ينابيع، ويؤيِّده أنه في بعض النُّسخ: «على الظرف» بدل قوله: «على المصدر»، ووُجِّهَت الأولى بأنَّ الأصل: سُلوكًا في ينابيع، فلما حُذِفَ المصدرُ وأقيمت صفته مقامَه جعلها منصوبةً على المصدريَّة تسمُّحًا، أو أصله: سلوكُ ينابيعَ فحذفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه، وعلى الثَّاني يصحُّ نصبهُ على الحاليَّة بتأويلِه بـ: نابعًا، لكنَّه لا يخلو من الكدرِ لأنَّه لو قصدَ هذا كان حقُّه أن يقال مِن الأرضِ وفي الأرضِ على الوجهينِ صفة ينابيعَ، وقيل (ينابيعُ) مفعول: سلك على الحذفِ والإيصالِ.

(٣) في نسخة الفاروقي: «متذكر».

(٢٢) ـ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ حتَّى تمكَّنَ فيه بيُسرٍ، عبَّر به عمَّن خلقَ نفسَهُ شديدةَ الاستعدادِ لقبولِهِ غيرَ مُتأبِّيَةٍ عنه مِن حيثُ إنَّ الصَّدرَ محلُّ القَلبِ المَنبعِ للرُّوحِ المُتعلِّقِ للنَّفسِ القابلِ للإسلامِ.

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني المعرفـةَ والاهتداءَ إلـى الحقِّ، وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إذا دخلَ النُّورُ القلبَ انشرحَ وانفَسَحَ» فقيل: فما علامةُ ذلك؟ قال: «الإنابةُ إلى دارِ الخُلودِ، والتَّجافي عن دارِ الغُرورِ، والتأهُّبُ للمَوتِ قبلَ نُزولِه»[١].

وخبرُ (مَـن) مَحذوفٌ[٢] دلَّ عليه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مِـن أجلِ ذكرِهِ، وهو أبلَغُ مِن أنْ يكونَ (عن) مكانَ (مِن)؛ لأنَّ القاسيَ مِن أجلِ الشَّيءِ أشدُّ تأبِّيًا مِن قبولِه مِن القاسي عنهُ لسَببٍ آخرَ، وللمُبالغَةِ في وصفِ أولئكَ بالقَبولِ وهؤلاءِ بالامتناعِ = ذَكَرَ شَرحَ الصَّدرِ وأسندَهُ إلى اللهِ، وقابَلَهُ بقَساوَةِ القلبِ وأسندَهُ إليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يظهرُ للنَّاظرِ بأدنى نظرٍ.

والآيةُ نزلَتْ في حمزةَ وعَلِيٍّ وأبي لهبٍ وولدِهِ[٣].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٦٨) و«الزهد»: (٩٧٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٣١٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.
ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٨٥٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٩١٨ ـ تفسير)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٢٦) عن عبد الله بن المسور عن النبي ﷺ مرسلاً.
وذكر له الدارقطني في «علله» (٥/ ١٨٩) طرقاً ثم قال: وكلها وهم، والصواب عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، وعبد الله بن المسور هذا متروك.
والآية التي ذكرها الحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «الشعب»: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ورواه البيهقي في «الزهد» (٩٧٤) بذكر آية الزمر.

(٢) قوله: «وخبر مَن محذوف» تقديره: كمن قسا قلبه عن الإسلام. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ١٥).

(٣) ذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١٠/ ٦٣٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦٩)، والكرماني في «لباب التفاسير» (٨/ ٢٦).

(٢٣) ـ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ، رُوِيَ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ مَلُّوا مَلَّةً فقالوا له: حَدِّثْنا، فنزلَتْ[1].

وفي الابتداءِ باسمِ اللهِ وبناءِ ﴿نَزَّلَ﴾ عليه تأكيدٌ للإسنادِ إليه وتَفخيمٌ للمُنزَّلِ واستشهادٌ على حُسنِه.

﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ بدلٌ مِن ﴿أَحۡسَنَ﴾ أو حالٌ منه، وتَشابُهه تَشابهُ أبعاضِه في الإعجازِ وتجاوُبِ النَّظمِ وصِحَّةِ المعنى والدَّلالةِ على المنافعِ العامَّةِ.

﴿مَّثَانِيَ﴾ جمعُ مُثَنًّى أو مَثْنًى أو مَثْنِيٍّ؛ على ما مرَّ في (الحِجْر)[2]، وصفَ به ﴿كِتَٰبٗا﴾ باعتبارِ تفاصيلِه كقولك: القرآنُ سُوَرٌ وآياتٌ، والإنسانُ عُروقٌ وعِظامٌ وأعصابٌ، أو جُعِلَ تَميزًا مِن ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾ كقولك: رأيتُ رَجُلًا حسنًا شمائلَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/٨) وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٨)، من طريق المسعودي عن عون بن عبد الله (هو ابن عتبة بن مسعود) مرسلاً.
ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٠) من طريق المسعودي عن القاسم (هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود) مرسلاً أيضاً.
أما حديث ابن مسعود فرواه ابن مردويه من طريق عون بن عبد الله عن ابن مسعود رَضِي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾. انظر: «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٦).
ولحديث ابن مسعود بهذا اللفظ شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رواه البخاري في «تاريخ الكبير» (٦/ ٣٧٤)، والبزار في «مسنده» (١١٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣١٩) وصححه، والضياء في «المختارة» (١٠٦٩).

(٢) كذا في النسخ، والثالثة لم ترد في نسخ «تفسير البيضاوي» المطبوعة مع «حاشية الأنصاري» و«حاشية الخفاجي» ولم يشيرا إليها، وقوله: «مَثْنِي» أي: مثنيٌّ عليه، انظر: (٨/ ١٦٢).

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تشمئزُّ خَوْفًا ممَّا فيهِ مِن الوَعيدِ، وهو مَثَلٌ في شِدَّةِ الخوفِ، واقشعرارُ الجلدِ: تقبُّضُه، وتركيبُهُ مِن حُروفِ القَشْعِ وهو الأديمُ اليابسُ بزيادةِ الرَّاءِ ليصيرَ رُباعِيًّا، كتركيبِ (اقمَطَرَّ) مِن القَمْطِ وهو الشَّدُّ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالرَّحمةِ وعمومِ المَغفِرَةِ، والإطلاقُ للإشعارِ بأنَّ أصلَ أمرِهِ الرَّحمَةُ وأنَّ رحمتَهُ سَبقَتْ غضبَهُ، والتَّعدِيَةُ بـ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمينِ مَعنى السُّكونِ والاطمئنانِ، وذكرُ القُلوبِ لتقدُّمِ الخشيَةِ التي هيَ مِن عَوارِضِهَا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتابُ، أو الكائنُ مِن الخشيةِ والرَّجاءِ، ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هِدايتَه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومَن يخذُلْه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يُخرِجُهُ من الضَّلالِ.

(٢٤) ـ ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ يجعلُهُ دَرَقةً[1] يَقِي به نفسَهُ لأنَّه يكون مغلولةً يداهُ إلى عنقِهِ فلا يقدرُ أنْ يتَّقِيَ إلَّا بوَجهِه ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كمَنْ هو آمِنٌ منه، فحُذِفَ الخبرُ كما حُذِفَ في نظائرِه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لهم، فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَهُ تسجيلًا عليهم بالظُّلمِ وإشعارًا بالموجبِ لِمَا يقالُ لهم، وهو: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: وَبالَهُ، والواوُ للحالِ و(قد) مُقدرةٌ.

(٢٥) ـ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مِن الجهَةِ التي لا يخطرُ ببالِهم أنَّ الشرَّ يأتيهم مِنها.

(٢٦) ـ ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ الذُّلَّ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمَسْخِ والخَسْفِ والقَتْلِ والسَّبيِ والإجلاءِ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المُعَدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشِدَّتِه ودَوامِه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا مِن أهلِ العلمِ والنَّظرِ لعَلِمُوا ذلك واعتبروا به.

---

(١) أي: تُرْسًا.

(٢٧) ـ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاجُ إليه النَّاظرُ في أمرِ دينِه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتَّعِظونَ به.

(٢٨) ـ ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ مِن ﴿هَٰذَا ﴾، والاعتمادُ فيها على الصِّفَةِ؛ كقولِك[1]: جاءَنِي زَيدٌ رَجُلًا صالحًا، أو مدحٌ له.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ لا اختلالَ[2] فيه بوجهٍ ما، وهو أبلغُ مِن المستقيمِ وأخَصُّ[3] بالمعاني، وقيل: بالشَّكِّ، استشهادًا بقولِهِ:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ ... مِنَ الإِلَهِ وقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ[4]

وهو تخصيصٌ له ببعضِ مَدلولِه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ علةٌ أُخرى مُرتَّبةٌ على الأُولى.

(٢٩) ـ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا ﴾ للمُشركِ والمُوحِّدِ ﴿فيه شركاءُ مُتشاكِسُونَ ورجلًا سالِمًا لرجلٍ﴾ مثَّلَ المُشركَ على ما يَقتضيهِ مَذهبُهُ مِن أن يدَّعِيَ كلُّ واحدٍ مِن مَعبوديهِ عُبودِيَّتَه، ويَتنازعونَ فيه بعبدٍ يَتشارَكُ فيه جمعٌ يَتجاذبونَهُ ويَتعاورُونَهُ في مهامِّهم المُختلفَةِ في تَحيُّرِه وتوزُّعِ قلبِه، والموحِّدَ بمَنْ خَلَصَ لواحدٍ ليسَ لغيرِه عليهِ سَبيلٌ. و﴿رَّجُلًا ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَثَلًا﴾، و﴿فِيهِ﴾ صِلَةُ ﴿شُرَكَآءُ ﴾، والتَّشاكُسُ والتَّشاخُسُ: الاختلافُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «نحو».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «لا اختلاف»، وفي هامشها نسخة كالمثبت.

(٣) في نسخة التفتازاني وفي هامش نسخة الخيالي: «واختص»، وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته».

(٤) ذكره في «الكشاف» (٧/ ٤٩٥)، ولم أقف عليه قبله.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ والكوفيُّونَ: ﴿سَلَمًا﴾ بفتحتينِ[1]، وقُرِئَ بفَتحِ السِّينِ وكسرِها مع سُكونِ العينِ[2]، وثلاثتُها مَصادِرُ (سَلِمَ) نُعِتَ بها، أو حُذِفَ مِنها ذا، و: (رجلٌ سالمٌ)[3]؛ أي: وهناكَ رَجلٌ سالِمٌ، وتَخصيصُ الرَّجُلِ لأنَّه أفطَنُ للضرِّ والنَّفعِ.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صِفةً وحالًا، ونَصبُهُ على التَّمييزِ، ولذلك وحَّدَه.

وقُرِئَ: (مَثَلَينِ)[4] للإشعارِ باختلافِ النَّوعِ، أو لأنَّ المرادَ: هل يستويانِ في الوصفينِ؟ على أنَّ الضَّميرَ للمِثلينِ؛ فإنَّ التَّقديرَ: مثلُ رجلٍ ومثلُ رجلٍ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلُّ الحمدِ له لا يُشارِكُه فيه على الحقيقةِ سِواهُ؛ لأنَّهُ المنعمُ بالذَّاتِ والمالكُ على الإطلاقِ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركونَ بهِ غيرَهُ مِن فَرْطِ جَهلِهم.

(٣٠) - ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فإنَّ الكُلَّ بصَدَدِ الموتِ وفي عدادِ الموتى، وقُرِئَ: (مائتٌ و... مائتونَ)[5]؛ لأنَّه مما سَيحدثُ.

(٣١) - ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليبِ المُخاطبِ على الغُيَّبِ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ

---

(١) قرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿سالِمًا﴾، والباقون: ﴿سلمًا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

(٢) الأولى: (سَلْماً) لعل في كلام الزجاج إشارة لها، انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٥٢)، و«الكشاف» (٧/ ٤٩٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧)، والثانية: (سِلْماً) هي قراءة سعيد بن جبير كما في «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٠)، و«البحر» (١٨/ ٣٣٢).

(٣) وهي رواية عن عبد الوارث عن أبي عمرو، كما في «زاد المسير» (٤/ ١٧).

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٩٧)، و«البحر» (١٨/ ٣٣٣).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١) عن ابن الزبير وابن محيصن وعيسى وابن أبي إسحاق.

رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتجُّ عليهم بأنَّكَ كنتَ على الحقِّ في التَّوحيدِ وكانوا على الباطلِ في التَّشريكِ واجتهدتَ في الإرشادِ والتَّبليغِ ولَجُّوا في التَّكذيبِ والعِنادِ، ويَعتذرونَ بالأباطيلِ مثل: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأنبياء: ٥٣]. وقيل: المرادُ به الاختصامُ العامُّ؛ يخاصِمُ النَّاسُ بعضُهم بعضًا فيما دارَ بينَهُم في الدُّنيا.

(٣٢) ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإضافةِ الولدِ والشَّريكِ إليه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو ما جاءَ بهِ مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ مِن غيرِ تَوقُّفٍ وتفكُّرٍ في أمرِه.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وذلك يكفيهم مُجازاةً لأعمالِهم، واللامُ تَحتَمِلُ العهدَ والجنسَ، واستُدِلَّ به على تكفيرِ المُبتدعَةِ فإنَّهُم مكذِّبونَ بما عُلِمَ صِدقُهُ، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّه مَخصوصٌ بمَن فاجأَ ما عَلِمَ مجيءَ الرَّسولِ به بالتَّكذيبِ.

(٣٣) ـ ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ للجنسِ، ليتناولَ الرُّسُلَ[١] والمُؤمنينَ؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

وقيل: هو النبيُّ عليه السَّلامُ، والمرادُ هو ومَن تَبِعَهُ، كما في قولِه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٩].

وقيل: الجائي هو الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ، والمصدِّقُ هو أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، وذلك يقتضي إضمارَ (الذي)، وهو غيرُ جائزٍ[٢].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «المتناول للرسل».

(٢) قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «وذلك يقتضي إضمار (الذي) وهو غير جائز» على الأصح عند النحاة من أنه لا يجوز حذف الموصول، وإبقاء صلته وإن جوزه بعضهم مطلقاً، وشرط بعضهم لجوازه عطفه على موصول آخر، ويضعفه أيضاً الإخبار عنه بالجمع فإنه يأباه كما يأباه المعنى أيضًا، وأمَّا إنه يراد بالذي النبيُّ ﷺ والصِّدِّيق معًا على أن الصلة للتوزيعِ لِيندفعَ المحذور فهو تكلفٌ.

وقُرِئَ: (وصَدَقَ بِهِ) بالتَّخفيفِ[(١)] أي: صَدَقَ بِهِ الناسَ فأدَّاهُ إليهم كما نزلَ، أو صارَ صادِقًا بسببِهِ لأنَّه مُعجزٌ يدلُّ على صدقِهِ، و: (صُدِّقَ به) على البناءِ للمَفعولِ[(٢)].

(٣٤) ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنَّةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانِهم.

(٣٥) ـ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ خصَّ الأسوأَ للمُبالغَةِ؛ فإنَّه إذا كفرَ كان غيرُه أولى بذلك، أو للإشعارِ بأنَّهُم لاستعظامِهم الذُّنوبَ يحسَبُونَ أنَّهُم مُقصِّرُونَ مُذنِبُونَ وأنَّ ما يَفرُطُ مِنهم مِن الصَّغائرِ أسوَأُ ذُنوبِهم، ويجوزُ أن يكونَ بمَعنى السَّيِّئِ كقولِهم: النَّاقصُ والأَشَجُّ أعدَلَا بني مروانَ[(٣)].

وقُرِئَ: (أسواءَ) جمعُ سوءٍ[(٤)].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٧)، عن أبي صالح الكوفي ومحمد بن جحادة وعكرمة بن سليمان.

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٥٠١)، و«البحر» (١٨/ ٣٤١).

(٣) قال الخفاجي: قوله: «ويجوز أن يكون بمعنى السيء... إلخ»، يعني (أفعل) ليس على حقيقته وظاهره، وليس مضافًا إلى المفضل عليه فهو بمعنى السيء صغيرًا كان أو كبيرًا كما في المثال المذكور، فإن المراد أنهما العادلان من بني مروان لا أنهم أعدل من بقيتهم، قال: وما ذكره في المثال من كون أعدل بمعنى عادل وجهٌ فيه، والآخرُ أن (أفعل) للتفضيل والزيادة مطلقًا لا على المضاف إليه فقط وإنما أضيف للبيان له، سواء كان بعضًا من المضافِ إليه كما في: أعدل بني مروان، أو لا كـ: يوسف أحسن إخوته، كما بينه النحاة في معاني (أفعل) التفضيل.

والناقصُ: يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، لُقِّبَ بالناقصِ لأنه نقص ما كانوا يأخذونه من بيت المال وردَّ المظالم على أهلها، والأشجُّ: عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، لقب به لشجة كانت في رأسه، وأمرها مفصل في السير، وعدله وزهده معروف، انظر: «حاشية الخفاجي على البيضاوي» بتصرف. و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ١١٦، ٣٧٤).

(٤) رويت عن أبي عمرو من طريق البزي، وهي خلاف المشهور عنه، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣).

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ ويُعطيهم ثوابَهم. ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيعدُّ لهم محاسِنَ أعمالِهم بأحسَنِها[1] في زيادةِ الأجرِ وعِظَمِه لفرطِ إخلاصِهم فيها.

(٣٦) - ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ استفهامُ إنكارٍ للنَّفيِ مُبالغةً في الإثباتِ، والعَبدُ: رَسولُ اللهِ ﷺ، ويحتملُ الجنسَ، ويؤيِّدُه قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ: ﴿عباده﴾[2]، وفُسِّرَ بالأنبياءِ.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يَعني قُريشًا فإنَّهم قالوا له: إنَّا نخافُ أن تُخبِّلَكَ آلهتُنا لعيبِكَ إيَّاها[3].

وقيل: إنَّه بعثَ خالدًا ليكسرَ العُزَّى فقال له سادِنُها: أُحَذِّرُكَها فإنَّ لها شِدَّةً، فعَمِدَ إليها خالدٌ فهشَمَ أنفَها، فنُزِّلَ تخويفُ خالدٍ مَنزِلةَ تخويفِه لأنَّه الآمرُ له بما خُوِّفَ عليهِ[4].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ حتى غَفَلَ عن كفايةِ اللهِ له وخوفِهِ بما لا ينفعُ ولا يضرُّ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهِمْ إلى[5] الرَّشادِ.

(٣٧) - ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ لا رادَّ لفِعلِه كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ مَنيعٍ، ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ ينتقمُ مِن أعدائِه.

(٣٨) - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوُضوحِ البُرهانِ على تَفرُّدِه بالخالقِيَّةِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بأحاسنها».

(٢) وقرأ الباقون بالإفراد، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٧٨).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٣٩٤) عن قتادة.

(٥) في نسخة الخيالي زيادة: «سبيل».

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: أرأيتُم بعدما تحقَّقْتُم أنَّ خالقَ العالمِ هو اللهُ أنَّ آلهتَكُم إن أرادَ اللهُ أن يصيبَنِي ضرًّا هل يَكْشِفْنَهُ؟

﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ بنفعٍ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ فيُمسِكْنَها عنِّي.

وقرأ أبو عمرٍو ﴿كاشِفاتٌ ضرَّهُ﴾ و﴿ممسكاتٌ رحمتَهُ﴾ بالتَّنوينِ فيهما ونصبِ ﴿ضرَّه﴾ و﴿رحمتَه﴾[1].

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ كافيًا في إصابةِ الخيرِ ودَفعِ الضرِّ، إذ تقرَّرَ بهذا التَّقريرِ أنَّه القادرُ الذي لا مانعَ لِمَا يُريدُه من خيرٍ أو شرٍّ.

رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ سألَهُم فسَكَتُوا، فنزلَ ذلك[2].

وإنَّما قال: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ و﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ على ما يَصفونَها به مِن الأنوثةِ؛ تَنبيهًا على كمالِ ضَعفِها.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعِلْمِهم بأنَّ الكُلَّ منه.

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالِكُم، اسمٌ للمَكانِ استُعِيرَ للحالِ كما استُعيرَ (هنا) و(حيث) مِن المكانِ للزَّمانِ.

وقُرِئَ: ﴿مكاناتِكم﴾[3].

---

(١) وقرأ الباقون بغير تنوين وخفضِ ﴿ضره﴾ و﴿رحمته﴾، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٦٦) عن مقاتل.

(٣) في نسخة التفتازاني: «وقرأ أبو بكر: ﴿على مكاناتكم﴾». وهي رواية أبي بكر عن عاصم، والباقون بالإفراد، انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾ أي: على مَكانَتِي، فحُذِفَ للاختصارِ والمُبالغَةِ في الوعيدِ، والإشعارِ بأنَّ حالَهُ لا يَقِفُ؛ فإنَّه تعالى يزيدُهُ على مرِّ الأيَّامِ قُوَّةً ونُصرَةً، ولذلك توعَّدَهُم لكونِه مَنصُورًا عَلَيهم في الدَّارينِ فقال:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإنَّ خِزيَ أعدائِهِ دليلُ غلبَتِهِ، وقَدْ أخزاهُم اللهُ يومَ بدرٍ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائمٌ وهو عذابُ النَّارِ.

(٤١) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأَجلِهِم؛ فإنَّه مَناطُ مَصالِحِهِم في مَعاشِهِم ومَعادِهِم، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُلتَبِسًا به.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ إذ[1] نفعَ بِهِ نفسَهُ.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فإنَّ وبالَهُ لا يَتخطَّاهَا.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وما وُكِّلْتَ عليهِمْ لتُجبِرَهُم على الهُدى، وإنَّما أُمرتَ بالبَلاغِ، وقَدْ بلَّغْتَ.

(٤٢) ـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: يَقبِضُها عن الأبدانِ بأَنْ يقطعَ تعلُّقَها عنها وتصرُّفَها فيها إمَّا ظاهرًا وباطنًا وذلك عندَ الموتِ، أو ظاهرًا لا باطنًا وهو في النَّومِ.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يَرُدُّها إلى البدنِ، وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿قُضِي﴾ بضمِّ القافِ وكسرِ الضَّادِ و﴿الموتُ﴾ بالرَّفعِ[2].

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النَّائمةَ إلى بَدنِها عندَ اليقظةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقتُ المَضروبُ لِمَوتهِ، وهو غايةُ جنسِ[3] الإرسالِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «أي».

(٢) وقرأ الباقون بالمبني للمعلوم، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

(٣) في نسخة الخيالي: «حين». وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته».

وما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عَنهُما: أنَّ في ابنِ آدمَ نفسًا وروحًا بينَهُما مثلُ شُعاعِ الشَّمسِ، فالنَّفسُ التي بها العَقلُ والتَّمييزُ، والرُّوحُ التي بها النَّفسُ والحياةُ، فيُتوَفَّيَانِ عندَ الموتِ، وتُتوفَّى النَّفسُ وَحدَها عندَ النَّومِ[1] = قريبٌ ممَّا ذَكرناهُ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ مِنَ التَّوفِّي والإمساكِ والإرسالِ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ على كمالِ قُدرَتِه وحِكمَتِه وشمولِ رَحمَتِه[2] ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفيَّةِ تَعلُّقِها بالأبدانِ، وتَوفِّيها عنها بالكُلِّيَّةِ حينَ الموتِ، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفَنائِها، وما يعتريها مِن السَّعادةِ والشَّقاوةِ والحكمةِ في توفِّيها عن ظواهِرِها وإرسالِها حينًا بعد حينٍ إلى توفِّي آجالِها.

(٤٣) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بل اتَّخذَ قريشٌ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ تشفعُ لهم عندَ اللهِ.

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ أيشفعونَ ولو كانوا على هذهِ الصفةِ كما تُشاهِدُونَهم جماداتٍ لا تقدرُ ولا تعلمُ[3].

(٤٤) ـ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ لعلَّهُ ردٌّ لِمَا عسى يُجيبونَ به، وهو أنَّ الشُّفعاءَ أشخاصٌ مُقرَّبونَ هي تماثيلُهُم، والمعنى أنَّه مالكُ الشَّفاعةِ كلِّها لا يستطيعُ أحدٌ شفاعةً إلَّا بإذنِه[4]، ولا يستقلُّ بها، ثمَّ قرَّرَ ذلك فقال: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنَّه مالكُ الملكِ كلِّه لا يملكُ أحدٌ أن يَتكلَّمَ في أمرِهِ دونَ إذنِه ورضاهُ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يومَ القيامةِ، فيكونُ الملكُ له أيضًا حينئذٍ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٣٠)، وذكره ابن طاهر المقدسي في «البدء والتاريخ» (٢/ ١١٠) من طريق ابن جريج عن ابن عباس.

(٢) في نسخة التفتازاني: «وشمولها».

(٣) في نسخة الفاروقي: «لا يقدرون ولا يعلمون».

(٤) في نسخة الخيالي: «إلا بإذن ربهم».

(٤٥) ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ دونَ آلهتِهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ انقبضَتْ ونَفَرتْ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ يعني الأوثانَ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ لفرطِ افتِتانِهم بها ونِسيانِهم حقَّ اللهِ، ولقد بالغَ في الأمرينِ حتَّى بيَّنَ الغايةَ[١] فيهما؛ فإنَّ الاستبشارَ أَنْ يمتلئَ قلبُه سرورًا حتَّى تَنبَسِطَ له بشرةُ وَجهِه، والاشمئزازُ أَنْ يَمتلِئَ غمًّا[٢] حتَّى ينقبضَ أديمُ وَجهِهِ، والعاملُ في (إذا) المُفاجأةُ.

(٤٦) ـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ألتَجِئُ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ لَمَّا تحيَّرْتُ في أمرِهم وعَجَزْتُ في عِنادِهم وشِدَّةِ شَكيمَتِهم، فإنَّه القادرُ على الأشياءِ والعالمُ بالأحوالِ كُلِّها.

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فأنتَ وحدكَ تقدرُ أَنْ تحكُمَ بيني وبينَهُم.

(٤٧) ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ وعيدٌ شديدٌ وإقناطٌ كُلِّيٌّ لهم مِن الخَلاصِ.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ زيادةُ مبالغةٍ فيه، وهو نظيرُ قولِه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم ﴾ [السجدة: ١٧] في الوعدِ.

(٤٨) ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ سيئاتُ أعمالِهم أو كسبِهم حينَ تُعرَضُ صحائفُهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وأحاطَ بهم جزاؤهُ.

(٤٩) ـ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ إخبارٌ عن الجنسِ بما يَغلِبُ فيه، والعطفُ على قولِه: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ بالفاءِ لبيانِ مُناقضَتِهم وتعكيسِهم في التَّسبُّبِ[٣]

---

(١) في نسخة التفتازاني: «حين ذكر الغاية»، وفي نسخة الفاروقي: «حتى ذكر الغاية».

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «وغيظا».

(٣) في نسخة التفتازاني: «السبب»، وفي نسخة الفاروقي: «التسبيب».

بمَعنى أنَّهم يَشمَئِزُّونَ عن ذكرِ اللهِ وحدَهُ، ويستبشرونَ بذكرِ الآلهةِ، فإذا مَسَّهُم ضرٌّ دَعَوا مَن اشمأزُّوا مِن ذكرِهِ دونَ مَن استَبْشَرُوا بذكرِهِ، وما بينَهُما اعتراضٌ مؤكِّدٌ لإنكارِ ذلك عليهم.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناهُ إيَّاها تفضُّلًا؛ فإنَّ التَّخويلَ مُختَصٌّ به.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ علـى علمٍ مني بوُجوهِ كَسبِهِ، أو بأنِّي سأُعطاهُ لِمَا لي مِن استحقاقِهِ أو مِن اللهِ بي واستيجابي، والهاءُ لِـ(ما) إن جُعِلَت موصولةً، وإلا فللنِّعمَةِ، والتَّذكيرُ لأنَّ المرادَ: شَيءٌ منها.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ امتحانٌ له أيشكرُ أَمْ يَكفرُ، وهو رَدٌّ لما قالَهُ، وتأنيثُ الضَّميرِ باعتبارِ الخبرِ، أو لفظِ النِّعمَةِ، وقُرِئَ بالتَّذكيرِ[1].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وهو دليلٌ على أنَّ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ للجنسِ.

(٥٠) ـ ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهـاءُ لقولـه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ لأنَّهـا كَلِمَةٌ أو جملـةٌ، وقُرِئَ بالتَّذكيـرِ[2]، و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: قـارونُ وقومُه؛ فإنَّه قالَـهُ ورَضِيَ بـه قومُه.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن مَتاعِ الدُّنيا.

(٥١) ـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ جزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، أو جزاءُ أعمالِهم، وسمَّاهُ سَيِّئَةً لأنَّه في مُقابلَةِ أعمالِهم السيئَةِ رَمزًا إلى أنَّ جميعَ أعمالِهم كذلك.

---

(١) ذكرها في «الكشاف» (٧/ ٥١٢)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٤٢٠) من حيث المعنى لكن لم يصرح بكونها قراءة.

(٢) أي: (قد قاله)، ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ٥١٥)، وأبو حيان في «البحر» (١٨/ ٣٥٢)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٤٢١) من حيث المعنى لكن لم يصرح بكونها قراءة.

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالعتوِّ، ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركينَ، و(مِن) للبيانِ أو التَّبعيضِ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ كما أصابَ أولئكَ، وقد أصابَهُم فإنَّهُم قُحِطُوا سبعَ سنينَ، وقُتِلَ ببدرٍ صَنادِيدُهُم، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتينَ.

(٥٢) ـ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ حيثُ حبسَ عَنْهُم الرِّزقَ سَبْعًا، ثمَّ بسطَ لهم سَبْعًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأنَّ الحَوادِثَ كُلَّها مِن اللهِ بوسَطٍ أو غيرِه.

(٥٣) ـ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أفرَطُوا في الجنايةِ عليها بالإسرافِ في المعاصي، وإضافةُ العبادِ تخصِّصُه[1] بالمؤمنينَ على ما هو عُرْفُ القرآنِ.

﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تَيأَسُوا مِن مَغفِرَتِه أوَّلًا وتفضُّلِه ثانيًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفوًا ولو بَعدَ بُعدٍ[2]، وتقييدُه بالتَّوبَةِ خلافُ الظَّاهِرِ، ويدلُّ على إطلاقِه فيما عدا الشِّركَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية [النساء: ٤٨]، والتَّعليلُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على المبالغةِ وإفادةِ الحصرِ والوعدِ بالرَّحمةِ بعدَ المغفرةِ، وتقديمُ ما يَستدعِي عمومَ المغفرةِ ممَّا في ﴿عبادي﴾ مِن الدَّلالةِ على الذِّلَّةِ والاختصاصِ المُقتَضِيَيْنِ للتَّرحُّمِ وتخصيصِ ضررِ الإسرافِ بأنفُسِهم، والنَّهيُ عن القُنوطِ مُطلَقًا عن الرَّحمةِ فَضْلًا عن المغفرةِ وإطلاقِها، وتعليلُهُ بأنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ، ووضعُ اسمِ اللهِ مَوضِعَ[3] الضَّميرِ = لدَلالتِهِ على أنَّه المستغني والمنعمُ على الإطلاقِ والتَّأكيدِ بالجَميعِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «تخصصهم»، وفي نسخة التفتازاني: «تخصيص»، وفي نسخة الطبلاوي: «تخصيصه».

(٢) في نسخة الفاروقي: «تعذيب». وكتبها الطبلاوي في نسخته بالوجهين.

(٣) قوله: «والنهيُ.. وتعليلهُ.. ووضعُ» عطف على فاعل «يدل». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٢٦).

وما رُوِيَ أنه عليه السَّلامُ قال «ما أُحِبُّ أنَّ[1] لِيَ الدُّنيا وما فيها بها» فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ! ومَن أشركَ؟ فسكتَ ساعةً ثمَّ قال: «أَلَا ومَنْ أَشركَ» ثلاثَ مرَّاتٍ[2].

وما رُوِيَ أنَّ أهلَ مَكَّةَ قالوا: يزعمُ مُحمَّدٌ أنَّ مَن عبدَ الوثنَ وقتلَ النَّفسَ بغيرِ حَقٍّ لم يُغْفَرْ لهُ، فكيفَ ولم نهاجِرْ وقد عبَدْنَا الأوثانَ وقَتَلْنَا النَّفسَ؟! فنزَلَتْ[3].

وقيل: في عيَّاشٍ والوليدِ بنِ الوليدِ في جماعةٍ فُتِنُوا فافتتنُوا[4]، أو في الوحشيِّ[5] = لا ينفي عمومَهَا.

وكـذا قـولُه: (٥٤) ـ ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، فإنَّها[6] لا تدلُّ على حصولِ المَغفِرَةِ لكلِّ أحدٍ مِن غيرِ توبَةٍ وسبقِ تعذيبٍ، لتُغنِيَ عن التَّوبةِ والإخلاصِ في العملِ، وتُنافيَ الوعيدَ بالتعذيبِ[7].

(٥٥) ـ ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ القرآنَ، أو المأمورَ به دونَ

---

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «أنْ تكون».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٧٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٣٥)، ورواه أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٦٢) عن ثوبان رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٠): «رواه الطبراني في الأوسط وأحمد بنحوه وقال: «إلا من أشرك» ثلاث مرات، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٥) عن عطاء بن يسار.

(٦) قوله: «فإنها» أي: الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٢٦).

(٧) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بالعذاب».

المَنهيِّ عنه، أو العزائمَ دونَ الرُّخصِ، أو النَّاسِخَ دونَ المنسوخِ، ولعلَّهُ ما هو أَنْجى وأَسْلمُ؛ كالإنابةِ والمواظبةِ على الطَّاعةِ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئِه فتتداركونَ.

(٥٦) ـ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهةَ أَنْ تقولَ، وتنكيرُ ﴿نَفْسٌ﴾ لأنَّ القائلَ بَعضُ الأنفُسِ، أو للتَّكثيرِ كقولِ الأعشى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ ... أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبَا[1]

﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ وقُرِئَ بالياءِ على الأصلِ[2].

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ ما قصَّرْتُ، ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في جانبِهِ؛ أي: في حَقِّهِ وهو طاعتهُ، قالَ سابِقٌ البَرْبَرِيُّ:

أَمَا تَتَّقِينَ اللهَ فِي جَنْبِ وَامِقٍ ... لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ[3]

---

(١) انظر: «ديوان الأعشى» (ص: ١٥٥)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (٣/ ١٠٤)، و«مقاييس اللغة» (١/ ٢٨٢).

قال الطِّيبيُّ: البَقيعُ مَوضِعٌ فيه أروم الشَّجرِ مِن ضُروبٍ شَتَّى، كريمٌ: أي كرامٌ كثيرون، والتَّنكيرُ للتَّكثيرِ، ينفضُ الرَّأسَ أي: يحرِّكُه غضبًا، يشكُو مِن قَومِهِ حينَ قَعَدُوا عَن نصرِه. «فتوح الغيب» (١٣/ ٤١٣).

(٢) قرأ بها الحسن وأبو العالية وأبو عمران وأبو الجوزاء كما في «زاد المسير» (٤/ ٢٤)، ورويت عن أبي جعفر كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٨).

(٣) نسبه الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ٥١٩) لسابِقٍ البربريِّ، ولم أجد هذه النسبة عند من تقدمه.

ونُسِبَ لكثيِّر في «غريب القرآن» لابن عُزَيز (ص: ٣٦٥)، و«الغريبين» (مادة: جنب)، و«الإبانة» للعوتبي (٣/ ٦٤٤)، و«مجمع الأمثال» للميداني (١/ ١٤١)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ١٢٢)، وهو في «ديوان كثير» (ص: ١٧٧) برواية: «حب» بدل: «جنب»، و«تصدع» بدل: «تقطع»، ومثله رواية «الحماسة البصرية»، وجاء في جميع المصادر: «عاشق» بدل: «وامق».

وهو كِنايةٌ فيها مبالغةٌ كقولِه:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ[1]

وقيل: في ذاتِه، على تقديرِ مُضافٍ كالطَّاعةِ.

وقيل: في قُربِه؛ مِن قولِه: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾.

وقُرِئَ: (في ذكرِ اللهِ)[2].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئينَ بأهلِه، ومحلُّ ﴿إِن كُنتُ﴾ نصبٌ على الحالِ كأنَّهُ قال: فرَّطْتُ وأنا ساخِرٌ.

(٥٧) ـ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بالإرشادِ إلى الحقِّ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الشِّرْكَ والمعاصيَ.

(٥٨) ـ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدةِ والعملِ، و(أو) للدَّلالةِ على أنَّه لا يخلو مِن هذهِ الأقوالِ تَحيُّرًا وتعلُّلًا بما لا طائلَ تحتَه.

(٥٩) ـ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ردٌّ مِن اللهِ عليه لِمَا تضمَّنَه قولُه: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ مِن مَعْنى النَّفيِ، وفَصْلُه

---

(١) البيت لزياد بن الأعجم، وهو في مدح عبد الله بن الحشرج وكان سيداً من سادات قيس وأميراً من أمرائها، ولي أكثر أعمال خراسان، وكان جوادًا ممدَّحاً، وفد عليه زياد الأعجم وهو بسابور أميراً عليها، فأمر بإنزاله وألطفه وبعث إليه ما يحتاج إليه، ثم غدا عليه زياد فأنشده أبياتاً منها هذا البيت. انظر: «الأغاني» (١٢/ ٢٨ و٤٠). ونسبه لزياد أيضاً الجرجاني في «دلائل الإعجاز» (ص: ٣٠٦)، والزمخشري في «ربيع الأبرار» (٤/ ٣٨٦).

(٢) نسبها الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ٥٢١) إلى عبد الله وحفصة، وذُكِرَ هذا اللفظ عن الضحاك تفسيرًا لا قراءةً. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٤).

عنه[١]؛ لأنَّ تقديمَهُ يُفرِّقُ القرائنَ، وتأخيرُ المردودِ يُخِلُّ بالنَّظمِ المطابقِ للوُجودِ؛ لأنه يتحسَّرُ بالتَّفريطِ، ثمَّ يتعلَّلُ بفَقدِ الهدايةِ، ثمَّ يَتمنَّى الرَّجعَةَ، وهو لا يمنعُ تأثيرَ قُدرةِ اللهِ في فعلِ العَبدِ ولا ما فيهِ مِن إسنادِ الفعلِ إليه كما عرفت.

وتذكيرُ الخطابِ على المعنى، وقُرِئَ بالتَّأنيثِ للنَّفسِ[٢].

(٦٠) ـ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بأنْ وَصَفوهُ بما لا يجوزُ كاتِّخاذِ الوَلدِ.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما[٣] ينالُهُم مِن الشدَّةِ، أو بما يتخيلُ عليها مِن ظُلمَةِ الجَهلِ، والجملةُ حالٌ؛ إذ الظَّاهرُ أن (ترى) مِن رؤيَةِ البَصرِ، واكتُفِيَ فيها بالضَّميرِ عن الواوِ.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مقامٌ ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمانِ والطَّاعةِ، وهو تَقريرٌ لأنَّهُم يرونَ كذلك.

(٦١) ـ ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقُرِئَ ﴿وَيُنْجِي﴾[٤].

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفَلاحِهم، مَفْعَلَةٌ مِن الفوزِ، وتَفسيرُها بالنَّجاةِ تَخصيصُها بأهمِّ أَقسامِه، وبالسَّعادةِ والعملِ الصَّالحِ إطلاقٌ لها على السَّببِ، وقرأ الكوفيُّونَ غيرَ حَفصٍ بالجمعِ[٥] تطبيقًا له بالمُضافِ إليه، والباءُ فيها للسَّببيَّةِ

---

(١) أي: فَصْلُ قولِه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ عن قوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بآية.

(٢) أي: (بلى قد جاءتكِ آياتي فكذبتِ بها واستكبرتِ وكنتِ) قرأ بها أبو بكر رضي الله عنه كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢).

(٣) في نسخة التفتازاني: «مما».

(٤) قرأ بها روح عن يعقوب، انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٣).

(٥) أي: ﴿بمفازاتهم﴾، والباقون ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بالإفراد، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

صِلَـةً لـ﴿ينجـي﴾، أو لقولِـه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وهـو حـالٌ أو استـئنافٌ لبَيـانِ المَفَـازةِ.

(٦٢) ـ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِن خيرٍ وشَرٍّ وإيمانٍ وكُفرٍ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ يتولَّى التَّصرُّفَ فيه.

(٦٣) ـ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يملِكُ أمرَها ولا يتمكَّنُ مِن التَّصرُّفِ فيها غيرُه، وهو كنايةٌ عن قدرتِه وحفظِه لها، وفيها مزيدُ دلالةٍ على الاختصاصِ؛ لأنَّ الخزائنَ لا يَدخلُها ولا يتصرَّفُ فيها إلا مَن بيدِه مَفاتيحُها، وهو جمعُ (مِقْلِيدٍ) أو (مِقْلَادٍ) مِن قلَّدْتُه: إذا ألزَمْتَه، وقيل: جمعُ (إقليدٍ) مُعرَّبِ إِكْليد على الشُّذوذِ، كمَذَاكيرَ[1].

وعن عثمانَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّه سألَ النَّبيَّ ﷺ عن المقاليدِ فقال: «تفسيرُها: لا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، وسُبحانَ اللهِ وبحمدِه، وأستغفرُ اللهَ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ، هو الأوَّلُ والآخرُ والظَّاهرُ والباطِنُ بيدِهِ الخيرُ يُحيي ويُميتُ وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ»، والمعنى على هذا: إنَّ للهِ هذه الكلماتِ يُوحَّدُ بها ويُمَجَّدُ وهي مفاتيحُ خيرِ السَّماواتِ والأرضِ مَن تكلَّمَ بها[2] أصابَه[3].

---

(١) ذكره ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ٣٨٤)، وذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ١٠١٩)، واستغربه، وانظر: «لباب التفاسير» له (٨/ ٥٥).

(٢) في هامش نسخة الخيالي زيادة: «من المتقين»، وهي كذلك في «الكشاف».

(٣) رواه أبو يعلى كما في «المطالب العالية»: (٣٧٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٥٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ١١٧) و(٤/ ٢٣١)، والطبراني في «الدعاء» (١٧٠٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٤٦)، من حديث ابن عمر. وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٥) وقال: لا يصح.، وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٨٥): هذا موضوع فيما أرى.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ للدَّلالةِ على أنَّه مُهيمِنٌ على العبادِ مُطَّلِعٌ على أفعالِهم مُجازٍ عليها، وتَغييرُ النَّظمِ للإشعارِ بأنَّ العُمدةَ في فلاحِ المؤمنينَ فَضلُ اللهِ، وفي هلاكِ الكافرينَ بأنْ خَسِرُوا أنفُسَهُم، وللتَّصريحِ بالوَعدِ والتَّعريضِ بالوعيدِ قضيَّةً للكرمِ، أو بما يليهِ[1]، والمرادُ (بآياتِ اللهِ): دلائلُ قُدرَتِه واستبدادُهُ بأمرِ السَّماواتِ والأرضِ، أو كلماتُ تَوحيدِهِ وتَمجيدِهِ، وتَخصيصُ الخسَارِ بهم لأنَّ غيرَهُم له[2] حَظٌّ مِن الرَّحمةِ والثَّوابِ.

(٦٤) ـ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي: أفغيرَ اللهِ أعبدُ بعدَ هذه الدَّلائلِ والمواعيدِ، و﴿تَأْمُرُونِّي﴾ اعتراضٌ للدَّلالةِ على أنَّهم أمروهُ بهِ عَقِيبَ ذلك وقالوا: استَلِمْ بعضَ آلِهَتِنا ونؤمِنُ بإلهكَ؛ لفرطِ غَباوَتِهم، ويجوزُ أن ينتصبَ (غير) بما دلَّ عليهِ ﴿تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ لأنَّه بمعنى: تُعَبِّدُونَني على أنَّ أصله: تأمرونَني أنْ أعبُدَ، فحُذِفَ (أن) ورُفِعَ كقولِه:

أَحْضُرُ الوَغَى[3]

---

(١) (قضيةً للكرم): بالنصبِ تعليلٌ للتصريح والتعريض، بما ذكره، [أو بما يليه] عطفٌ على «بقوله»: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ أو متصلاً بما يلي قوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾، وهو ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٠)

(٢) في نسخة التفتازاني: «ذو».

(٣) قطعة من صدر بيت لطرفة بن العبد، وهو في «ديوانه» (ص: ٣٢)، و«الكتاب» (٣/ ٩٩)، وقد تقدمَ مرارًا، وتمام البيت:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنت مُخلِدي

و«أحضر» وروي بالرفع والنصب كما ذكر السمين الحلبي في «الدر المصون».

ويُؤيِّدُه قراءةُ (أعبُدَ) بالنَّصبِ[١]، وقرأَ ابنُ عامرٍ ﴿تَأْمُرُونَنِي﴾ بإظهارِ النُّونَينِ على الأصلِ، ونافعٌ بحذفِ الثَّانيةِ فإنَّها تُحذَفُ كثيرًا[٢].

(٦٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: مِن الرُّسُلِ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كلامٌ على سبيلِ الفَرضِ، والمرادُ به تهييجُ الرُّسُلِ وإقناطُ الكفرةِ والإشعارُ على حكمِ الأمَّةِ، وإفرادُ الخطابِ باعتبارِ كلِّ واحدٍ، واللامُ الأولى مُوطِّئةٌ للقسمِ، والأُخْرَيانِ[٣] للجوابِ، وإطلاقُ الإحباطِ يحتملُ أَنْ يكونَ مِن خَصائِصِهم لأنَّ شِرْكَهُم أقبَحُ، وأَنْ يكونَ على التَّقييدِ بالموتِ كما صرحَ بهِ في قولِه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

وعطفُ الخُسرانِ عليه مِن عطفِ المُسبَّبِ على السَّببِ.

(٦٦) ـ ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ رَدٌّ لما أمروهُ بهِ، ولولا دلالةُ التَّقديمِ على الاختصاصِ لَمْ يَكُن كذلك.

﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إنعامَهُ عليه، وفيه إشارةٌ إلى موجبِ الاختصاصِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) عن بعضهم.

(٢) قرأ ابن عامر بنونين الأولى مفتوحة، ونافع بواحدة مخفَّفةٍ، والباقونَ بواحدةٍ مشدَّدة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والأخيرتان». قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «واللام الأولى موطئة... إلخ» الأولى لام ﴿لَئِنْ﴾، والأخريان ـ وفي نسخة: الأخيرتان ـ هما ما بعدها، وأما اللام الداخلة على (لقد) فقسمية من غير شبهة، ولما كانت المعطوفة كذلك سأل الزمخشري عن اللامين، وقيل إنه لم يقل: «والثانية» كما في «الكشاف» لئلا يتوهم أن المرادَ بالأولى لام (لقد)، ولعمري إن من يتوهمُ مثله لا يفهم «الكشاف» ولا يليق به مطالعته.

(٦٧) ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدرُوا عظمتَهُ في أنفُسِهِم حقَّ تعظيمِه حيثُ جَعلوا له شريكًا ووصفوهُ بما لا يليقُ به، وقُرِئَ بالتَّشديدِ[١].

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ تنبيهٌ على عَظَمَتِه وحَقارةِ الأفعالِ العِظَامِ التي تتحيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قُدرَتِه، ودلالةٌ على أنَّ تخريبَ العالَمِ أهوَنُ شَيءٍ عليه على طريقَةِ التَّمثيلِ والتَّخييلِ مِن غيرِ اعتبارِ القبضَةِ واليَمينِ حقيقةً ولا مَجازًا، كقولِهم: شَابَتْ لِمَّةُ الليلِ.

والقَبضَةُ: المرَّةُ من القَبْضِ، أُطلِقَت بمعنى (القُبْضَةِ) وهي المقدارُ المَقبوضُ بالكَفِّ تَسمِيَةً بالمصدرِ، أو بتقديرِ: ذات قبضةٍ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[٢] على الظَّرفِ تَشبيهًا للمؤقتِ بالمُبهَمِ، وتأكيدُ الأَرضِ بالجميعِ؛ لأنَّ المُرادَ بها الأَرَضُونَ السَّبعُ، أو جميعُ أَبعاضِهَا البادِيَةِ والغائِرَةِ.

وقُرِئَ: (مَطْوِيَّاتٍ)[٣] على أنَّها حالٌ، و﴿السماوات﴾ معطوفةٌ على ﴿الأرض﴾ مَنظومةٌ في حكمِها.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعدَ وأَعْلى مَن هذه قُدرَتُه وعظمَتُه عن إشراكِهِم، أو مَا يُضافُ[٤] إليهِ مِن الشُّركاءِ.

(٦٨) ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يعني: المرَّةَ الأولى، ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خرُّوا مِيِّتًا أو مَغشيًّا عليهِ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: جبريلُ ومِيكائيلُ وإسرافيلُ فإنَّهُم يموتونَ بَعدُ، وقيل: حملَةُ العَرشِ.

---

(١) أي: (قدَّروا)، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) عن الأعمش وأبي حيوة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) عن الحسن.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) عن عيسى بن عمر.

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي: «يضيفون».

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ نفخةً أُخرى، وهي تدلُّ على أنَّ المُرادَ بالأوَّلِ: ونُفِخَ في الصُّورِ نفخةٌ واحدةٌ كما صرحَ به في مواضِعَ، و﴿أُخْرَىٰ﴾ تحتملُ النَّصبَ والرَّفعَ، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمونَ مِن قُبورِهِم أو مُتوقِّفونَ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[1] على أنَّ الخبرَ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ وهو حالٌ مِن ضَميرِه، والمعنى: يُقلِّبونَ أبصارَهُم في الجوانبِ كالمَبهوتينَ، أو ينتظرونَ ما يُفعَلُ بهم.

(٦٩) ـ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقامَ فيها مِن العَدْلِ، سَمَّاهُ نورًا لأنَّه يزيِّنُ البقاعَ ويُظهِرُ الحُقوقَ كما سَمَّى الظُّلمَ ظلمةً، وفي الحديثِ: «الظلمُ ظُلُماتٌ يومَ القِيامَةِ»، ولذلك أضافَ اسمَهُ إلى الأرضِ، أو بنورٍ خُلِقَ فيها بلا توسُّطِ أجسامٍ مُضيئَةٍ، ولذلك أضافَها إلى نفسِه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الحسابُ والجَزاءُ، مِن وَضعِ المُحاسِبِ كتابَ المحاسبةِ بين يديهِ، أو صحائفَ الأعمالِ في أيدي العُمَّالِ، واكتُفِيَ باسمِ[2] الجنسِ عن الجمعِ.

وقيل: اللَّوحُ المحفوظُ يُقابَلُ به الصَّحائفَ[3].

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يَشهدون للأُمَمِ وعليهِمْ مِن الملائكةِ والمؤمنينَ، وقيل: المُستشهَدُونَ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بينَ العبادِ ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عِقَابٍ على ما جرى به الوعدُ.

(٧٠) ـ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ جزاءَهُ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوتُهُ شَيءٌ مِن أفعالِهم، ثمَّ فصَّلَ التَّوفيةَ وقال:

---

(١) انظر: «البحر» (١٨/ ٣٧٣) عن زيد بن علي، وهو في «الكشاف» (٧/ ٥٣٥) من غير نسبة.

(٢) في نسخة التفتازاني: «بذكر اسم».

(٣) انظر: «لباب التفاسير» للكرماني (٨/ ٦٢).

(٧١) ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أفواجًا مُتفرِّقَةً بعضُها في إثرِ بَعضٍ، على تَفاوُتِ أَقدامِهم في الضَّلالةِ والشَّرارةِ، وهي الجمعُ القليلُ جمعُ زُمْرَةٍ، واشتقاقُها مِن الزَّمْرِ: وهو الصَّوتُ، إذ الجماعةُ لا تخلو عنه[1]، أو مِن قَولِهم: شاةٌ زَمِرَةٌ: قليلةُ الشَّعرِ، ورجلٌ زَمِرٌ: قليلُ المروءةِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِّحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليَدخلوهَا، و(حتَّى) هي التي تُحكَى بعدَها الجملَةُ، وقرأ الكوفيونَ ﴿فُتِحَتۡ﴾ بتخفيفِ التَّاءِ[2].

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعًا وتوبيخًا ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ مِن جِنسِكُم ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ وقتِكُم هذا، وهو وقتُ دُخولِهم النَّارَ، وفيه دليلٌ على أنَّه لا تكليفَ قبلَ الشَّرعِ مِن حيثُ إنَّهُم علَّلوا توبيخَهُم بإتيانِ الرُّسُلِ وتَبليغِ الكتبِ.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كلمةُ اللهِ بالعَذابِ علينا، وهو الحكمُ عليهم بالشَّقاوةِ وأنَّهُم مِن أهلِ النَّارِ، ووُضِعَ الظَّاهرُ فيه مَوضِعَ الضَّميرِ للدَّلالةِ على اختصاصِ ذلك بالكَفَرَةِ، وقيل: هو قولُه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

(٧٢) ـ ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبهَمَ القائلَ لتَهويلِ ما يقالُ لهم، ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللامُ فيه للجنسِ، والمخصوصُ بالذَّمِّ سبقَ ذكرُهُ، ولا يُنافِي إِشعارُهُ بأنَّ مَثواهُم في النَّارِ لتَكبُّرِهم عن الحقِّ أن يكونَ دُخولُهُم فيها؛ لأنَّ كلمةَ العَذابِ حقَّتْ عليهِم، فإنَّ تكبُّرَهُم وسائرَ مَقابِحِهم مُسبَّبَةٌ عنه، كما

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «غالباً».

(٢) وقرأ الباقون بالتشديد، انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٤).

قالَ عليهِ السَّلامُ: «إنَّ اللهَ إذا خلقَ العبدَ للجنَّةِ استعْمَلَهُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ حتَّى يَمُوتَ على عملٍ مِن أعمالِ أهلِ الجنَّةِ فيدخلُ بهِ الجنَّةِ، وإذا خلقَ العبدَ للنَّارِ استعملَهُ بعملِ أهلِ النَّارِ حتَّى يَمُوتَ على عَمَلٍ مِن أعمالِ أهلِ النَّارِ فيدخلُ به النَّارَ»[1].

(٧٣) ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ إسراعًا بهِمْ إلى دارِ الكرامَةِ، وقيل: سيق مراكبُهُم؛ إذ لا يُذهَبُ بهم إلا راكبينَ ﴿زُمَرًا﴾ على تفاوُتِ مَرَاتِبِهم في الشَّرَفِ وعلوِّ الطَّبقةِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ حُـذِفَ جَـوابُ ﴿إِذَا﴾ وجعلَ ﴿فتحت﴾ حـالًا بإضمـارِ (قـد) للدَّلالةِ علـى أنَّ لهم حينَئذٍ مِـن الكرامَةِ والتَّعظيـمِ ما لا يُحيطُ بـه الوَصفُ، وأنَّ أبـوابَ الجنَّةِ تُفتَـحُ لهم قبلَ مَجيئِها[2] مُنتَظِرينَ، وقـرأَ الكوفيُّونَ ﴿فُتِحَت﴾ بالتَّخفيفِ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يَعترِيكُـم بعدُ مَكـروهٌ ﴿طِبْتُمْ﴾ طَهرْتُم مِـن دنـسِ المعاصـي ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ مُقدِّريـنَ الخلـودَ، والفـاءُ للدَّلالـةِ على أنَّ طيبَهُـم سـببٌ لدُخولِهـم وخُلودِهِـم، وهـو لا يمنَعُ دخـولَ العاصي بعفـوِهِ لأنَّه يُطهِّرُه.

(٧٤) ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعثِ والثَّوابِ ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يريدونَ المكانَ الذي استقرُّوا فيه على الاستعارةِ، وإيراثُها: تَمليكُها مُخَلَّفَةً عليهِمْ مِن أعمالِهم، أو تمكينُهُم مِن التَّصرُّفِ فيها تمكينَ الوارثِ فيما يَرِثُه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، من حديث عمر رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً».

(٢) في نسخة التفتازاني: «مجيئهم».

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: يتبوَّأُ كلٌّ مِنَّا في أيِّ مَقامٍ أرادَهُ مِن جنَّتِه الواسِعَةِ، مع أنَّ في الجنَّةِ مَقاماتٍ مَعنويَّةً لا يتمانَعُ وارِدُوها ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنَّةُ.

(٧٥) - ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ مُحْدِقينَ، ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي حولَهُ، و﴿مِنْ﴾ مزيدَةٌ، أو لابتداءِ الحُفوفِ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُلتَبسينَ بحَمْدِه، والجُملَةُ حالٌ ثانيةٌ، أو مُقيِّدَةٌ للأُولى، والمعنى: ذاكِرينَ له بوَصْفَيْ جلالِهِ وإكرامِه تَلذُّذًا به، وفيه إشعارٌ بأنَّ مُنتَهَى درجاتِ العِلِّيِّينَ وأعلى لذائذِهم هو الاستغراقُ في صِفَاتِ الحقِّ.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بينَ الخلقِ، بإدخالِ بَعضِهِم النَّارَ وبعضِهِم الجنَّةَ، أو بين الملائكةِ بإقامَتِهِم في منازِلِهم على حَسَبِ تَفاضُلِهم.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على ما قَضى بيننا بالحقِّ، والقائلونَ هُم المؤمنونَ مِن المقضيِّ بينَهُم، أو الملائكةُ، وطَيُّ ذِكرِهِم لتَعيُّنِهم وتَعظيمِهِم.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الزُّمَرِ لم يقطعِ اللهُ رجاءَهُ يومَ القيامَةِ، وأعطاهُ اللهُ ثوابَ الخائفينَ»[1].

وعنه عليهِ السَّلامُ: أنَّه كان يقرأُ كلَّ ليلَةٍ بني إسرائيلَ والزُّمَرَ[2].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٦٩)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وتقدم الكلام عليه مراراً.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٢٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٢٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، ورواه أحمد في «المسند» (٢٤٣٨٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٧٢): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٣٩) سورة الزمر مكية
وآياتها خمس وسبعون

روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو (القرآن العظيم) من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال عزّ وجل: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾، وقال تعالى: ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾، وقال هاهنا ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز ﴾ أي المنيع الجناب ﴿ الحكيم ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، وقال قتادة ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم أخبر عزّ وجلّ عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام، اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به، قال قتادة والسدي: ﴿ إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم

(١) أخرجه النسائي من حديث عائشة رضي الله عنها .

إذا حجوا في جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هـذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيـه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وأخبر أن الملائكة التي في السماوات، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنـده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ أي يوم القيـامة ﴿فيما هم فيه يختلفون﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ أي لا يرشد إلى الهداية، من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه؛ ثم بيّن تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى، فقـال تبارك وتعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ممـا يخلق ما يشاء﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محـال، وإنمـا قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عزّ وجلّ: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، فهذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم، وقوله تعالى: ﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ أي تعالى وتنزّه وتقدس، عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمـد، الذي قهر الأشياء، فدانت له وذلت وخضعت، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السماوات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وبأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلّب ليله ونهاره ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين، لا يفترقان، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وسخر الشمس والقمر كلٌ يجري لأجلٍ مسمى﴾ أي إلى مـدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ألا هو العزيز الغفار﴾ أي مع عزته وعظمته وكبريائه، هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه، وقوله جلت عظمته: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم عليه الصلاة

والسلام ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾، وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ أي وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، وقوله عزّ وجل: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم﴾ أي قدّركم في بطون أمهاتكم ﴿خلقاً من بعد خلق﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾، وقوله جل وعلا: ﴿في ظلمات ثلاث﴾ يعني ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن، كذا قال ابن عباس ومجاهد[١]. وقوله جل جلاله: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي هـذا الذي خلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿لا إله إلا هو﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿فأنى تصرفون﴾؟ أي فكيف تعبدون معه غيره؟ وأين يذهب بعقولكم؟

إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ * وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه جل وعلا أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، وفي الصحيح: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[٢]، وقوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي يحبه لكم، ويزدكم من فضله، ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كلٌّ مطالب بأمر نفسه، ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون * إنه عليم بذات الصدور﴾ أي فلا تخفى عليه خافية، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل﴾ أي في حال الرفاهية، ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال جل جلاله: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، وقوله تعالى: ﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾ أي في

---

(١) وهو قول عكرمة والضحّاك والسدي وقتادة وابن زيد وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه وهو جزء من حديث قدسي طويل.

حال العافية يشرك بالله ويجعل له أنداداً، ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه ﴿ تمتع بكفرك قليلاً ﴾ وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ .

أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

يقول تعالى: أمن هذه صفته، كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ ليسوا سواء ﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما ﴾(١) أي في حال سجوده، وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية، من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، قال ابن مسعود: «القانت المطيع لله عزّ وجلّ، ولرسوله ﷺ»، وقال ابن عباس: ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل(٢)، وقال الثوري: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء، وقال الحسن وقتادة: ﴿ آناء الليل ﴾ أوله وأوسطه وآخره، وقوله تعالى: ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ أي في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال تعالى: ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ فإذا كان عند الاحتضار، فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال أنس رضي الله عنه: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: «كيف تجدك»؟ فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن، إلاّ أعطاه الله عزّ وجلّ الذي يرجو، وأمّنه الذي يخافه»(٣). وعن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ قال ابن عمر: ذاك (عثمان بن عفان) رضي الله عنه»(٤) وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك، لكثرة صلاة عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، قال الشاعر:

«يقطّع الليل تسبيحا وقرآناً»

وقوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾؟ أي هل يستوي هذا، والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله؟ ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا، من له لب، وهو العقل، والله أعلم.

قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى

---

(١) أخرج جويبر عن ابن عباس قال: نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة.

(٢) وهو قول الحسن والسدي وابن زيد.

(٣) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا، حسنة في دنياهم وأخراهم، ﴿وأرض الله واسعة﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان، وقال: إذا دعيتم إلى معصيته فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾؟ وقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفاً، وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك، وقال السدي: يعني في الجنة، وقوله: ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ قال السدي: يعني من أمته ﷺ.

قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة، ومعناه التعريض بغيره، بطريق الأولى والأحرى، ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾، وهذا أيضاً تهديد، وتبرٍ منهم. ﴿قل إن الخاسرين﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة، وذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ أي هذا هو الخسران المبين، الظاهر الواضح، ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾، كما قال عزّ وجل: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ وقوله جل جلاله: ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾ أى إنما يقص خبر هذا ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم، وقوله تعالى: ﴿يا عبادِ فاتقون﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي.

۞ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

قال زيد بن أسلم: نزلت الآية في (زيد بن عمرو) و (أبي ذر) و (سلمان الفارسي) رضي الله تعالى عنهم،

والصحيح أنهـا شاملة لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ فبشر عبادِ ۝ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أي يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تبارك وتعالى: ﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿ وأولئك هم أولو الألباب ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة.

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ۝١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠ ﴾

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شقي هل تقدر أن تنقذه ممـا هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله، ثم أخبر عزّ وجلّ عن عباده السعداء أن لهم غرفـاً في الجنة، وهي القصور الشاهقة، ﴿ من فوقهـا غرف مبنية ﴾ طباق فوق طباق، مبنيات محكمات، مزخرفات عاليات، وفي الصحيح: «إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها» فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام»[1]، وروى الإمام أحمد، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في أفق السماء»[2]. وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله! إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، قال ﷺ: «لو أنكم تكونون على كل حال، على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله عزّ وجلّ بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال ﷺ: «لبنة ذهب ولبنة فضة، وبلاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العـادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لهـا أبواب السماوات، ويقول الرب تبارك وتعالى: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين»[3]. وقوله تعالى: ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما شاءوا، وأين أرادوا ﴿ وعد الله ﴾ أي هذا الذي ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢١ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٢ ﴾

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد ورواه الشيخان بلفظ: «كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الشرقي أو الغربي».

(٣) أخرجه الإمام أحمد، وروى الترمذي وابن ماجة بعضه.

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء، كما قال عزّ وجلّ : ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾، عن ابن عباس قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده[1]، وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج يعني أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها، وقوله تعالى: ﴿ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾، أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض ﴿زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ أي أشكاله وطعومه، وروائحه ومنافعه، ﴿ثم يهيج﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل، فتراه مصفراً قد خالطه اليبس، ﴿ثم يجعله حطاماً﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ أي الذين يتذكرون بهذا، فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هرماً، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت؛ فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ أي هل يستوي هذا، ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾؟ ولهذا قال تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أولئك في ضلال مبين﴾.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

هذا مدح من الله عزّ وجلّ لكتابه (القرآن العظيم) المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني، وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف، وقال الضحاك ﴿مثاني﴾ ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى، وقال عبد الرحمن ابن زيد: ﴿مثاني﴾ مردَّد، ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة، وقال ابن عباس ﴿مثاني﴾ أي القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرَدُّ بعضه على بعض. وقوله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار. لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه: (**أحدها**) أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات. (**الثاني**) أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن ﴿خروا سجداً وبكياً﴾ بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي لم يكونوا عند

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وهكذا قال الشعبي وسعيد بن جبير ان كل ماء في الأرض فأصله من السماء

سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

﴿ الثالث﴾ أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية، ما لا يلحقهم أحد في ذلك، تلا قتادة رحمه الله: ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عزّ وجلّ بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان، وقال السدي ﴿ إلى ذكر الله﴾ أي إلى وعد الله، وقوله ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾ أي هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك، فهو ممن أضله الله ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾ ويقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين، ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة؟ كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾؟ وقال تبارك وتعالى: ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، وقوله جلت عظمته: ﴿ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، وقوله جلّ وعلا ﴿ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال، وتشفي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد، أعظم مما أصابهم في الدنيا، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

۞ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ لعلهم يتذكّرون﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها

إلا العالمون﴾، وقوله جل وعلا: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿لعلهم يتقون﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد، ثم قال: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿ورجلاً سلماً﴾ أي سالماً ﴿لرجل﴾ أي خالصاً لا يملكه أحد غيره، ﴿هل يستويان مثلاً﴾؟ أي لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له؟ فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس ومجاهد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال: ﴿الحمد لله﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي فلهذا يشركون بالله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ أي إنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عزّ وجلّ، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين، ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. روي أنه لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله! أتكرر علينا الخصومة؟ قال ﷺ: «نعم»، قال رضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد[1]، وعن الزبير ابن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾، قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال ﷺ: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير رضي الله عنه: والله إن الأمر لشديد[2].

وفي الحديث: «أول الخصمين يوم القيامة جاران»[3]. وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر»، قلت: لا، قال ﷺ: «لكن الله يدري وسيحكم بينهما»[4]. وقال الحافظ أبو بكر البزار، عن أَنَس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الجائر الخائن يوم القيامة فتخاصمه الرعية، فيفلحون عليه، فيقال له: سدّ ركناً من أركان جهنم»[5]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت، ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي والإمام أحمد وابن ماجة بزيادة فيه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعاً.

(٤) أخرجه الإمام أحمد أيضاً.

(٥) رواه الحافظ البزار.

فيبعث الله تعالى ملكاً يفصل بينهما، فيقول لهما : إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير ، والآخر ضرير ، دخلا بستاناً، فقال المقعد للضرير : إني أرى ههنا ثماراً، ولكن لا أصل إليها، فقال له الضرير : اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي ؟ فيقولان : كلاهما، فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أنفسكما، يعني أن الجسد للروح كالمطية وهو راكبه[1] ، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت: ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال، قلنا: من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم ؟ حتى وقعت الفتنة ، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: هذا الذي وعدنا ربنا عزّ وجلّ نختصم فيه[2] ، وقال أبو العالية : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ يعني أهل القبلة ، وقال ابن زيد : يعني أهل الإسلام وأهل الكفر ، وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

يقول عزّ وجلّ مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أُخرى، وادعوا إن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال عزّ وجلّ : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا ، لأنه جمع بين طرفي الباطل: كذب على الله ، وكذّب رسول الله ﷺ ، قال الباطل ، ورد الحق ، ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ ؟ وهم الجاحدون المكذبون ، ثم قال جل وعلا ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ ، قال مجاهد وقتادة : ﴿ الذي جاء بالصدق ﴾ هو الرسول ﷺ ، وقال السدي: هو جبريل عليه السلام، ﴿ وصدّق به ﴾ يعني محمداً ﷺ ، وقال ابن عباس: من جاء بلا إلّه إلا الله ﴿ وصدّق به ﴾ يعني رسول الله ﷺ ، وقيل: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة، فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا ، وهذا القول[3] يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية، فإنه جاء بالصدق وصدّق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه ، وقال ابن زيد: ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿ وصدّق به ﴾ قال المسلمون ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ يعني في الجنة، مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ كما قال عزّ وجل في الآية الأخرى: ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

---

(١) رواه ابن منده في كتاب الروح ولم يشر له ابن كثير بضعف .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه النسائي عن ابن عمر .

(٣) وهو رواية ليث عن مجاهد وهو اختيار ابن كثير .

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول الله تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكّل عليه، وفي الحديث: «أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به»[1]. ﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ يعني المشركين يخوّفون الرسول ﷺ، ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم، التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً[2]، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام؟﴾ أي منيع الجناب لا يضام من استند إلى جنابه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه، ممن كفر به وأشرك، وعاند رسوله ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله عزّ وجلّ هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولهذا قال تعالى: ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره؟ أوأرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾؟ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر، وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[3] الحديث. ﴿قل حسبي الله﴾ أي الله كافي، ﴿عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾، كما قال (هود) عليه الصلاة والسلام: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عزّ وجلّ أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عزّ وجلّ»[4]، وقوله تعالى ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد، ﴿إني عامل﴾ أي على طريقتي ومنهجي، ﴿فسوف تعلمون﴾ أي ستعلمون غبّ ذلك ووباله، ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي في الدنيا، ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر، لا محيد له عنه، وذلك يوم القيامة، أعاذنا الله منها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري مرفوعاً ورواه الترمذي والنسائي بنحوه.

(٢) عن معمر قال: قالوا للنبي ﷺ: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلنك، فنزلت: ﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾، أخرجه عبد الرزاق كما في اللباب.

(٣) الحديث رواه ابن أبي حاتم والترمذي.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿للناس بالحق﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن، لتنذرهم به، ﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي بموكل أن يهتدوا، ﴿إنما أنت نذير﴾، ﴿إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ الآية، وقال: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾، فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى، كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[1]، وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، قال السدي: إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوانات بكثير، ثم قال ﴿قل﴾ أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فرجعها كلها إليه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك، ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلا بعمله، ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وإذا ذكر الله وحده﴾ أي إذا قيل لا إله إلا الله وحده، ﴿اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ قال مجاهد: اشمأزت انقبضت، وقال السدي: نفرت، وقال قتادة: كفرت واستكبرت، كما قال تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي عن المتابعة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿إذا هم يستبشرون﴾ أي يفرحون ويسرون.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تبارك وتعالى، بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد ﴿قل اللهمَّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السماوات والأرض وفطرها، أي جعلها على غير مثال سبق، ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي السر والعلانية، ﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم، روى مسلم في صحيحه، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1]. وقال رسول الله ﷺ: «من قال: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا، أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله عزّ وجلّ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إليَّ عهداً فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة»[2].

وروى الإمام أحمد، عن أبي راشد الحبراني قال: أتيت (عبد الله بن عمرو) رضي الله عنهما فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ، فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فنظرت فيها، فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ فقال له رسول

(١) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه.

الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، أن أقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم»(١)، وقوله عز وجل: ﴿ولو أن للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لافتدوا به من سوء العذاب﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم، ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

* ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوّله نعمة منه بغى وطغى، وقال: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا، قال قتادة ﴿على علم عندي﴾ على خبر عندي، قال الله عزّ وجلّ: ﴿بل هي فتنة﴾ أي ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك فهي ﴿فتنة﴾ أي اختبار ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، فلهذا يقولون ويدعون ما يدعون، ﴿قد قالها الذين قبلهم﴾ أي قد قال هذه المقالة وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فما صح قولهم ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء﴾ أي من المخاطبين ﴿سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾، أي كما أصاب أولئك ﴿وما هم بمعجزين﴾، كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾؟ وقال تعالى: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي لعبراً وحججاً.

* ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وقال: حسن غريب.

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾، ونزل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾[1]. وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾»[2] إلى آخر الآية. وعن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعم على عصاً له فقال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ فقال ﷺ: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك»[3]. وروى الإمام أحمد، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ وسمعته ﷺ يقول: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[4].

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾، وقال جلّ وعلا في حق المنافقين: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: انظروا إلى

(١) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه.

(٣) تفرد به أحمد من حديث عمرو بن عنبسة.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.

هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، والآيات في هذا كثيرة جداً، وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها، فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عزّ وجلّ أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة، هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه، وقال ابن عباس في قوله عزّ وجلّ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾. ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وقال: ﴿ما علمت لكم من إلَه غيرى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه، وروى الطبراني عن ابن مسعود قال: إن أعظم آية في كتاب الله ﴿الله لا إلَه إلا هو الحي القيوم﴾ وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، وإن أكثر آية في القرآن فرحاً ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[1]. ومرَّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على قاصّ وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر لِمَ تقنطِ الناسَ من رحمة الله؟ ثم قرأ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾[2]

(ذكر أحاديث فيها نفي القنوط)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عزَّ وجلَّ بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم»[3]، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله عزَّ وجلَّ قوماً يذنبون فيغفر لهم»[4]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب الندامة»[5]، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم»[6]. ثم استحث تبارك

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود موقوفاً.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أيضاً.

(٣) تفرد به الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك.

(٤) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي.

(٥) أخرجه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً.

(٦) تفرد به الإمام أحمد.

وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ الخ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم ﴿من قبل أن يأتيكم العذابُ بغتةً وأنتم لا تشعرون﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون، ثم قال تعالى: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عزَّ وجلَّ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق، ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل، قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه وتعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾، ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، وفي الحديث: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني قال: فيكون له الشكر»[1]، ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله﴾ أي في دعواهم له شريكاً وولداً، ﴿وجوههم مسودة﴾ أي بكذبهم وافترائهم. وقوله تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾؟ أي أليست جهنم كافية سجناً وموئلاً، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم عن الانقياد للحق؟ وفي الحديث: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً من النار في واد يقال له (بولس) من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال»[2]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي يوم القيامة ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزحون عن كل شر، نائلون كل خير.

(١) أخرجه أحمد والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته، قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وقال السدي: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي خزائن السماوات والأرض، والمعنى على كلا القولين أن أزمَّة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولهذا قال جل وعلا: ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ أي حججه وبراهينه ﴿أولئك هم الخاسرون﴾، وقوله تعالى: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾؟ ذكروا في سبب نزولها أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون؟ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾[1] وهذه كقوله تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قدره وقدرته، قال مجاهد: نزلت في قريش، وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه، وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوا، وقال ابن عباس: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف، قال البخاري: قوله تعالى ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله عزّ وجلّ يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ الآية[2]، وروى الإمام أحمد، عن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع، والسماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، قال: وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إلى آخر الآية[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟»[2]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجّد الرب نفسه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرنَّ به[3].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي (نفخة الصعق) وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لله الواحد القهار﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى وهي النفخة الثالثة (نفخة البعث) قال الله عزّ وجلّ: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾، وقال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾.

روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين - لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، أو أربعين ليلة[4] - فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه (عروة بن مسعود الثقفي)، فيظهر فيهلكه الله تعالى، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم والنسائي.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.
(٣) أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة.
(٤) الشك من الراوي وليس من لفظ النبوة فتنبه.

ذرة من إيمان إلا قبضته ، إنَّ أحدهم لو كان في كبد جبل لدخلت عليه » ؛ قال : سمعتها من رسول الله ﷺ : « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارةٌ أرزاقهم، حسنٌ عيشهم؛ ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله تعالى - أو ينزل الله عزّ وجلّ - مطراً كأنه الطل أو الظل - شك نعمان - فتنبت منه الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ قال، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: كم ؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فيومئذ تبعث الولدان شيباً ويومئذ يكشف عن ساق »(١). وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « ما بين النفختين أربعون »، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال رضي الله تعالى عنه: أبيت، قالوا: أربعون سنة ؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْب ذنبه فيه يركب الخلق(٢) .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء، ﴿ ووضع الكتاب ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم، ﴿ والشهداء ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي بالعدل، ﴿ وهم لا يظلمون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾، ولهذا قال: ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أي من خير أو شر، ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾.

۞ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار، كيف يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً، بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعّاً ﴾ أي يدفعون إليها دفعاً وهم عطاش ظماء، كما قال جلّ وعلا في الآية الأخرى: ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ۞ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي، كما قال تعالى: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية، الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى، على وجه التقريع

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة . وعجب الذنب : العصعص .

والتوبيخ والتنكيل: ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ ؟ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم: ﴿ بلى ﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾. وقوله تعالى: ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه، بما حكم العدل الخبير عليهم به، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها، ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق، فبئس الحال وبئس المآل.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

وهذا إخبار عن حال **السعداء المؤمنين**، حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة، ﴿ زمراً ﴾ أي جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، وكل زمرة تناسب بعضها بعضاً. ﴿ حتى إذا جاءوها ﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذّبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة»، وفي لفظ: «وأنا أول من يقرع باب الجنة»[1]. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد - قال - فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتفلون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألُوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبّحون الله تعالى بكرة وعشياً»[3]. وروى الحافظ أبو يعلى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم عن أنس مرفوعاً.

(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه.

(٣) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليـلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلتون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألُوّة[١] ، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعـاً في السماء » .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خـالدين ﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان »، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله : ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كلهـا أحـد يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم وأرجو أن تكون منهم »[٢] ، وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحـد يتوضأ فيبلغ أو فيـسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »، وعن معاذ رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الجنة لا إلّه إلا الله »[٣] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل : « فيقول الله تعالى : يا محمد أدخل من لا حـساب عليه من أمتك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة أو هجر – وهجر مكة – وفي رواية – مكة وبصرى[٤] ، وفي صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها، ولقد ذكر لنـا أن ما بـين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام[٥] ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وجزاؤكم، وقوله: ﴿ فادخلوها خالدين﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً، ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك: ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾، ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾، وقوله: ﴿ وأورثنا الأرض

---

(١) الألوة : العود الذي يتبخر به .
(٢) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن معاذ رضي الله عنه .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً .
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه .

نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾. قال أبو العالية وقتادة والسدي: أي أرض الجنة، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾، ولهذا قالوا: ﴿نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ[1] اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص»[2]

وروى ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تغير أبشارهم بعدها أبداً، ولم تشعث أشعارهم بعدها أبداً، فإنما دهنوا بالدهان ثم عمدوا إلى الأخرى، كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما كان في بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة: ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾، وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة، أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان باسمه في الدنيا، فيقلن: أنت رأيته، فيقول: نعم، فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب، قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة وأكواب موضوعة وزرابي مبثوثة، قال، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله تعالى قدره له لألم أن يذهب ببصره إنه لمثل البرق، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكئ إلى أريكة من أرائكه ثم يقول: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾.

* ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزّل كلا في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه، ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية وقضى الأمر وحكم بالعدل، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وقضي بينهم﴾ أي بين الخلائق ﴿بالحق﴾، ثم قال ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أي نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض﴾، واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾.

[آخر تفسير سورة الزمر، ولله الحمد والمنة]

---

(١) الجنابذ: ما ارتفع من الأرض وغيرها والمراد عقود اللؤلؤ. (٢) أخرجه مسلم وعبد بن حميد. الدرمك: التراب الناعم.

تفسير سورة الزمر

وهى مكية .

قال النسائى: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبى لبابة(١)، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④ ﴾ .

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن العظيم ـ من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ـ ١٩٥]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال هاهنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى: المنيع الجناب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده](٣)، وأنه(٤) ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له.

وقال قتادة فى قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر تعالى عن عُبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم، فعبدوا(٥) تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى

(١) فى ت: «روى النسائى بإسناده عن عائشة» .
(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٤).
(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «فإنه» . (٥) فى أ: «فعدوا».

نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر[١] الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة، والسدى، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أى: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك[٢]، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهى عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ[٣] لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى: لا يرشد إلى الهداية من قصده[٤] الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته [وحججه][٥] وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة، والمعاندون[٦] من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى، فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون[٧]. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم[٨] فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغنى عما سواه، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

---

(١) فى س، أ: «أمور».
(٢) فى أ: « لك لبيك».
(٣) فى أ: «نقول».
(٤) فى أ: «قصد».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى أ: «المعاندين».
(٧) فى س: «تزعمون».
(٨) فى أ: «بجهلهم».

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أى: سخرهما يجريان[(١)] متعاقبين لا يقران[(٢)]، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة. ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهى حواء، عليهما السلام، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أى: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهى المذكورة فى سورة الأنعام: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ[(٣)] فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أى: قدركم[(٤)] فى بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾أى: يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ يعنى: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[(٥)] ـ التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد ـ وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدى، وابن[(٦)] زيد [وغيرهم][(٧)].

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم[(٨)]، هو الرب له الملك والتصرف[(٩)] فى جميع ذلك، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: الذى لا تنبغى

---

(١) فى س: «تجريان».
(٢) فى أ: «لا يفتران».
(٣) فى ت، س: «يذرأكم».
(٤) فى ت، س: «يخلقكم»، وفى أ: «يذرأكم».
(٥) فى ت، س: «الشيمة».
(٦) فى ت، س: «وأبو».
(٧) زيادة من ت.
(٨) فى أ: «آباءكم وإياكم».
(٩) فى أ: «والتصريف».

العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أى: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم؟!

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى: أنه(١) الغنى عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفى صحيح مسلم: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئا»(٢).

وقوله ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أى: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أى: يحبه منكم ويزدكم(٣) من فضله.

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: فلا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أى: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أى: فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أى: فى حال العافية يشرك بالله، ويجعل له(٤) أندادا. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أى: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلا. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩) ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «بأنه».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.
(٣) فى أ: «ويزيدكم». (٤) فى ت: «لله».

يقول تعالى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له[١] أندادا؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أى: فى حال سجوده وفى حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون.

قال الثورى، عن فراس، عن الشعبى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت: المطيع لله ولرسوله.

وقال ابن عباس، والحسن، والسدى، وابن زيد: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: جوف الليل.

وقال الثورى، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء.

وقال الحسن، وقتادة: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أى: فى حال عبادته خائف راج[٢]، ولابد فى العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال[٣] الإمام عبد بن حميد فى مسنده.

حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك[٤]؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو، وأمنه الذى يخافه».

ورواه الترمذى والنسائى فى «اليوم والليلة»، وابن ماجه، من حديث سيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به[٥]. وقال الترمذى: «غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبى ﷺ مرسلا».

وقال[٦] ابن أبى حاتم، حدثنا عمر بن شبَّة[٧]، عن عبيدة النميرى، حدثنا أبو خَلَف عبد الله بن عيسى الخزَّاز، حدثنا[٨] يحيى البكَّاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، رضى الله عنه.

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن فى ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضى الله عنه[٩]، وقال الشاعر[١٠].

---

(١) فى أ: «لله». (٢) فى ت: «خائفا راجيا». (٣) فى ت: «روى»

(٤) فى أ: «تجدر».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣٦٨) وسنن الترمذى برقم (٩٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٦١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠١).

(٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شيبة». (٨) فى ت: «عن».

(٩) فى ت: «عنهما».

(١٠) هو حسان بن ثابت الأنصارى، والبيت فى ديوانه (ص ٢٤٨).

ضَحُّوا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّع الليلَ تَسْبيحا وقُرآنا

وقال[١] الإمام أحمد: كتب إلى الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة[٢]، عن تميم الدارى قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية فى ليلة، كتب له قنوت ليلة».

وكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به[٣].

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى: لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم.

وقوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان.

وقال شريك، عن منصور، عن عطاء فى قوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، قال الأوزاعى: ليس يوزن لهم ولا يكال[٤]، إنما يغرف لهم غرفا.

وقال ابن جريج: بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون[٥] على ذلك.

وقال السدى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعنى فى الجنة.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال السدى: يعنى من أمته ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «بإسناده».
(٣) المسند (٤/١٠٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٥٥٣).
(٤) فى ت، أ: «يكال لهم». (٥) فى ت: «يزدادون».

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾، وهو يوم القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ** ﴾، وهذا أيضا تهديد وتَبَرّ[١] منهم، ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: إنما الخاسرون كل الخسران[٢] ﴿ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى: تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ أى: هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح.

ثم وصف حالهم فى النار فقال: ﴿ **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** ﴾، كما قال: ﴿ **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿ **يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوله: ﴿ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ** ﴾ أى: إنما يَقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

وقوله: ﴿ **يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾ أى: اخشوا بأسى وسطوتى، وعذابى ونقمتى.

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) ﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا** ﴾ نزلت فى زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبى ذر، وسلمان الفارسى.

والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

ثم قال: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ أى: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿ **فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله فى الدنيا والآخرة[٣]، أى: ذوو العقول الصحيحة، والفِطَر المستقيمة.

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾.

---

(١) فى أ: «وتبرى». (٢) فى ت، س: «الخاسرون». (٣) فى س: «والأخرى».

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِى تَقْدرُ تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أى: لا يهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضلل الله فلا هادى له، ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف فى الجنة، وهى القصور الشاهقة، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ،أى: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عباد بن يعقوب الأسدى، حدثنا محمد بن فضيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفاً يُرَى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها». فقال أعرابى: لمن هى يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام».

ورواه الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق(١)، وقال: «حسن غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبَل حفظه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبى كثير، عن ابن مُعانق ـ أو: أبى مُعَانق ـ عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفة(٢) يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام».

تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعرى، عن أبى مالك، به(٣).

وقال(٤) الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبى حازم(٥)، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء». قال: فحدثتُ بذلك النعمان بن أبى عياش، فقال: سمعت أبا سعيد الخدرى يقول: «كما تراءون الكوكب الدرى(٦) فى الأفق الشرقى أو الغربى».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث أبى حازم(٧)، وأخرجاه أيضاً فى الصحيحين من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا فَزارة، أخبرنى فُلَيح، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع، فى تفاضل أهل الدرجات». فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: «بلى، والذى نفسى بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل».

---

(١) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٥٥) وسنن الترمذى برقم (١٩٨٤).
(٢) فى س، أ: «غرفة».
(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) فى ت: «بإسناده».
(٦) فى س، أ: «الذى».
(٧) المسند (٥/ ٣٤٠) وصحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠).
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

ورواه الترمذى عن سُويد[(١)]، عن ابن المبارك، عن فُلَيح، به[(٢)]، وقال: حسن صحيح.

وقال[(٣)] الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل[(٤)] قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائى، حدثنا أبو المدِلَّه ـ مولى أم المؤمنين ـ أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَممْنَا النساء والأولاد. قال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فى بيوتكم. ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حَدّثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةُ ذهب ولَبِنَةُ فضّة، وملاطها المسك الأذْفَر، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يَبْأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُردَّ دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحمَل على الغَمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»[(٥)].

وروى الترمذى، وابنُ ماجه بعضَه، من حديث سعد[(٦)] أبى مجاهد الطائى ـ وكان ثقة ـ عن أبى المُدِلَّه ـ وكان ثقة ـ به[(٧)].

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تسلك[(٨)] الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤوا[(٩)] وأين أرادوا، ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه وَعْدٌ وعَدَه الله عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾.

يخبر تعالى: أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن فى الأرض، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبِعهُ عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾.

قال[(١٠)] ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبوقتيبة عتبة بن يقظان، عن عكرمة[(١١)]، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، قال: ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق فى الأرض

---

(١) فى أ: «يزيد».
(٢) المسند (٢/ ٣٣٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٥٦).
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى أ: «وأبو عامر».
(٥) المسند (٢/ ٣٠٤).
(٦) فى أ: «سعيد».
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٩٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٥٢) قال الترمذى: «هذا حديث حسن»، ثم أشار إلى رواية أحمد المطولة.
(٨) فى ت: «تلك». (٩) فى أ: «يشاؤون». (١٠) فى ت: «روى». (١١) فى ت: «بسنده».

تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده.

وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى: أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء.

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعنى: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن فى قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أى: بعد نضارته وشبابه يكتهل [(١)] ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾، قد خالطه اليُبْس، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أى: ثم يعود يابسا يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضِرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزا شوهاء، والشاب يعود شيخا هَرِما كبيرا ضعيفا [قد خالطه اليبس][(٢)]، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا، ثم يكون بعد ذلك حُطاما، كما قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: فلا تلين عند ذكره[(٣)]، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم، ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾.

هذا مَدْحٌ من الله ـ عز وجل ـ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعنى القرآن كله متشابه مثانى.

وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: ﴿ مَّثَانِيَ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل.

وقال عكرمة، والحسن: ثنَّى الله فيه القضاء ـ زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفى السورة الأخرى آية تشبهها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَّثَانِيَ﴾: مُرَدَّد، رُدِّد موسى فى القرآن، وصالح وهود

---

(١) فى ت، أ: «يتكهل». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «ذكر الله».

والأنبياء، عليهم السلام، فى أمكنة كثيرة.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مَثَانِيَ﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضا، ويُرَدُّ[1] بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء: ويُرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾: أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ فى معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشىء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثانى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وكقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من[2] المثانى، أى: فى معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته[3] ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار[4] من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات، من أصوات القَيْنات.

الثانى: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أى: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم [أى يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له][5].

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضى الله عنهم، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المُعَلّى فى الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر قال: تلا قتادة، رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

---

(١) فى أ: «يردد». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت: «من رحمة الله».
(٤) فى ت، س، أ: «الفجار». (٥) زيادة من أ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكى أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السُّدِّى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: إلى وعد الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويُقَرَّعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، كمن يأتى آمنا يوم القيامة؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، وقال [تعالى][1]: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر[2]:

فَمَا أدرى إذَا يَمَّمْتُ أرضاً أريدُ الخيرَ: أيّهما يَلِينِى؟

يعنى: الخير أو الشر.

وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى[3] المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء، والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ .

---

(١) زيادة من ت.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٩٨/٢٢).

(٣) فى س، أ: «يشفى».

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، فإن المثل يُقَرِّب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أى: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى: هو قرآن بلسان عربى مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله [عز وجل][1] كذلك،وأنزله بذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما[2] فيه من الوعد[3].

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أى: يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أى: خالصا لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أى: لا يستوى هذا وهذا. كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهرا بَيِّنا جليا، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا يشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق [رضى الله عنه][4] عند موت الرسول[5] ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة،وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين،ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية ـ وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين، وذكْر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ـ فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة.

قال[6] ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن ابن حاطب ـ يعنى يحيى بن عبد الرحمن ـ عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديد.

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، أ: «لما». (٣) فى ت، أ: «الوعيد».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «رسول الله». (٦) فى ت: «روى».

[التكاثر: ٨] قال الزبير: أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه؟ وإنما ـ يعنى: هما[١] الأسودان: التمر والماء ـ قال: «أما إن ذلك سيكون».

وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه، من حديث سفيان، به[٢]. وقال الترمذى: حسن.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد ـ يعنى ابن عمرو ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام[٣] قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أى رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يُؤَدَّى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

ورواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو، به[٤] وقال: حسن صحيح.

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهِيعة، عن أبى عُشَّانة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم[٧]، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليختصم[٨]، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد[٩].

وفى المسند عن أبى ذر، رضى الله عنه [أنه][١٠] قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدرى فيم ينتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدرى وسيحكم بينهما»[١١].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبى، حدثنا ثابت عن أنس[١٢] [رضى الله عنه][١٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الخائن[١٤] يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيقال له: سد ركنا من أركان جهنم».

ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ[١٥].

(١) فى أ: «بهما».
(٢) المسند (١/ ١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٥٩).
(٣) فى م: «العوام رضى الله عنه».
(٤) المسند (١/ ١٦٧) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٦).
(٥) فى ت: «وروى».
(٦) المسند (٤/ ١٥١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٠٣) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى عشانة به.
(٧) فى ت: «وروى أيضا».
(٨) فى أ: «يختصم».
(٩) المسند (٣/ ٢٩) ودراج أبو السمح عن أبى الهيثم ضعيف.
(١٠) زيادة من ت.
(١١) المسند (٥/ ١٦٢).
(١٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس».
(١٣) زيادة من أ.
(١٤) فى أ: «الجائر».
(١٥) مسند البزار برقم (١٦٤٤) «كشف الأستار» ولفظه: «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فيخاصمه الرعية، فيفلحوا عليه.» ثم ذكر بقية الحديث كما هو هنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[(١)]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدى الضال، والضعيف المستكبر[(٢)].

وقد روى ابن منده فى كتاب «الروح»، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت. فيبعث الله ملكا يفصل بينهما، فيقول [لهما][(٣)]: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستانا، فقال المقعد للضرير: إنى أرى هاهنا ثمارا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبنى فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدى؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك. فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعنى: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عَوْسَجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعى منصور بن سلمة، حدثنا القمى ـ يعنى يعقوب بن عبد الله ـ عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عمر[(٤)] [رضى الله عنهما][(٥)] قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم فى أى شىء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [قال][(٦)]: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذى وعدنا ربنا ـ عز وجل ـ نختصم فيه.

ورواه النسائى عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة، به[(٧)].

وقال أبو العالية [فى قوله][(٨)]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾قال: يعنى أهل القبلة.

وقال ابن زيد: يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر.

وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله، صلوات الله [وسلامه][(٩)] عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أى: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل،

(١) فى ت: «عنه».
(٢) فى أ: «المتكبر».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عمر».
(٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من أ.
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٧).
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) زيادة من أ.

كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن[1] زيد: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾: هو الرسول.

وقال السدى: هو جبريل عليه السلام، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: محمدا ﷺ.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: رسول الله ﷺ.

وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا [2]بالصدق» يعنى: الأنبياء، «وصدقوا به» يعنى: الأتباع.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيؤون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا.

وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق[3]، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون[4].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: فى الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) ﴾ .

---

(١) فى أ: «وأبو».
(٢) فى أ: «والذى جاء».
(٣) فى أ: «جاء بالحق».
(٤) فى ت، س، أ: «قال المسلمون».

يقول تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ـ وقرأ بعضم: «عباده» ـ يعنى أنه تعالى يكفى من عبده وتوكل عليه.

وقال[١] ابن أبى حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله[٢] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبوهانئ، عن أبى على عمرو بن مالك الجنبى[٣]، عن فضالة بن عبيد الأنصارى؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقَنَعَ به».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث حيوة بن شريح، عن أبى هانئ الخولانى، به[٤]. وقال الترمذى: صحيح.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها[٥] من دونه؛ جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ أى: منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذى لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعنى: [أن][٦] المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما[٧] لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أى: لا تستطيع شيئا من الأمر[٨].

وذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن[٩] ابن عباس مرفوعا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر فى اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[١٠].

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله كافىّ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

---

(١) فى ت: «وروى».　(٢) فى أ: «عبد الله».　(٣) فى أ: «الحسينى».
(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٣٠٦) من طريق عبد الله بن وهب عن أبى هانئ به.
(٥) فى أ: «يدعون بها».　(٦) زيادة من ت، أ.　(٧) فى ت، س، أ: «ممن».
(٨) فى ت: «الأمور».　(٩) فى ت: «حديثا بسنده إلى».
(١٠) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١٦) من طريق الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج به، قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا عبد الله بن بكر[١] السهمى، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبى المقدام ـ مولى آل عثمان ـ عن محمد بن كعب القرظى، حدثنا ابن عباس[٢] [رضى الله عنهما][٣] ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق [منه][٤] بما فى يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليتق الله»[٥].

وقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أى: على طريقتى ومنهجى، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾.

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعنى: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أى: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أى: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع فى الملأ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذى رواه ابن منده وغيره. وفى صحيحى البخارى ومسلم من حديث عبيد الله[٦] بن عمر، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه،

---

(١) فى أ: «بكير». (٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى ابن عباس».
(٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣/٢١٨) من طرق عن أبى المقدام به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/٢٤١) من طريق شيبان عن عيسى ابن ميمون عن محمد بن كعب القرظى به.
(٦) فى أ: «عبد الله».

الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلْيَنْفُضْه بداخلة إزاره، فإنه لا يدرى ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[١].

وقال بعض السلف [رحمهم الله][٢]: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ التى قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى.

قال السدى: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات،ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾.

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهى لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير[٣].

ثم قال: قل: أى يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه[٤] شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى: يوم القيامة ،فيحكم بينكم بعدله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ قال مجاهد: ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾: انقبضت.

وقال السدى: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم[٥] لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧١٤).
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى س: «بكبير».
(٤) فى ت: «ما اتخذوا».
(٥) فى ت: «بقلوبهم».

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾.

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم فى حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، **﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، **﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** أى: السر والعلانية، **﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** أى: فى دنياهم(١)، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

وقال(٢) مسلم فى صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبى كثير، حدثنى أبو سلمة(٣) بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة [رضى الله عنها](٤): بأى شىء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»(٥).

وقال(٦) الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبى صالح وعبد الله ابن عثمان بن خُثَيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود (٧) أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنى أعهد إليك فى هذه الدنيا(٨) أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لى عندك عهدا تُوَفِّينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله، عز وجل، لملائكته يوم القيامة: إن عبدى قد عهد إلى عهدا فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة».

قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عونا أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما فى أهلنا جارية إلا وهى تقول هذا فى خدرها. انفرد به الإمام أحمد(٩).

وقال(١٠) الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى حُيَىّ (١١) بن عبد الله؛ أن

---

(١) فى أ: «دينا لهم». (٢) فى ت: «روى».
(٣) فى ت: «عن أبى سلمة». (٤) زيادة من ت.
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٧٠).
(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه». (٨) فى أ: «فى الحياة الدنيا».
(٩) المسند (١/ ٤١٢) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٤): «رجاله رجال الصحيح».
(١٠) فى ت: «وروى». (١١) فى ت: «يحيى».

أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثما، أو أجره إلى[1] مسلم».

قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه[2] عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرد به أحمد أيضا[3].

وقال[4] [الإمام][5] أحمد أيضا: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش[6]، عن محمد بن زياد الألهاني، عن أبي راشد الحُبْرَاني قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يدَيَّ صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق[7] قال: يا رسول الله، علمني، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، أو[8] أقترف على نفسي سوءا، أو أجره إلى مسلم».

ورواه الترمذي، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش[9]، به[10]، وقال: حسن غريب من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي من الليل: «اللهم فاطر السموات والأرض» إلى آخره[11].

وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ وهم المشركون، ﴿ **مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ** ﴾ أي: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿ **لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ** ﴾ أي: الذي أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا** ﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿ **وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿ **فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ**

(١) في أ: «على». (٢) في ت، س: «يعلم».
(٣) المسند (٢/ ١٧١).
(٤) في ت: «وروى». (٥) زيادة من أ. (٦) في ت: «عباس».
(٧) في ت: «الصديق رضي الله عنه». (٨) في ت، أ: «أن». (٩) في أ: «عباس».
(١٠) المسند (٢/ ١٩٦) وسنن الترمذي برقم (٣٥٢٩).
(١١) المسند (١/ ١٤).

فتنةٌ ولَكنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن[١] الإنسان أنه فى حال الضراء يَضرَع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا[٢] خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خوَّلنى هذا!

قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: على خير عندى.

قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، بل [إنما][٣] أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويَدّعون ما يَدّعون.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ﴾ أى: من المخاطبين[٤] ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٦ ـ ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لعبرا وحججا.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ

(١) فى ت: «عن حال».
(٢) فى ت: «فإذا».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «المخلطين».

لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾.

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه [الآية][١] على غير توبة[٢]؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس[٣] [رضى الله عنهما][٤]؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل [قوله][٥]: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾.

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به[٦].

والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال[٧] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبدالرحمن المرى[٨] يقول: سمعت[٩] ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ** ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبى[١٠] ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد[١١].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا سريج[١٢] بن النعمان، حدثنا روح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحدانى، عن مكحول، عن[١٣] عمرو بن عَبَسة[١٤] قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات، فهل يغفر لى؟ فقال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك». تفرد به أحمد[١٥].

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «التوبة».
(٣) فى ت: «روى البخارى بسنده عن ابن عباس». (٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من ت، س.
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٢٢) وسنن أبى داود برقم (٤٢٧٤) وسنن النسائى (٧/ ٨٦).
(٧) فى ت: «وروى». (٨) فى أ: «السرى».
(٩) فى ت: «سمعت عن». (١٠) فى ت: «رسول الله».
(١١) المسند (٥/ ٢٧٥).
(١٢) فى أ: «شريح». (١٣) فى ت: «وعن». (١٤) فى ت، أ: «عنبسة».
(١٥) المسند (٤/ ٣٨٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب[١]، عن أسماء بنت يزيد[٢] قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، وسمعته يقول: «﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا يبالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث ثابت، به[٣].

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن[٤] عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] .

قال الحسن البصرى: انظر[٥] إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!

والآيات فى هذا كثيرة جدا.

وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى[٦] قتل تسعا[٧] وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عُبَّاد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل[٨] به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد[٩] [١٠].

هذا معنى الحديث، وقد كتبناه فى موضع آخر بلفظه.

---

(١) فى ت: «وروى أيضا».
(٢) فى أ: «يزيد رضى الله عنها».
(٣) المسند (٦/ ٤٥٤) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٧)
(٤) فى ت: «ولا يقنط».
(٥) فى ت: «انظروا».
(٦) فى ت: «أن رجلا».
(٧) فى أ: «تسعة».
(٨) فى ت: «فأكمل».
(٩) فى أ: «تبتعد».
(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٧٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٧٦٦).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[١]، [فى][٢] قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرا[٣] ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس [رضى الله عنهما][٤]: من آيس عباد الله[٥] من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبرانى من طريق الشعبى، عن شُتَير بن شَكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية فى كتاب الله: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية فى كتاب الله تصريفا[٦]: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت.

وقال الأعمش، عن أبى سعيد، عن أبى الكنود قال: مر عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تُقَنِّط[٧] الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط:

قال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله[٩]، حدثنى أخشن السدوسى قال: دخلت على أنس بن مالك[١٠] فقال[١١]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا[١٢] لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به [الإمام][١٣] أحمد[١٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى[١٥]، حدثنى ليث، حدثنى محمد بن قيس ـ قاص عمر بن عبد العزيز ـ عن أبى صِرْمة، عن أبى أيوب الأنصارى، رضى الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله

---

(١) فى س: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «العزير».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «العباد». (٦) فى ت، س: «تفويضا».
(٧) فى س: «يقنط». (٨) فى ت: «روى». (٩) فى أ: «عبيد الله السدوسى».
(١٠) فى ت: «عن ابن مالك»، وفى أ: «أنس بن مالك رضى الله عنه». (١١) فى ت: «قال».
(١٢) فى ت: «تخطئون». (١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/٢٣٨).
(١٥) فى أ: «إسحاق بن أبى عيسى».

قوما يذنبون فيغفر لهم».

هكذا[١] رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، به[٢]. ورواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظى، عن أبى صرمة ـ وهو الأنصارى صحابى ـ عن أبى أيوب، به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحرانى، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النُّكرى قال: سمعت أبى يحدث عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب[٥] الندامة»، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، فيغفر لهم» تفرد به أحمد[٦].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنى عبد الأعلى بن حماد النَّرسِى، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازى، عن أبى عمرو البجلى، عن عبد الملك بن سفيان الثقفى، عن أبى جعفر محمد بن على، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب». لم يخرجوه من هذا الوجه[٧].

وقال[٨] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت وحميد، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس ـ عليه لعائن الله ـ قال: يارب، إنك أخرجتنى من الجنة من أجل آدم، وإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك. قال: فأنت مسلط. قال: يارب، زدنى. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يارب، زدنى. قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم. قال: يارب، زدنى. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم فى الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. فقال آدم [عليه السلام][٩]: يارب، قد سلطته على، وإنى لا أمتنع [منه][١٠] إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يارب، زدنى. قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أمحوها. قال: يارب، زدني. قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يارب، زدني. قال: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمير، عن عمر، رضى الله عنه، فى حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ**.

(١) فى س: «كذا».

(٢) المسند (٥/ ٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٤٨) وسنن الترمذى برقم (٣٥٣٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٨).

(٤) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما». (٥) فى أ: «الذنوب».

(٦) المسند (١/ ٢٨٩).

(٧) زوائد عبد الله على المسند (١/ ٨٠).

(٨) فى ت: «وروى». (٩) زيادة من ت، س، أ. (١٠) زيادة من ت، س، أ.

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾. قال عمر، رضى الله عنه: فكتبتها بيدى فى صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: لما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طُوًى أُصَعِّد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فألقى الله فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول فى أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

ثم استحث [سبحانه][1] وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، وهو القرآن العظيم، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أى: إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: تود أن لو [2] أعيدت إلى الدار فتحسن[3] العمل.

قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه[4]، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه[5]. وقال: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾[فاطر: ١٤]، ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ. أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:٢٨] .

وقد قال[6] الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى؟! فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى!» قال: «فيكون له الشكر».

ورواه النسائى من حديث أبى بكر بن عياش، به[7].

---

(١) زيادة من ت، وفى أ: «الله».
(٢) فى ت: «أن لو أن».
(٣) فى أ: «لتحسن».
(٤) فى أ: «أخبرنا الله تعالى».
(٥) فى ت، س: «وعلمهم قبل أن يعلموه».
(٦) فى ت: «روى».
(٧) المسند (٢/ ٥١٢).

ولما تمنى أهل الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال [الله سبحانه وتعالى][١]: ﴿ بَلَى[٢] قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه [٣] آياتى فى الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾.

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: فى دعواهم له شريكا وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أى: بكذبهم وافترائهم.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: أليست جهنم كافية لها[٤] سجنا وموئلا، لهم فيها [دار][٥] الخزى والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عيسى بن أبى عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب[٦]، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس، من نار الأنيار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخَبَال»[٧].

وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أى: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: ولا يحزنهم[٨] الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مزحزحون عن كل شر، مُؤمَّلون كل خير.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه خالق[٩] الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

---

(١) زيادة من ت، س، أ. (٢) فى ت: «قل» وهو خطأ. (٣) فى أ: «منه جاءتك».
(٤) فى ت، س: «لهم». (٥) زيادة من ت، س.
(٦) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن شعيب».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٢/١٧٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٢) من طريق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب بنحوه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».
(٨) فى ت: «أى لا يجزيهم». (٩) فى ت: «خلق».

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، قال مجاهد: المقاليد هى: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة.

وقال السدى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: خزائن السموات والأرض.

والمعنى على كلا القولين: أن أزمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: حججه وبراهينه، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً غريبا جداً ـ وفى صحته نظر ـ ولكن[١] نذكره كما ذكره، فإنه قال:

حدثنا يزيد[٢] بن سنان البصرى بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مَخْلد بن هذيل العبدى، عن عبد الرحمن المدنى، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألنى عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير، من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطى خصالا ستا: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطى قنطارا من الأجر، وأما الثالثة: فترفع[٣] له درجة فى الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره[٤] اثنا عشر ملكا، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء».

ورواه أبو يعلى الموصلى من حديث يحيى بن حماد، به مثله[٥]. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾: ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره، عن ابن عباس [رضى الله عنهما أنه قال][٦]: إن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت

---

(١) فى أ: «ولكن نحن». (٢) فى أ: «زيد».
(٣) فى ت: «فيرفع». (٤) فى س: «فتحضره».
(٥) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٣) من طريق أبى عن شجاع بن مخلد عن يحيى بن حماد به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١١٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير، وفيه الأغلب بن تميم، وهو ضعيف».
(٦) زيادة من ت، س.

ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادر على كل شىء، المالك لكل شىء، وكل شىء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت فى قريش. وقال السدى: ما عظموه حق عظمته.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما](١): ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله [تعالى](٢) عليهم، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت(٣) أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

قال البخارى: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود(٤) قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء(٥)، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية(٦).

و[قد](٧) رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من(٨) صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن [عبد الله](٩) ابن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه(١٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله [تعالى](١١) يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «ورد».
(٤) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه». (٥) فى ت، أ: «والماء على إصبع».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١١).
(٧) زيادة من أ. (٨) فى أ: «فى». (٩) زيادة من ت.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١) والمسند (١/ ٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥١).
(١١) زيادة من أ.

إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر الآية.

وهكذا رواه البخاري، ومسلم، والنسائي ـ من طرق ـ عن الأعمش[١]، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس[٣] قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق[٤] على ذه ـ كل ذلك يشير بإصبعه[٥] ـ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية.

وكذا رواه الترمذي في التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصَّلْت أبي جعفر، عن أبي كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، به[٦]، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة[٧]، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض».

تفرد به من هذا الوجه[٨]، ورواه مسلم من وجه آخر[٩].

وقال[١٠] البخاري ـ في موضع آخر ـ: حدثنا مُقَدَّم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر[١١]، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك».

تفرد به أيضا من هذا الوجه[١٢]، ورواه مسلم من وجه آخر[١٣]. وقد رواه[١٤] الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول، فقال:

حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر[١٥] أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا

(١) في ت: «من طريق الأعمش».
(٢) المسند (١/ ٣٧٨) وصحيح البخاري برقم (٧٤٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٥٢).
(٣) في ت: «عن ابن عباس رضي الله عنهما». (٤) في أ: «الخلائق». (٥) في ت: «بأصابعه».
(٦) المسند (١/ ٣٢٤) وسنن الترمذي برقم (٣٢٤٠).
(٧) في ت: «وروى البخاري بإسناده أن أبا هريرة».
(٨) صحيح البخاري برقم (٤٨١٢).
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٧) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.
(١٠) في ت: «وروى». (١١) في أ: «عن ابن عمر رضي الله عنهما».
(١٢) صحيح البخاري برقم (٧٤١٢).
(١٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من طريق سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر به.
(١٤) في ت: «وروى». (١٥) في أ: «عن ابن عمر رضي الله عنهما».

الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّن به.

وقد رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم ـ زاد مسلم: ويعقوب بن عبد الرحمن، كلاهما عن أبي حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن[١] عمر، به، نحوه[٢].

ولفظ مسلم ـ عن عبيد الله بن مقسم[٣] في هذا الحديث ـ: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي النبي ﷺ، قال: يأخذ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟

وقال البزار: حدثنا سليمان بن سيف[٤]، حدثنا أبو علي الحنفي، حدثنا عباد المِنْقَرِي، حدثني محمد بن المنكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر[رضي الله عنهما][٥]، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حتى بلغ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات[٦].

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح[٧].

وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبي، حدثنا حيان بن نافع بن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن خُنَيْس، عن أبي شيبة، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير[٨] قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه: «إني قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر، فمن بكى منكم وجبت له الجنة»؟ فقرأها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إلى آخر السورة، فمنا من بكى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله، لقد جهدنا أن نبكي، فلم نبك؟ فقال: «إني سأقرؤها عليكم، فمن لم يبك فليتباك». هذا حديث غريب جدا[٩].

وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضا: حدثنا هاشم بن مُرْثَد[١٠]، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك

---

(١) في أ: «أبي».

(٢) المسند (٢/ ٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٦٨٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٧٥).

(٣) في ت: «عمر». (٤) في أ: «يوسف». (٥) زيادة من أ.

(٦) ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٢٨): حدثنا أبو بكر البرذعي عن سليمان بن سيف به، ورواه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٤٢) والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٣٥٢) من طريق عبادة بن ميسرة به، وفي إسناده عباد بن ميسرة المنقري، وهو ضعيف، وعند ابن عدي: «فتحرك المنبر مرتين».

(٧) لم أجده في المطبوع من مسند عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٨) في ت: «وروى الطبراني في المعجم الكبير بإسناده عن جرير».

(٩) المعجم الكبير (٢/ ٣٤٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠١): «فيه بكر بن خنيس وهو متروك».

(١٠) في هـ، ت، أ: «زيد» والتصويب من المعجم.

الأشعرى [(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غَيَّبْتُهُنَّ عن عبادى، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبدا: لو كشفت غطائى فرآنى حتى نستيقن ويعلم كيف أفعل بخلقى إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدى، ثم قبضت الأرض [(٢)] والأرضين، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذى له الملك دونى؟ ثم أريتهم [(٣)] الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير، فيستيقنوها. وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمدا غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بينته لهم» [(٤)].

وهذا إسناد متقارب، وهى نسخة تروى بها أحاديث جمة، والله أعلم.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾، هذه النفخة هى الثانية، وهى نفخة الصعق، وهى التى يموت [(٥)] بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو [(٦)] مصرح [(٧)] به مفسرا فى حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا، وهو الباقى آخرا بالديمومة [(٨)] والبقاء، ويقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى هو واحد وقد قهر كل شىء، وحكم بالفناء على كل شىء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أى: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت

---

(١) فى أ: «الأشعرى رضى الله عنه».

(٢) فى هـ: «قبضت الأرضين»، وفى س، ت، أ: «قبضت الأرض ثم الأرضين» والمثبت من المعجم.

(٣) فى س: «أريهم».

(٤) المعجم الكبير (٣/ ٢٩٤)، وفى إسناده: محمد بن إسماعيل بن عياش، ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٥) فى س: «تموت». (٦) فى أ: «جاء».

(٧) فى ت، س: «مصرحا». (٨) فى أ: «بالديمومية».

يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو [(١)]: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى أمتى، فيمكث فيهم أربعين ـ لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة ـ فيبعث الله [(٢)] عيسى ابن مريم [(٣)]، كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه الله[(٤)]. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن[(٥)] أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله ـ أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل ـ أو الظل، شك نعمان ـ فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يأيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[(٦)]. فيومئذ تبعث الولدان شيبا، ويومئذ يكشف عن ساق».

انفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[(٧)].

وقال البخارى: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة [رضى الله عنه][(٨)] عن النبى ﷺ قال: «بين النفختين أربعون»[(٩)]. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، ويبلى كل شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق[(١٠)].

وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر ابن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(١١)]، عن النبى ﷺ قال: «سألت جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾: من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير، مَدُّ[(١٢)] خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون فى الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، عز وجل، لننظر كيف يقضى بين خلقه، يضحك إليهم إلهى، وإذا ضحك إلى عبد فى موطن فلا حساب عليه».

---

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «الله تعالى». (٣) فى أ: «ابن مريم عليه السلام».
(٤) فى أ: «فيهلكه الله على يده».
(٥) فى ت، س، أ: «حتى أن لو كان». (٦) فى س: «وتسعون».
(٧) المسند (٢/ ١٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٩٤٠). (٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «أربعين».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤). (١١) زيادة من ت، أ. (١٢) فى أ: «قدر».

رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش، فإنه غير معروف، والله أعلم[١].

وقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات[٢] الله إليهم، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ . قال الله [تعالى][٣]: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال [الله][٤] تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية ـ الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ـ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين[٥] على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

(١) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٥٣) من طريق أبي أسامة عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم بنحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) في س، أ: «رسالة».
(٣) زيادة من ت، س، أ.
(٤) زيادة من أ.
(٥) في س، أ: «والبرهان».

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا[1] من الشِّقْوة التى كنا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الأخرى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[الملك: ٨ ـ ١٠] أى: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١] أى: بعدا لهم وخسارا.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد[2] عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول[3] إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾ .

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿ زُمَرًا ﴾ أى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أى: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا فى العرصات[4] عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتى لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها.

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع فى الجنة» وفى لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة»[5].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله

---

(١) فى س، أ: «لنا».
(٢) فى أ: «شهد».
(٣) فى أ: «هذا الذى قاله».
(٤) فى ت، أ: «الصرخات».
(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٦).

عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أُمِرْتُ ألا أفتح لأحد قبلك».

ورواه مسلم عن عمرو[١] الناقد وزهير بن حرب، كلاهما عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان ـ وهو ابن المغيرة القيسى ـ عن ثابت، عن أنس، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر عن همام بن منبه، عن أبى هريرة[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج[٤] الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة[٥]، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد[٦]، يسبحون الله بكرة وعشيا».

رواه البخارى عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبدالرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه[٧]. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٨]، عن رسول الله ﷺ[٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][١٠] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُرِّى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا فى السماء»[١١].

وأخرجاه أيضا من حديث جرير[١٢].

وقال الزهرى، عن سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتى زُمْرَة، هم سبعون ألفا، تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عُكَّاشة».

أخرجاه[١٣][١٤]. وقد روى هذا الحديث ـ فى السبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ـ البخارى ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة

(١) فى أ: «عمرو بن محمد الناقد».
(٢) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٧).
(٣) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٤) فى ت: «يدخلون».
(٥) فى س، أ: «ومجامرهم من الألوة».
(٦) فى أ: «قلب رجل واحد».
(٧) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح البخارى برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(٨) زيادة من أ.
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٤٦).
(١٠) زيادة من أ.
(١١) مسند أبى يعلى (١٠/ ٤٧٠).
(١٢) صحيح البخارى برقم (٣٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(١٣) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(١٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥).

الجهنى، وأم قيس بنت محصن.

ولهما عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا ـ أو: سبعمائة ألف ـ آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»(١).

وقال(٢) أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة(٣) الباهلى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربى، عز وجل، أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَثَيَات من حثيات ربى عز وجل»(٤).

وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، [و](٥) أبى اليمان عامر ابن عبد الله بن لُحَىّ(٦) عن أبى أمامة [رضى الله عنه](٧)(٨).

ورواه الطبرانىُ، عن عتبة بن عَبْدٍ السُّلمى: «ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفا»(٩).

وروى مثله عن ثوبان، وأبى سعيد الأنمارى. وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب(١٠) والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهنُ كل مذهب فى الرجاء والأمل.

ومن زعم أن «الواو» فى قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النّجْعَة، وأغرق فى النَزْع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن(١١)، عن أبى هريرة(١٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب(١٣)، فمن كان من أهل الصلاة دُعِى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٩).

(٢) فى ت: «وروى».

(٣) فى ت: «عن أبى أمامة».

(٤) المصنف (١١/٤٧١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣٧) من طريق إسماعيل بن عياش به، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى أ: «يحيى».

(٧) زيادة من أ.

(٨) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/١٨٧)

(٩) المعجم الكبير (١٧/١٢٦، ١٢٧).

(١٠) فى أ: «بالذم».

(١١) فى ت: «فروى البخارى ومسلم».

(١٢) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».

(١٣) فى أ: «أبواب ثمانية».

على أحد من ضرورة دُعى، من أيها[١] دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

ورواه البخارى ومسلم، من حديث الزهرى، بنحوه[٢].

وفيهما من حديث أبى حازم سلمة بن دينار[٣]، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»[٤].

وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ـ أو: فيسبغ الوضوء ـ ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[٥].

وقال[٦] الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسَين، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله»[٧].

ذكر سعة أبواب الجنة ـ نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها ـ:

فى الصحيحين من حديث أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٨] فى حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله[٩]: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه[١٠] من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر. والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ـ ما بين عضادتى الباب ـ لكما بين مكة وهجر ـ أو: هجر ومكة». وفى رواية: «مكة وبصرى»[١١].

وفى صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»[١٢].

وفى المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، مثله[١٣].

وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا درَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين فى الجنة مسيرة أربعين سنة»[١٤].

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين فى بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وفى رواية: «مؤمنة»[١٥].

(١) فى أ: «أيتهما».
(٢) المسند (٢/ ٢٦٨) وصحيح البخارى برقم (٣٦٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧).
(٣) فى ت: «وفى الصحيحين».
(٤) صحيح البخارى برقم (١٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (١١٥٢).
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٣٤). (٦) فى ت: «وروى».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش به، وشهر بن حوشب فيه كلام ولم يسمع من معاذ.
(٨) زيادة من أ. (٩) فى أ: «قال الله عز وجل». (١٠) فى أ: «لا حساب عليه ولا ملامة».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (١٩٤).
(١٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).
(١٣) المسند (٥/ ٣).
(١٤) المنتخب برقم (٩٢٤) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف. (١٥) رواه النسائى فى السنن (٥/ ٢٣٤) من حديث أبى هريرة.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، لا يبغون عنها حولا.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا فى الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد(١): أى أرض الجنة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين(٢) شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

وفى الصحيحين من حديث الزهرى، عن أنس فى قصة المعراج قال النبى ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»(٣).

وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجريرى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد [رضى الله عنه](٤) أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: دَرْمَكة بيضاء مِسْك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

وكذا رواه مسلم، من حديث أبى مسلمة(٥)، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، به(٦).

ورواه مسلم [أيضا](٧) عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى أسامة، عن الجُرَيْرى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد؛ أن ابن صائد(٨) سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «دَرْمَكة بيضاء، مسك خالص»(٩).

وقول ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عاصم بن ضمرة(١٠)، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة

---

(١) فى ت: «وأبو صالح وغيرهما». (٢) فى أ: «حيث».
(٣) انظر: الحديث بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى س: «سلمة».
(٦) المنتخب برقم (٨٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(٧) زيادة من أ. (٨) فى س: «صياد».
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(١٠) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده عن على»، وفى أ: «حمزة».

النعيم، فلم تُغَير أبشارهم بعدها أبدا، ولم تُشْعَث أشعارهم أبدا بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها، فشربوا منها، فأذهبت ما كان فى بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب[١] الجنة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ويلقى كل غلمان صاحبهم يُطِيفُون به، فعل[٢] الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أَبْشِر، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. وقال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان ـ باسمه فى الدنيا ـ فيقلن: أنت رأيتَه؟ فيقول: نعم. فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أَسْكُفَّة[٣] الباب. قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابى مبثوبة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه[٤]، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر [وأبيض][٥]، ومن كل لون. ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله قدره له، لألمَّ أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية[٦].

ثم قال: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهْدى، حدثنا مسلمة[٧] بن جعفر البَجَلِى قال: سمعت أبا معاذ البصرى يقول: إن عليا، رضى الله عنه، كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النبى[٨] ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُستَقبلون ـ أو: يُؤْتون ـ بنوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما فيُغْسَل ما فى بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهون ـ أو: فيأتون ـ باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة[٩]، فيسمع [١٠]لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قَيِّمها فيفتح له، فإذا رآه خَرّ له ـ قال مسلمة: أراه قال: ساجداً [١١]ـ فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قَيمك، وُكِّلْتُ بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت حبى، وأنا حبك، وأنا الخالدة التى لا أموت، وأنا الناعمة التى لا أبأس، وأنا الراضية التى لا أسخط، وأنا المقيمة التى لا أظعن». فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر، ليس فيها [١٢]طريقة تشاكل صاحبتها، فى البيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون حَشْيَة، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مُخّ ساقها من باطن الحُلَل، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار

(١) فى أ: «باب». (٢) فى أ: «مثل». (٣) فى س: «أسفكة».

(٤) فى أ: «بنائه». (٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٤/ ٣٥) وابن المبارك فى الزهد برقم (١٤٥٠) والضياء المقدسى فى المختارة برقم (٥٤١) من طرق عن أبى إسحاق بنحوه.

(٧) فى ت، أ: «سلمة». (٨) فى ت: «رسول الله». (٩) فى س: «الصفحة».

(١٠) فى أ: «فلو سمع». (١١) فى ت: «خر له ساجد» وهو خطأ، والصواب: «ساجدا».

(١٢) فى ت، س: «منها».

من تحتهم تَطّرد، أنهار من ماء غير آسن ـ قال: صاف، لا كدر فيه ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ـ قال: لم يخرج من ضروع الماشية ـ وأنهار من خمر لذة للشاربين ـ قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم ـ وأنهار من عسل مصفى ـ قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجني الثمار، فإن شاء قائما، وإن شاء قاعدا، وإن شاء متكئا ـ ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤] ـ فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض ـ قال: وربما قال: أخضر. قال: ـ فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها، أى الألوان شاء، ثم يطير فيذهب[١]، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر[٢] الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواداً فى نور».

هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾.

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نَزّل كُلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ـ أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه[٣] ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أى: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ونطق الكون أجمعه[٤] ـ ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين، بالحمد فى حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد فى قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر ولله الحمد[٥] [أولاً وآخراً ظاهراً وباطنًا][٦]

(١) فى س: «ثم تطير فتذهب».
(٢) فى ت: «شعور».
(٣) فى أ: «ويحمدونه».
(٤) فى ت، س: «جميعه».
(٥) فى أ: «والله أعلم».
(٦) زيادة من س.

/ سورة الزمر [١ظ]

سورة الزمر مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ الآية.[١]
وهي خمس وسبعون، أو ثنتان وسبعون[٢] آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[٣]

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خبر لِمبتدأ محذوف هو اسم إشارةٍ أُشير به إلى السورة تنزيلًا لها منزلةَ الحاضر المُشارِ إليه لكونها على شرف الذِّكرِ والحضورِ كما مرّ مرارًا. وقد قيل: هو ضمير عائد إلى "الذِّكر" في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.[٤]

وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ صِلة لـ"التنزيل"، أو خبر ثانٍ، أو حال مِن "التنزيل"، عامِلُها معنى الإشارة، أو مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الذي هو مفعولٌ معنًى، عامِلُها المضاف. وقيل: هو خبرٌ لـ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. والوجه الأوّل أوفى بمقتضى المقام الّذي هو بيانُ أنّ السورة أو القرآنَ تنزيل الكتاب مِن الله تعالى، لا بيانُ أنّ تنزيل الكتاب منه تعالى لا مِن غيره كما يُفيده الوجه الأخير. وقُرِئ: "تَنْزِيلَ الْكِتَابِ" بالنصب[٥] على إضمار فعلٍ نحو: اقرأ، أو الزَمْ.

والتعرّض لوصفَي العزّة والحكمة للإيذان بظهور أثرَيهما في الكتاب بجَريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه مِن غير مُدافع ولا مُمانع، وبابتِناءِ جميع ما فيه على أساس[٦] الحِكَم الباهرة.

---

١ س ي – إلّا قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ الآية.
| تمامها: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٣].

٢ س ي – أو ثنتان وسبعون.

٣ س – الرحيم.

٤ ص، ٣٨/٨٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

٦ م – أساس. [وثبتت في النصّ المكرّر. انظر التعليق التالي].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾

[٢و] وقوله تعالى:[١] / ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ شروع في بيان شأن المُنزَل إليه وما يجب عليه إثرَ بيان شأن المُنزَلِ وكونِه مِن عند الله تعالى. والمراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هو القرآن، وإظهاره -على تقدير كونِه هو المراد بالأوّل أيضًا- لتعظيمه ومزيدِ الاعتناءِ بشأنه. والباء إمّا متعلِّقة بالإنزال، أي: بسبب الحقِّ وإثباته وإظهارِه، أو بداعية الحقِّ واقتضائه للإنزال، وإمّا بمحذوف هو حال مِن نون العظمة، أو مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: أنزلناه إليك مُحقِّين في ذلك، أو أنزلناه مُلتبِسًا بالحقّ والصواب، أي: كلُّ ما فيه حقٌّ لا ريبَ فيه موجِبٌ للعمل به حَتمًا.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه السلام بالحقّ، أي: فاعْبُده تعالى مُمحِّضًا له الدِّينَ مِن شوائب الشِّرك والرِّياء حسبما بيِّن في تضاعيف ما أُنزِل إليك.

وقُرئ برفع "الدِّينُ"[٢] على أنّه مبتدأ خبرُه الظرف المقدَّمُ عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد مِن اللام. والجملة استئناف وقَع تعليلًا للأمر بإخلاص العبادة.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن الأمر بإخلاص الدِّين له تعالى، ووجوبِ الامتثالِ به. وعلى القراءة الأخيرة مؤكِّدٌ لاختصاصِ الدِّين به تعالى، أي: ألا هو الذي يجب أنْ يُخصَّ بإخلاص الطاعة له؛[٣] لأنّه المُتفرِّد بصفات الألوهيّة التي مِن جُملتها الاطِّلاعُ على السرائر والضمائر.

---

١ م + مِن الله تعالى، لا بيانُ أنّ تنزيل الكتاب منه تعالى لا مِن غيره كما يُفيده الوَجه الأخير. وقُرئ: "تَنْزِيلَ الْكِتَابِ" بالنصب على إضمار فعلٍ نحو: اقرأ، أو الزَمْ. والتعرُّض لوصفَي العزّةِ والحكمةِ للإيذان بظهور أثَرَيهما في الكتاب بجَريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه مِن غير مُدافع ولا مُمانع، وبابتِناءِ جميع ما فيه على أساس الحِكَم الباهرة. وقوله تعالى. [كُتب فوقها بالمداد الأحمر: مكرّر].

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

٣ س - له.

وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾... إلخ[1] تحقيقٌ لحقِّيّة ما ذُكر مِن إخلاص الدِّين / الّذي هو عبارة عن التوحيد ببيان بُطلان الشِّرك الذي هو [٢ظ]
عبارة عن ترك إخلاصه. والموصول عبارة عن المشركين ومَحلُّه الرفعُ على الابتداء خبرُه ما سيأتي مِن الجملة المُصدَّرة بـ﴿إِنَّ﴾. والأولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام.

وقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ حال بتقدير القَول مِن واوِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، مبيّنةٌ لكيفيَّة إشراكِهم وعدمِ خُلوصِ دينهم. والاستثناء مفرَّغ مِن أعمِّ العِلل. و﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر مؤكِّد على غير لفظ الصدرِ، مُلاقٍ له في المعنى، أي: والّذين لم يُخلِصوا العبادةَ لله تعالى؛ بل شَابُوها بعبادة غيره قائلين: ما نعبدُهم لشيءٍ مِن الأشياء إلّا ليقرِّبونا إلى الله تعالى تقريبًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: وبين خُصَمائهم الذين هم المُخلِصون للدِّين. وقد حُذف لِدلالة الحال عليه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢٨٥/٢]، على أحد الوجهين، أي: بين أحدٍ منهم وبين غيره، وعليه قول النابِغة:[2]

فمَا كانَ بينَ الخيرِ لو جاءَ سالمًا ... أبـو حَـجَـرٍ[3] إلّا لـيـالٍ قـلائـلُ[4]

أي: بين الخيرِ وبَيني.

وقيل: ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ للفريقينِ جميعًا.

---

[1] س ي - الخ.

[2] هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلى (ت. نحو ٥٠هـ/٦٧٠م)، شاعر مفلق، صحابي مِن المعمّرين. اشتهر في الجاهليّة. وسمّي النابغة لأنّه أقام ثلاثين سنةً لا يقول الشعر ثمّ نبغَ فقاله. وكان ممّن هجَر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام. ووفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأسلم. وأدرك صِفّين، فشهدها مع عليّ. ثمّ سكن الكوفة، فسيّره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، فمات فيها، وقد كُفّ بصره، وجاوز المائة. وأخباره كثيرة. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٢٨٠/١؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٠٨/٥.

[3] كذا وقع ضبطها في "م" بفتح الحاء والجيم، وضبطها العيني "أبو حُجُر" بالضمّ فيهما. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ١٦٥٣/٤. وهو النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث الغسّاني (ت. نحو ٤٣ق هـ/٥٨١م)، مِن ملوك الغسّانيّين في أطراف الشام. كان ممدوحًا في الجاهليّة. ملك بعد أبيه نحو سنة ٥٧٠م. **الأعلام** للزركلي، ٣٧/٨.

[4] للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ١١٩. مِن قصيدة يرثي بها النعمان بن الحارث الغسّاني. وأبو حُجُر: كنية النعمان. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ١٦٥٣/٤.

﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن الدِّين الّذي اختلفوا فيه بالتوحيد والإشراك، وادّعى كلّ فريقٍ صحّةَ ما انتحَله. وحُكمُه تعالى في ذلك إدخالُ الموحِّدين الجنّةَ، والمشركين النّارَ. فالضّمير للفريقينِ، هذا هو الذي يَستدعيه مَساقُ النظم الكريم.

وأمّا تجويز أن يكون الموصول عبارةً عن المعبودين -على حذف العائد إليه وإضمارِ المشركين مِن غير ذِكرٍ تَعويلًا على دلالة المَساق عليهم- ويكونَ التقديرُ: والذين اتّخذهم المشركون أولياءَ قائلين: ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله تعالى، إنّ الله يَحكم بينهم -أي: بين العَبَدة والمَعبودين- فيما هم فيه يختلفون، حيثُ يرجُو العَبَدةُ شفاعتَهم وهم يلعنونهم، فبَعد الإغضاءِ عمّا فيه مِن التعسُّفاتِ بمَعزِل مِن السَّداد. كيف لا، وليس فيما ذُكِر مِن طلب الشفاعة واللّعن مادّةٌ يَختلف فيها الفريقان اختلافًا مُحوِجًا إلى الحُكمِ والفَصلِ؟ وإنّما ذاك ما بين فريقَي الموحِّدين والمشركين في الدّنيا مِن الاختلاف في الدِّين الباقي إلى يوم القيامة.

وقُرئ: "قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ"،[1] فهو بدل مِن الصِّلة، لا خبر للموصول، كما
[٣و] قيل؛[2] إذ ليس في / الإخبار بذلك مزيد مزيّة.

وقُرئ: "مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا"؛[3] حكايةً لِما خاطبوا به آلهتَهم. وقُرئ: "نُعْبُدُهُمْ"[4] إتباعًا للباء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي: لا يُوفِّق للاهتداء إلى الحقّ الذي هو طريق النجاةِ عن المكروه والفوزِ بالمطلوب ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: راسخ في الكذِب مبالِغ في الكفر، كما يُعرِب عنه قراءةُ "كَذَّابٌ"[5] و"كَذُوبٌ"،[6] فإنّهما فاقدان للبصيرة

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١١١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٣٦.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٢/٤١٤؛ معاني القرآن للزجّاج، ٤/٣٤٤.
٤ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١١١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٣٦.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

غيرُ قابلَين للاهتداء لتغييرهما الفِطرةَ الأصليّة بالتمرُّن في الضّلالة والتّمادي في الغَيّ. والجملة تعليل لِما ذُكر مِن حُكمه تعالى.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾... إلخ استئناف مَسوق لتحقيق الحقّ وإبطالِ القول بأنّ الملائكة بنات الله[1] وعيسى ابنه -تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا- ببيان استحالة اتّخاذ الولد في حقّه تعالى على الإطلاق ليَندرج فيه استحالة ما قيل اندراجًا أوّليًّا، أي: لو أراد الله تعالى أنْ يتّخذ وَلَدًا ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ أي: لاتّخذَ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: مِن جملة ما يخلقه، أو مِن جنس ما يخلقه ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يتّخذَه؛ إذ لا موجودَ سواه إلّا وهو مخلوق له تعالى؛ لامتناعِ تعدُّد الواجب، ووجوب استناد جميع ما عَداه إليه.

ومِن البيّن أنّ اتّخاذ الولد مَنوط بالمماثلة بين المتّخِذ والمتّخَذ، وأنّ المخلوق لا يُماثل خالقَه حتّى يمكن اتّخاذُه ولدًا، فما فرضناه اتّخاذَ ولدٍ لم يكن اتّخاذَ ولدٍ؛ بل اصطفاءَ عَبدٍ. وإليه أُشير حيث وُضع الاصطفاء موضع الاتّخاذ الذي يقتضيه الشرطيّة تنبيهًا على استحالة مُقدَّمها لاستلزام فرضِ وقوعه -بل فرضِ إرادةِ وقوعِه- انتفاءَه، أي: لو أراد الله تعالى أنْ يتّخذ ولدًا لفَعَل شيئًا ليس هو مِن اتّخاذ الولد في شيء أصلًا؛ بل إنّما هو اصطفاء عَبدٍ، ولا ريب في أنّ ما يستلزم فرضُ وقوعه انتفاءَه فهو ممتنع قطعًا، فكأنّه قيل: لو أراد الله أن يتّخذ ولدًا لَامتنع ولم يصحّ، لكن لا على أنّ الامتناع مَنوط بتحقُّق الإرادة؛ بل على أنّه مُتحقِّق عند عدمها بطريق الأَولويّة، على مِنوال: «لو لم يخَفِ اللهَ لم يعصِه».[2]

---

١ س + تعالى.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٦٠٧ (النحل، ١٦/٤١)، مِن قول عمر: «نِعمَ الرجل صُهيب، لو لم يخَفِ الله لم يعصِه». قال السيوطي: لم نظفَر به في شيء مِن كتب الحديث. قال ابن حجر: إنّه ظفِر به لابن قتيبة، لكن بغير سنَد. **الفوائد المجموعة** للشوكاني، ص ٤٠٩، وقال السخاوي: «أراد أن صهيبًا إنّما يُطيع الله حبًا، لا لمخافةِ عقابه». **الأجوبة المرضيّة** للسخاوي، ١/١٠٠.

[٣ظ] / وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تقرير لِما ذُكر مِن استحالة اتّخاذ الولد في حقّه تعالى، وتأكيد له ببيان تَنزّهِه تعالى عنه. أي: تنزّه بالذّات عن ذلك تَنزُّهَهُ الخاصَّ به، على أنّ السُّبْحان مصدر مِن "سبَحَ" إذا بَعُدَ. أو أُسبّحه تسبيحًا لائقًا به، على أنّه عَلَمٌ للتسبيح مَقولٌ على ألسنة العباد، أو سَبِّحوهُ تسبيحًا حقيقًا بشأنه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ استئناف مبيّن لتنزّهه تعالى بحسب الصِّفات إثرَ بيان تنزّهه تعالى عنه بحسب الذّات، فإنّ صفة الأُلوهيّة المستتبِعة لسائر صفات الكمال النافيةِ لِسِماتِ النُّقصانِ، والوَحدة الذّاتيّة الموجبة لامتناعِ المُماثلة والمُشاركة بينه تعالى[١] وبين غيره على الإطلاق؛ ممّا يقضِي بتَنزّهه تعالى عمّا قالوا قضاءً مُتقَنًا، وكذا وصف القَهّاريّة؛ لِما أنّ اتّخاذ الولد شأنُ مَن يكون تحت ملكوت الغير عُرضةً للفَناء ليَقومَ ولَده مقامَه عند فَنائِه، ومَن هو مستحيلُ الفَناء قهّارٌ لكلِّ الكائنات كيفَ يُتصوَّر أن يتّخذ مِن الأشياء الفانية ما يقوم مقامَه؟!

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدّالّةِ على تفرّده تعالى بما ذُكر مِن الصفات الجليلة، أي: خلَقهما وما بينهما مِن الموجودات ملتبِسةً بالحقّ والصواب، مشتملة على الحِكَم والمصالح.

وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ بيان لكيفيّة تصرُّفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما، فإنّ حدوث اللّيل والنهار في الأرض مَنوطٌ بتَحريك السّماوات، أي: يغشّي كلَّ واحدٍ منهما الآخرَ كأنّه يلفّه عليه لفَّ اللباسِ على اللّابس أو يُغيّبه به كما يُغيَّبُ الملفوف باللفافة، أو يجعله كارًّا عليه كُرُورًا متتابعًا تتابُعَ أكوارِ العمامة. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد.

---

١ م - تعالى.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ جعلهما منقادين لأمره تعالى. وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ/ مُّسَمًّى﴾ بيان لكيفيّة تسخيرهما، أي: كلّ منهما يجري لمُنتهى [٩٤و] دَورتِه أو مُنقطَعِ حركتِه، وقد مرَّ تفصيلُه غيرَ مرّة.

﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كلّ شيء مِن الأشياء التي مِن جُملتها عقاب العُصاة. ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ المبالِغ في المغفرة، ولذلك لا يُعاجل بالعقوبة وسلبِ ما في هذه الصنائع البديعة مِن آثار الرّحمة. وتصدير الجملة بحرف التنبيه لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦﴾

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ بيان لبعض آخر مِن أفعاله الدالّة على ما ذُكر، وتركُ عطفِه على ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للإيذان باستقلاله في الدّلالة ولتعلُّقه بالعالم السّفلي، والبدايةُ بخلق الإنسان لعَراقته في الدّلالة لِما فيه مِن تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة، وأصالتِه في المعرفة، فإنّ الإنسان بحال نفسه أعرف. والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ عطف على محذوف، هو صفة لـ﴿نَفۡسٖ﴾، أي: مِن نفسٍ خلقَها ثمّ جعل منها زوجَها أو على معنَى ﴿وَٰحِدَةٖ﴾، أي: مِن نفس وَحَدَتْ ثمّ جعل منها زوجها فَشفَعَهَا، أو على ﴿خَلَقَكُم﴾ لتفاوت ما بينهما في الدلالة، فإنّهما وإن كانتا آيتينِ دالّتينِ على ما ذُكر لكنّ الأُولى لاستمرارها صارت معتادة، وأمّا الثانية فحيث لم تكن معتادةً خارجةً عن قياس الأُولى -كما يشعر به التعبيرُ عنها بالجَعل دون الخلق- كانت أدخلَ في كونها آيةً وَأَجْلَبَ لِلتعجّب مِن السامع، فعطفت على الأُولى بـ﴿ثُمَّ﴾ دلالةً على مباينتها لها فضلًا ومزيّةً وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آيةً فهو مِن التراخي في الحال والمنزلة.

وقيل: أخرج ذريّة آدم مِن ظهره كالذرّ ثمّ خلق منه حوّاء، ففيهِ ثلاث آيات مترتّبة: خلقُ آدمَ عليه السلام بلا أب وأمّ، وخلقُ حوّاء مِن قُصَيْراه،[1] ثمّ تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ بيان لبعض آخر مِن أفعاله الدالّة على ما ذُكر، / أي: قضى، أو قسم لكم، فإنّ قضاياه وَقِسَمَهُ توصفُ بالنزول مِن السماء حيث تُكتَبُ في اللّوح المحفوظ. أو أحدَث لكم بأسباب نازلة مِن السماء كالأمطار وأشعّة الكواكب ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ ذكَرًا وَأنثى، هي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز. وقيل: خلَقَها في الجنّة ثمّ أنزلها. [٤٠ظ]

وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويقِ إلى ما أُخِّر فإنّ كون الإنزال لمنافعهم وكونه مِن الجهة العالية مِن الأمور المهمّة المشوّقة إلى ما أُنزِل لا محالةَ.

وقوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ استئناف مَسوق لبيان كيفيّة خلقهم وأطواره المختلفةِ الدالّة على القدرة الباهرة. وصيغة المضارع للدلالة على التدرّج والتجدّد. وقوله تعالى: ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ مصدر مؤكِّد، أي: يخلقكم فيها خلقًا كائنًا مِن بعد خلقٍ، أي: خلقًا مدرَّجًا؛ حيوانًا سَويًّا مِن بعد عظام مَكسوّة لحمًا مِن بعد عظام عارية مِن بعد مُضَغ مُخلَّقة مِن بعد مُضَغ غير مخلَّقة مِن بعد علقة مِن بعد نطفة. ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ متعلِّق بـ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾، وهي: ظلمة البطن، وظلمة الرَّحِم، وظُلمة المَشِيمَةِ. أو ظلمة الصُّلب، والبطن، والرَّحِم.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء. ومحلّه الرفع على الابتداء، أي: ذلكم العظيم الشأن الذي عُدّدت أفعاله ﴿ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبر آخَر، أي: مربّيكم فيما ذكر مِن الأطوار وفيما بعدها، وَمالكُكم المستحِقّ لتخصيص العبادةِ به.

---

[1] القُصَيرَى: أسفل الأضلاع. لسان العرب لابن منظور، «قصر».

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة في ذلك بوجه مِن الوجوه. والجملة خبر آخَر، وكذا قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما ذُكر مِن شئونه تعالى، أي: فكيف تُصْرَفُون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلّيّة إلى عبادة غيره مِن غير داعٍ إليها مع كثرة / الصوارف عنها. [٥و]

﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

﴿إِن تَكْفُرُواْ﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذُكر مِن فنون نَعمائه ومعرفة شئونه العظيمة الموجبة للإيمان والشكر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي: فاعلموا أنّه تعالى غنيّ عن إيمانكم وشُكركم، غير متأثّر مِن انتفائهما. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: عدمُ رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفعِ مَضرّتهم رحمةً عليهم، لا لتضرّره تعالى به.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يَرضَ الشكرَ لأجلكم ومنفعتكم؛ لأنّه سبب لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به. وإنّما قيل: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ لَا لَكُم لتعميم الحُكم وتعليله بكونهم عبادَه تعالى. وقُرئ بإسكان الهاء.[١]

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بيان لعدم سِراية كفر الكافر إلى غيره أصلًا، أي: لا تَحمل نفس حاملة للوِزر حِملَ نفسٍ أخرى. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ بالبعث بعد الموت، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عند ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: كنتم تعملونه في الدنيا مِن أعمال الكفر والإيمان، أي: يجازيكم بذلك ثوابًا وعقابًا.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بمضمرات القلوب، فكيف بالأعمال الظّاهرة؟ وهو تعليل للتّنبئة.

---

١ قرأ بها أبو عمرو بخُلف عن الدُّوري عنه، وكذا هو أحد الوجهين عن كلّ مِن هشام وشعبة وابن جمّاز. والوجه الثاني للدُّوري وابن جمّاز: إشباع ضمّة الهاء. ولهشام وشعبة: ضمّ الهاء مِن غير إشباع. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٠٧.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ﴾ مِن مرض وغيره ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ راجعًا إليه ممّا كان يدعوه في حالة الرَّخاء لعلمه بأنّه بمَعزِل مِن القدرة على كشف ضرّه، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم، ١٤/٣٤].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ أي: أعطاه نعمةً عظيمةً مِن جنابه تعالى، مِن التخوّل، وهو التعهّد، أي: جعلَه خائلَ مال، مِن قولهم: فلان خائلُ مال إذا كان متعهِّدًا له حسَنَ القيام به. أو مِن الخَول، وهو الافتخار، أي: جعلَه يخول، أي: يختال ويَفتَخرُ.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: نسي الضرّ الذي كان يدعو الله تعالى فيما سبق إلى كشفه. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قبل التخويل، أو نسي ربّه الذي كان يدعو ويتضرّع إليه، إمّا بناءً على أنّ ﴿مَا﴾ بمعنى "مَن" كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل، ٩٢/٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون، ١٠٩/٣]. وإمّا إيذانًا بأنّ نسيانه بلغ إلى حيثُ لا يعرف مَدعُوَّه مَا هُو، فضلًا مِن أن يعرفه مَن هو، / كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج، ٢٢/٢]. [٥ظ]

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ شركاءَ في العبادة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناسَ بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد. وقُرئ: "لِيَضِلَّ" بفتح الياء،[١] أي: ليزداد ضلالًا أو يثبت عليه، وإلّا فأصلُ الضلال غيرُ متأخِر عن الجعل المذكور. واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القصص، ٢٨/٨]، خلا أنّ هذا أقرب إلى الحقيقة؛ لأنّ الجاعل ههنا قاصِد بجعله المذكور حقيقةَ الإضلال والضلال، وإن لم يعرف لجهله أنّهما إضلال وضلال. وأمّا آلُ فرعونَ فهم غيرُ قاصدين بالتقاطهم العداوةَ أصلًا.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا لذلك الضالّ المُضِلّ، وبيانًا لحاله ومآله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتُّعًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مِن مُلازميها والمعذَّبين فيها على الدوام، وهو تعليل لقِلّة التمتّع. وفيه مِن الإقناط مِن النجاة ما لا يخفى، كأنّه قيل: إذ قد أبَيتَ قبولَ ما أُمِرتَ به مِن الإيمان والطاعة فمِن حقّك أن تؤمَر بتركه لتذوق عقوبته.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾... إلخ مِن تمام الكلام المأمور به. و"أم" إمّا متّصلة قد حُذف معادلُها ثقةً بدلالة مَساق الكلام عليه، كأنّه قيل له تأكيدًا للتهديد وتهكّمًا به: أأنتَ أحسنُ حالًا ومآلًا أم مَن هو قائمٌ بمَواجب الطاعاتِ ودائمٌ على أداء وظائف العبادات في ساعات الليل حالتَي السّرّاء والضّرّاء -لا عند مساس الضرّ فقط كدأبك- حال كونه ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي: جامعًا بين الوصفين المحمودينِ؟ وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة. وقُرئ كلاهما بالرفع[1] على أنّه خبر بعد خبر.

﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ حال أُخرى على الترادف أو التداخل. أو استئناف وقع جوابًا عمّا نشأ مِن حكاية حاله مِن القنوت والسجود والقيام، كأنّه قيل: ما بالُه يفعل ذلك؟ فقيل: يحذَر عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ / فينجو بذلك [٦٦و]
ممّا يحذره، ويفوز بما يرجوه، كما يُنبئ عنه التعرّض لعُنوان الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجي، لا أنّه يحذر ضُرَّ الدنيا ويرجو خيرَها فقط.

وإمّا منقطعة،[2] وما فيها مِن الإضراب للانتقال مِن التهديد إلى التبكيت بتكليف الجواب المُلجئ إلى الاعتراف بما بينهما مِن التباين البيّن، كأنّه قيل:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[2] السياق: و"أم" إمّا متّصلة... وإمّا منقطعة...

بل أَمَنْ هو قانت... إلخ أفضل أم مَن هو كافر مثلك؟ كما هو المعنى على قراءة التخفيف.[١]

﴿قُلْ﴾ بيانًا للحقّ وتنبيهًا على شرَف العلم والعمل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ حقائقَ الأحوال فيعملون بموجَب علمهم، كالقانت المذكور، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما ذُكر، أو شيئًا، فيعمَلون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك؟ والاستفهام للتنبيه على أنّ كون الأوّلِين في أعلى معارج الخير وكون الآخِرين في أقصى مدارج الشرّ مِن الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحدٍ مِن منصِف ومُكابر. وقيل: هو وارد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالِمون والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلام مستقِلّ غير داخل في الكلام المأمور به واردٌ مِن جهته تعالى بعد الأمر بما ذُكر مِن القَوارعِ الزاجرة عن الكفر والمعاصي لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم، كما في قَول مَن قال:

عُوجُوا فَحَيُّوا[٢] لِنُعْمٍ[٣] دِمنةَ الدارِ ... ماذا تُحَيُّون مِن نُؤْيٍ وأَحْجارِ[٤]

أي: إنّما يتّعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل، وهؤلاء بمَعزِل مِن ذلك. وقُرئ: "إنَّما يَذَّكَّرُ" بالإدغام.[٥]

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ أُمِر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بتذكير المؤمنين وحملِهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكّر بأولي الألباب

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ٤١٦/٢.

٢ م: فحيّو.

٣ م س: لنُعمى [صُحّح في هامش م س].

٤ للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ٢٠٢. والعَوْج: عطف رأس البعير بالزّمام. ونُعْم: اسم المحبوبة. والدِّمنة: ما تلبّد مِن البعر والقمامة، وربّما نبت فيها النبات. والنُّؤي: الحاجز حول الخِباء لئلّا يدخله ماء المطر. **شرح شواهد الكشّاف** لمحبّ الدين أفندي، ص ١٠٥.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١١٧/٤.

إيذانًا بأنّهم هم كما سيُصرِّح به، / أي: قُل لهم قَولِي هذا بعينه. وفيه تشريف لهم [٦٦ظ]
بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيدُ اعتناء بشأن المأمور به، فإنّ نَقْلَ عين أمرِ الله تعالى أدخل في إيجاب الامتثال به.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به. وإيراد الإحسان في حيّز الصِّلة دون التقوى للإيذان بأنّه مِن باب الإحسان، وأنّهما متلازمان، وكذا الصبر كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل، ١٦/١٢٨]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف، ١٢/٩٠].

وقوله تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّق بـ﴿أَحْسَنُواْ﴾، أي: عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص، وهو الذي عَبّر عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين سُئل عن الإحسان بقوله عليه السلام: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١] ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: حسنة عظيمة لا يُكتَنَه كُنهُها، وهي الجنّة.

وقيل: هو متعلّق بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ على أنّه بيان لمكانها، أو حال مِن ضميرها في الظرف، فالمراد بها حينئذٍ الصحّة والعافية.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمَن تعسّر عليه التوفّر على التقوى والإحسانِ في وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكّن فيه مِن ذلك كما هو سنّة الأنبياء والصالحين، فإنّه لا عذر له في التفريط أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾... إلخ ترغيب في التقوى المأمور به. وإيثار الصابرين على المتّقين للإيذان بأنّهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الإحسان؛ لِما أشير إليه مِن استلزام التقوى لهما مع ما فيه مِن زيادة حثٍّ على المصابرة والمجاهدة في تحمّل مشاقّ المهاجَرة ومتاعبها، أي: إنّما يوفّى الذين صبروا على دينهم، وحافظوا على حدوده، ولم يفرِّطوا في مراعاة حقوقه

---

[١] صحيح البخاري، ١/١٩ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ١/٣٦ (٨).

لِما اعتراهم في ذلك مِن فُنون الآلامِ والبَلايا التي مِن جُملتها[1] مهاجرة الأهل ومفارقة الأوطان ﴿أَجْرَهُم﴾ بمقابلة ما كابدوا مِن الصبرِ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بحيث لا يُحصَى ولا يُحصَر.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا يهتدي إليه حساب الحُسّاب ولا يعرف».[2] وفي الحديث أنّه «يُنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة / والصدقة والحجّ فيُوَتَوْن بها أجورَهم، ولا تُنصَبُ لأهل البلاء؛ بل يُصَبُّ عليهم الأجر صبًّا، حتّى يتمنّى أهلُ العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تُقرَضُ بالمقاريضِ ممّا يذهب به أهل البلاء مِن الفضل».[3] [٧و]

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مِن كلّ ما ينافيه مِن الشرك والرياء وغير ذلك. أُمِرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان ما أُمِر به نفسُه مِن الإخلاص في عبادة الله تعالى الذي هو عبارة عمّا أُمِر به المؤمنون مِن التقوى مبالغة في حثّهم على الإتيان بما كُلِفوه، وتمهيدًا لِما يَعقُبه ممّا خُوطب به المشركون.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأُمرت بذلك لأجل أن أكون مقدِّمَهم في الدنيا والآخرة؛ لأنّ إحراز قصَب السَّبق في الدِّين بالإخلاص فيه. والعطف لمغايرة الثاني الأوّلَ بتقيّده بالعلّة، والإشعارِ بأنّ العبادة المذكورة كما تقتضي الأمرَ بها لذاتها تقتضيه لِما يلزمها مِن السَّبق في الدِّين. ويجوز أن تُجعلَ اللام مزيدة كما في: أردتُ لأن أقوم، بدليل قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ[4] أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾

---

[1] س - جملتها.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤/١١٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٣٨.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/١١٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٣٨.

[4] م س ي: وأُمِرتُ.

[الأنعام، ١٤/٦]، فالمعنى وأُمرتُ أن أكون أوّل مَن أسلم مِن أهل زماني، أو مِن قومي، أو أكون أوّلَ مَن دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسَه.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه مِن الشرك ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يوم القيامة، وُصِف بالعظمة لعظَمة ما فيه مِن الدواهي والأهوال.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ لا غيرَه لا استقلالًا ولا إشراكًا[1] ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ مِن كلّ شَوب. أُمر عليه السلام أوّلًا ببيان[2] كونه مأمورًا بعبادة الله تعالى وإخلاصِ الدين له، ثمّ بالإخبار بخوفه مِن العذاب على تقدير العصيان، ثمّ بالإخبار بامتثاله بالأمرِ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ إظهارًا لتصلُّبه في الدِّين، وحسمًا لِأطماعهم الفارغة، / وتمهيدًا لتهديدهم بقوله تعالى: [٧ظ]

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾ أن تَعبدوه ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى. وفيه مِن الدلالة على شدّة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنّهم لمّا لم ينتهوا عمّا نُهوا عنه أُمِرُوا به كي يحِلّ بهم العقاب.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخُسران، الذي هو عبارة عن إضاعة ما يهمّه، وإتلافِ ما لا بدّ منه، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ باختيارِهم الكفر لهما، أي: أضاعوهما وأتلفوهما ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النار حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي، وأوقعوهما في هلَكةٍ لا هلكةَ وراءَها.

وقيل: خسروا أهليهم لأنّهم إنْ كانوا مِن أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا مِن أهل الجنّة فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا إيابَ بعده.

---

[1] س ي: اشتراكًا.

[2] م س - ببيان ["صح" في هامش م س].

وفيه أنّ المحذور ذهابُ مَا لَو آبَ لانتفع به الخاسرُ، وذلك غير متصوَّرٍ في الشِّقّ الأخير.

وقيل: خَسِرُوهم لأنّهم لم يدخلُوا مدخل الذين لهم أهل في الجنّة، وخسِروا أهليهم الذين كانوا يتمتّعون بهم لو آمنوا.

وأيًا ما كان فليس المرادُ مجرّد تعريف الكاملين في الخُسران بما ذُكر؛ بل بيانُ أنّهم هُمْ، إمّا بجعل الموصول عبارةً عنهم، أو عمّا هم مندرجون فيه اندراجًا أوّليًا.

وما في قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ مِن استئناف الجملة، وتصديرِها بحرف التنبيه، والإشارةِ بذلك إلى بُعد منزلة المشار إليه في الشرِّ، وتوسيطِ ضمير الفَصل، وتعريف الخسران، ووصفِه بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، مِن الدلالة على كمال هَولِه وفظاعته وأنّه لا خسرانَ وراءه ما لا يخفى.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾... إلخ نوعُ بيانٍ لخُسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أنّ ﴿لَهُم﴾ خبرٌ لـ﴿ظُلَلٌ﴾. و﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف، قيل: هو حال مِن ﴿ظُلَلٌ﴾. والأظهر أنّه حال مِن الضميرِ في الظرفِ المقدَّم. و﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفةٌ لـ﴿ظُلَلٌ﴾، أي: لهم كائنةٌ مِن فوقهم ظُلَل كثيرة مُتراكبة بعضها فوق بعضٍ كائنةٌ مِن النار. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ / أيضا ﴿ظُلَلٌ﴾ أي: أطباق كثيرة [٩٨و] بعضُها تحت بعض ظُلَلٌ لِآخرين؛ بل لهم أيضًا عند تَرَدِّيهم في درَكاتها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الفظيع هو الذي ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ويحذّرهم إيّاه بآيات الوعيد؛ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه. ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرّضوا لِما يوجب سَخَطي. وهذه عِظة مِن الله تعالى بالغة مُنطوية على غاية اللّطف والمَرحمة. وقُرئ: "يَا عِبَادِي".[١]

---

[١] قرأ بذلك رُويس بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٢.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: البالِغَ أقصى غاية الطغيان، "فَعَلُوت" منه بتقديم اللام على العين، بُني للمبالغة في المصدر، كالرَّحَموت والعَظَموت، ثمّ وُصِف به للمبالغة في النعت. والمراد هو الشَّيطان. ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدلُ الاشتمال منه، فإنّ عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان؛ إذ هو الآمر بها والمزيِّنُ لها. ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه معرضين عمّا سواه إقبالًا كلّيًا.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسِنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يُحشرون وبعد ذلك. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، لكن وُضِع موضعَ ضميرهم الظاهرُ تشريفًا لهم بالإضافة، ودلالةً على أنّ مدار اتّصافهم بالوصفَين الجليلَين كونهم نُقّادًا في الدِّين، يميّزون الحقّ مِن الباطل، ويُؤْثرون الأفضلَ فالأفضل.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبارِ اتّصافهم بما ذُكر مِن النعوت الجليلة، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل. ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبره ما بعده مِن الموصول، أي: أولئك المَنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ للدِّين الحقّ، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى، المستحِقّون للهداية لا غيرُهم. وفيه دلالة على أنّ الهداية / تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها. [٨ظ]

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ۝١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠﴾

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ بيان لأحوال أضداد المذكورين على طريقة الإجمال، وتسجيلٌ عليهم بحرمان الهداية، وهم عبَدة الطاغوت، ومُتّبِعوا خُطواتِها كما يلوِّح به التعبير عنهم بـ﴿مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾،

فإنّ المراد بها قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٥]، وقوله تعالى: ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٨].

وأصل الكلام: أَمَن حقّ عليه كلمة العذاب فأنت تُنقِذه، على أنّها شرطيّة دخل عليها الهمزة لإنكار مضمونها. ثمّ الفاءُ لعطفها على جملة مستتبِعة لها مقدَّرةٍ بعدَ الهمزة ليتعلّق الإنكار والنفي بمضمونَيهما معًا، أي: أأنتَ مالكُ أمرِ الناس، فمَن حقّ عليه كلمةُ العذاب فأنت تُنقذه؟ ثمّ كُرِرَت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار وتذكيرِه لِما طال الكلام، ثمّ وُضع موضع الضميرِ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد والتنبيه على أنّ المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقعِ في النار، وأنّ اجتهاده عليه السلام في دعائهم إلى الإيمان سَعْيٌ في إنقاذهم مِن النار.

ويجوز أن يكون الجزاء محذوفًا، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ﴾... إلخ جملة مستقلّة مَسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ما حُذِف منها وتشديدِ الإنكار بتنزيل مَن استَحقّ العذابَ منزلةَ مَن دخل النار، وتصوير الاجتهاد في دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ مِن النار، كأنّه قيل أوّلًا: أفمَن حقّ عليه العذاب فأنت تخلّصه منه، ثمّ شُدِّد النكير فقيل: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾. وفيه تلويح بأنّه تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ لا غير.

وحيث كان المراد بـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ الذين قيل في حقّهم: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌ﴾[1] استُدرك عنهم بقوله تعالى: / ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ﴾ وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾،[2] [٩و]
ووُصفوا بما عُدِّد مِن الصفات الفاضلة، وهم المخاطَبون أيضًا فيما سبَق بقوله تعالى: ﴿قُلۡ[3] يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ الآيةَ،[4] وبيّن أنّ لهم درجات عالية في جنّات النعيم بمقابلة ما للكفرة مِن دركات سافلة في الجحيم، أي: لهم علاليّ بعضها فوق بعض، ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ بناءَ المنازل المبنيّة المؤسّسة على الأرض

---

[1] الزمر، ٣٩/١٦.
[2] الزمر، ٣٩/١٦.
[3] م س ي - قل.
[4] الزمر، ٣٩/١٠.

في الرصانة والإحكام، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ مِن تحت تلك الغُرف ﴿الْأَنْهَارُ﴾ مِن غير تفاوت بين العلوّ والسفل.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾... إلخ، فإنّه وَعدٌ، وأيّ وعد. ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ لاستحالتِه عليه سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ استئناف وارد إمّا لتمثيل الحياة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذُكر مِن أحوال الزرع؛ ترغيبًا عن زخارفها وزينتها، وتحذيرًا مِن الاغترار بزهرتها، كما في نظائر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآيةَ [يونس، ٢٤/١٠]، أو للاستشهاد على تحقّق الموعود مِن الأنهار الجارية مِن تحت الغُرَف بما يشاهَد مِن إنزال الماء مِن السماء، وما يترتّب عليه مِن آثار قدرته تعالى، وأحكام حِكمته ورحمته.

والمراد بالماء المطر. وقيل: كلّ ماء في الأرض، فهو مِن السماء، ينزل منها إلى الصخرة، ثمّ يقسمه الله تعالى بين البِقاع. ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فأدخله ونظمه ﴿يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عيونًا ومجاري كالعُروق في الأجساد. وقيل: مياهًا نابعةً فيها، فإنّ الينبوع يُطلَق على المَنبَع والنابع، فنصبُها على الحال، وعلى الأوّل بنزع الجارّ، أي: في ينابيعَ.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أصنافُه مِن بُرّ وشعير وغيرهما، أو كيفيّاته مِن الألوان والطعوم / وغيرِهما. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة أو الزمان. [٨٩ظ]
وصيغة المضارع لاستحضار الصورة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يتمّ جفافه ويشرف على أن يثور مِن منابته. ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ مِن بعد خُضرته ونُضرته. وقُرئ: "مُصْفَارًا".[1]
﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ فُتاتًا متكسِّرةً كأن لم يَغنَ بالأمس. ولكون هذه الحالة مِن الآثار القويّة عُلِّقَت بجعلِ الله تعالى كالإخراج.

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٢/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٨٨/١٨. وفي سورة الروم تُعزى إلى جَناح بن حُبيش. انظر: اللباب لابن عادل، ٤٢٨/١٥ (الروم، ٥١/٣٠).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر تفصيلًا، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته في الغرابة والدلالة على ما قُصِد بيانه. ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيرًا عظيمًا ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلَل وتنبيهًا لهم على حقيقة الحال، يتذكَّرون بذلك أنّ حال الحياة الدنيا في سرعة التقضّي والانصِرام كما يشاهدونه مِن حال الحُطام كلَّ عام، فلا يغترّون ببَهجتها، ولا يُفتتنون بفتنتها. أو يَجزمون بأنّ مَن قدَر على إنزال الماء مِن السماء وإجرائِه في ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار مِن تحت الغُرَف.

هذا، وأمّا ما قيل:[١] إنّ في ذلك لَتذكيرًا وتنبيهًا على أنّه لا بدّ مِن صانع حكيم، وأنّه كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال، فبمَعزِل مِن تفسير الآية الكريمة، وإنّما يَليق ذلك بما لو ذُكِر مَا ذُكِر مِن الآثار الجليلة والأفعال الجميلة مِن غير إسنادٍ لها إلى مؤثّر ما، فحيث ذُكِرت مسنَدةً إلى الله عزّ وجلّ تعيّن أن يكون متعلَّقُ التذكير والتنبيه شئونَه تعالى أو شئونَ آثارِه حسبما بيِّن، لا وجودَه تعالى.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾... إلخ استئناف جارٍ مَجرى التعليلِ لِما قبله مِن تخصيص الذكرى بأولي الألباب. وشرحُ الصدر للإسلام عبارة عن تكميلِ الاستعداد له، فإنّه محلّ للقلب الذي[٢] هو منبع للروح التي تتعلّق بهَا النفس القابلة للإسلام، فانشراحه مستدعٍ لاتّساعِ القلب واستضاءتِه بنوره، فإنّه رُوي أنّه عليه السلام قال: «إذا دخل النور القلبَ انشرَح وانفسَح»، فقيل: فما علامة ذلك؟ قال عليه السلام: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهّبُ للموت قبل نزوله».[٣]

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٢٢/٤.
٢ س – الذي.
٣ جامع البيان للطبري، ٥٤١/٩ (الأنعام، ١٢٥/٦)؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٧٧/٧ (٣٤٣١٥).

والكلام في الهمزة والفاء كالذي مرّ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾.[١] وخبر ﴿مَن﴾ محذوف لدلالة ما بعده عليه، والتقدير: أَكُلُّ الناس سوَاء؟ فمَن شرح الله صدرَه -أي: خلَقَه متَّسِع الصدر مستعِدًّا للإسلام- فبقي على الفطرة الأصليّة ولم يتغيّر بالعوارض / المكتسَبة القادحة فيها، ﴿فَهُوَ﴾ بموجب [١٠و] ذلك مستقِرّ ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو اللطف الإلهي الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينيّة والتنزيليّة، والتوفيقُ للاهتداء بها إلى الحقّ، كمَن قَسَا قَلبُه وحَرِجَ صدرُه بسبب تبديل فطرة الله بسوءِ اختيارِه، واستولى عليه ظلمات الغيّ والضّلالة، فأعرض عن تلك الآيات بالكلّيّة حتّى لا يتذكّرُ بها ولا يغتنمها؟

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن أجل ذِكره الذي حقّه أن تنشَرح له الصدور وتطمئنّ به القلوب، أي: إذا ذُكر الله تعالى عندهم أو آياتُه اشمأزّوا مِن أجله وازدادت قلوبهم قساوةً، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة، ٩/١٢٥]. وقُرئ: "عَنْ ذِكْرِ اللهِ"،[٢] أي: عن قَبوله.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ البُعَداءُ الموصوفون بما ذُكر مِن قساوَة القلوب ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ بعيدٍ مِن الحقّ ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرٍ كونه ضلالًا لكلّ أحدٍ. قيل: نزلت الآية في حمزة وعليّ رضي الله عنهما، وأبي لهبٍ وولده.[٣] وقيل: في عمّار بن ياسرٍ رضي الله عنه، وأبي جهلٍ وذَوِيه.[٤]

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم. رُوي أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَلُّوا ملّةً فقالوا له عليه السلام: حَدِّثنا حدِيثًا[٥] -وعن ابن مسعود

---

[١] الزمر، ٣٩/١٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[٣] التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٥٧٧؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٥٢٧.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٢٩؛ تفسير القرطبي، ١٥/٢٤٧.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ٤/١٢٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٤٠. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٨ (يوسف، ١٢/٣).

وابن عبّاس: قالوا: لو حدّثتنا-[١] فنزلت. والمعنى: أنّ فيه مندوحةً عن سائر الأحاديث. وفي إيقاع الاسم الجليل مبتدأً وبناءِ ﴿نَزَّلَ﴾ عليه مِن تفخيمِ ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ورفعِ محلِّه والاستشهادِ على حُسنه وتأكيدِ استناده إليه تعالى وأنّه مِن عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيهِ على أنّه وحي معجِز، ما لا يخفى.

﴿كِتَٰبًا﴾ بدل مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، أو حال منه سواء اكتسب مِن المضاف إليه تعريفًا أو لا، فإنّ مَساغ مجيء الحال مِن النكرة المضافة اتفاقي، ووقوعه حالًا مع كونه اسمًا لا صفة إمّا لاتّصافه بقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، أو لكونه في قوّة "مكتوبًا". ومعنى كونه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: تشابه معانيه في الصحّة والإحكام والابتناءِ على الحقّ والصِّدق واستتباع منافعِ الخلق في المعاد والمعاش وتناسبِ ألفاظه في الفصاحة وتجاوبِ نظمه في الإعجازِ.

﴿مَّثَانِيَ﴾ صفة أخرى / لـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حال أُخرى منه، وهو جمعُ "مُثنًّى"، [١٠ظ] بمعنى: مُردَّد ومُكرَّر لِما ثُنّي مِن قَصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه. وقيل: لأنّه يثنّى في التلاوة. وقيل: هو جمع "مَثْنَى"، مَفْعَل مِن التثنية بمعنى التكريرِ والإعادة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ[٢] ٱرْجِعِ[٣] ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك، ٦٧/٤]، أي: كرّةً بعدَ كرّة.

وقوعه[٤] صفةً لِـ﴿كِتَٰبًا﴾ باعتبار تفاصيله، كما يقال: القرآن سُوَر وآيات. ويجوز أن ينتصب على التميز مِن ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، كما يُقال: رأيت رجلًا حسنًا شمائلَ، أي: شمائله، والمعنى متشابهة مَثانيه.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: صفة لِـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حال منه لتخصّصه بالصفة، والأظهر أنّه استئناف مَسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه، ولتقرير كونه "أحسنَ الحديث". والاقشعرار: التقبّض، يقال: اقشعَرَ الجلد إذا تقبّض تقبّضًا شديدًا، وتركيبه مِن القَشع؛ وهو الأديم اليابس،

---

[١] جامع البيان للطبري، ٢٠/١٩٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٣٠.

[٢] م س ي – ثمّ.

[٣] م س ي: "فارْجِع".

[٤] س ي: ووقوعه.

قد ضُمّ إليه الراء ليكون رباعيًا ودالًا على معنًى زائدٍ، يقال: اقشعَرّ جلده وقَفَّ شعرُه إذا عرض له خوف شديد مِن منكرٍ هائلٍ دَهِمَهُ بَغْتةً.

والمراد إمّا بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير، أو بيان حصول تلك الحالة وعروضِها لهم بطريق التحقيق. والمعنى: أنّهم إذا سمعوا القرآن وقوارعَ آيات وعيده أصابتهم هَيبة وخشية تقشعِرّ منها جلودهم، وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدّلت خشيتُهم رجاءً ورهبتُهم رغبةً، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ساكنة مطمئنّة إلى ذكر رحمته تعالى، وإنّما لم يصرّح بها إيذانًا بأنّها أوّلُ ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتاب الذي شُرح أحواله ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أنْ يهديه لصَرف مقدوره إلى الاهتداء بتأمّله فيما في تضاعيفه مِن شواهد الحقّيّة ودلائل كونه مِن عند الله تعالى. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾[1] أي: يخلق فيه الضّلالة / لصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضِه عمّا يُرشده إلى الحقّ بالكلّيّة، وعدمِ [١١و]
تأثّره بوعيده ووعده أصلًا. أو ومَن يخذل ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخلّصه مِن وَرطة الضلال. وقيل: ذلك الذي ذُكر مِن الخشية والرجاء أثرُ هداه تعالى، يهدي بذلك الأثر مَن يشاء مِن عباده، ومَن يُضلل -أي: ومَن لم يُؤثّر فيه لطفه، لقسوة قلبه، وإصراره على فُجوره- فما له مِن هادٍ؛ مِن مُؤثّر فيه بشيء قطّ.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾... إلخ استئناف جارٍ مجرى التعليل لِما قبله مِن تباين حالَي المهتدي والضالّ. والكلام في الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذي مرّ في نَظِيرَيه. والتقدير: أكُلُّ الناسِ سواء؟! فمَن شأنه أنّه يقِي نفسَه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيِّء الشديد ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لكون يده التي بها كان يتّقي المَكاره والمَخاوف مغلولةً إلى عُنقه

---

[1] م - ﴿ٱللَّهُ﴾.

كمَن هو آمِن لا يَعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى الاتّقاء بوجهٍ مِن الوجوه. وقيل: نزلت في أبي جهلٍ.[١]

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ عطف على «يَتَّقِي»، أي: ويقال لهم مِن جهة خزَنة النار. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر. وقيل: هو حال مِن ضميرِ «يَتَّقِي» بإضمار "قد"، ووضع المُظهر في مَقام المُضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والإشعار بعلّة الأمر في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي: وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام مِن الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥﴾

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة مِن العذاب الدنيوي إثرَ بيان ما يُصيب الكلّ مِن العذاب الأخروي. أي: كذّب الذين مِن قبلهم مِن الأمم السالفة. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ المقدّر لكلّ أمّة منهم ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ مِن الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيان الشرّ منها.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾

[١١١ظ] ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ﴾ أي: الذُّلّ والصَّغارَ / ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ كالمَسخ والخَسف والقتل والسبْي والإجلاءِ ونحو ذلك مِن فنون النَّكال. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المُعَدُّ لهم ﴿أَكۡبَرُ﴾ لشدّته وسَرْمديّته. ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لو كان مِن شأنهم أن يعلموا شيئًا لَعلِموا ذلك واعتبروا به.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧﴾

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور دينه ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كَي يتذكّروا به ويتّعِظوا.

---

[١] التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧٩/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٥/٤.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكِّدة مِن هذا على أنّ مدار التأكيد هو الوصف، كقولك: جاءني زيد رجلًا صالِحًا، أو مدحٌ له. ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ لا اختلافَ فيه بوجهٍ مِن الوجوه، فهو أبلغُ مِن المستقيم، وأخصُّ بالمعانِي. وقيل: المراد بالعِوَج: الشكّ. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عِلّة أُخرى مترتّبةٌ على الأولى.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ إيراد لمَثَلٍ مِن الأمثال القرآنيّة بعدَ بيان أنّ الحكمة في ضربِها هو التذكّر والاتّعاظ بها وتحصيل التقوى. والمراد بـ"ضرب المَثَل" ههنا: تطبيقُ حالة عجيبة بأُخرى مثلِها، وجعلُها مِثلَها كما مرّ في سورة يس.[١]

و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿ضَرَبَ﴾، و﴿رَّجُلًا﴾ مفعولُه الأوّل أُخِّر عن الثّاني للتشويق إليه، وليتّصل به ما هو مِن تَتمّته التي هي العمدة في التمثيل. و﴿فِيهِ﴾ ليس بصلة لـ﴿شُرَكَآءُ﴾ كما قيل؛[٢] بل هو خبر له،[٣] وبيانُ أنّه في الأصل كذلكَ[٤] ممّا لا حاجة إليه. والجملة في حيّز النصب على أنّه وصف لـ﴿رَّجُلًا﴾، أو الوصف هو الجارّ والمجرور، و﴿شُرَكَآءُ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة لاعتماده على الموصوف، فالمعنى: جعَل الله تعالى مَثَلًا للمُشرك حسبما يقود إليه مذهبه مِن ادّعاء كلٍّ مِن مَعبوديه عبوديّتَه عبدًا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاوَرونه في مهمّاتهم المتباينة في تحيّره وتوزّعِ قلبه.

---

[١] عند قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس، ١٣/٣٦].

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٢٦/٤؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٢/٥.

[٣] قال الشهاب الخفاجي: «الظاهر أنّه خبر مقدّم؛ لأنّ النكرة وإن وصفت يحسُن تقدّم خبرها، ولو كان صلة لم يكن لتقديمه نكتة ظاهرة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٣٧/٣.

[٤] أي: أنه في الأصل يتعدّى بـ"في"، كما تقول: اشتركوا فيه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٦/٤.

﴿وَرَجُلًا﴾ أي: وجَعَل للموحِّد مَثَلًا رجلًا ﴿سَلَمًا﴾ أي: خالصًا ﴿لِرَجُلٍ﴾ فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلًا. وقُرئ: "سِلْمًا" بفتح السين[1] وكسرها[2] مع سكون اللام. والكلّ مصادرٌ مِن "سَلِم له كذا"، أي: خلَص، نُعِتَ بها مبالغةً، أو حُذِف منها "ذُو". / وقُرئ: "سَالِمًا"[3] و"سَالِمٌ"،[4] أي: وهناك رجل سالم. [١٢و]
وتخصيص الرجل لأنّه أفطَن لِما يجري عليه مِن الضرّ والنفع.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ إنكار واستبعاد لاستوائهما، ونفيٌ له على أبلغ وجه وآكدِه، وإيذان بأنّ ذلك مِن الجلاء والظهور بحيث لا يقدِر أحد أن يتفوّه باستوائهما أو يتلعثَم في الحكم بتباينهما ضرورة أنّ أحدهما في أعلى علّيِّين والآخرَ في أسفل سافلين. وهو السرّ في إبهام الفاضل والمفضول.

وانتصابُ ﴿مَثَلًا﴾ على التميز، أي: هل يستوي حالاهما وصفتاهما؟ والاقتصار في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقُرئ: "مَثَلَيْنِ"[5] -كقوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرَ[6] أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا﴾ [التوبة، ٦٩/٩]- للإشعار باختلاف النوع، أو لأنّ المراد: هل يستويان في الوصفين؟ على أنّ الضمير للمَثَلَين؛ لأنّ التقدير: مَثَل رجلٍ فيه... إلخ، ومَثَل رجلٍ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تقرير لِما قبله مِن نفي الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحِّدين على أنّ ما لهم مِن المزيّة بتوفيق الله تعالى، وأنّها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته، أو على أنّ بيانه تعالى بضرب المَثل -أنّ لهم المَثل الأعلى، وللمشركين مَثل السَّوء- صنع جميل ولطف تامّ منه عزّ وجلّ مستوجِب لحَمده وعبادته.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان عدم الاستواء

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٦ م س ي: أَكْثَرَ.

على الوجه المذكور إلى بيان أنّ أكثرَ الناس -وهم المشركون- لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره، فيبقَوْن في وَرطةِ الشرك والضلال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ تمهيد لِما يَعقُبه مِن الاختصام يوم القيامة. وقُرئ: "مَائِتٌ" و"مَائِتُونَ".[١] وقيل: كانوا يتربّصونَ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم موتَه.[٢] أي: إنكم جميعًا بصدد الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: مالكِ أمورِكم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجّ أنت[٣] عليهم بأنّك بلّغتهم ما أُرسِلتَ به مِن الأحكام والمواعظ التي مِن جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات، واجتهدْتَ في الدَّعوة إلى الحقّ / حقَّ الاجتهاد، [١٢ظ] وهم قد لَجّوا في المكابرة والعناد. وقيل: المراد به الاختصام العامّ الجاري في الدنيا بين الأنام.[٤] والأوّل هو الأظهر الأنسب بقوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ۝﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنّه إلى آخره مَسوق لبيان حال كلٍّ مِن طرفَي الاختصام الجاري في شأن الكفر والإيمان لا غيرُ. أي: أظلَمُ مِن كلّ ظالم مَن افترى على الله سبحانه[٥] بأن أضاف إليه الشريكَ والولد. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بالأمر الذي هو عين الحقّ ونفس الصدق، وهو ما جاء به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: في أوّل مجيئه مِن غير تدبّر فيه ولا تأمّل.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب بالصدق مِن أوّلِ الأمر. والجمع باعتبار معنى "مَن"،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير وابن مُحيصن وعيسى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٢٧.

٣ س – أنت.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٤٢.

٥ س + وتعالى.

كما أنّ الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها. أو لجنس الكفَرة، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًا.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن تبعه كما أنّ المراد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون، ٤٩/٢٣] هو عليه السلام وقومُه. وقيل: عن الجنس المتناوِل للرسل والمؤمنين بهم. ويؤيّدُه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ".[١] وقيل: هو صفة لموصوف محذوف، هو الفوج أو الفَرِيق.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن المجيء بالصِّدق والتصديقِ به ﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المنعوتون بالتقوى الذي هو[٢] أجلّ الرّغائب. وقُرئ: "وَصَدَقَ بِهِ" بالتخفيف،[٣] أي: صدَق به الناسَ فأدّاه إليهم كما نزل عليه مِن غيرِ تغيير. وقيل: وصار صادقًا به، أي: بسببه؛ لأنّ ما جاء به مِن القرآن معجزة دالّة على صِدقه عليه السلام. وقُرئ: "صُدِّقَ بِهِ"[٤] على البناء للمفعول.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بيان لِما لَهم فِي الآخرة مِن حُسن المآب بعد بيان ما لهم في الدنيا مِن محاسن الأعمال، أي: لهم كلّ ما يشاءونه مِن جلب المنافع ودفعِ المضارّ في الآخرة، لا في الجنّة فقط؛ لِما أنّ بعض ما يشاءونه مِن تكفير السيئات والأمن مِن الفزَع الأكبر، وسائر أهوال القيامة إنّما يقع قبل دخول الجنّة.

[١٣و] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن حصول كلّ ما يشاءونه ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ / أي: الذين أحسنوا أعمالهم، وقد مرّ تفسير الإحسان غيرَ مرّة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش رضي الله عنهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٢ س: التي هي.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن حجار وعكرمة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾... إلخ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾؛[1] لكن لا باعتبارِ منطوقه ضرورةَ أنّ التكفير المذكور لا يُتصوّر كونه غايةً لثبوت ما يشاءون لهم في الآخرة. كيف لا، وهو بعض ما سَيَثبت لهم فيها؟ بل باعتبار فَحواه، فإنّه حيث لم يكن إخبارًا بما ثبت لهم فيما مضى -بل بما سَيَثبت لهم فيما سيأتي- كان في معنى الوعد به كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾،[2] فإنّه مصدر مؤكِّد لِما قبله مِن قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾،[3] فإنّه في معنى: وعدَهم اللهُ غُرفًا، فانتصب به: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾،[4] كأنّه قيل: وعدهم اللهُ جميعَ ما يشاءونه مِن زوال المضارّ وحصولِ المسارّ؛ ليكفِّر عنهم بموجَب ذلك الوعدِ أسوأَ الذي عمِلوا دفعًا لمضارّهم.

﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إعطاءً لمنافعهم. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام.

وإضافة "الأسوء" و"الأحسن" إلى ما بعدهما ليست مِن قبيل إضافة المفضَّل إلى المفضَّل عليه؛ بل مِن إضافة الشيء إلى بعضه للقصد إلى التحقيق والتوضيحِ مِن غير اعتبار تفضيله عليه. وإنّما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة، لا على المضاف إليه المعيَّن بخصوصه، كما في قولهم: «الناقص[5] والأشجّ[6] أعدَلا بني مروان».

---

١ في الآية السابقة. | وفي هامش م: وقيل: متعلِّق بمحذوف، أي: يسّر لهم ذلك ليكفِّر، وقيل:(١) بنفس ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، كأنّه قيل: الذين أحسنوا ليكفِّر... إلخ، وليس بذلك «منه». | (١) اللباب لابن عادل، ٥١٥/١٦.

٢ الزمر، ٢٠/٣٩.

٣ الزمر، ٢٠/٣٩.

٤ الزمر، ٢٠/٣٩.

٥ هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي، أبو خالد (ت. ١٢٦هـ/٧٤٤م). تمّ ليزيد أمر الخلافة في مستهلّ رجب ١٢٦هـ، ومات في ذي الحجّة بالطاعون، وقيل: مسمومًا. قال اليعقوبي: «كانت ولايته خمسة أشهر، والفتنة عامّة في البلاد». وكان يزيد مِن أهل الورع والصلاح. قال نشوان الحِميري: «لم يكن في بني أميّة مثله ومثلُ عمر بن عبد العزيز»، كان لقبه "الشاكر لأنعُم الله"، ويقال له: "الناقص"؛ لأنّ سلفه الوليد بن يزيد كان قد زاد في أُعطيات الجند، فلمّا ولي يزيد نقص الزيادة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٧٤/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٩٠/٨.

٦ هو عمر بن عبد العزيز بن مروان القرشي، الأموي، المدني، أبو حفص (ت. ١٠١هـ/٧٢٠م)، ›

خلا أنّ الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة؛ بل هي في الأوّل بالنظر إلى ما يَليق بحالهم مِن استعظام سيّئاتهم وإن قلّت، واستصغار حسناتهم وإن جلّت. والثاني بالنظرِ إلى لُطف أكرم الأكرمين مِن استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة.

وحَملُ الزيادة على الحقيقة وإن أمكن في الأوّل بناءً على أنّ تخصيص الأسوء بالذكر لبيان تكفيرِ ما دونه بطريق الأولويّة ضرورةَ استلزام تكفير الأسوء لتكفير السيّء، لكن لمّا لم يمكن ذلك في الأحسن كان الأحسنُ نظمَهما في سِلك واحد مِن الاعتبار.

[١٣ظ] والجمع / بين صيغتَي الماضي والمستقبل في صِلة الموصول الثاني دون الأوّل للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيّئة.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦﴾

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ إنكار ونفي لعدم كفايته تعالى على أبلغِ وجه وآكَدِه، كأنّ الكفاية مِن التحقّق والظهورِ بحيث لا يقدِر أحد على أن يتفوّه بعدمها، أو يتلعثَم في الجواب بوجودها. والمراد بـ"العبد" إمّا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو الجنس المنتظِم له عليه السلام انتظامًا أوّليًا. ويُؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "عِبَادَهُ".[١] وفُسّر بالأنبياء عليهم السلام. وكذا قراءةُ مَن قرأ: "بِكَافِي عِبَادِهِ"[٢] على الإضافة، و"يُكَافِي عِبَادَهُ"[٣] على صيغة المغالبة، إمّا مِن الكفاية لإفادة المبالغة فيها، وإمّا مِن المكافأة بمعنى المُجازاة.

< الخليفة، الصالح، الزاهد، الراشد. ولي الخلافة بعهد مِن سليمان سنة ٩٩هـ، فبويع في مسجد دمشق، وسكن الناس في أيّامه، ولم تطل مدّته، قيل: دُسّ له السمّ وهو بدير سمعان مِن أرض المعرّة، فتوفّي به. ومدّة خلافته سنتان ونصف. وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة. كان يُدعى "أشجّ بني أميّة"؛ لأنّ دابّة رمَحته وهو غلام فشجّته. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١١٤/٥؛ والأعلام للزركلي، ٥٠/٥.

١ قرأ بها أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٩/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠٥/٩.

وهذه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم[١] عمّا قالت له قريش: إنّا نخاف أن يُخبّلك آلهتنا ويصيبك مَعرّتها[٢] لعَيبك إيّاها.[٣] وفي رواية: قالوا: لتكُفّنّ عن شَتم آلهتنا أو ليُصيبنّك منهم خَبَل أو جنون،[٤] كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود، ٥٤/١١]، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: الأوثان التي[٥] اتّخذوها آلهة مِن دونه تعالى. والجملة استِئناف، وقيل: حال.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتّى غفل عن كفايته تعالى وعِصمته له عليه السلام وخوّفه بما لا ينفع ولا يضرّ أصلًا ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى خيرٍ ما.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يصرفه عن مقصده، أو يصيبه بسوءٍ يُخلّ بسلوكه؛ إذ لا رادّ لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب لا يُغالَب، منيعٍ لا يُمانَع ولا يُنازَع. ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم مِن أعدائه لأوليائه. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوحِ الدليل، وسنوح السبيل. ﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ/ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: بعد ما تحقّقتم أنّ خالق العالَم العلوي والسفلي هو الله عزّ وجلّ فأخبروني أنّ آلهتكم إن أرادني الله بضرٍّ هل يَكْشِفن عنّي ذلك الضرّ؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أي: أو إن أرادني بنفعٍ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [١٤و]

---

١ م - وسلّم.
٢ المعرّة: الأذى. لسان العرب لابن منظور، «عرر».
٣ الكشّاف للزمخشري، ١٢٩/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/٥.
٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٨٢/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥١٧/١٦.
٥ س: الذي.

فَيَمْنَعْنَها عنّي؟ وقُرِئَ: "كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ" و"مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ" بالتنوينِ فيهما ونصبِ "ضُرَّهُ" و"رَحْمَتَهُ".[١]

وتعليقُ إرادة الضرّ والرحمة بنفسه عليه السلام للردّ في نحورهم حيث كانوا خوّفوه معرّةَ الأوثان، ولِما فيه مِن الإيذان بإمحاض النصيحة. ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: في جميعِ أموري مِن إصابة الخير ودفعِ الشرّ. رُوي أنّه عليه السلام لمّا سألهم سكتوا فنزل ذلك.[٢] ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا على غيره أصلًا لعلمهم بأنّ كلّ ما سواه تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها مِن العداوة التي تمكّنتم فيها، فإنّ المكانة تُستَعارُ مِن العين للمعنى كما يستعار "هنا" و"حيث" للزمان مع كونهما للمكان. وقُرِئَ: "عَلَى مَكَانَاتِكُمْ".[٣]

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي، فحُذف للاختصار والمبالغة في الوعيد والإشعار بأنّ حاله لا تزال تزداد قوّةً بنصر الله عزّ وجلّ وتأييده؛ ولذلك توعّدهم بكونه منصورًا عليهم في الدارين بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، فإنّ خزي أعدائه دليل غلبته عليه السلام، وقد عذّبهم الله تعالى وأخزاهم يومَ بدر.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم، هو عذاب النار.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، فإنّه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مِن فاعل ﴿أَنزَلْنَا﴾، أو مِن مفعوله. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بأن عمل

---

[١] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٩/٤.

[٣] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٦٣/٢.

بما فيه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنّما نفع به نفسَه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجَبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لِما أنّ وبال ضلاله مقصور عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لتُجبِرهم على الهدى، وما وظيفتك إلّا البلاغ، وقد بلّغت أيّ بلاغ.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ / حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: يقبضها مِن [١٤ظ]
الأبدان بأن يقطع تعلُّقها عنها وتصرُّفها فيها، إمّا ظاهرًا وباطنًا كما عند الموت، أو ظاهرًا فقط كما عند النوم.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردّها إلى البدن. وقُرئ: "قُضِيَ" على البناء للمفعولِ ورفعِ "المَوْتُ".[1] ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: النائمة إلى بدنها عند التيقّظ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقت المضروب لمَوته، وهو غاية لجنس الإرسال الواقعِ بعد الإمساك، لا لفرد منه، فإنّ ذلك ممّا لا امتداد فيه ولا كمّيّة.

وما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ في ابن آدم نَفْسًا وروحًا، بينهما مِثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفَس والتحرّك، فتُتوفّيان عند الموت، وتُتوفّى النَّفْسُ وحدَها عند النوم»[2] قريب ممّا ذُكر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التوفّي على الوجهين، والإمساكِ في أحدهما، والإرسالِ في الآخَر، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عجيبةً دالّة على كمالِ قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفيّة تعلُّقها بالإبدان وتوفّيها عنها، تارةً بالكلّيّة كما عند الموت، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفَنائها، وما يعتريها مِن السعادة والشقاوة، وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم، وإرسالِها حينًا بعد حين إلى انقضاء آجالها.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣١/٤.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: بل اَتخذ قُريش ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن دون إذنه تعالى ﴿شُفَعَآءَ﴾ تَشفع لهم عنده تعالى؟

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخِ عليه، أي: قل: أتتَّخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئًا مِن الأشياء ولا يعقلونه فضلًا عن أنْ يَملكوا الشفاعة عند الله تعالى؟ أو هي لإنكارِ الوقوع ونَفيه على أنّ المراد بيان أنّ ما فَعلوا ليس مِن اتّخاذ الشفعاءِ في شيء؛ لأنّه فرعُ كون الأوثان شفعاءَ، وذلك أظهر المُحالات، / فالمقدَّر حينئذٍ غير ما قُدِّر أوّلًا. [١٥و]

وعلى أيّ تقدير كان فالواو للعطف على شرطيّةٍ قد حُذفت لدلالة المذكورة عليها، أي: أيشفعون لو كانوا يملكون شيئًا ولو كانوا لا يملكون... إلخ. وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف لدلالة المذكور عليه، وقد مرّ تحقيقه مرارًا.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾

﴿قُل﴾ بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذُكر تحقيقًا للحقّ: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ أي: هو مالكها، لا يستطيع أحدٌ شفاعةً مّا إلّا أن يكون المشفوعُ له مرتضًى، والشفيع مأذونًا له، وكلاهما مفقود ههنا.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تقرير له وتأكيد، أي: له ملكهما وما فيهما مِن المخلوقات، لا يملك أحد أنْ يتكلّم في أمر مِن أموره بدونِ إذنه ورضاه. ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فيفعل يومئذ ما يريد.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: انقبضت ونفرت، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ [الإسراء، ٤٦/١٧].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فرادى أو مع ذكرِ الله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفَرط افتتانهم بها ونسيانهم حقّ الله تعالى، ولقد بُولغ في بيان حالَيْهم القبيحتين حيث بُيِّن الغايةُ فيهما، فإنّ الاستبشار هو أن يمتلئ القلب سرورًا حتّى ينبسط له بشَرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلئ غيظًا وغمًّا ينقبض منه أديم الوجه. والعامل في ﴿إِذَا﴾ الأولى ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾، وفي الثانية ما هو العامل في "إذا" المفاجأة، تقديره: وقتَ ذكر الذين مِن دونه فاجئوا وقتَ الاستبشار.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: التجِئ إليه تعالى بالدعاء لمّا تحيّرتَ في أمر الدعوة وضجِرتَ مِن شدّة شكيمتهم في المكابرة والعناد، فإنّه القادر على الأشياء بجملتها / والعالِمُ بالأحوال برُمّتها. [١٥ظ]

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: حُكمًا يسلّمه كلّ مكابر معانِد، ويخضع له كلّ عاتٍ مارد، وهو العذابُ الدنيوي أو الأخروي.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق لبيان آثار الحُكم الذي استدعاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وغايةِ شدّته وفظاعته، أي: لو أنّ لهم جميع ما في الدنيا مِن الأموال والذخائر. ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لجعلوا كلّ ذلك فدية لأنفسهم مِن العذاب الشديد، وهيهات، ولاتَ حينَ مَناص. وهذا كما ترى وعيد شديد، وإقناط كلّي لهم مِن الخلاص.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهر لهم مِن فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم. وهذه غاية مِن الوعيد لا غايةَ وراءها، ونظيره في الوعد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة، ١٧/٣٢].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٤٨﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ سيّئات أعمالهم أو كسبِهم حين يُعرض عليهم صحائفهم. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: أحاط بهم جزاؤه.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٩﴾

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالبُ أفراده. والفاء لترتيب ما بعدها مِن المناقضة والتعكيس على ما مرّ مِن حالَتَيْهم القَبيحتين. وما بينهما اعتراض مؤكِّد للإنكار عليهم، أي: إنّهم يشمئزّون عن ذِكر الله تعالى وحدَه، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسّهم ضرّ دعَوا مَن اشمأزّوا عن ذكره دون مَن استبشَروا بذكره.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إيّاها تفضّلًا، فإنّ التخويل مختصّ به لا يطلق على ما أُعطي جزاءً، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على عِلم منّي بوجوه كسبه، أو بأنّي سأُعطَاه لِما لي مِن الاستحقاق، أو على عِلمٍ مِن الله تعالى بي وباستحقاقي. والهاء لِـ"مَا" إن جُعلت موصولة، وإلّا فلِـ﴿نِعْمَةً﴾. والتذكير لِما أنّ المراد: شيئًا مِن النعمة.

[١٦و] ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ / أي: مِحنة وابتلاء له أيَشكر أم يكفر؟ وهو ردّ لِما قاله. وتغيير السَّبك للمبالغة فيه، والإيذانِ بأنّ ذلك ليس مِن باب الإيتاء المُنْبئ عن الكرامة، وإنّما هو أمر مباين بالكلّيّة. وتأنيث الضمير باعتبار لفظ "النعمة"، أو باعتبار الخبر. وقُرئ بالتذكير.[١]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك. وفيه دلالة على أنّ المراد بالإنسان هو الجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٥٠﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾؛[1] لأنّها كلمة أو جملة. وقُرئ بالتذكير.[2] والموصول عبارة عن قارونَ وقومه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص، ٧٨/٢٨]، وهم راضون به. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن متاع الدنيا ويجمعون منه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ جزاء سيّئات أعمالهم، أو أجزيةُ ما كسبوا. وتسميتها ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ لأنّها في مقابلة سيّئاتهم، ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى، ٤٠/٤٢]. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين. و﴿مِنْ﴾ للبيان أو للتبعيض، أي: أفرطوا في الظلم والعتوّ.

﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ مِن الكفر والمعاصي كما أصاب أولئك. والسين للتأكيد. وقد أصابهم أيَّ إصابة حيث قُحِطوا سبعَ سنينَ، وقُتل صناديدهم يوم بدر. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أي: أقالوا ذلك ولم يعلموا، أو أَغفَلوا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه[3] له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمَن يشاء[4] أن يقدره له مِن غير أن يكون لأحد مَدخل مّا في ذلك، حيث حُبس عنهم الرزق سبعًا، ثمّ بسطه[5] لهم سبعًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ﴿لَـَٔايَٰتٍ﴾ دالّةً على أنّ الحوادث كافّةً مِن الله عزّ وجلّ.[6] ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إذ هم المستدِلّون بها على مدلولاتها.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٣٥/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢١١/٩.

[3] س: يبسط.

[4] س + له.

[5] س: بسط.

[6] س: تعالى.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي. وإضافة "العباد" / تُخَصِّصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن الكريم. [١٦ظ]

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تيأسوا مِن مغفرته أوّلًا وتفضله ثانيًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفوًا لمَن يشاء ولو بَعد حينٍ بتعذيبٍ في الجملة وبغيره حسبما يشاء. وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر، كيف لا وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء، ٤٨/٤] ظاهر في الإطلاق فيما عدا الشركَ؟

وممّا يدلّ عليه التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على المبالغة، وإفادةِ الحصر، والوعدِ بالرحمة بعد المغفرة، وتقديمُ ما يستدعي عمومَ المغفرة ممّا في "عبادي" مِن الدلالة على الذلّة والاختصاصِ المُقتضيَيْنِ للترحّم، وتخصيصُ ضرر الإسراف بأنفسهم، والنهيُ عن القنوط مطلقًا عن الرحمة فضلًا عن المغفرة، وإطلاقُها، وتعليلُه بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾، ووضعُ الاسم الجليل موضعَ الضمير لدلالته على أنّه[١] المستغني والمنعِم على الإطلاق، والتأكيدُ بالجميع.[٢]

وما رُوي مِن أسباب النزول الدالّة على ورود الآية فيمَن تاب[٣] لا يقتضي اختصاص الحُكم بهم. ووجوب حَمل المطلق على المقيّد في كلام واحد -مثل: أكرِم الفضلاءَ أكرِم الكاملين- غير مسلَّم، فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد؟ ولا يُخِلّ بذلك الأمرُ بالتوبة والإخلاص في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ إذ ليس المدَّعى أنّ الآية تدلّ على حصول المغفرة لكلّ أحد مِن غير توبة وسبْقِ تعذيب لِتُغني عن الأمر بهما وتنافيَ الوعيد بالعذاب.

---

١ س: أن.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦/٥.

٣ رُوي: أنّ أهل مكّة قالوا: يزعم محمّد أنّ مَن عبَد الوَثن وقتل النفس بغير حقّ لم يغفر له، فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس؟ فنزلت. الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٥/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦/٥.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: القرآنَ، أو المأمورَ به دون المنهيّ عنه، أو العزائم دون الرُّخَص، أو الناسخ دون المنسوخ. ولعلّه ما هو أَنجَى وأَسلَمُ كالإنابة والمواظبة / على الطاعة. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئه لتتداركوا وتتأهّبوا له. [١٧و]

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ أي: كراهةَ أن تقول. والتنكير للتكثير كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير، ١٤/٨١]، فإنّه مسلك ربّما يُسلَكُ عند إرادة التكثير والتعميم، وقد مرّ تحقيقه في مطلع سورة الحِجر.

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ بالألِف بدلًا مِن ياء الإضافة. وقُرئ: "يَا حَسْرَتَاهْ" بهاء السَّكتِ وقفًا.[١] وقُرئ: "يَا حَسْرَتَايَ" بالجمع بين العوضَين.[٢] وقُرئ: "يَا حَسْرَتِي"[٣] على الأصل، أي: احضري فهذا أوانُ حضورِكِ. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي: على تفريطي وتقصيري ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: جانبه، وفي حقّه وطاعته، وعليه قول مَن قال:

أَمَـا تـتّقـينَ الله فـي جنـب وامـق   لـه كـبِـد حَـرَّى وعَـيـنٌ تَـرَقْـرَقُ[٤]

وهو كناية فيها مبالغة.

وقيل: في ذات الله، على تقدير مضاف، كالطاعة. وقيل: في قربه، مِن قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء، ٣٦/٤]. وقُرئ: "فِي ذِكْرِ اللهِ".[٥]

---

١ قرأ بها رُويس عن يعقوب بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٦/٢١.

٢ قرأ بها أبو جعفر المدني بخُلف عن ابن وَردان، والوجه الثاني لابن وَردان بإسكان الياء بعد الألف مع إشباع المدّ. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر المدني. شواذ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

٤ لجميل بثينة في ديوانه، ص ١١٩، بلفظ:
أمـا تـتّقـينَ الله فـي قـتـلِ عاشـق   لـه كـبِـد حَـرَّى عـلـيكِ تـقـطّـعُ

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود وحفصة رضي الله عنهما. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٤.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: المُستهزئين بدين الله تعالى وأهله. ومحلّ الجملة النصب على الحال، أي: فرّطتُ وأنا ساخر.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بالإرشاد إلى الحقّ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِن الشرك والمعاصي.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رجعةً إلى الدنيا، ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل. و﴿أَوْ﴾ للدلالة على أنّها لا تخلو عن هذه الأقوال تحسّرًا وتحيّرًا وتعلّلًا بما لا طائل تحته.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ردّ مِن الله تعالى عليه لِما تضمّنه قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾[1] مِن معنى النفي. وفصلُه عنه لِما أنّ تقديمه يُفرّق القرائن، وتأخيرَ المردود يُخلّ بالترتيب الوجودي؛ لأنّه
[١٧ظ] يتحسّر بالتفريط ثمّ / يتعلّلُ بفَقد الهداية ثمّ يتمنّى الرجعةَ. وهو لا يمنع تأثير قُدرة الله في فعل العبد، ولا ما فيه مِن إسناد الفعل إليه كما عرفت.[2] وتذكير الخطاب باعتبار المعنى. وقُرئ بالتأنيث.[3]

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه كاتّخاذ

---

١ الزمر، ٥٧/٣٩.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧/٥. قال الشهاب الخفاجي: «جواب عن استدلال المعتزلة بهذه الآيات على أنّ العبد مستقِلّ في إيجاد أفعاله، فأشار إلى أنّه لا ينافي مذهب أهل الحقّ مِن أنّ فعل العبد بقدرة مِن الله وتأثيره». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٤٧/٧.

٣ بكسر الكاف مِن "جَاءَتْكِ"، والتاءات مِن "فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر والجحدري، ونُسبت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر رضي الله عنه. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم مِن الشدّة، أو بما يتخيّل عليها مِن ظلمة الجهل. والجملة حال قد اكتُفي فيها بالضمير عن الواو على أنّ الرؤية بصريّة، أو مفعول ثانٍ لها على أنّها عِرفانيّة.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي: مقامٌ ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة، وهو تقرير لِما قبله مِن رؤيتهم كذلك.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي، أي: مِن جهنّم. وقُرئ: "يُنْجِي"[1] مِن الإنجاء. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ مصدر ميمي إمّا مِن "فاز بالمطلوب"، أي: ظفِر به، والباء متعلِّقة بمحذوف هو حال مِن الموصول، مفيدة لِمقارَنة تنجيتهم مِن العذاب لنيل الثواب، أي: ينجّيهم الله تعالى مِن مثوى المتكبّرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم الذي هو الجنّة. وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إمّا حال أخرى مِن الموصول، أو مِن ضميرِ ﴿مَفَازَتِهِمْ﴾، مفيدة لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنّة غيرَ مسبوقة بمساس العذاب والحُزن.

وإمّا مِن "فاز منه"،[2] أي: نجا منه، والباء للملابسة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾... إلخ تفسير وبيان لـ"مَفازتهم"، أي: يُنجّيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصّة بهم، أي: بنفي السوء والحُزن عنهم. أو للسببيّة، إمّا على حذف المضاف، أي: يُنجّيهم بسبب مفازتهم التي هي تقواهم، كما يُشعر به إيراده في حيّز الصلة، وإمّا على إطلاق المَفازة على سببها الذي هو التقوى. وليس المراد نفيَ دوام المساس والحُزن؛ بل دوامُ نفيهما كما مرّ مرارًا.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن خير وشرّ، وإيمان وكفر، لكن لا بالجبر؛ بل بمباشرة الكاسب لأسبابها. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولّى التصرّف فيه كيفما يشاء.

---

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

[2] السياق: مصدر ميميّ إمّا مِن "فاز بالمطلوب"... وإمّا مِن "فاز منه"...

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكّن مِن التصرّف فيها غيره، وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظِه لها. وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد؛ لأنّ الخزائن لا يدخلها ولا يتصرّف فيها إلّا مَن بيده مفاتيحها. وهو جمع مِقلِيد أو مِقلاد، مِن "قلّدتُه" إذا ألزمتَه. وقيل: / جمعُ إقليد، معرّب: كِلِيد [١٨و]
على الشذوذ، كالمذاكير.

وعن عثمان رضي الله عنه أنّه سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن المقاليد، فقال عليه السلام: «تفسيرها: لا إله إلّا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، هو الأوّل والآخِر، والظّاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كلّ شيء قدير».[١] والمعنى على هذا: أنّ لله هذه الكلمات، يوحَّدُ بها ويمجَّد، وهي مفاتيح خير السماوات والأرض، مَن تكلّم بها أصابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ متّصل بما قبله. والمعنى: أنّ الله تعالى خالق لجميع الأشياء ومتصرّف فيها كيفما يشاء بالإحياء والإماتة، بيده مقاليد العالَم العلوي والسفلي. والذين كفروا بآياته التكوينيّة المنصوبة في الآفاق والأنفس والتنزيليّة التي مِن جملتها هاتيك الآياتُ الناطقة بذلك هم الخاسرون خسرانًا لا خَسار وراءه. هذا، وقيل: هو متّصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾،[٢] وما بينهما اعتراض، فتدبّر.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: أبَعد مشاهدة هذه الآيات غيرَ الله أعبُد؟ و﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ اعتراض للدلالة على أنّهم أمروه به عقيب ذلك، وقالوا: استَلِمْ بعض آلهتنا نؤمِن بإلٰهك لفَرط غباوتهم. ويجوز أن ينتصب "غيرَ"

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٤١/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧/٥. وأخرجه ابن السنّي في عمل اليوم والليلة، ص ٦٨. قال الحافظ المنذري: «وفيه نكارة، وقد قيل فيه: موضوع، وليس ببعيد». انظر: اتحاف الخيرة للبوصيري، ٣٩٩/٦.

٢ الزمر، ٦١/٣٩.

بما يدلّ عليه ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾؛ لأنّه بمعنى: تُعَبِّدُونَنِي، وتقولون لي: أُعبُدْ، على أنّ أصله: تأمرونني أن أعبُد، فحُذف "أن"، ورُفع ما بعدها، كما في قوله:

ألا أيـهـذا الـزاجـري أحـضـرُ الـوغـا   وأن أشهد اللذّاتِ هل أنت مُخلدي[1]

ويؤيِّده قراءة "أَعْبُدَ" بالنصب.[2] وقُرئ: "تَأْمُرُونَنِي" بإظهارِ النُّونَينِ على الأصلِ،[3] وبحذف الثانية.[4]

﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: مِن الرسل عليهم السلام: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[5] / كلام وارد على طريقة الفَرْض [١٨ظ] لتهييج الرسل، وإقناطِ الكفَرة، والإيذانِ بغاية شَناعة الإشراك وقُبحه، وكونِه بحيث يُنهى عنه مَن لا يكاد يمكن أن يُباشره، فكيف بمَن عداه؟

وإفراد الخطاب باعتبار كلّ واحد. واللام الأولى موطّئة للقسم، والأخريانِ للجواب. وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون مِن خصائصهم؛ لأنّ الإشراك مِنهم أشدّ وأقبح، وأن يكون مقيّدًا بالموت، كما صُرّح به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ[6] حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [البقرة، ٢١٧/٢]. وعطف الخسران عليه مِن عطف المسبَّب على السبب.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ ردّ لِما أَمروه. ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إنعامَه عليك. وفيه إشارة إلى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه.

---

[1] لطرفة بن العبد في ديوانه بشرح الأعلم الشمنتري، ص ٤٥. ومعنى البيت: يا مَن يلومني في حضور الحرب لئلا أُقتل، وفي أن أُنفق مالي لئلا أفتقر، ما أنت بمخلدي إن قبلت منك، فدعني أنفق مالي في الفتوّة ولا أخلفه لغيري. شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ١٨٢/٦.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها ابن خالويه عن بعضهم. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٢.

[3] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

[5] س - ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

[6] م س ي: أولئك.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حقّ عظمته، حيث جعلوا له شريكًا، ووصَفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة. وقُرئ بالتشديد.[1]

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ تنبيه على غاية عظمته، وكمال قدرته، وحقارة الأفعال العظام التي تتحيّر فيها الأوهام بالنسبة إلى قدرته تعالى. ودلالة على أنّ تخريب العالَم أهون شيء عليه. على طريقة التمثيل والتخييل مِن غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازًا، كقولهم: شابت لِمّة الليل.

والقَبضة: المرّة مِن القَبض، أُطلقت بمعنى القُبضة -وهي المقدار المقبوض بالكفّ- تسميةً بالمصدر، أو بتقدير: ذاتُ قَبضة. وقُرئ بالنصب[2] على الظرف تشبيهًا للموقّت بالمبهَم. وتأكيد ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ بالجميع لأنّ المراد بها الأرضون السبع، أو جميع أبعاضها البادِية والغائرة. وقُرئ: "مَطْوِيَّاتٍ"[3] على أنّها حال، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ معطوفة على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، منظومة في حكمها.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعَد وما أعلى مَن هذه قدرتُه وعظمتُه عن إشراكهم أو عمّا يشركونه مِن الشركاء!

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الأولى، ﴿فَصَعِقَ/ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [١٩و]
أي: خرّوا أمواتًا أو مغشيًّا عليهم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: هم[4] جبريل وميكائيل وإسرافيل، فإنّهم لا يموتون بعدُ. وقيل: حمَلة العرش. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن بن عمران. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن البصري. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

[4] س ي - هم.

نفخة أخرى، هي النفخة الثانية. و﴿أُخۡرَىٰ﴾ يحتمل النصب والرفع. ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ﴾ قائمون مِن قبورهم، أو متوقِّفون. وقُرئ بالنصب[١] على أنّ الخبر ﴿يَنظُرُونَ﴾، وهو حال مِن ضميره، والمعنى: يقلِّبون أبصارهم في الجوانب كالمَبهوتين،[٢] أو ينتظرون ما يُفعَلُ بهم.

﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩﴾

﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها مِن العدل، استعير له النور لأنّه يزيِّن البِقاع ويُظهر الحقوق، كما يسمّى الظلم ظُلمة. وفي الحديث: «الظُّلم ظلمات يوم القيامة»،[٣] ولذلك أضيف الاسم الجليل إلى ضمير ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾. أو بنور خلَقَه فيها بلا توسّط أجسام مضيئة، ولذلك أُضيف إلى الاسم الجليل.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الحساب والجزاء، مِن وضع المحاسِب كتاب المحاسبة بين يديه، أو صحائف الأعمال في أيدي العمّال. واكتفى باسم الجنسِ عن الجمعِ. وقيل: اللوح المحفوظ يقابَلُ به الصحائف.

﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ للأمم وعليهم مِن الملائكة والمؤمنين، وقيل: المستشهَدون. ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ بين العباد ﴿بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد.

﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٧٠﴾

﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي: جزاءَه، ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيءٌ مِن أفعالهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

٢ بهِتَ الرجل -بالكسر- إذا دَهِش وتَحيّر. وبَهُتَ بالضمّ مثله، وأفصَحُ منهما بُهِتَ، يقال: رجل مَبهوت. انظر: الصحاح للجوهري، «بهت».

٣ صحيح البخاري، ٣/١٢٩ (٢٤٤٧)؛ صحيح مسلم، ٤/١٩٩٦ (٢٥٧٨).

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾... إلخ تفصيل للتوفية، وبيان لكيفيّتها، أي: سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجًا متفرِّقةً بعضها في إثر بعض، مترتّبة حسب تَرتُّب طبقاتهم في الضلالة والشرارة. والزُّمَر: جمع زُمرة، واشتقاقها مِن الزَّمرِ، وهو الصوت؛ إذ الجماعة لا تخلو عنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليَدخلوها. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي تُحكى بعدها الجملة. وقُرئ بالتشديد.[1] ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ مِن جنسكم. وقُرئ: "نُذُرٌ مِنْكُم".[2] ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ أي: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار. وفيه دليل على أنّه لا تكليف قبل الشرعِ مِن حيث إنّهم علّلوا توبيخهم بإتيان الرسلِ وتبليغ الكتب.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد أتَونا وأنذَرونا، ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٥]، وقد كنّا ممّن تبعه وكذّبنا الرسل، وقلنا: ما نزّل مِن شيء، إن أنتم إلّا تكذبون.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدَّرًا خلودُكم فيها. وإبهام القائلِ لتهويل المَقول. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام للجنس. والمخصوص بالذمّ محذوف ثقةً بذكره آنفًا، أي: فبئس مثواهم جهنّم. ولا يقدح ما فيه مِن الإشعار بأنّ كون مثواهم جهنّم لتكبّرهم عن الحقّ في أنّ دخولهم النار

---

١ أي: "فُتِّحَتْ"، قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٤.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري مِن غير نسبة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤/١٤٦.

لسبق كلمة العذاب عليهم، فإنّها إنّما حقّت عليهم بناءً على تكبّرهم وكفرهم. وقد مرّ تحقيقه في سورة ﴿الٓمٓ﴾ السجدة.[١]

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ مساقَ إعزاز وتشريف للإسراعِ بهم إلى دار الكرامة. وقيل: سيق مراكبهم؛ إذ لا يُذهب بهم إلّا راكبين. ﴿زُمَرًا﴾ متفاوتين حَسْبَ تفاوت مراتبهم في الفضل وعلوّ الطبقة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وقُرئ بالتشديد.[٢] وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف للإيذان بأنّ لهم حينئذٍ مِن فنون الكرامات ما لا يُحدِق به نطاق العبارات، كأنّه قيل: حتّى إذا جاءوها وقد فُتحت أبوابها. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ مِن جميع المكاره والآلام، ﴿طِبْتُمْ﴾ طَهُرتم مِن دنس المعاصي، أو طِبتم نفْسًا بما أُتيح لكم مِن النعيم. ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ كان ما كان ممّا يقصر عنه البيان.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

/ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [١٩ظ]
يريدون المكان الذي استقرّوا فيه على الاستعارة، وإيراثُها تمليكُها مخلّفة عليهم مِن أعمالهم، أو تمكينُهم مِن التصرّف فيها تمكينَ الوارث فيما يرثه.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: يتبوّء كلّ واحد منّا في أيّ مكان أراده مِن جنّته الواسعة، على أنّ فيها مقاماتٍ معنويّةً لا يتمانع وارِدوها. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنّةُ.

---

١ عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢].

٢ أي: "وَفُتِّحَتْ"، قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ مُحدِقين ﴿مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: حولَه. و﴿مِنۡ﴾ مزيدة، أو لابتداء الحُفوف. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق به ملتبسين بحمده. والجملة حال ثانية، أو مقيِّدة للأولى. والمعنى: ذاكرين له تعالى بوصفَي جلاله وإكرامه تلذّذًا به. وفيه إشعار بأنّ أقصى درجات العلّيّين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في شئونه عزّ وجلّ.

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بين الخَلق، بإدخال بعضهم النارَ وبعضهم الجنّة. أو بين الملائكة، بإقامتهم في منازلهم على[1] حسب تفاضلهم.

﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: على ما قضى بيننا بالحقّ، وأنزل كلًّا منّا منزلته التي هي حقّه. والقائلون هم المؤمنون ممّن قضي بينهم، والملائكة، وطيّ ذكرهم لتعيّنهم وتعظيمهم.

عنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الزُّمر لم يقطعِ الله تعالى رجاءه يومَ القيامة، وأعطاه ثواب الخائفين».[2]

وعن عائشة رضي الله عنها أنّه عليه السلام كان يقرأ كلَّ ليلة: بني إسرائيل، والزُّمر.[3]

---

[1] س - على.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٢٠؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٩/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[3] الكشّاف للزمخشري، ١٤٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠/٥. وهو في سنن الترمذي، ٤٧٥/٥ (٣٤٠٥)، بلفظ: قالت عائشة: «كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا ينام حتى يقرأ: الزمر، وبني إسرائيل». | وسورة بني إسرائيل هي سورة الإسراء.

٣٩

سُورَةُ الزُّمَرِ

مكية إلاّ «قل يا عباديَ الذين أسرفوا» الآيةَ فمدنية، وهي خمس وسبعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿تَنزِيلُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ، مبتدأٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾: خبرُه، ﴿العَزِيزِ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمِ﴾ في صُنعه.
٢ ـ ﴿إنّا أنزَلْنا إلَيكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿الكِتابَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ«أنزل». ﴿فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك، أي: مُوحّدًا له.

٣ ـ ﴿ألا لِلهِ الدِّينُ الخالِصُ﴾، لا يستحقّه غيره، ﴿والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ الأصنامَ ﴿أَولِياءَ﴾ ـ وهم كُفّار مكّة ـ قالوا: ﴿ما نَعبُدُهُم إلاّ لِيُقَرِّبُونا إلَى اللهِ زُلفَى﴾:..........

سُورَةُ الزُّمَرِ

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) أو خبرُ محذوفٍ مثلَ: هذا.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) أو خبرٌ ثانٍ.

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ بـ«أَنزَل») أي: بسببِ إثباتِ الحقِّ وإظهارِهِ وتفصيلِهِ.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) والرِّياءِ.

قولُهُ: (أي: مُوَحِّداً لَهُ) أي: الطَّاعةَ، قيل: الإخلاصُ في العملِ أشدُّ من العملِ.

قولُهُ: (لا يَستَحِقُّهُ غَيرُهُ) أو: لا يَقبلُ سواهُ.

قولُهُ: (الأَصنَامَ) مفعولٌ أوَّلُ.

قولُهُ: (وهُم كُفَّارُ مَكَّةَ) أُضمِروا من غيرِ ذكرٍ لدلالةِ المساقِ عليهم.

قولُهُ: (قَالُوا) خبرٌ لـ﴿الَّذِينَ﴾ وبه قُرِئَ[1].

---

(١) أي: (قالوا ما نعبدهم) ونسبت لابن عباس ومجاهد، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤١٣).

قُربَى مصدر بمعنى: تقريبًا. ﴿إِنَّ اللهَ يَحكُمُ بَينَهُم﴾ وبين المسلمين﴿فِيما هُم فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين، فيُدخل المؤمنين الجنّة والكافرين النار. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهدِي مَن هُوَ كاذِبٌ﴾ في نِسبة الولد إلى الله ﴿كَفّارٌ﴾ بعِبادته غيرَ الله.

٤ ـ ﴿لَو أَرادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما قالوا: «اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَدًا» ﴿لَاصطَفَى مِمّا يَخلُقُ ما يَشاءُ﴾ واتّخذه ولدًا غيرَ مَن قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وعُزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله. ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له عن اتّخاذ الولد. ﴿هُوَ اللهُ الواحِدُ القَهّارُ﴾ لخلقه! ٥ ـ ﴿خَلَقَ السَّماواتِ والأَرضَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ«خلق»، ﴿يُكَوِّرُ﴾: يُدخِل ﴿اللَّيلَ عَلَى النَّهارِ﴾ فيزيد، ﴿ويُكَوِّرُ النَّهارَ﴾: يُدخِله ﴿عَلَى اللَّيلِ﴾ فيزيد، ﴿وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ يَجرِي﴾ في فلَكه ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾: لِيوم القِيامة. ﴿أَلا هُوَ العَزِيزُ﴾: الغالب على أمره المُنتقم من أعدائه ﴿الغَفّارُ﴾ لأَوليائه.

٦ ـ ﴿خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ﴾ أي: آدم ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنها زَوجَها﴾ حوّاءَ ـ ﴿وأَنزَلَ لَكُم مِنَ الأَنعامِ﴾: الإبلِ والبقر والغنم الضأنِ والمعزِ ﴿ثَمانِيَةَ أَزواجٍ﴾ من كُلٍّ زوجانِ: ذكر وأُنثى كما بيّنَ في سورة «الأنعام»، ﴿يَخلُقُكُم فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُم خَلقًا مِن بَعدِ خَلقٍ﴾ أي: نُطَفًا ثمّ عَلَقًا ثمّ مُضَغًا، ﴿فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾..

قولُهُ: (وبَينَ المُسلِمِينَ) الظّاهرُ: بين المسلمينَ والكافرينَ؛ لأنَّ الضَّميرَ فيما قبلَهُ راجعٌ إلى الأصنامِ، وفيما بعدَهُ إلى الفريقينِ.

قولُهُ: (واتَّخَذَهُ وَلَداً) يعني: لكنْ ما أرادَهُ، وفيه: أنَّ هذا غيرُ ملائمٍ للتَّنزيهِ المطلقِ الدالِّ عليه الوحدانيَّةُ والقهاريَّةُ، والأظهرُ ما في «المدارِكِ»: لو جازَ اتِّخاذُ الولدِ(١).

قولُهُ: (يُدخِلُ) أي: يُغَشِّي كلَّ واحدٍ منهما الآخرَ، كأنَّه يُلفُّ عليه لفَّ اللِّباسِ على اللّابسِ.

قولُهُ: (لِيَومِ القِيَامَةِ) فإنَّه منقطَعُ حركتِهِ، وقيل: هو منتهَى دورِهِ.

قولُهُ: (لأَولِيَائِهِ) غيرُ عجولٍ بالانتقامِ على أعدائِهِ.

قولُهُ: (الإِبِلِ) أي: قضى أو قسَمَ لكم، فإنَّ قضاياهُ وقِسَمَهُ توصَفُ بالنُّزولِ من السَّماءِ حيثُ كتبَ في اللَّوحِ، وقيل: خلقَها في الجنَّةِ ثمَّ أنزَلها.

قولُهُ: (ثُمَّ مُضَغاً) ثمَّ عِظاماً عاريةً، ثمَّ عظاماً مكسوَّةً، ثمَّ حيواناً سويًّا.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ١٦٩).

هي: ظُلمة البطن وظُلمة الرحم وظُلمة المَشيمة. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم، لَهُ المُلكُ، لا إلَـهَ إلاَّ هُوَ. فأنّى تُصرَفُونَ﴾ عن عِبادته إلى عِبادة غيره؟

٧ ـ ﴿إن تَكفُرُوا فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُم، ولا يَرضَى لِعِبادِهِ الكُفرَ﴾، وإن أراده من بعضهم، ﴿وإن تَشكُرُوا﴾ الله فتؤمنوا ﴿يَرضَهُ﴾ ـ بسكون الهاء، وضمّها مع إشباع ودونَه ـ أي: الشُّكرَ ﴿لَكُم، ولا تَزِرُ﴾ نفسٌ ﴿وازِرَةٌ وِزرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخرَى﴾ أي: لا تحمله، ﴿ثُمَّ إلَى رَبِّكُم مَرجِعُكُم، فيُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلُونَ. إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القُلوب.

٨ ـ ٩ ـ ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ﴾ أي: الكافرَ ﴿ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيبًا﴾: راجعًا ﴿إلَيهِ، ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعمَةً﴾: أعطاه إنعامًا ﴿مِنهُ نَسِيَ﴾: ترك ﴿ما كانَ يَدعُو﴾: يتضرّعُ ﴿إلَيهِ مِن قَبلُ﴾ وهو الله ـ فما: في موضع: مَن ـ ﴿وجَعَلَ لِلهِ أندادًا﴾: شُركاءَ ﴿لِيَضِلَّ﴾، بفتح الياء وضمّها، ﴿عَن سَبِيلِهِ. قُلْ: تَمَتَّعْ بِكُفرِكَ قَلِيلاً﴾: بقيّةَ أجلك. ﴿إنَّكَ مِن أصحابِ النّارِ. أمَن﴾، بتخفيف الميم،..........

قولُهُ: (المَشِيمَةِ) محلّ الولدِ.

قولُهُ: (وإنْ أرَادَهُ) ففرَّقَ بين الرِّضا والإرادةِ، وهو مذهبُ كثيرٍ من السَّلفِ، وقالَ جماعةٌ منهُم[١]: معناهُ: أنَّ اللهَ لا يرضى لعبادِهِ المؤمنينَ الكفرَ.

قولُهُ: (بسُكُونِ الهَاءِ) سُوسيٌّ ودُوريٌّ وهشامٌ بخلفٍ عنهما[٢].

قولُهُ: (مَعَ إشْبَاعٍ) لابنِ كثيرٍ والدُّوريِّ وابنِ ذكوانَ والكسائيِّ[٣].

قولُهُ: (وهُو اللهُ) أو الضُّرُّ الَّذي كانَ يَدعو اللهَ إلى كشفِهِ.

قولُهُ: (بفَتحِ اليَاءِ) مكّيٌّ وبصريٌّ[٤].

قولُهُ: (بَقِيَّةَ أَجَلِكَ) أمرُ تهديدٍ.

قولُهُ: (بتَخفِيفِ المِيمِ) حِرْميٌّ وحمزةُ[٥].

---

(١) ومنهم السدي، رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٠)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٠٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٠)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٠٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٦٧)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٦٥).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦١)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٦٥).

﴿هُوَ قَانِتٌ﴾: قائم بوظائف الطاعات ﴿آناءَ اللَّيلِ﴾: ساعاتِه ﴿ساجِدًا وقائمًا﴾ في الصلاة، ﴿يَحذَرُ الآخِرةَ﴾ أي: يخاف عذابها، ﴿ويَرجُو رَحمةَ﴾: جنّةَ ﴿رَبِّهِ﴾، كمن هو عاصٍ بالكُفر أو غيره؟ وفي قراءة: «أم مَن» بمعنى: بل والهمزة. ﴿قُلْ: هَل يَستَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعلَمُونَ﴾؟ أي: لا يستويان كما لا يستوي العالم والجاهل. ﴿إنَّما يَتَذَكَّرُ﴾: يتّعظ ﴿أُولُو الألبابِ﴾: أصحاب العُقول.

١٠ ـ ﴿قُلْ: يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ أي: عذابَه بأن تُطيعوه. ﴿لِلَّذِينَ أحسَنُوا في هذِهِ الدُّنيا﴾ بالطاعة ﴿حَسَنَةٌ﴾ هي الجنّة، ﴿وأرضُ اللهِ واسِعةٌ﴾. فهاجروا إليها من بين الكُفّار ومُشاهدة المُنكرات. ﴿إنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ﴾ على الطاعة وما يُبتلَون به ﴿أجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ﴾: بغير مِكيال ولا مِيزان.

١١ ـ ﴿قُلْ: إنِّيَ أُمِرتُ أن أعبُدَ اللهَ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك، ١٢ ـ ﴿وأُمِرتُ لِأَن﴾ أي: بأن ﴿أكُونَ أوَّلَ المُسلِمِينَ﴾ من هذه الأُمّة. ١٣ ـ ١٤ ـ ﴿قُلْ: إنِّيَ أخافُ، إن عَصَيتُ رَبِّي، عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ. قُلِ: اللهَ أعبُدُ مُخلِصًا لَهُ دِينِي﴾ من الشِّرك. ١٥ ـ ﴿فاعبُدُوا ما شِئتُم مِن دُونِهِ﴾: غيرَه. فيه تهديد لهم وإيذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) هذا قد مرَّ[1]، ولعلَّهُ كرَّرَهُ ليرتِّبَ عليه ما بعدَهُ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: بَلْ) فـ(أم) منقطعةٌ، وقيل: متَّصلةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: الكافرُ خيرٌ أمَّن هو قانتٌ.

قولُهُ: (أي: لا يَستَوِيَانِ) يعني: القانتينَ وغيرَهُم، فيكونُ تقديرًا للأوَّلِ على سبيلِ التَّشبيهِ، وقيل: نفيٌ لاستواءِ الفريقينِ باعتبارِ القوَّةِ العلميَّةِ بعدَ نفيهِ باعتبارِ القوَّةِ العمليَّةِ على وجهٍ أبلغَ لمزيدِ فضلِ العلمِ.

قولُهُ: (يتَّعِظُ) بأمثالِ هذهِ البياناتِ.

قولُهُ: (أي: عَذَابَهُ) أو: مخالفتَهُ.

قولُهُ: (هِيَ الجَنَّةُ) أي: مثوبةٌ حسنةٌ، وقيل: هي الصِّحَّةُ والعافيةُ.

قولُهُ: (ومَا يُبْتَلَونَ بِهِ) مِن مُهاجرةِ الأوطانِ وغيرِها.

قولُهُ: (بِغَيرِ مِكيَالٍ) أي: أجرًا لا يهتدي إليه حسابُ الحسَّابِ.

قولُهُ: (أي: بِأَنْ) يعني: اللَّامُ زائدةٌ كما في: أردتُ لأنْ أفعلَ، وتقدَّرُ الباءُ، أو أرادَ أنَّ اللَّامَ بمعنى الباءِ على القولِ بأنَّ الحروفَ تتناوَبُ، والأحسنُ ما قالَ القاضي: أمِرتُ بذلك لأجلِ أن أكونَ مقدَّمَهُم في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّ إحرازَ السَّبقِ في الدَّارينِ بالإخلاصِ[2].

---

(١) أي: عند قوله السابق: «بتخفيف الميم».

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٩).

﴿قُلْ: إِنَّ الخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم وأَهلِيهِم يَومَ القِيامَةِ﴾ بتخليد الأنفس في النار، وبعدم وصولهم إلى الحُور المُعدّة لهم في الجنّة، لو آمنوا. ﴿أَلا ذلِكَ هُوَ الخُسرانُ المُبِينُ﴾: البيّنُ ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ﴿لَهُم مِن فَوقِهِم ظُلَلٌ﴾: طِباق ﴿مِنَ النّارِ ومِن تَحتِهِم ظُلَلٌ﴾ من النار. ﴿ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ﴾ أي: المؤمنين ليتّقوه ـ يدلّ عليه: ﴿يا عِبادِ، فاتَّقُونِ ـ والَّذِينَ اجتَنَبُوا الطّاغُوتَ﴾: الأوثانَ ﴿أَن يَعبُدُوها، وأَنابُوا﴾: أقبلوا ﴿إِلَى اللهِ، لَهُمُ البُشرَى﴾ بالجنّة. ﴿فَبَشِّرْ عِبادِيَ الَّذِينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحسَنَهُ﴾، وهو ما فيه فلاحهم. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ، وأُولئِكَ هُم أُولُو الأَلبابِ﴾: أصحاب العُقول.

١٩ ـ ﴿أَفَمَن حَقَّ عَلَيهِ كَلِمَةُ العَذابِ﴾، هي: «لَأَملأَنَّ جَهَنَّمَ» الآيةَ، ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾: تُخرج ﴿مَن فِي النّارِ﴾؟ جوابُ الشرط. وأُقيم فيه الظاهر مَقام المُضمر، والهمزةُ: للإنكار. والمعنى: لا تقدرُ على هِدايته فتُنقذَه من النار. ٢٠ ـ ﴿لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم﴾ بأن أطاعوه ﴿لَهُم غُرَفٌ، مِن فَوقِها غُرَفٌ، مَبنِيَّةٌ تَجرِي مِن تَحتِها الأَنهارُ﴾ ....

قولُهُ: (وبِعَدَمِ وُصُولِهِم) أو: الَّذينَ خَسِروا أنفسَهُم بالضَّلالِ وأهليهم بالإضلالِ؛ أي: ظهرَ خسرانُهُم يومَ القيامةِ.

قولُهُ: (طِبَاقٌ) أو أطباقٌ.

قولُهُ: (مِنَ النَّارِ) وهي ظُلَلٌ للآخَرينَ، جمعُ: ظلَّةٍ.

قولُهُ: (أي: المُؤمِنِينَ) الظَّاهرُ: تعميمُ التَّخويفِ وتخصيصُ النِّداءِ.

قولُهُ: (الأَوثَانَ) وقالَ القاضي: الشَّيطانَ[1]، والأظهرُ: كلُّ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ أو أُطِيعَ، وقالَ سهلٌ: الطَّاغوتُ: الدُّنيا[2].

قولُهُ: (أَقبَلُوا) بكلِّيَّتِهم عمَّا سواهُ.

قولُهُ: (بالجَنَّةِ) أو بالثَّوابِ على ألسنةِ الرُّسلِ، أو الملائكةِ عندَ حضورِ الموتِ.

قولُهُ: (والهَمزَةُ: للإنكَارِ) وإعادتُها لمزيدِ التَّأكيدِ.

قولُهُ تعالى: (﴿مَبنِيَّةٌ﴾) لعلَّها إشارةٌ إلى أنَّ الغُرفَ عوالي[3] حسِّيَّةٌ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٣٣).

(٣) كذا في النسخ، والجادة: «عوالٍ».

أي: من تحت الغُرف الفَوقانيّة والتحتانيّة، ﴿وَعْدَ اللهِ﴾: منصوب بفعله المُقدَّر، ﴿لا يُخلِفُ اللهُ المِيعادَ﴾: وعدَه.

٢١ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فسَلَكَهُ يَنابِيعَ﴾: أدخله أمكنةَ نبعٍ ﴿في الأرضِ، ثُمَّ يُخرِجُ بِهِ زَرعًا مُختَلِفًا ألوانُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ﴾: يَيبَسُ، ﴿فتَراهُ﴾ بعد الخُضرة مَثلاً ﴿مُصفَرًّا، ثُمَّ يَجعَلُهُ حُطامًا﴾: فُتاتًا؟ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَذِكرَى﴾: تذكيرًا، ﴿لِأُولِي الألبابِ﴾ يتذكّرون به لدلالته على وحدانيّة الله ـ تعالى ـ وقُدرته. ٢٢ ـ ﴿أفمَن شَرَحَ اللهُ صَدرَهُ لِلإسلامِ﴾ فاهتدى، ﴿فهُوَ علَى نُورٍ مِن رَبِّهِ﴾، كمن طَبَع على قلبه؟ دلَّ على هذا: ﴿فوَيلٌ﴾: كلمةُ عذاب ﴿لِلقاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكرِ اللهِ﴾ أي: عن قَبول القُرآن. ﴿أُولئِكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ.

قولُهُ: (بفِعْلِهِ) أو مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ في معنى الوعدِ.

قولُهُ: (أَمكِنَةَ نَبْعٍ) هي عيونٌ ومجارٍ كائنةٌ فيها.

قولُهُ تعالى: (﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾) أي: أصنافُهُ من بُرٍّ وشعيرٍ وغيرِهما، أو: كيفيَّاته مِن خضرةٍ وحمرةٍ وغيرِهما.

قولُهُ: (يَيْبَسُ) لأنَّهُ إذا يبسَ حانَ له أن يثورَ عن منبتِه.

قولُهُ: (دَلِيلاً)[1] أو بأنَّه مثلُ الحياةِ الدُّنيا فلا يُغترَّ بها.

قولُهُ: (فاهْتَدَى) وعنهُ ﷺ: «إذا دخَلَ النُّورُ القلبَ[2] انشرحَ وانفسَحَ»، قيلَ: فما علامةُ ذلك؟ قالَ: «الإنابةُ إلى دارِ الخلودِ، والتَّجافي عن دارِ الغرورِ، والتَّأهُّبُ للموتِ قبلَ نزولِهِ»، رواهُ الحاكمُ وغيرُهُ[3].

قولُهُ: (عَلى هَذَا) أي: على خبرِ (مَنْ) المحذوفِ.

قولُهُ: (عَن قَبُولِ القُرآنِ) أو: من أجلِ ذكرِه، وهو أبلغُ من أن يكونَ (عن) مكان ﴿مِن﴾؛ لأنَّ القاسيَ من أجلِ الشَّيءِ أشدُّ تأبِّيًا عن قبولِه من القاسي عنه لسببٍ آخرَ.

قولُهُ: (بيِّنٍ) يظهرُ للنَّاظرِ بأدنى نَظرٍ.

---

(١) الذي في المتن: «لدلالته».

(٢) في (م): «قلب المؤمن».

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٣١٥)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٦٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٢٣ ـ ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحَدِيثِ، كِتابًا﴾: بدلٌ من «أحسنَ» أي: قُرآنًا ﴿مُتَشابِهًا﴾ أي: يُشبه بعضه بعضًا في النظم وغيره، ﴿مَثانِيَ﴾: ثُنِيَ فيه الوعدُ والوعيد وغيرُهما، ﴿تَقشَعِرُّ مِنهُ﴾: ترتعد عِند ذِكر وعيده ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم، ثُمَّ تَلِينُ﴾: تطمئنّ ﴿جُلُودُهُم وقُلُوبُهُم إِلَى ذِكرِ اللهِ﴾ أي: عِندَ ذِكر وعده. ﴿ذلِكَ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدَى اللهِ، يَهدِي بِهِ مَن يَشاءُ، ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ مِن هادٍ﴾.
٢٤ ـ ﴿أفَمَن يَتَّقِي﴾: يلقى ﴿بِوَجهِهِ سُوءَ العَذابِ يَومَ القِيامةِ﴾ أي: أشدَّه بأن يُلقى في النار مغلولةً يداه إلى عُنقه كمن أمِنَ منه بدُخول الجنّة؟ ﴿وقِيلَ لِلظّالِمِينَ﴾ أي: كُفّارِ مكّة: ﴿ذُوقُوا ما كُنتُم تَكسِبُونَ﴾ أي: جزاءه.

٢٥ ـ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ رُسلَهم في إتيان العذاب، ﴿فأتاهُمُ العَذابُ مِن حَيثُ لا يَشعُرُونَ﴾: من جِهةٍ لا تخطر ببالهم، ٢٦ ـ ﴿فأذاقَهُمُ اللهُ الخِزيَ﴾: الذّلّ والهوان من المسخ والقتل وغيرهما ﴿في الحَياةِ الدُّنيا. ولَعَذابُ الآخِرةِ أكبَرُ. لَو كانُوا﴾ أي المُكذّبون ﴿يَعلَمُونَ﴾ عذابها ما كذّبوا.

٢٧ ـ ﴿ولَقَد ضَرَبنا﴾: جعلنا ﴿لِلنّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتّعظون، ٢٨ ـ ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾: حالٌ مُؤكّدة، ﴿غَيرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: لَبسٍ واختلاف، ﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ الكُفر.

قولُهُ: (بَدَلٌ مِنْ: ﴿أَحْسَنَ﴾) أو حالٌ منه.

قولُهُ: (في النَّظمِ) أي: تَجاوُبِه.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) من وجوهِ الإعجازِ وصحَّةِ المعنى والدِّلالةِ على المنافعِ العامَّةِ.

قولُهُ: (وغَيرُهُمَا) مِنَ الحلالِ والحرامِ وسائرِ الأحكامِ، وقصصِ الأنبياءِ عليهِم السَّلامُ.

قولُهُ: (تَطمَئِنُّ) يعني: التَّعديةُ بـ﴿إِلَى﴾ لتضمينِ معنى السُّكونِ والاطمئنانِ.

قولُهُ: (يَلقَى) معلومٌ؛ أي: يجعلُهُ درقَةً لأنَّهُ يقي به نفسَهُ.

قولُهُ: (بِأَنْ يُلقَى) مَجهولٌ.

قولُهُ: (إلى عُنُقِهِ) فلا يقدرُ أن يتَّقي إلَّا بوجهِهِ.

قولُهُ: (كَمَنْ أَمِنَ) أو: كمَنْ هو آمنٌ، فحُذِفَ الخبرُ كما حُذِفَ في نظائرِهِ.

قولُهُ: (أي: كُفَّارِ مَكَّةَ) وغيرِهِم.

قولُهُ: (وغَيرِهِمَا) من السَّبيِ والإجلاءِ.

قولُهُ: (حَالٌ مُؤَكِّدةٌ) من هذا، والاعتمادُ فيها على الصِّفةِ كقولك: جاءَني زيدٌ رجلاً صالحاً، أو مدحٌ له.

قولُهُ: (أي: لَبْسٍ) يعني: لا اختِلالَ فيه بوجهٍ ما، فهو أبلغُ منَ المستقيمِ، وقيل: غيرَ مخلوقٍ.

٢٩ ـ ﴿ضَرَبَ اللهُ﴾ للمُشرك والمُوحِّد ﴿مَثَلاً رَجُلاً﴾: بدلٌ من «مثلاً» ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾: متنازعون سيِّئةٌ أخلاقُهم، ﴿ورَجُلاً سالِمًا﴾: خالصًا ﴿لِرَجُلٍ. هَل يَستَوِيانِ مَثَلاً﴾؟ تمييزٌ، أي: لا يستوي العبد لجماعة والعبد لواحد. فإنّ الأوّل إذا طلَبَ منه كُلٌّ من مالكيه خِدمته في وقت واحد تحيَّر فيمن يخدمه منهم. وهذا مَثَل للمُشرك، والثاني مَثَل للمُوحِّد. ﴿الحَمدُ لِلَّهِ﴾ وحدَه. ﴿بَل أَكثَرُهُم﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من العذاب فيُشركون.

٣٠ ـ ﴿إِنَّكَ﴾ ـ خِطاب للنبيّ ـ ﴿مَيِّتٌ وإِنَّهُم مَيِّتُونَ﴾: ستموت ويموتون، فلا شماتةَ بالموت ـ نزلتْ لمّا استبطؤوا موته ﷺ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾، أيها الناس، فيما بينكم من المظالم ﴿يَومَ القِيامَةِ عِندَ رَبِّكُم تَختَصِمُونَ. فَمَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أَظلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ﴾ بنِسبة الشريك والولد إليه، ﴿وكَذَّبَ بِالصِّدقِ﴾: بالقُرآن، ﴿إِذ جاءَهُ؟ أَلَيسَ في جَهَنَّمَ مَثوًى﴾: مأوًى ﴿لِلكافِرِينَ﴾؟ بلى.

٣٣ ـ ﴿والَّذِي جاءَ بِالصِّدقِ﴾ هو النبيّ، ﴿وصَدَّقَ بِهِ﴾، هم المؤمنون ـ فالذي بمعنى: الذين ـ ﴿أُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ الشِّركَ،.........

قولُه: (سَيِّئةٌ أخلاقُهم) في «القاموسِ»: ﴿متشاكسُونَ﴾: متخالِفونَ عسِرونَ[١].

قولُهُ: (خَالِصاً) وقرأ غيرُ المكيِّ والبصريِّ: (سلَمًا) بفتحتينِ[٢].

قولُهُ: (تَمييزٌ) ولذلك وحَّدَه؛ أي: صِفةً وحالاً.

قولُهُ: (وَحدَهُ) لا يشاركُهُ في الحقيقةِ سواهُ؛ لأنَّهُ المنعِمُ بالذَّاتِ والمالِكُ على الإطلاقِ.

قولُهُ: (مَا يَصِيرُونَ) أو: مضمُونَ المثلِ، فيشرِكونَ به غيرَهُ من فَرْطِ جهلِهِم.

قولُهُ: (أيُّهَا النَّاسُ) فيه تغليبُ المخاطَبِ على الغُيَّبِ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: الَّذِينَ) يعني: للجِنسِ المتناوِلِ للرُّسلِ والمؤمنينَ، وقيل: هو النَّبيُّ والمرادُ: هو ومَن تبعَهُ، قالَ القاضي: وقيل: الجائي الرَّسولُ والمصدِّقُ أبو بكرٍ، وذلك يقتضِي إضمارَ (الَّذي) وهو غيرُ جائزٍ[٣]. انتهى.

قلتُ: ثبتَ هذا عن السَّلفِ برواياتٍ متعدِّدةٍ على ما في «الدُّرِّ»[٤]،.........

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٥٥٢).

(٢) انظر: « السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٩).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٤٢).

(٤) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٨).

٣٤ ـ ﴿لَهُم ما يَشاؤُونَ عِندَ رَبِّهِم. ذلِكَ جَزاءُ المُحسِنِينَ﴾ لأنفسهم بإيمانهم، ٣٥ ـ ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنهُم أَسوَأَ الَّذِي عَمِلُوا، ويَجزِيَهُم أجرَهُم بِأحسَنِ الَّذِي كانُوا يَعمَلُونَ﴾. أسوأُ وأحسنُ بمعنى: السيّئ والحَسَن.

٣٦ ـ ٣٧ ـ ﴿أَلَيسَ اللهُ بِكافٍ عَبدَهُ﴾ أي: النبيَّ؟ بلى، ﴿ويُخَوِّفُونَكَ﴾ ـ الخِطابُ له ـ ﴿بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: الأصنامِ أن تقتله أو تَخبِله، ﴿ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ مِن هادٍ، ومَن يَهدِ اللهُ فما لَهُ مِن مُضِلٍّ. أَلَيسَ اللهُ بِعَزِيزٍ﴾: غالبٍ على أمره ﴿ذِي انتِقامٍ﴾ من أعدائه؟ بلى.

٣٨ ـ ﴿ولَئِن﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿سأَلتَهُم: مَن خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ. قُل: أفرَأَيتُم ما تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: الأصنامَ؟ ﴿إن أرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ، هَل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ﴾؟ لا، ﴿أو أرادَنِي بِرَحمَةٍ، هَل هُنَّ مُمسِكاتُ رَحمَتِهِ﴾؟ لا. وفي قراءة بالإضافة، فيهما. ﴿قُل: حَسبِيَ اللهُ. عَلَيهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ﴾: يثق الواثقون.

وفي روايةٍ: المصدِّقُ: عليٌّ[١]، فيُحمَلُ على مذهبِ الكوفيِّينَ والأخفشِ من جوازِ إضمارِ (الَّذي) إن كانَ المرادُ به المصدِّقَ أوَّلاً، ويمكنُ أن يكونَ مرادُهُم: مَثَلاً، فيكونُ كلٌّ داخلاً دخولاً أوَّليًّا في المؤمنينَ فلا يحتاجُ إلى إضمارٍ، واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: (لِأَنفُسِهِم) على إحسانِهِم.

قولُهُ: (بِمَعنَى: السَّيِّئِ) أو ﴿أسوَأَ﴾ على بابِهِ؛ لأنَّه إذا كُفِّرَ فالسَّيِّئُ بالأَولى، والأحسنُ أن يكونَ الأحسنُ على بابِهِ أيضاً بأن يجزيَهُ على عملِهِ الحسنِ جزاءً، والأحسنِ فضلاً وإحساناً.

قولُهُ: (أي: النَّبِيَّ) ويحتملُ: الجنسَ، ويؤيِّدُهُ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ: (عبادَهُ)[٢] وفُسِّرَ بالأنبياءِ.

قولُهُ: (أو تَخبِلَهُ) بعَيبِهِ إيَّاها، التَّخبيلُ: إفسادُ العقلِ.

قولُهُ: (تَعبُدُونَ) أو: تطلبُونَ النَّفعَ والدَّفعَ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البصريِّ[٣].

قولُهُ: (فِيهِمَا) أي: ﴿كاشفات﴾ و﴿ممسكات﴾.

قولُهُ: (يَثِقُ الوَاثِقُونَ) لعلمِهِم بأنَّ الكلَّ من عندِ اللهِ.

---

(١) رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٨).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٩).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٠).

٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿قُلْ: يا قَومِ، اعمَلُوا علَى مَكانَتِكُم﴾: حالتِكم. ﴿إنِّي عامِلٌ﴾ على حالتي. ﴿فسَوفَ تَعلَمُونَ مَن﴾: موصولةٌ مفعولُ العِلم ﴿يأتِيهِ عَذابٌ يُخزِيهِ، ويَحِلُّ﴾: يَنزل ﴿علَيهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾: دائمٌ، هو عذاب النار. وقد أخزاهم الله ببَدر.

٤١ ـ ﴿إنّا أنزَلْنا علَيكَ الكِتابَ لِلنّاسِ بِالحَقِّ﴾: مُتعلِّق بـ «أنزل». ﴿فمَنِ اهتَدَى فلِنَفسِهِ﴾ اهتداؤه، ﴿ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ علَيها، وما أنتَ علَيهِم بِوَكِيلٍ﴾، فتُجبرَهم على الهُدى. ٤٢ ـ ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوتِها، و﴾ يتوفّى ﴿الَّتِي لَم تَمُتْ في مَنامِها﴾ أي: يتوفّاها وقت النوم، ﴿فيُمسِكُ الَّتِي قَضَى علَيها المَوتَ، ويُرسِلُ الأُخرَى إلَى أجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: وقتِ موتها. والمُرسَلةُ نفْسُ التمييزِ، تبقى بدونها نفْس الحياة بخلاف العكس. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآياتٍ﴾: لَدلالاتٍ ﴿لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيعلمون أنّ القادر على ذلك قادر على البعث. وقُريش لم يتفكّروا في ذلك.

قولُهُ: (حَالَتِكُم) اسمٌ لمكانٍ استُعيرَ للحالِ، وشعبَةُ: بالجمعِ[1].

قولُهُ: (عَلى حَالَتِي) فحُذِفَ للاختِصارِ والمبالغَةِ في الوعيدِ.

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ بـ«أنزَلَ») وقولُهُ: (﴿للنَّاسِ﴾) أي: لأجلِهِم، فإنَّهُ مَناطُ مصالحِهِم في معاشِهِم ومعادِهِم.

قولُهُ: (يَتَوَفَّى) يعني: ﴿الَّتي﴾ عطفٌ على: ﴿الأنفسَ﴾.

قولُهُ: (والمُرْسَلَةُ... إلخ) رويَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ: في ابنِ آدمَ نَفْسٌ وروحٌ بينهما مثلُ شعاعِ الشَّمسِ، فالنَّفْسُ الَّتي بها العقلُ والتَّمييزُ، والرُّوحُ الَّتي بها النَّفَسُ والحياةُ، فيُتوفَّيَانِ عندَ الموتِ، وتُتوفَّى النَّفسُ وحدَهَا عندَ النَّومِ[2].

والحاصلُ: أنَّ اللهَ تعالى يقبضُ الأنفسَ عن الأبدانِ بقطعِ تعلُّقِها عنها وتصرُّفِها فيها، إمَّا بالكلِّيَّةِ وذلك عندَ الموتِ، أو ظاهراً وهو في النَّومِ.

قولُهُ: (المَذكُورِ) من التَّوفِّي والإمساكِ والإرسالِ.

قولُهُ: (وقُرَيشٌ لَمْ يَتَفَكَّرُوا) ظاهِرُهُ: أنَّه قدَّرَ لتكونَ ﴿أَمْ﴾ متَّصلةً، لكنَّ قولَهُ: (بل) يأباهُ، أو ليعطفَ عليهِ ﴿اتَّخَذُوا﴾ ففيه: أنَّهُ لا عطفَ، و(بل) للانتقالِ، وما بعدَهُ مصدَّرٌ بهمزةِ الاستفهامِ للإنكارِ، فيُحتمَلُ كلامُهُ على أنَّه لحلِّ المعنى ومناسبةِ المبنى.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٣/ ٦٩) بنحوه. وروى ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٣٠) عن ابن عباس في قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ الآية، قال: نفس وروح بينهما شعاع الشمس، فيتوفى الله النفس في منامه، ويدع الروح في جسده وجوفه يتقلب ويعيش، فإن بدا لله أن يقبضه قبض الروح فمات، أو أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه.

٤٣ ـ ﴿أم﴾: بل ﴿اتَّخذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: الأصنامَ آلهةً ﴿شُفَعاءَ﴾ عند الله بزعمهم. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أ﴾ يشفعون ﴿وَلَو كانُوا لا يَملِكُونَ شَيئًا﴾ من الشفاعة وغيرها ﴿ولا يَعقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم ولا غيرَ ذلك؟ لا. ٤٤ ـ ﴿قُلْ: الشَّفاعةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مُختصّ بها، فلا يشفع أحد إلاّ بإذنه. ﴿لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، ثُمَّ إلَيهِ تُرجَعُونَ﴾.

٤٥ ـ ٤٦ ـ ﴿وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحدَهُ﴾ أي: دُونَ آلهتهم ﴿اشمَأَزَّتْ﴾: نفرت وانقبضت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ، وإذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: الأصنامُ ﴿إذا هُم يَستَبشِرُونَ. قُلِ: اللَّهُمَّ﴾ بمعنى: يا أللهُ، ﴿فاطِرَ السَّماواتِ والأرضِ﴾: مُبدعَهما، ﴿عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾: ما غابَ وما شُوهد، ﴿أنتَ تَحكُمُ بَينَ عِبادِكَ فِيما كانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين، «اهدِني لِما اختُلفَ فيه منَ الحقّ». ٤٧ ـ ﴿ولَو أنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما في الأرضِ جَمِيعًا ومِثلَهُ مَعَهُ لَافتَدَوا بِهِ مِن سُوءِ العَذابِ يَومَ القِيامةِ، وبَدا﴾: ظهرَ ﴿لَهُم مِنَ اللهِ ما لَم يَكُونُوا يَحتَسِبُونَ﴾: يظنّون، ٤٨ ـ ﴿وبَدا لَهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا، وحاقَ﴾ نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ أي: العذابُ.

٤٩ ـ ﴿ فإذا مَسَّ الإنسانَ﴾: الجنسَ ﴿ضُرٌّ دَعانا، ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ﴾: أعطَيناه ﴿نِعْمةً﴾: إنعامًا ﴿مِنّا قالَ: إنَّما أُوتِيتُهُ علَى عِلمٍ﴾ من الله بأني له أهل..

قولُهُ: (لا) أي: لا شفاعَةَ لهم.

قولُهُ: (أي: دُونَ آلِهَتِهِم) ﴿وَحْدَهُ﴾ منصوبٌ على الحاليَّةِ؛ بمعنى: منفرداً؛ لوجوبِ كونِ الحالِ نكرةً عندَ البصريينَ خلافاً للكوفيِّينَ.

قولُهُ: (أوِ انقبَضَتْ) الظَّاهرُ: بالواوِ.

قولُهُ: (بمَعنَى: يا اللهُ) المشهورُ أنَّ أصلَهُ: يا اللهُ، كما تقدَّمَ[1].

قولُهُ: (أي: العَذَابُ) بالرَّفعِ، أو: جزاؤُهُ.

قولُهُ: (الجِنسَ) إخبارٌ عنه باعتبارِ الغالبِ فيهِ.

قولُهُ: (إنعَاماً) هذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ الإنعامَ ممَّا لا يُعطى، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقالَ: معناهُ: إحساناً وتفضُّلاً، على أنَّهُ تمييزٌ أو علَّةٌ.

قولُه: (مِنَ اللهِ) أو: منِّي بوجوهِ كسبِهِ من الزِّراعةِ أو التِّجارةِ أو الكيمياءِ، أو: بأنِّي سأُعطاهُ لِمَا لي من استحقاقِهِ، والهاءُ فيه لـ﴿مَا﴾ إن جُعِلَت موصولةً لا كافَّةً، وإلَّا فللنِّعمةِ، والتَّذكيرُ لأنَّ المرادَ شيءٌ منها.

(١) عند الآية رقم: (٢٦) من سورة آل عمران، قال القاري عندها: وقيل: أصله يا الله أُمَّنا بخير... إلخ.

﴿بَل هِيَ﴾ أي: القَولةُ ﴿فِتنَةٌ﴾: بليّة يُبتلى بها العبدُ، ﴿ولكِنَّ أكثرَهُم لا يَعلَمُونَ﴾ أنّ التخويل استدراج وامتحان. ٥٠ ـ ٥١ ـ ﴿قَد قالَها الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم كقارونَ وقومه الراضين بها، ﴿فما أغنَى عَنهُم ما كانُوا يَكسِبُونَ، فأصابَهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ أي: جزاؤها. ﴿والَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هؤُلاءِ﴾ أي: قُريشٍ ﴿سَيُصِيبُهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا، وما هُم بِمُعجِزِينَ﴾: بفائتين عذابَنا. فقُحِطوا سبعَ سنينَ ثمّ وُسّع عليهم. ٥٢ ـ ﴿أوَلَم يَعلَمُوا أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ﴾ امتحانًا، ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه لمن يشاء ابتلاء؟ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ به.

٥٣ ـ ٥٤ ـ ﴿قُل: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أسرَفُوا علَى أنفُسِهِم، لا تَقنِطُوا﴾، بكسرِ النون وفتحِها، وقُرئ بضمّها: تيأسوا ﴿مِن رَحمةِ اللهِ ـ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن تاب من الشِّرك، ﴿إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ـ وأنِيبُوا﴾: ارجِعوا ﴿إلَى رَبِّكُم، وأسلِمُوا﴾: أخلصوا العمل ﴿لَهُ مِن قَبلِ أن يأتِيَكُمُ العَذابُ ـ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ بمنعه، ....

قولُهُ: (أي: القَولَةُ) فيه: أنَّ القولَ ليسَ ببليّةٍ، وإنَّما البليَّةُ النِّعمةُ، فهي امتحانٌ له أيَشكُرُ أم يكفُرُ، وهو ردٌّ لِمَا قالَهُ، فالضَّميرُ راجعٌ إلى التَّخويلِ، وتأنيثُهُ باعتبارِ الخبرِ أو لفظِ النِّعمةِ.

قولُهُ: (مِنَ الأُمَمِ) والهاءُ لقولِهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾؛ لأنَّها كلمةٌ أو جملةٌ.

قولُهُ: (أي: قُرَيشٍ) ممَّا بقُوا.

قولُهُ: (قُحِطُوا) وقُتِلَ ببدرٍ صناديدُهُم.

قولُهُ: (ثُمَّ وَسَّعَ عَلَيهِمْ) سبعاً.

قولُهُ: (بِكَسرِ النُّونِ) بصريٌّ وكسائيٌّ[1].

قولُهُ: (بِضَمِّهَا) في «القاموسِ»: قَنَطَ كنَصَرَ وضَرَبَ وحَسِبَ وكَرُمَ[2].

قولُهُ: (لِمَنْ تَابَ) أو: إلَّا الشِّركُ، ولو بعدَ تعذيبٍ.

قولُهُ: (ارجِعُوا) من المعصيةِ إلى الطَّاعةِ، أو: من الغفلةِ إلى الذِّكرِ، أو: من الغيبةِ إلى الحضورِ، أو: من التَّوجُّهِ بما سواهُ إلى اللهِ.

قولُهُ: (أَخلِصُوا العَمَلَ) أو: سَلِّمُوا له العملَ، واترُكوا منكُمُ الأمَلَ.

قولُهُ: (بِمَنْعِهِ) أي: العذابِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٣٦).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٦٨٤).

إن لم تتوبوا ـ ٥٥ ـ ﴿واتَّبِعُوا أحسَنَ ما أُنزِلَ إلَيكُم مِن رَبِّكُم﴾ هو القُرآن ﴿مِن قَبلِ أن يأتِيَكُمُ العَذابُ بَغتَةً، وأنتُم لا تَشعُرُونَ﴾ قبل إتيانه بوقته.

بادروا قبل ٥٦ ـ ﴿أن تَقُولَ نَفسٌ: يا حَسرَتا﴾ ـ أصله «يا حسرتِي» ـ أي: نَدامتي ﴿علَى ما فَرَّطتُ في جَنبِ اللهِ﴾ أي: طاعته، ﴿وإنْ﴾: مُخففةٌ من الثقيلة، أي: وإنّي ﴿كُنتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ﴾ بدِينه وكِتابه، ٥٧ ـ ﴿أو تَقُولَ: لَو أنَّ اللهَ هَدانِي﴾ بالطاعة فاهتدَيت ﴿لَكُنتُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ عذابَه، ٥٨ ـ ﴿أو تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذابَ: لَو أنَّ لِي كَرَّةً﴾: رجعة إلى الدنيا، ﴿فأكُونَ مِنَ المُحسِنِينَ﴾ المؤمنين. فيقالَ له من قِبَلِ الله: ٥٩ ـ ﴿بَلَى قَد جاءَتْكَ آياتِي﴾ أي: القُرآنُ، وهي سبب الهِداية، ﴿فكَذَّبتَ بِها واستَكبَرتَ﴾: تكبّرت عن الإيمان بها، ﴿وكُنتَ مِنَ الكافِرِينَ﴾.

٦٠ ـ ﴿ويَومَ القِيامةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا علَى اللهِ﴾..........................

قولُهُ: (إنْ لَمْ تَتُوبُوا) أو لم تُدرِكْكُمُ المغفرَةُ.

قولُهُ: (هُو القُرْآنُ) أو المأمورُ به دونَ المنهيِّ عنه، أو العزائمُ دونَ الرُّخصِ.

وقيل: ما هو أنجى وأسلمُ كالإنابةِ والمواظبَةِ على الطَّاعةِ.

قولُهُ: (بَادِرُوا قَبْلَ) التَّقديرُ الصَّحيحُ: كراهَةَ أن تقولَ، وهو علَّةٌ لـ﴿اتَّبِعُوا﴾.

قولُهُ: (حَسْرَتِي) وقُرِئَ به[1].

قولُهُ: (طَاعَتِهِ) أي: قصَّرتُ فيها.

قولُهُ: (وكِتَابِهِ) أو: بأهلِه.

قولُهُ: (بألطَافِهِ)[2] جمعُ: لطفٍ.

قولُهُ: (عَذَابَهُ) أو: الشِّركَ والمعاصيَ.

قولُهُ: (المُؤْمِنِينَ) أو: في العقيدةِ والعملِ.

و﴿أو﴾ للدِّلالةِ على أنّه لا يخلو من هذهِ الأقوالِ تحيُّراً وتعلُّلاً بما لا طائلَ تحتَهُ، كذا قالَهُ القاضي[3]، والأظهرُ: أنَّ ﴿أو﴾ للتَّوزيعِ والتَّنويعِ من غيرِ دلالةٍ على عدمِ الخلوِّ، بل المرادُ هذا وأمثالُهُ ممَّا لا ينفعُهُم.

---

(١) أي: (يا حسرتي) ونسبت لأبي جعفر، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤١٥).

(٢) في نسخ المتن: «بالطاعة».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٤٧).

بِنسبة الشريك والولد إليه ﴿وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ـ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾: مأوًى ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان؟ بلى ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ﴿وَيُنَجِّي اللهُ﴾ من جهنّم ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشِّركَ ﴿بِمَفَازَتِهِم﴾ أي: بمكان فوزهم من الجنّة، بأن يُجعلوا فيه، ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُم يَحزَنُونَ ـ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ﴾: متصرّف فيه كيف يشاء، ٦٣ ـ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: مفاتيحُ خزائنهما من المطر والنبات وغيرهما ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾: القُرآن ﴿أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾. متّصل بقوله: «وينجّي الله الذين اتقوا» إلى آخره، وما بينهما اعتراض.

٦٤ ـ ﴿قُلْ: أفغيرَ اللهِ تأمُرُونِي أعبُدُ، أيُّها الجاهِلُونَ﴾؟ غيرَ: منصوب بـ «أعبدُ» المعمولِ لـ «تأمروني»، بنون واحدة،...........................

قولُهُ: (الشَّريكِ والوَلَدِ) [أي: بأَنْ وَصَفوهُ بما لا يجوزُ كاتِّخاذِ الوَلدِ][1].

قولُهُ: (أي: بِمَكَانِ فَوزِهِم) والكوفيُّ غيرَ حفصٍ بالجمعِ[2]، وقيل: بالسَّعادةِ والعملِ الصَّالحِ.

قولُهُ: (أي: مَفَاتِيحُ) يعني: لا يملكُ أمرَها ولا يتمكَّنُ من التَّصرُّفِ فيها غيرُه، وهو كنايةٌ عن قدرتِهِ وحفظِهِ لها، وفي الآيةِ مزيدُ دلالةٍ على الاختصاصِ؛ لأنَّ الخزائنَ لا يدخلُ ولا يتصرَّفُ فيها إلَّا مَن بيدِهِ مفاتيحُها، وهو جمعُ: مِقليدٍ أو مِقلادٍ، من قلَّدْتُه إذا ألزمْتُهُ.

وقيل: جمعُ: إقليدٍ معرَّبِ إكليدَ على الشُّذوذِ، فإنَّ قياسَهُ: أقاليدُ[3].

قولُهُ: (بِتَقْدِيرِ أَنْ)[4] ضعَّفَ هذا القولَ أبو البقاءِ في «إعرابِهِ»[5]، وقالَ: لا يجوزُ مثلُ هذا إلَّا في ضرورةِ الشِّعرِ، وذكرَ وجهينِ، والأظهرُ: ما قالَ القاضي: أي: أغيرَ اللهِ أعبدُ بعد هذهِ الدَّلائلِ والمواعيدِ، و﴿تَأْمُرُونِّي﴾ اعتراضٌ[6].

قولُهُ: (بِنُونٍ وَاحِدَةٍ) نافعٌ، وفتحَ الياءَ هو والمكِّيُّ[7].

---

(١) ما بين معكوفتين من البيضاوي، وقد وقع في الأصول دون شرح.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٠).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٩/ ٦٥).

(٤) «بتقدير أن» ليست في نسخ المتن المعتمدة، ولعل مكانها عقب قوله: «المعمول لـ﴿تأمروني﴾»

(٥) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١١١٣).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٤٨).

(٧) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٣)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٠).

وبنونين بإدغام وفكّ. ٦٥ ـ ٦٦ ـ ﴿ولقد أُوحِيَ إليكَ وإلى الَّذينَ مِن قَبلِكَ﴾: واللهِ ﴿لَئِنْ أشرَكتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ فَرْضًا ﴿لَيَحبَطَنَّ عَمَلُكَ، ولتكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ. بَلِ اللهَ﴾ وحدَه ﴿فاعبُدْ، وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ﴾ إنعامَه عليك. ٦٧ ـ ﴿وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: ما عرَفوه حقّ معرفته، أو ما عظّموه حقّ عظمته حين أشركوا به غيره، ﴿والأرضُ جَمِيعًا﴾: حالٌ، أي: السبعُ، ﴿قَبضتُهُ﴾ أي: مقبوضة له، أي: في مُلكه وتصرّفه ﴿يَومَ القِيامةِ، والسَّماواتُ مَطوِيّاتٌ﴾: مجموعات ﴿بِيَمِينِهِ﴾: بقُدرته. ﴿سُبحانَهُ وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَ﴾ معه!

٦٨ ـ ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ﴾ النفخةَ الأُولى، ﴿فصَعِقَ﴾: مات ﴿مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ إلاّ مَن شاءَ اللهُ﴾ من الحُور والوِلدان وغيرهما، ﴿ثُمّ نُفِخَ فِيهِ أُخرَى، فإذا هُم﴾ أي: جميع الخلائق الموتى ﴿قِيامٌ، يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون ما يُفعل بهم، ٦٩ ـ ﴿وأشرَقَتِ الأرضُ﴾: أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّها﴾ حين يتجلّى الله لفصل القضاء، ﴿ووُضِعَ الكِتابُ﴾: كِتاب الأعمال للحِساب،.................

قولُهُ: (بإدغَامٍ) عندَ الشَّاميِّ[1].

قولُهُ: (يا مُحَمَّدُ) الصَّوابُ: أيُّها النَّبيُّ؛ لأنَّه تعالى ما خاطبَهُ باسمِهِ قطُّ، ولأنَّهُ يعمُّهُ وغيرَه على أنَّ إفرادَ الخطابِ باعتبارِ كلِّ واحدٍ من الرُّسلِ، أو يُفهَمُ غيرُه بالأَولى.

قولُهُ: (وَحدَهُ) أي: مُنفرداً، والتَّخصيصُ يُفهَمُ منَ التَّقديمِ.

قولُهُ: (حَالٌ) على القولِ بجوازِ الحالِ من المبتَدأِ.

قولُهُ: (مَقبُوضَةٌ) مصدَرٌ بمعنى المفعولِ، أو التقديرُ: ذاتُ قبضَةٍ.

قولُهُ: (مَعَهُ) أو: عن إشراكِهِم.

قولُهُ: (مَاتَ) أي: خرَّ ميِّتاً أو مغشيًّا عليه.

قولُهُ: (وغَيرِهِمَا) وقيل: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ وحمَلَةُ العرشِ، فإنَّهُم يموتونَ بعدُ.

قولُهُ: (لِفَصْلِ القَضَاءِ) كذا عن مُحيي السُّنَّةِ[2].

قولُهُ: (كِتَابُ الأعمَالِ) أي: صحائِفُ الأعمالِ في أيدي العمَّالِ، واكتُفيَ باسمِ الجنسِ عن الجمعِ، وقيلَ: اللَّوحُ المحفوظُ تُقابَلُ به الصَّحائِفُ.

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ١٠١).

﴿وجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ والشُّهَداءِ﴾ أي: أُمّة مُحمّد، يشهدون للرُّسل بالبلاغ، ﴿وقُضِيَ بَينَهُم بِالحَقِّ﴾ أي: العدل، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ شيئًا، ٧٠ ـ ﴿ووُفِّيَتْ كُلُّ نَفسٍ ما عَمِلَتْ﴾ أي: جزاءه، ﴿وهُوَ أعلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِما يَفعَلُونَ﴾، فلا يحتاج إلى شاهد.

٧١ ـ ٧٢ ـ ﴿وسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعُنف ﴿إلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾: جماعاتٍ في تفرقة. ﴿حَتَّى إذا جاؤُوها فُتِحَتْ أبوابُها﴾: جواب «إذا»، ﴿وقالَ لَهُم خَزَنَتُها: ألَم يأتِكُم رُسُلٌ مِنكُم، يَتلُونَ علَيكُم آياتِ رَبِّكُم﴾: القُرآنَ وغيره ﴿ويُنذِرُونَكُم لِقاءَ يَومِكُم هذا؟ قالُوا: بَلَى، ولكِن حَقَّتْ كَلِمةُ العَذابِ﴾، أي: «لَأملأنَّ جَهَنَّمَ» الآيَةَ، ﴿علَى الكافِرِينَ. قِيلَ: ادخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ، خالِدِينَ﴾: مُقدِّرينَ الخُلودَ ﴿فِيها. فبِئسَ مَثوَى﴾: مأوى ﴿المُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنّمُ!

٧٣ ـ ﴿وسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم﴾ بلُطف ﴿إلَى الجَنّةِ زُمَرًا. حَتَّى إذا جاؤُوها، وفُتِحَت أبوابُها﴾ ـ الواو فيه للحال بتقدير «قد» ـ ﴿وقالَ لَهُم خَزَنَتُها: سَلامٌ علَيكُم. طِبتُم﴾ حالاً. ﴿فادخُلُوها خالِدِينَ﴾ مقدّرين الخُلودَ فيها..

قولُهُ: (أي: أُمَّة مُحَمَّدٍ) أو: الملائكةُ والمؤمنونُ والمستشهدونَ.

قولُهُ: (للرُّسُلِ) على الأمَمِ.

قولُهُ: (أي: العَدلِ) بين العِبادِ.

قولُهُ: (شَيئاً) بنَقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عقابٍ على ما جرى به الوعدُ.

قولُهُ: (أي: جَزَاءَهُ) بالنَّصبِ مفعولٌ ثانٍ.

قولُهُ: (أي: عَالِمٌ) بل هو أعلمُ من كلِّ عالمٍ، فلا يفوتُهُ شيءٌ من أعمالِهِم.

قولُهُ: (مُتفَرِّقَةً) بعضُها في إثرِ بعضٍ على تفاوُتِ إقدامِهِم في الضَّلالةِ والشَّرارةِ.

قولُهُ: (جَوَابُ ﴿إِذَا﴾) والكوفيُّ بالتَّخفيفِ[1].

قولُهُ: (جَهَنَّمُ) يعني: المخصُوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ.

قولُهُ: (بلُطفٍ) إسراعاً بهم إلى دارِ الكرامةِ، وقيل: ساقَ مراكبَهُم، إذ لا يذهبُ بهم إلَّا راكبينَ.

قولُهُ: (بتَقْدِيرِ: قَد) وقيل: الواو زائدةٌ أو واوُ الثمانيةِ وما بعدَها الجوابُ.

قولُهُ: (حَالاً) تمييزٌ عن النِّسبةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٤)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٠).

وجواب «إذا» مقدّرٌ أي: دخلوها ـ وسَوقُهم وفتحُ الأبواب قبل مجيئهم تكرمةٌ لهم، وسوقُ الكُفّار وفتحُ أبواب جهنّم عِند مجيئهم ليبقى حرّها إليه إهانةٌ لهم ـ ٧٤ ـ ﴿وقالُوا﴾: عطف على «دخلوها» المُقدّرِ: ﴿الحَمدُ لِلهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعدَهُ﴾ بالجنّة، ﴿وأورَثَنا الأرضَ﴾ أي: أرض الجنّة، ﴿نَتبوَّأُ﴾: ننزل ﴿مِنَ الجَنَّةِ حَيثُ نَشاءُ﴾. لأنها كُلّها لا يُختار فيها مكان على مكان. ﴿فنِعمَ أجرُ العامِلِينَ﴾ الجنّةُ!

٧٥ ـ ﴿وتَرَى المَلائكةَ حافِّينَ﴾: حالٌ ﴿مِن حَولِ العَرشِ﴾ من كُلّ جانب منه، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: حالٌ من ضمير «حافّين»، ﴿بِحَمدِ رَبِّهِم﴾: ملابسين للحمد، أي: يقولون: سُبحان الله وبحمده، ﴿وقُضِيَ بَينَهُم﴾: بين جميع الخلائق ﴿بِالحَقِّ﴾ أي: العدل، فيُدخِلُ المؤمنين الجنّة، والكافرين النار، ﴿وقِيلَ: الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾. خُتِمَ استقرارُ الفريقين بالحمد من الملائكة.

قولُهُ: (لأنَّهَا كُلَّهَا) والأظهرُ: ما قالَ القاضي: يتبوَّأ كلٌّ منَّا في أيِّ مقامٍ أرادَهُ من جنَّتِهِ الواسعةِ، معَ أنَّ في الجنَّةِ مقاماتٍ معنويَّةً لا يتمانَعُ وارِدُوها[1].

قولُهُ: (حَالٌ) أي: مُحْدقينَ.

قولُهُ: (مِنْ كُلِّ جَانِبٍ) و﴿مِنْ﴾ لابتداءِ الحفوفِ، وقيلَ: زائدةٌ، أي: حولَهُ.

قولُهُ: (مِنْ ضَمِيرِ: ﴿حَافِّينَ﴾) أي: حالٌ مقيِّدةٌ للأولى، والمعنى: ذاكرينَ له بوصفي جلالِهِ وإكرامِهِ تلذُّذاً به، وفيه إشعارٌ بأنَّ منتهى درجاتِ العلِّيِّينَ وأعلى لذائذِهم هو الاستغراقُ في صفاتِ الحقِّ.

قولُهُ: (مِنَ المَلائِكَةِ) أو المؤمنينَ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٥٠).

سُورَةُ الزُّمَرِ

وتُسَمَّى: سورةَ الغُرَف، كما في «الإتقان» و«الكشَّاف»[1]، لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

أخرج ابن الضُّريس وابن مردويه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس أنَّها أنزلت بمكة[2]، ولم يَسْتَثْنِ. وأخرج النحَّاس عنه أنه قال: نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاثِ آياتٍ نزلت بالمدينة في وحشيٍّ قاتلِ حمزةَ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] إلى ثلاث آيات[3]. وزاد بعضهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الآية [الزمر: ١٠] ذكره السخاويُّ في «جمال القراء»، وحكاه أبو حيَّان عن مقاتل[4]. وزاد بعضٌ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] حكاه ابن الجوزي[5].

والمذكور في «البحر» عن ابن عباس استثناءُ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ إلخ. وعن بعضهم: إلَّا سبعَ آياتٍ من قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ إلى آخر السبع[6].

وآيُها خمسٌ وسبعون في الكوفيِّ، وثلاثٌ في الشاميِّ، واثنتان في الباقي، وتفصيلُ الاختلاف في «مجمع البيان» وغيرِه[7].

---

(١) الإتقان ١/ ١٧٤، والكشاف ٣/ ٣٨٥.

(٢) فضائل القرآن لابن الضُّريس ص٣٤، ودلائل النبوة ٧/ ١٤٤، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٢.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦٠٥.

(٤) جمال القرَّاء ١/ ١٣٦، والبحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(٥) في زاد المسير ٧/ ١٦٠.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(٧) مجمع البيان ٥/ ١٣٥، وجمال القراء ٢/ ٥٤٠-٥٤١.

ووجهُ اتصال أوَّلها بآخِر «ص» أنَّه قال سبحانه هناك: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص:٨٧] وقال جلَّ شأنُه هنا: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:١]، وفي ذلك كمالُ الالتئام بحيثُ لو أسقطت البَسْملة لم يتنافر الكلام.

ثم إنه تعالى ذكَرَ آخِرَ «ص» قصةَ خَلْقِ آدم، وذكر في صدرِ هذه قصةَ خلْقِ زوجِه منه وخلقِ الناسِ كلِّهم منه، وذكر خلقَهم في بطونِ أمَّهاتهم خَلْقاً من بعدِ خلقٍ، ثم ذكر أنهم ميِّتون، ثم ذكر سبحانه القيامةَ والحسابَ والجنةَ والنارَ، وختم بقوله سبحانه: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر:٧٥]، فذكر جلَّ شأنه أحوالَ الخلق من المبدأ إلى آخِر المعادِ متَّصِلاً بخلقِ آدمَ عليه السلام المذكورِ في السورة قبلَها.

وبين السورتين أوجهٌ أُخَرُ من الربط تظهرُ بالتأمُّل، فتأمَّل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قال الفرَّاء والزَّجاج: هو مبتدأٌ، وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ خبرُه، أو: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذا المذكورُ تنزيل، و«من الله» متعلِّقٌ بـ «تنزيل»(١). والوجهُ الأولُ أوجَهُ كما في «الكشف».

و«الكتاب» القرآنُ كلُّه، وكأنَّ الجملةَ عليه تعليلٌ لكونه ذِكْراً للعالمين، أو لقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص:٨٨]، والظاهر أنَّ المرادَ بـ «الكتاب» على الوجهِ الثاني السورةُ؛ لكونها على شرفِ الذِّكْر، فهي أقربُ لاعتبار الحضور الذي يقتضيه اسمُ الإشارة فيها. و«تنزيل» بمعنى منزَّل، أو قُصد به المبالغةُ.

وقدَّر أبو حيان المبتدأ «هو» عائداً على الذكر في ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص:٨٧]، وجعل الجملةَ مستأنفةً استئنافاً بيانيّاً، كأنَّه قيل: هذا الذكر ما هو؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب(٢). و«الكتاب» عليه القرآن، وفي «تنزيل» الاحتمالان.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٤، وللزجاج ٤/ ٣٤٣.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٤.

وجُوِّز على احتمالِ كونه خبرَ مبتدأ محذوفٍ كونُ «من الله» خبراً ثانياً، وكونُه خبرَ مبتدأ محذوفٍ أيضاً، أي: هذا أو هو تنزيل الكتاب هذا أو هو من الله، وكونُه حالاً من «الكتاب»، وجاز الحالُ من المضاف إليه؛ لأنَّ المضافَ مما يعمل عملَ الفعل، وكونُه حالاً من الضمير المستترِ في «تنزيل» على تقديرِ كونه بمعنى منزَّل. وكونُه حالاً من «تنزيل» نفسِه والعاملُ فيه معنى الإشارة، وتُعُقِّب بأنَّ معاني الأفعال لا تعمل إذا كان ما هي فيه محذوفاً؛ ولذلك رَدُّوا على المبرِّد قولَه في بيت الفرزدق:

وإذ ما مثلَهم بشرُ[1]

إنَّ «مثلهم» منصوبٌ على الحالية وعاملُه الظرف المقدَّر، أي: ما في الوجود بشرٌ مماثلاً لهم = بأنَّ الظرف عاملٌ معنويٌّ لا يعمل محذوفاً.

وقرأ ابن أبي عبلة وزيد بن عليٍّ وعيسى: «تنزيلَ» بالنصب[2] على إضمارِ فعلٍ، نحو: اقرأ والْزَم.

والتعرُّضُ لوصفَي العزةِ والحكمةِ للإيذان بظهورِ أثرَيْهما في الكتاب بِجَرَيانِ أحكامه ونَفاذِ أوامره ونواهيه من غير مُدافع ولا ممانع، وبابتناءِ جميعِ ما فيه على أساس الحِكَم الباهرة.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بيانٌ لكونه نازلاً بالحقِّ وتوطئةٌ لِمَا يُذكَر بعدُ. وفي «إرشاد العقل السليم» أنه شروعٌ في بيانِ المنزَّل إليه وما يجب عليه إثر بيانِ شأنِ المنزَّل وكونِه من عند الله تعالى. وأيَّاما كان لا يتكرَّر مع ما تقدَّم، نعم كان الظاهرُ ـ على تقدير كون المرادِ بـ «الكتاب» هناك القرآن ـ الإتيانَ بضميرِه هاهنا، إلَّا أنَّه أُظْهر قَصْداً إلى تعظيمه ومزيدِ الاعتناء بشأنه[3].

---

(١) ينظر المقتضب ٤/ ١٩١-١٩٢، والبيت في ديوان الفرزدق ١/ ١٨٥، وتمامه:
فأصبحوا قد أعاد الله نعمتَهم ... إذ هم قريش، وإذ ما مثلَهم بشر

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٠.

وقال ابن عطية: الذي يظهر لي أنَّ الكتابَ الأوَّلَ عامٌّ لجميعِ ما تنزَّل من عند الله تعالى، والكتابَ الثاني خاصٌّ بالقرآن، فكأنَّه أخبرَ إخباراً مجرَّداً أنَّ الكتبَ الهاديةَ الشارعةَ تنزيلُها من الله عز وجل، وجَعَله توطئةً لقوله سبحانه: (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ)(1). اهـ، وهو كما ترى.

والباء متعلِّقةٌ بالإنزال وهي للسببية، أي: أنزلناه بسبب الحقِّ، أي: إثباتِه وإظهارِه. أو بمحذوفٍ وقع حالاً من المفعول، وهي للملابَسة، أي: أنزلناه ملتبساً بالحقِّ والصوابِ. والمراد أنَّ كلَّ ما فيه موجِبٌ للعمل والقَبول حتماً. وجُوِّز كونُ المحذوف حالاً من الفاعل، أي: أنزلناه ملتبسين بالحقِّ، أي: مُحقِّين في ذلك.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه الصلاة والسلام بالحقِّ، أي: فاعبُدْه تعالى مُمْحِضاً له الدينَ من شوائبِ الشرك والرياءِ حسْبَما بُيِّن في تضاعيفِ ما أُنزل إليك. والعدولُ إلى الاسم الجليل مما يلائم هذا الأمرَ أتمَّ ملاءَمةٍ.

وقرأ ابن أبي عبلة: «الدينُ» بالرفع(2)، كما رواه الثِّقات، فلا عبرةَ بإنكار الزجَّاج(3)، وخرَّج ذلك الفرَّاءُ(4) على أنَّه مبتدأ، خبرُه الظرفُ المقدَّم للاختصاص أو لتأكيده.

واعتُرِض بأنَّه يتكرَّر مع قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وأجيب بأنَّ الجملة الأولى استئنافٌ وقع تعليلاً للأمر بإخلاص العبادة، وهذه الجملة تأكيدٌ لاختصاص الدين به تعالى، أي: ألا هو سبحانه الذي يجب أنْ يُخَصَّ بإخلاص الدين له تعالى؛ لأنه المتفرِّدُ بصفاتِ الألوهية التي من جملتها الاطلاعُ على السرائر والضمائر. وهي على قراءة الجمهور استئنافٌ مقرِّرٌ لِمَا قبلَه من الأمر بإخلاص الدِّين له عزَّ وجل ووجوبِ الامتثال به.

---

(1) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٧. ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٤١٤.

(2) البحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(3) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٣-٣٤٤.

(4) في معاني القرآن ٢/ ٤١٤.

وفي الإتيان بـ «إلا»، واسمية الجملة، وإظهارِ الجلالة والدينِ، ووصفِه بالخالص، والتقديم المفيدِ للاختصاص مع اللّام الموضوعة له عند بعضٍ = ما لا يخفى من الدلالة على الاعتناء بالدين الذي هو أساسُ كلِّ خير، قيل: ومن هنا يُعْلم أنَّه لا بأسَ بجعل الجملةِ تأكيداً للجملة قبلَها على القراءة الأخيرة، وإليه ذهب صاحب «التقريب» وقال بتغايُرِ دلالَتَي الجملتين إجمالاً وتفصيلاً. ورَدَّ بذلك زَعْمَ إباء هذه الجملة صحةَ تخريج الفرّاء.

والحقُّ أنَّه تخريجٌ لا يعوَّل عليه، ففي «الكشف»: لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ بمنزلة التعليل لقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا﴾، كان الأصل أن يقال: فَلِلّه الدين الخالص، ثم تُرِك إلى «ألا لله الدين الخالص» مبالغةً لِمَا عرفتَ مِن أنَّه أقوى الوصلين، ثم صدِّر بحرف التنبيه زيادةً على زيادةٍ وتحقيقاً بأنَّ غيرَ الخالص كالعدم، فلو قدِّر الاستئنافُ التعليليُّ أولاً من دون الوصفِ المطلوبِ الذي هو الأصلُ في العِلَّة، ومن دون حرفِ التنبيه للفائدة المذكورة، كان كلاماً متنافراً، ويلزمُ زيادةُ التنافر من وصف الدين بالخلوص ثانياً لدلالته على العِيِّ في الأوَّل، إذ ليس فيه ما يُرشِد إلى هذا الوصف حتى يُجْعلَ من باب الإجمال والتفصيل. وأمَّا جعلُه تأكيداً فلا وجه له للوصف المذكور، ولأنَّ حرف التنبيه لا يحسُنُ موقعُها حينئذٍ؛ فإنَّها يُؤتى بها في ابتداء الاستئنافِ المضادِّ لقصد التأكيد. اهـ.

ونصَّ العلَّامة الثاني أيضاً على أنَّ كونَ الجملة الثانيةِ تأكيداً للأولى فاسدٌ عند مَن له معرفةٌ بأساليب الكلام وصِيَاغات المعاني، ففيها ما ينبو عنه مقامُ التأكيد ولا يكاد يقترِنُ به المؤكّد. لكنَّ في قول صاحب «الكشف»: ليس في الأول ما يُرشِد إلى وصف الخلوص حتى يُجْعل من باب الإجمال والتفصيل = بحثاً؛ إذ لقائلٍ أن يقول: إنَّ «له الدين» على معنى: له الدين الكامل، ومن المعلوم أنَّ كمالَ الدين بكونه خالصاً، فيكون في الأوَّلِ ما يُرشِد إلى هذا الوصف.

نعم وَهْنُ ذلك التخريجِ على حاله، قُبِل هذا البحثُ أم لم يُقْبل.

وقال أبو حيَّان: «الدينُ» مرفوعٌ على أنَّه فاعلٌ بـ «مخلصاً» الواقع حالاً، والراجعُ لِذِي الحال محذوفٌ على رأي البصريين، أي: الدينُ منك. أو تكونُ «أل»

عوضاً من الضمير، أي: دينُك[١]. وعليه يكون وصفُ الدين بالإخلاص ـ وهو وصف صاحبه ـ من باب الإسناد المجازيِّ كقولهم: شعرٌ شاعرٌ. وفي الآية دلالةٌ على شَرَف الإخلاص بالعبادة، وكم من آية تدلُّ على ذلك.

وأخرج ابن مردويه عن يزيدَ الرَّقاشِيِّ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّا نعطي أموالَنا التماسَ الذكر، فهل لنا من أجرٍ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا». قال: يا رسول الله، إنَّا نعطي التماسَ الأجر والذكر، فهل لنا أجرٌ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى لا يقبل إلَّا مَن أخلَصَ له»، ثم تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الآية: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[٢].

ويؤيِّد هذا أنَّ المرادَ بـ «الدين» في الآية الطاعةُ، لا كما رُوي عن قتادة مِن أنَّه شهادةُ أن لا إله إلا الله، وعن الحسن من أنَّه الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلخ تحقيقٌ لحقِّيَّة التوحيد ببطلان الشرك، ليُعْلم منه حَقِّيَّةُ الإخلاص وبطلانُ تركه، وفيه من ترغيبِ المخلصين وترهيبِ غيرِهم ما لا يخفى. والموصولُ عبارةٌ عن المشركين من قريش وغيرِهم كما روي عن مجاهد.

وأخرج جُوَيْبر عن ابن عبَّاس أنَّ الآية نزلت في ثلاثة أحياء: عامرٍ وكنانةَ وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثانَ، ويقولون: الملائكةُ بناتُ الله[٣]. فالموصولُ إمَّا عبارةٌ عنهم، أو عبارةٌ عمَّا يعمُّهم وأضرابَهم من عَبَدَةِ غير الله سبحانه، وهو الظاهر، فيكون الأولياءُ عبارةً عن كلِّ معبودٍ باطلٍ كالملائكةِ وعيسى عليهم السلام والأصنام.

ومحلُّ الموصول رفعٌ على الابتداء، خبره الجملة الآتية المصدَّرة بـ «إنَّ».

وقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ حالٌ بتقدير القول من واوِ «اتخذوا» مُبيِّنةٌ لكيفيةِ إشراكِهم وعدمِ خلوصِ دينهم، أي: اتخذوا قائلين ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(٢) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٢، ويزيد الرقاشي ضعيف.

(٣) أسباب النزول للسيوطي ص٣١٨.

وجُوِّز أن يكون القول المقدَّرُ «قالوا»، ويكون بدلاً من «اتخذوا»[(١)]، وأن يكون المقدَّر ذلك ويكون هو الخبرَ للموصولِ، والجملةُ الآتية استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل بعد حكايةِ ما ذُكر: فماذا يفعل الله تعالى بهم؟ فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ إلخ.

والوجهُ الأول هو المُنْساق إلى الذهن، نعم قرأ عبد الله وابنُ عباس ومجاهدٌ وابن جبير: «قالوا ما نعبدهم» الآية[(٢)]، لكن لا يتعيَّنُ فيه البدليةُ أو الخبرية.

وقد اعترض البدليةَ صاحبُ «الكشف» بأنَّ المقامَ ليس مقامَ الإبدال، إذ ليس فيه إعادةُ الحكم لكون الأولِ غيرَ وافٍ بالغَرَض اعتناءً بشأنه، لا سِيَّما وحذفُ البدل ضعيفٌ، بل يُنافي الغرضَ مِن الإتيان به.

والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، و«زلفى» مصدرٌ مؤكِّد على غيرِ لفظِ المصدر، أي: والذين لم يُخْلِصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادةِ غيرِه سبحانه قائلين: ما نعبدهم لشيءٍ من الأشياء إلَّا ليقرِّبونا إلى الله تعالى تقريباً.

وقرئ: «نُعْبُدهم» بضمِّ النون إتباعاً لحركة الباء[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: وبينَ خُصَمائهم الذين هم المخلِصون للدين، وقد حُذف لدلالة الحال عليه كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] على أحد الوجهين، أي: بينَ أحدٍ منهم وبينَ غيره، وعليه قول النابغة:

فما كان بينَ الخير لو جاء سالماً ... أبو حُجُرٍ إلَّا ليالٍ قلائلُ[(٤)]

أي: بين الخير وبيني.

---

(١) في هامش الأصل و(م): قوله: بدلاً من اتخذوا، قال في البحر: كأنه بدل اشتمال. اهـ. وهو في البحر ٧/ ٤١٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٤، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨، والبحر المحيط ٧/ ٤١٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٦، البحر المحيط ٧/ ٤١٥.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص٩٠، والبيت في رثاء النعمان بن الحارث، وأبو حُجر كنيته.

وقيل: الضمير للفريقين المتخِذِين والمتخَذِين، وكذا الكلام في ضميرَي الجمع في قوله تعالى: ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

والمعنى على الأوَّل أنَّه تعالى يفصِل الخصومةَ بين المشركين والمخلصين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك وادِّعاء كلٍّ صحةَ ما اتَّصَفَ به، بإدخال المخلصين الموحِّدين الجنةَ وإدخالِ المشركين النارَ، أو يميِّزهم سبحانه تمييزاً يُعْلم منه حالُ ما تنازعوا فيه بذلك.

والمعنى على الثاني أنَّه تعالى يحكُم بين العابدين والمعبودين فيما يختلفون، حيثُ يرجو العابدون شفاعتَهم وهم يتبرَّؤُون منهم ويلعنونهم قالاً أو حالاً، بإدخالِ مَنْ له أهليةُ دخولِ الجنة من المعبودين الجنةَ؛ وإدخالِ العابدين ومَن ليس له أهليةُ دخولِ الجنة ممن عُبِد كالأصنام النارَ. وإدخالُ الأصنام النارَ ليس لتعذيبها، بل لتعذيب عَبَدَتِها بها. وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يضعِّفه.

وأجاز الزمخشريُّ[(١)] كونَ الموصول السابق عبارةً عن المعبودِينَ على حذفِ العائد إليه، وإضمارِ المشركين من غيرِ ذكرٍ تعويلاً على دلالة السياق عليهم، ويكون التقدير: والذين اتخذَهم المشركون أولياءَ قائلين: ما نعبدهم إلَّا ليقرِّبونا عند الله زلفى، إنَّ الله يَحكُم بينَهم وبين عَبَدَتِهم فيما الفريقان فيه يختلفون ـ حيثُ يرجو العَبَدَةُ شفاعتَهم وهم يلعنونهم ـ بإدخالِ ما هو منهم أهلٌ للجنة الجنةَ وإدخالِ العبدة مع أصنامهم النارَ.

وتُعقِّب بأنَّه بعد الإغضاء عمَّا فيه من التعسُّفات بمعزِلٍ من السَّداد، كيف لا، وليس فيما ذُكر مِنْ طلب الشفاعة واللعن مادَّةٌ يختلف فيها الفريقان اختلافاً مُحْوِجاً إلى الحكم والفصل، فإنَّما ذاك ما بين فريقَي الموحِّدين والمشركين في الدنيا من الاختلاف في الدين الباقي إلى يوم القيامة. فتدبَّرْ ولا تغفُلْ.

وقُرئ: «ما نعبدكم إلا لتقرِّبونا»[(٢)] حكايةً لِمَا خاطبوا به آلهتَهم.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٨٦.

(٢) وهي قراءة أبيٍّ كما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٤، وللزجاج ٤/ ٣٤٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨، والكشاف ٣/ ٣٨٦.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي: لا يوفِّق للاهتداء الذي هو طريقُ النجاة عن المكروه والفوزِ بالمطلوب ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ في حدِّ ذاته، وموجب سيِّئ استعدادِه؛ لأنَّه غيرُ قابل للاهتداء، والله عز وجل لا يُفِيْض على القوابل إلَّا حسب القابليات؛ كما يشير إليه قولُه سبحانه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقولُه تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] وقوله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] وهذا هو الذي حَتَم عليه جلَّ شأنُه لسيِّئ استعداده بالموافاة على الضلال، قاله بعض الأجلَّة.

وقال الطبرسيُّ: لا يهدي إلى الجنة - أي: يوم القيامة - من هو كاذبٌ كفَّارٌ في الدنيا[1].

وقال ابن عطية: المراد: لا يهدي الكاذبَ الكافرَ في حالِ كذبه وكفره[2]. وهذا ليس بشيء أصلاً.

والمرادُ بـ «من هو كاذبٌ كفَّار» قيل: من يعمُّ أولئك المحدَّثَ عنهم وغيرَهم. وقيل: أولئك المحدَّث عنهم. وكذبُهم في دعواهم استحقاقَ غير الله تعالى للعبادة، أو قولِهم في بعضِ مَن اتخذوهم أولياءَ من دون الله: إنَّهم بناتُ الله سبحانه، أو أنَّ المتخَذَ ابنُ الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، فـ «من هو كاذب» مِن الظاهر الذي أقيم مقامَ المضمَر على معنى أنَّ الله تعالى لا يهديهم - أي: المتخِذينَ - تسجيلاً عليهم بالكذب والكفر، وجُعِل تمهيداً لما بعده، وقال بعضهم: الجملة تعليلٌ للحكم.

وقرأ أنس بن مالك والجحدريُّ والحسنُ والأعرجُ وابنُ يعمر: «كذَّاب كفَّار»[3].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «كَذُوبٌ كَفُور»[4].

---

(١) مجمع البيان ٥/ ١٣٧-١٣٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨، والبحر المحيط ٧/ ٤١٥.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤١٥.

وحملوا «الكاذب» هنا على الراسخ في الكذب لهاتين القراءتين، وكذا حملوا الكفرَ على كُفر النِّعَم دون الكفر في الاعتقاد؛ لقراءة زيد، وذكر الإمامُ فيه احتمالين[1].

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتحقيق الحقِّ وإبطالِ القول بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله وعيسى ابنُه ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ـ ببيانِ استحالةِ اتخاذِ الولد في حقِّه سبحانه على الإطلاق؛ ليندرجَ فيه استحالةُ ما قيل اندراجاً أوَّلياً. وحاصلُ المعنى: لو أراد الله سبحانه اتخاذَ الولد لامتنعت تلك الإرادةُ لتعلُّقِها بالممتنِع ـ أعني الاتخاذَ ـ لكنْ لا يجوز للباري إرادةٌ ممتنِعةٌ؛ لأنَّها تُرَجِّح بعضَ الممكنات على بعضٍ.

وأصل الكلام: لو اتخذ الولدَ لامتنع؛ لاستلزامِه ما ينافي الألوهيةَ، فعُدل إلى: لو أراد الاتخاذَ لامتنع أن يُريدَه، ليكونَ أبلغَ وأبلغَ، ثم حُذف هذا الجوابُ وجيء بدله: «لاصطفى» تنبيهاً على أنَّ الممكنَ هذا، لا الأوَّلُ، وأنَّه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز اتخاذُ الولد عليه؛ سبحانه وتعالى شأنُه عن ذلك، فقد تحقَّق التلازمُ وحقَّ نفيُ اللازم وإثباتُ الملزوم دونَ صعوبة.

ويجوز أن يكونَ المرادُ: لو أراد الله أن يتخذ لامتنع ولم يصحَّ، لكن على إرادة نفي الصحَّة ـ على كلِّ تقدير من تقديرَي الإرادة وعدمها ـ من باب: لو لم يَخَفِ الله لم يعْصِه[2]، فلا ينفى الثاني إذ ذاك، ولا يحتاج إلى بيان الملازمة، وإذا امتنعَ ذلك فالممكنُ الاصطفاء، وقد اصطفى سبحانه مِن مخلوقاته مَن شاء كالملائكة وعيسى، وذهب عليكم أنَّ الاصطفاء ليس باتخاذٍ. والجواب على هذا الوجه أيضاً محذوفٌ أقيم مقامَه ما يفيدُ زيادةَ مبالغةٍ، وإنَّما لم يُجْعل «لاصطفى» هو الجوابَ عليه لصيرورة المعنى حينئذٍ: لو أراد اتخاذَ الولد لاصطفى، ولو لم يُرِدْ لاصطفى من طريق الأولى، وحينئذٍ يكون إثباتُ الاصطفاء هو المطلوبَ من الإيراد، كما أنَّ

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/ ٢٤٢.
(٢) سلف ١/ ٤٩٢.

التمدُّحَ بنفْي العصيان في مثال الباب هو المطلوبُ، وليس الكلام فيه، وعلى الوجهين هو من أسلوبِ:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم بهنَّ فُلولٌ من قِراع الكَتائبِ[1]

وجُوِّز أن يكونَ المعنى في الآية: لو أراد الله تعالى أن يتَّخِذ ولداً لجعَلَ المخلوقَ ولداً، إذ لا موجودَ سواه إلَّا وهو مخلوقٌ له تعالى، والتالي محالٌ للمباينة التامَّة بين المخلوق والخالق؛ والولديَّةُ تأبى تلك المباينة، فالمقدَّمُ مثلُه، ويكون قولُه تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ على معنى: لاتخذه ابناً على سبيل الكناية.

وما تقدَّم أولى لِمَا فيه من المبالغة التي نَبَّهْتُ عليها.

وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تقريرٌ لِمَا ذُكر من استحالةِ اتخاذِ الولد في حقِّه تعالى، وتأكيدٌ له ببيان تنزُّهِه سبحانه عنه، أي: تنزُّهِه الخاصَّ به تعالى، على أنَّ «سبحان» مصدرٌ من «سبَّح» إذا بَعُد، أو: أسبِّحُه تسبيحاً لائقاً به؛ لأنَّه عَلَمٌ للتسبيح مقولٌ على ألسنة العباد، أو: سبِّحوه تسبيحاً لائقاً بشأنه جلَّ شأنه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٤﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لتنزُّهِه عن ذلك أيضاً، فإنَّ اتخاذَ الولد يقتضي تبعُّضاً وانفصالَ شيءٍ من شيءٍ، وكذا يقتضي المماثلةَ بين الولد والوالد، والوحدةُ الذاتيةُ الحقيقيةُ التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبةِ له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعُّضَ والانفصالَ إباءً ظاهراً؛ لأنَّهما من خواصِّ الكمِّ، وقد اعتُبِر في مفهوم الوحدةِ الذاتية سلبُه فتأبى الاتخاذَ المذكورَ وكذا تأبى المماثلةَ؛ سواءٌ فُسِّرتْ بما ذهب إليه قدماءُ المعتزلة كالجُبَّائي وابْنِه أبي هاشم؛ وهي المشاركةُ في أخصِّ صفاتِ الذات؛ كمشاركةِ زيدٍ لعمرو في الناطقية، أم فُسِّرت بما ذهب إليه المحقِّقون من الماتريدية، وهي المشاركة في جميع الصفات الذاتية كمشاركته له في الحيوانية والناطقية، أم فُسِّرتْ بما نُسِب إلى الأشعريِّ وهو التساوي بين الشيئين من كلِّ وجهٍ، ولعلَّ مرادَه نحوُ

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وقد سلف ٥/٤٠٧.

ما مرَّ عن الماتريديِّ، وإلَّا فمع التساوي من كلِّ وجهٍ ينتفي التعدُّدُ، فينتفي التماثلُ بناءً على ما قرَّرُوا مِنْ أنَّ الوحدةَ الذاتية كما تقتضي نَفْي الأبعاضِ المقدارِيَّةِ؛ تقتضي نفيَ الكثرة العقلية، وأنَّ التماثلَ يقتضي التعدُّدَ وهو يقتضي ثبوتَ الأجزاء المذكورة، كذا قيل.

وفيه بحثٌ طويلٌ وكلامٌ غيرُ قليلٍ، وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الإخلاص، فالأولى أن يُقْتَصَرَ على منافاة الوحدة الذاتية للتبعُّض والانفصالِ لاستلزامهما التركُّبَ الخارجيَّ. والحكماءُ والمتكلِّمون مُجمِعون على استحالته في حقِّه تعالى، ودليلُها أظهرُ من أن يُذكر.

وكذا وصفُ القهَّارية يأبى اتخاذَ الولد، وقُرِّر ذلك على أوجُهٍ:

فقيل: وجهُ إبائها ذلك أنَّ القهَّارية تقتضي الغنى الذاتيَّ الذي هو أعلى مراتب الغِنى، وهو يقتضي التجرُّدَ عن المادَّة، وتولُّدُ الولد عن الشيء يقتضيها.

وقيل: إنَّ القهاريةَ تقتضي كمالَ الغنى، وهو يقتضي كمالَ التجرُّدِ الذي هو البساطةُ من كلِّ الوجوه، فلا يكون هناك جنسٌ وفصلٌ ومادةٌ وصورةٌ وأعراضٌ وأبعاضٌ إلى غير ذلك مما يُخِلُّ بالبساطةِ الكاملة الحقيقية، واتخاذُ الولد لِمَا فيه من الانفصال والمِثْلية مُخِلٌّ بتلك البساطة؛ فيُخِلُّ بالغنى فيخلُّ بالقهارية. وقد أشار سبحانه إلى أنَّ الغنى ينافي أن يكونَ له سبحانه ولدٌ بقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨].

وقيل: إنَّ اتخاذَ الولد يقتضي انفصالَ شيء عنه تعالى، وذلك يقتضي أن يكونَ متأثِّراً مقهوراً لا مؤثِّراً قهَّاراً، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً. فحيثُ كان جلَّ وعلا قهَّاراً كما هو مُقتضَى الألوهية؛ استحال أن يكونَ له عزَّ وجل ولدٌ.

وقيل: إنَّ القهاريةَ منافيةٌ للزوال؛ لأنَّ القهَّارَ لو قَبِلَه كان مقهوراً، إذ المزيلُ قاهرٌ له، ولذا قيل: سبحانَ مَن قهر العبادَ بالموت. والولدُ من أعظم فوائده عندهم قيامُه مقامَ الأب بعد زواله؛ فإذا لم يكن الزوالُ لم يكن حاجةٌ إلى الولد، وهذا مع كونه إلزاميًّا لا يخلو عن بحثٍ كما لا يخفى.

والزمخشريُّ جعل قولَه تعالى: (سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ) إلخ متصلاً بقوله عز وجل: (وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ) إلخ، على أنَّه مقرِّرٌ نفي أن يكونَ له تعالى وليٌّ، ونفيَ أن يكونَ له ولدٌ[1]. ولعلَّ بيانَ ذلك لا يخفى فتدبَّر.

وقولُه سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ إثباتٌ لِمَا ذكر أولاً من الوحدة والقهر، وفيه أيضاً ما سَتَعْلَمُه إن شاء الله تعالى. أي: خَلَق هذا العالَمَ المشاهَدَ ملتبساً بالحقِّ والصواب؛ مشتملاً على الحِكَم والمصالح.

وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيانٌ لكيفيةِ تصرُّفِه فيما ذُكر بعدَ بيان الخلق، فإنَّ حدوثَ الليل والنهار مَنُوطٌ بتحريك أجرامٍ سماوية.

والتكويرُ في الأصل هو: اللَّفُّ واللَّيُّ، من: كَارَ العمامةَ على رأسِه وكوَّرها، والمراد على ما روي عن قتادة: يُغْشِي أحدَهما الآخرَ، وهو ـ على ما قيل ـ على معنى: يُذهب أحدَهما ويُغْشي مكانَه الآخرَ، أي: يُلْبِسُه مكانَه فيصيرُ أسودَ مظلِماً بعد ما كان أبيضَ مُنيراً، وبالعكس. فالمَغشيُّ حقيقةً المكانُ.

ويجوز أن يكونَ المَغشيُّ الليلَ والنهارَ على الاستعارة، ويكون المكانُ ظرفاً، والمقصودُ أنَّه لَمَّا كان أحدُهما غاشياً للآخر أَشْبَهَ اللباسَ الملفوف على لابسه في سَترِه إياه واشتمالِه عليه وتغطِّيهِ به. وتحقيقُه أنَّ أحدَهما لَمَّا كان محيطاً على جميعِ ما أحاط به الآخَرُ من غيرِ أن يكونَ ثَمَّ شيءٌ زائدٌ غير الظهور والخفاءِ، جعل إحاطته على مُحاط الآخر إحاطةً عليه مجازَ ملابستِه، وعُبِّر عنها بالغَشَيَان والتكويرِ للشَّبَه المذكور.

وجوِّز أن يكونَ المرادُ أنَّ كلَّ واحدٍ من الليل والنهار يُغَيِّبُ الآخَرَ إذا طرأ عليه، فشُبِّه في تغييبه إياه بشيء ظاهرٍ لُفَّ عليه ما غيَّبه عن مطامحِ الأبصار.

ورُجِّح الأولُ بأنَّ فيه مع اعتبار الستر اعتبارَ اللَّيِّ وإحاطةِ الأطراف، ثُمَّ إنَّ هذا لظهورهِ تشبيهٌ مبذولٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٧.

وأنْ يكونَ المرادُ أنَّ هذا يكرُّ على هذا كروراً متتابعاً، فشُبِّه ذلك بتتابُعِ أكوارِ العِمامةِ بعضِها على إثر بعضٍ، قيل: وهو الأرجحُ؛ لأنَّه اعتُبِر فيه ما اعْتُبِر مع الأوَّل مع النظر إلى المطَّرِد فيه لفظُ الكور، فإنَّه لفٌّ بعد لفٍ وهو أيضاً كذلك، إلَّا أنَّ أكوار العمامة متظاهرةٌ، وفيما نحن فيه متعاوِرَةٌ، وهذا مما لا بأس به فإنَّ كلَّ ليَّةٍ يُسَمَّى كوراً حقيقةً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّ المعنى: يَحمِل أحدَهما على الآخر(١). وفُسِّر هذا الحمل بالضمِّ والزيادة، أي: يزيد الليلَ على النهار ويضمُّه إليه بأنْ يجعلَ بعضَ أجزاء الليل نهاراً فيطول النهار ويقصُر الليل، ويزيدُ النهارَ على الليل ويضمُّه إليه بأن يجعلَ سبحانه بعضَ أجزاءِ النهار ليلاً فيطول الليل ويقصُر النهار.

وإلى هذا ذهب الراغب(٢)، وهو معنًى واضحٌ، والآية عليه كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ [الحديد: ٦] في قول.

وذكر بعضُ الفضلاء أنَّها على المعنى الأول فيها شيءٌ من قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢].

وعلى المعنى الثاني فيها شيءٌ من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢].

وعلى الثالث شيءٌ من قوله سبحانه: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤].

وأنها يُحْتَمل أن يكونَ فيها الاستعارةُ التبعيةُ، والمكنيةُ، والتخييليةُ، والتمثيليةُ؛ والتمثيلُ أولى بالاعتبار. وأيًّا ما كان فصيغةُ المضارع للدلالة على التجدُّد.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ جعلَهما منقادَين لأمره عزَّ وجل.

﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ بيانٌ لكيفيةِ تسخيرِهما، أي: كلٌّ منهما يجري لمنتهىَ دورتِه؛ أو منقطَع حركتِه، وقد مرَّ تمامُ الكلام عليه، وفيه دليلٌ على أنَّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/١٥٩-١٦٠، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٤٨.
(٢) في المفردات (كور).

الشمسَ متحرِّكةٌ، وزعم بعضُ الكَفَرة أنها ساكنةٌ، وأنها مركزُ العالم، وسمعتُ في هذه الأيام أنَّه ظهر في الإفرنج منذ سنتين تقريباً مَن يزعم أنها تتحرَّك على مركز آخَرَ كما تتحركُ الأرض عليها نفسِها بزعمهم وزعم بعضِ المتقدِّمين.

ولهم في الهيئة كلامٌ غيرُ هذا، وفيه الغثُّ والسمين، إلَّا أنَّ نَفْيَهم السماوات الناطقةَ بها الشرائعُ بالكلية من العَجَب العجاب، وأنظارُهم السخيفة تُفْضِي بهم إلى ما هو أعجبُ من ذلك عند ذَوِي العقول السليمة، نسأل الله تعالى السلامةَ والتوفيق.

ولي عزمٌ على تأليف كتابٍ أبيِّنُ فيه إن شاء الله تعالى ما هو الأقربُ إلى مركز[1] الحقِّ من الهيئتينِ القديمةِ والجديدةِ، متحرِّكاً على مِحوَرِ الإنصاف، ساكناً عن سلوك مسالك الاعتساف، والله تعالى الموفِّق لذلك.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ على عقاب المصِرِّين ﴿ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ لذنوب التائبين، أو الغالبُ الذي يقدِر أن يعاجِلَهم بالعقوبة، وهو سبحانه يحلُم عليهم ويؤخِّرهم إلى أجلٍ مسمًّى، فيكون قد سمَّى الحِلْمَ عنهم ـ وقد ترك تعجيلَ العقوبة ـ بالمغفرة التي هي تركُ العقاب على طريق الاستعارة للمناسبة بينهما في الترك. وجوِّز كونُ ذلك من باب المجاز المرسَل، والأوَّلُ أبلغ وأحسن.

وهذان الوجهان في «العزيز الغفار» قد ذكرهما الزمخشريُّ[2]، وظنَّ بعضُهم أنَّ الداعيَ للأول رعايةُ مذهب الاعتزال، حيثُ خصَّ فيه المغفرةَ بذنوب التائبين، فتركه وقال: «العزيزُ»: القادر على كلِّ ممكنٍ، الغالبُ على كلِّ شيء، «الغفَّارُ»: حيثُ لم يعاجِلْ بالعقوبة وسلْبِ ما في هذه الصنائعِ من الرحمة وعموم المنفعة.

وما علينا أن نفسِّر كما فسَّر ونقول بأنَّ مغفرتَه تعالى لا تخصُّ التائبين؛ بل قد يغفر جلَّ شأنه لغيرهم، إلَّا أنَّ التقييدَ ليلائمَ ما تقدَّم أتمَّ ملاءَمةٍ، ففي «الكشف» أنَّ الوجهَ الأول من ذَينكَ الوجهينِ المذكورينِ يناسبُ قولَه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ من وجهين:

---

(١) كلمة «مركز»: ليست في «م».
(٢) في الكشاف ٣/ ٣٨٧-٣٨٨.

أحدهما: ما فيه من الدلالة على كمال القُدرة وكمالِ الرحمة المقتضي لعِقاب المصِرِّ وغفرانِ ذنوب التائب.

وثانيهما: أنَّ قوله تعالى: (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) إلخ مسوقٌ لأمرَين: إثباتِ الوحدة والقهر المذكورَيْنِ فيما قبلُ نفياً للولد بل حَسْماً للشرك من أصله، والتسلُّقِ إلى ما مهَّدَ أولاً من العبادة والإخلاص لئلَّا يزولَ عن الخاطر؛ فقيل: (بِٱلْحَقِّ)، كما قيل هنالك: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]. وأُدْمِجَ فيه أنَّ إنزالَ الكتاب كما يدلُّ على استحقاقه تعالى للعبادة، فكذلك خلقُ السماوات والأرضِ بالحقِّ والحكمةِ التي منها الجزاءُ على ما سلَفَ، فالتذييلُ بـ «ألا هو العزيز الغفار» للترغيب في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص، والتحذيرِ عن خلاف ذلك، سواءٌ خالفَ أصلَ الدين كالكفر، أو خالَفَ الإخلاصَ فيه كسائر المعاصي = في غاية الملاءمة.

وإنما أفْرَد مخالفةَ الدين بالذكر صريحاً في قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا) إلخ تحذيراً من حالهم؛ لأنَّها هاتكةٌ لعصمة النجاة، فكانت أحقَّ بالتحذير، ورَمَز إلى هذا الثاني بالتذييل المذكور تكميلاً للمعنى المراد، ومدارُ هذه السورة الكريمة على الأمر بالعبادة والإخلاص، والتحذيرِ من الكفر والمعاصي.

والوجه الثاني من ذينك الوجهين يناسبُ حديثَ الشرك، والتذييلُ به لتوكيدِ تفظيعِ ما نسبوا إليه. ولمَّا ذكر تنزيلَ الكتاب وعقَّبَ بالأوصاف المقتضية للعبادة والإخلاص ذيَّلَه بقوله سبحانه: (أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ) على ما تحقَّق وجهُه، وقد نقلناه نحن عنه[1] فيما مرَّ. ثمّ لَمَّا ذَكر بعدَه عظيمَ ما نسبوا إليه سبحانه من الشرك والأولاد، وما دلَّ على تنزُّهِه تعالى بالألوهية ناسَبَ أن يُذَيِّلَه بقوله تعالى: (أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ) للتوكيد المذكور. وقد آثر هذا العلامةُ الطيبيُّ. ويُعلم مما ذكرنا وجهُ رجحان الأول. اهـ.

والوجه الثاني من وجهَي المناسبةِ على الوجهِ الأول أَوْلى الوجهين. والآية على ما ذكره البعضُ يجوز ارتباطُها بما عندَها مِن الخلق والتكوير والتسخير.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلخ دليلٌ آخر على الوحدة والقهر.

---

(١) أي: عن صاحب الكشف.

وتركُ عطفِه على «خلق السماوات» للإيذان باستقلاله في الدلالة، ولتعلُّقِه بالعالم السفلي، والبداءةِ بخلق الإنسان؛ لأنَّه أقربُ وأعجبُ بالنسبة إلى غيره باعتبار ما فيه من العقل وقَبولِ الأمانة الإلهية وغير ذلك، حتى قيل:

وتزعم أنَّك جِرْمٌ صغير ... وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ[(١)]

والمراد بالنفس آدمُ عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء، فإنَّها خُلقت من قُصَيرى ضِلعه عليه السلام اليُسرى ـ وهي أسفلُ الأضلاع ـ على معنى أنَّها خُلِقَت من بعضها، أو خلِقت منها كلِّها وخَلَق الله تعالى لآدمَ مكانَها. عَطفٌ على محذوفٍ هو صفةٌ ثانية لـ «نفس»، أي: من نفسٍ واحدة خَلقَها ثم جعل منها زوجَها. أو على «واحدة»؛ لأنَّه في الأصل اسم مشتقٌّ، فيجوز عطفُ الفعل عليه كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام:٩٦] ويُعْتبر ماضياً؛ لأنَّ اسمَ الفاعل قد يكون للمُضيِّ إذا لم يَعْمَل، أي: من نفسٍ وَحدت ثم جَعَل منها زوجَها، ورُجِّح بسلامته من التقدير الذي هو خلافُ الأصل. أو على «خَلَقكم» لتفاوتِ ما بينهما في الدلالة، فإنَّهما وإن كانتا آيتين دالَّتين على ما مرَّ من الصفات الجليلة، لكنَّ خلقَ حواءَ من الضِّلع أعظمُ وأجلبُ للتعجُّب، ولذا عبّر بالجعل دون الخلق، فـ «ثم» للتراخي الرُّتبي. ويجوز فيه كونُ الثاني أعلى مرتبةً من الأوَّلِ وعكسُه.

وقيل: إنه تعالى أخرجَ ذرِّيَّةَ آدم عليه السلام من ظهره كالذَّرِّ، ثم خلق منه حواء[(٢)]، فالمراد بخلقهم منه إخراجُهم من ظهره كالذرِّ، فالعطفُ على «خلقكم»، و«ثُمَّ» على ظاهرها، وهذا لا يُقبل إلَّا إذا صحَّ مرفوعاً أو في حكمه.

---

(١) البيت نسب إلى علي كرم الله وجهه، وقد سلف ١٨/ ٣٥.

(٢) رجح هذا القول الطبري ٢٠/ ١٦٢بناءً على ما روي معناه عن النبيِّ ﷺ وعن الصحابة من الروايات. فقد روى الترمذي (٣٠٧٦) وصححه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسحَ ظهره، فسقط من ظهره كلُّ نسمة هو خالقها من ذرية آدم إلى يوم القيامة...» إلخ. وأخرج الطبري ١٠/ ٥٥٥ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال: إن الله خلق آدم، ثم أخرج ذريته من صلبهِ مثل الذر، فقال لهم: من ربكم؟ قالوا: الله ربنا. ثم أعادهم في صلبه... الخبر.

وقد تضمَّنت الآية ثلاثَ آيات: خَلْق آدم عليه السلام بلا أبٍ وأمٍّ، وخَلْق حواء من قُصَيْرَاه، وخَلْق ذرِّيَّته التي لا يُحصِي عددَها إلا اللهُ عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ استدلالٌ بنوعٍ آخَر من العالم السفليِّ، والإنزالُ مجازٌ عن القضاء والقسمة، فإنَّه تعالى إذا قضى وقَسَم أثبت ذلك في اللوح المحفوظ، ونزلت به الملائكةُ الموكَّلة بإظهاره، ووصْفُه بالنزول مع أنه معنًى شائعٌ متعارَفٌ كالحقيقة، والعلاقةُ بين الإنزال والقضاء الظهورُ بعد الخفاء، ففي الكلام استعارةٌ تبعيَّةٌ، وجُوِّز أن يكون فيه مجازٌ مرسَلٌ.

ويجوزُ أن يكون التجوُّز في نسبةِ الإنزال إلى الأنعام، والمنزَّلُ حقيقةً أسبابُ حياتها كالأمطار، ووجهُ ذلك الملابسةُ بينهما.

وقيل: يرادُ بالأزواج أسبابُ تعيُّشِها. أو يُجعلُ الإنزالُ مجازاً عن إحداثِ ذلك بأسبابٍ سماويةٍ، وهو كما ترى.

وقيل: الكلام على ظاهره، والله تعالى خَلَق الأنعام في الجنة ثم أنزلها منها[1]، ولا أرى لهذا الخبر صحةً.

والأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز، وكانت ثمانيةَ أزواجٍ لأنَّ كلًّا منها ذكرٌ وأنثى. وتقديمُ الظرفين على المفعولِ الصريحِ لِمَا مرَّ مِراراً من الاعتناء بما قُدِّم والتشويقِ إلى ما أُخِّر.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بيانٌ لكيفيةِ خَلْقِ مَن ذُكِرَ من الأناسيِّ والأنعام، إظهاراً لِمَا فيه مِن عجائب القدرة، وفيه تغليبان: تغليبُ أُولي العقلِ على غيرهم، وتغليبُ الخِطابِ على الغَيبة، كذا قيل. والأظهرُ أنَّ الخطابَ خاصٌّ. وصيغةُ المضارع للدلالة على التدرُّج والتجدُّد.

وقوله تعالى: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ إنْ تعلَّقَ «من بعد» بالفعل، وإلَّا فغيرُ مؤكِّد، أي: يخلقكم فيها خلقاً مدرَّجاً، حيواناً سويّاً من بعدِ عظامٍ مكسُوَّةٍ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١١٥.

لحماً، من بعد عظامٍ عاريةٍ، من بعد مُضَغٍ غير مخلَّقةٍ، من بعد عَلَقةٍ، من بعد نطفة. فقوله سبحانه: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ لمجرَّد التكرير، كما يقال: مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، لا أنَّه مخصوصٌ بخَلْقَيْن.

وقرأ عيسى وطلحة: «يَخْلُقكّم» بإدغام القاف في الكاف[1].

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة البطن والرَّحِم والمَشِيْمَة. وقيل: ظلمة الصُلب والبطن والرحِم. والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «يخلقكم». وجوَّز الشهابُ تعلُّقَه بـ «خَلْقاً» بناءً على أنَّه غيرُ مؤكِّد، وكونَه بدلاً من قوله تعالى: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾[2].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ إشارةٌ إليه تعالى باعتبارِ أفعاله المذكورة على وجهٍ يدلُّ على بُعدِ منزلته تعالى في العظمة والكبرياء. واسمُ الإشارة مبتدأٌ والاسمُ الجليل خبرُه، و«ربُّكم» خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو الاسمُ الجليلُ نعتٌ أو بدلٌ، وهو الخبر، أي: ذلكم العظيمُ الشأنِ الذي عُدِّدت أفعاله اللهُ مربِّيكم فيما ذُكر من الأطوار وفيما بعدها، ومالكُكم المستحِقُّ لتخصيص العبادة به سبحانه، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة، ليس لغيره تعالى شركةٌ مّا في ذلك بوجهٍ من الوجوه، والجملة خبرٌ آخَرُ.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملةٌ متفرِّعةٌ على ما قبلَها، ولم يصرِّح معها بالفاء التفريعيةِ اعتماداً على فهم السامع. وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّه خبرٌ آخَرُ[3].

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما ذُكر من شُؤُونه عزَّ وجل، أي: فكيف تُصْرَفون عن عبادته تعالى ـ مع وفورِ مُوجِباتها ودَواعيها وانتفاءِ الصارف عنها بالكلِّيَّة ـ إلى عبادةِ غيرِه سبحانه من غير داعٍ إليها مع كثرة الصوارف عنها.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠، والبحر المحيط ٧/ ٤١٧.
(٢) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٢٨.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٤.

﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ به تعالى مع مشاهدةِ ما ذُكر من موجبات الإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي: فأُخبِرُكم أنه عزَّ وجلَّ غنيٌّ عن إيمانكم وشُكْرِكم، غيرُ متأثِّر من انتفائهما. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لِمَا فيه من الضَّرر عليهم.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ﴾ أي: الشكرَ ﴿لَكُمْ﴾ لِمَا فيه من نفعكم، ومَن قال بالحُسْن والقُبْح العقلِيَّيْنِ قال: عدمُ الرضا بالكفر لقُبحه العقليِّ، والرضا بالشكر لحُسْنه العقليِّ.

والرضا إما بمعنى المحبة، أو بمعنى الإرادة مع ترك الاعتراض، ويقابله السخط كما في «شرح المسايرة»(١). فـ «عِبَادِهِ» على ظاهره من العموم.

ومنهم من فسَّره بالإرادة من غير قيدٍ، ويقابله الكُرْهُ، وهؤلاء يقولون: قد يرضى بالكفر، أي: يريده لبعض الناس كالكَفَرة، ونقله السخاويُّ عن النوويِّ في كتابه «الأصول والضوابط»(٢). وابن الهمام عن الأشعريِّ وإمام الحرمين(٣)، كذا قاله الخفاجي في حواشيه على «تفسير البيضاوي»(٤). والذي رأيته في «الضوابط» ـ وهي نسخةٌ صغيرة جداً ـ ما نصُّه:

مسألةٌ: مذهبُ أهل الحق الإيمانُ بالقدر وإثباتُه، وأنَّ جميعَ الكائنات خيرها وشرّها بقضاء الله تعالى وقدره، وهو مريدٌ لها كلِّها، ويكرهُ المعاصِيَ مع أنه سبحانه مريدٌ لها لحكمةٍ يَعْلَمها جلَّ وعلا. وهل يقال: إنَّه تعالى يرضى المعاصي ويحبُّها؟ فيه مذهبان لأصحابنا المتكلِّمين، حكاهما إمامُ الحرمين وغيرُه، قال إمام الحرمين في «الإرشاد»: مما اختلَف فيه أهلُ الحقِّ إطلاقُ المحبة والرضا، فقال بعضُ أصحابنا: لا يُطلَقُ القولُ بأنَّ الله تعالى يحبُّ المعاصيَ ويرضاها؛ لقوله تعالى: (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)، ومن حقَّق من أئمَّتِنا لم يلتفِتْ إلى تهويلِ المعتزِلة بل قال: الله تعالى يريدُ الكفرَ ويحبُّه ويرضاه، والإرادةُ والمحبَّةُ والرِّضا

---

(١) المسامرة شرح المسايرة ص١٢٩.
(٢) نقله المصنف عن حاشية الشهاب ٧/ ٣٢٩.
(٣) المسامرة شرح المسايرة ص١٢٨.
(٤) ٧/ ٣٢٩.

بمعنى واحدٍ، قال: والمراد بـ «عباده» في الآية: الموفَّقون للإيمان، وأُضيفوا إلى الله تعالى تشريفاً لهم كما في قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] أي: خواصُّهم لا كلُّهم(١). اهـ.

فلا تغفلْ عن الفرق بينه وبين ما ذكره الخفاجي(٢).

وحُكي تخصيصُ العباد في «البحر» عن ابن عبَّاس(٣). وقيل: يجوز مع ذلك حملُ العباد على العموم، ويكون المعنى: ولا يرضى لجميع عباده الكفر، بل يرضاه ويريده لبعضهم، نظيرَ قولِه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] على قول.

ولعلَّامةِ الأعصار صاحبِ «الكشف» تحقيقٌ نفيسٌ في هذا المقام لم أَرَهُ لغيره من العلماء الأعلام، وهو أنَّ الرضا يقابلُ السخطَ، وقد يُستعمل بـ «عن» و«الباء»، ويعدَّى بنفسه، فإذا قلتَ: رضيتُ عن فلانٍ، فإنَّما يدخل على العين لا المعنى، ولكن باعتبارِ صدورِ معنًى منه يُوجب الرِّضا، وفي مُقابِله: سَخِطْتُ عليه، وبينهما فرقان: أنك إذا قلتَ: رضِيْتُ عن فلان بإحسانه، لم يتعيَّن الباءُ للسببية، بل جاز أن يكونَ صلةً، ومثلُه في: رضيت بقضاء الله تعالى. وإذا قلتَ: سخِطْتُ عليه بإساءته، تعيَّن السببية، فكان الأصلُ هاهنا ذكرَ الصلة، لكنَّه كثُر الحذفُ في الاستعمال، بخلافِه ثَمَّة إذ لا حذفَ. وإذا قيل: رضيتُ به، فهذا يجبُ دخولُه على المعنى، إلَّا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى؛ ليكونَ أبلغ، تقول: رضيتُ بقضاء الله تعالى ورضيتُ بالله عزَّ وجلَّ ربًّا وقاضياً، وقريبٌ منه: سمعتُ حديثَ فلان وسمعتُه يتحدَّث.

وإذا عُدِّي بنفسه جاز دخولُه على الذات كقولك: رضيتُ زيداً، وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أنَّ كلَّه مرضيٌّ بتلك الخصلة، وفيه مبالغةٌ. وجاز دخوله

---

(١) الإرشاد ص ٢١١-٢١٢ و٢٢٠.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٢٩.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤١٧.

على المعنى كقولك: رضيتُ إمارةَ فلانٍ. والأوَّلُ أكثرُ استعمالاً، وهو على نحوِ قولِهم: حمِدْتُ زيداً وحمِدْتُ علمَه.

وأمَّا إذا اسْتُعْمِل باللَّام تعدَّى بنفسه؛ كقولك: رضيتُ لك هذا، فمعناه ما سيجيء إن شاء الله تعالى قريباً.

وإذا تمهَّد هذا؛ لَاحَ لك أنَّ الرضا في الأصل متعلَّقُه المعنى، وقد يكون الذاتَ باعتبارِ تعلُّقِه بالمعنى، أو باعتبار التمهيد. فهذه ثلاثةُ أقسامٍ حُقِّقَتْ بأمثلتها. وأنَّه في الحقيقة حالةٌ نفسانيةٌ تَعْقبُ حصولَ ملائِم مع ابتهاجٍ به واكتفاءٍ، فهو غيرُ الإرادة بالضرورة؛ لأنَّها تَسبِق الفعلَ وهذا يَعْقُبه. وهذا المعنى في غير المستعمَلِ باللَّام من الوضوح بمكانٍ لا يخفى على ذي عينين. وأمَّا فيه[1] فإنمَّا اشتبهَ الأمرُ، لأنَّك إذا قلت: رضيتُ لك التجارةَ، فالراضي بالتِّجارة هو مخاطَبُك، وإنمَّا أنتَ بيَّنتَ له أنَّ التجارةَ مما يحقُّ أنْ يُرْضَى به، وليس المعنى: رضيتُ بتجارتك، بل المعنى استحمادُك التجارةَ له، فالملاءَمةُ هاهنا بينَ الواقع عليه الفعلُ والداخلِ عليه اللَّامُ. ثُمَّ إنَّه قد يَرْضى بما ترضاه له، إذا عرف وجه الملاءمة، وقد لا يرضى، وفيه تجوُّزٌ: إمَّا لجَعْل الرِّضا مجازاً عن الاستحماد؛ لأنَّ كلَّ مرضيٍّ محمودٌ، أو لأنَّكَ جعلتَ كونَه مرضيّاً له بمنزلة كونه مرضيّاً لك.

فاعلم أنَّ الرضا في حقِّ الله تعالى شأنه محالٌ؛ لأنَّه سبحانه لا يَحْدُثُ له صفةٌ عَقِيْبَ أمرٍ ألبتةَ، فهو مجازٌ ـ كما أنَّ الغضب كذلك ـ إما من أسماء الصفات؛ إذا فسِّر بإرادةِ أن يثيبَهم إثابةَ مَنْ رضي عمن تحتَ يدِه، وإمَّا من أسماء الأفعال إذا أرِيْد الاستحمادُ. وأنَّ مثلَ قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة: ٨] إمَّا من باب المشاكلة، وإمَّا من باب المجاز المذكور. وأنَّ مثلَ قوله سبحانه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] متعيِّن أن يكونَ من ذلك البابِ بالنسبة إلى مَنْ يصحُّ اتصافُه بالرضا حقيقةً أيضاً، فإذَنْ قوله تعالى: (وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ) كلامٌ واردٌ على نهجه من غير تأويلٍ، دالٌّ على أنَّه جلَّ شأنه لا يستحمِدُ الكفرَ لعباده كما يستحمد الإسلامَ لهم ويرتضيه.

---

(١) أي: في المستعمل باللَّام.

وأمَّا أنَّه لا يريد الكفر أن يُوجَد فليس من هذا الباب في شيء، ولا هو من مقتَضَيات هذا التركيب، وأنَّ الخروج إلى تخصيصِ العباد من ضِيق العطَن، وأنَّ قولَ المحقِّقين ﷺ: إنَّ الطاعات برضى اللهِ تعالى والمعاصي ليست كذلك، ليس لهذه الآية، بل لأنَّ الرضا بالمعنى الأصليِّ يستحيل عليه تعالى، وقد أخبر أنَّه رَضِي عن المؤمنين بسبب طاعتهم في مواضعَ عديدةٍ من كتابه الكريم.

والزمخشريُّ ـ عامله الله تعالى بعَدْله ـ فسَّر الرضا في نحوه بالاختيار[١]، وهو لا ينفكُّ عن الإرادة. وأنت تعلم سقوطَه مما حُقِّق.

هذا، ثم إنَّا نقول: لمَّا أرشدَ سبحانه إلى الحقِّ وهدَّد على الباطل إكمالاً للرحمة على عباده كلِّهم [خاطب][٢] الفَريقَين بقوله تعالى: «إن تكفروا» إلى قوله سبحانه: «يرضه لكم» تنبيهاً على الغنى الذاتيِّ، وأنَّه ـ سبحانه ـ تعالى أن يكون أمرُه بالخير لانتفاعه به، ونهيُه عن الشرِّ لتضرُّره منه. ثم في العدول عن مقتضَى الظاهر من الخطاب إلى قوله تعالى: «ولا يرضى لعباده الكفر» ما ينبِّهُ على أنَّ عبوديتَهم وربوبيتَه جل شأنه تقتضي[٣] أن لا يرضى لهم ذلك. وفيه أنهم إذا اتَّصفُوا بالكفر فكأنَّهم قد خرجوا عن رتبة عبوديته تعالى، وبقوا في الذُّل الدائم، ثمَّ قيل: «يَرْضَهُ لَكُم» للتنبيه على مزيد الاختصاص. فهذا هو النظمُ السرِّيُّ الذي يحارُ دونَ إدراك طائفةٍ من لطائفهِ الفكرُ البشريُّ، والله تعالى أعلم. اهـ[٤].

وهو كلامٌ رصينٌ وبالقبول قمينٌ، إلَّا أنَّه رُبمَّا يقال: إنه لا يتمشَّى على مذهب السلف حيثُ إنَّهم لا يؤوِّلون الرضا في حقِّه تعالى، وكونُه عبارةً عن حالةٍ نفسانيةٍ إلى آخر ما ذُكر في تفسيره إنمَّا هو فينا، وحيثُ إنَّ ذاتَه تعالى مباينةٌ لسائر الذوات، فصفاتُه سبحانه كذلك، فحقيقةُ الرضا في حقِّه تعالى مباينةٌ لحقيقته فينا، وأين الترابُ من ربِّ الأرباب؟ وقد تقدَّم الكلام في هذا المقام على وجهٍ يروِي الأُوَامَ ويُبرِئُ السَّقامَ.

---

(١) الكشاف ١/ ٥٩٣.
(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٣٢٩، والكلام فيه بنحوه.
(٣) في (م): يقتضي.
(٤) أي: انتهى كلام صاحب «الكشف».

فنقول: عدمُ التأويل لا يضرُّ فيما نحن بصدده، فالرضا ـ إن أوِّل أوْ لم يؤوَّل ـ غيرُ الإرادة؛ لحديث السبق والتأخُّرِ السابق. وممن صرَّح بذلك ابنُ عطية، قال: تأمَّل الإرادةَ، فإنَّ حقيقتَها إنمَّا هي فيما لم يقعْ بعدُ، والرضا حقيقتُه إنما هي فيما وقع، واعتَبرْ هذا في آياتِ القرآن تجدْه، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها ـ على جهةِ التجوُّز ـ هذا بدلَ هذا[1].

وقد ذهب إلى المغايَرةِ بينهما بما ذُكر هنا ابنُ المنيِّر[2] أيضاً، إلّا أنَّه أوَّلَ الرضا، وذكر أنَّه لا يتأتَّى حملُه في الآية على الإرادة، وشنَّع على الزمخشريِّ في ذلك جزاءَ ما تكلَّم على بعض أهلِ السنة المخالفين للمعتزلة في زعمهم اتحادَ الرضا والإرادة، وأنَّه تعالى قد يُريد مَا لا يفعله العبدُ، وقد يفعل العبدُ ما لا يريدُه عزَّ وجل، فقال:

هَبْ أنَّ المصِرَّ على هذا المعتقَد على قلبه رينٌ، أو في ميزانِ عقله غَينٌ، أليس يدَّعي أو يُدَّعَى له أنَّه الخِرِّيْتُ في معابر العبارات؟ فكيف هامَ عن جادَّة الإجادة في بهماءَ، وأعارَ مُنادِي الحِذاقة أذُناً صمَّاء؟ اللَّهم إلَّا أنْ يكونَ الهوى إذا تمكَّن أرى الباطلَ حقّاً، وغطى على مكشوف العبارة، فسُحقاً سُحقاً، أليس مقتضى العربية ـ فضلاً عن القوانين العقلية ـ أنَّ المشروطَ مرتَّب على الشرط، فلا يُتَصوَّرُ وجودُ المشروط قبلَ الشرط عقلاً، ولا مُضِيُّه واستقبالُ الشرط لغةً ونقلاً، واستقرَّ باتفاق الفريقَيْنِ أهل السنة وأهلِ البدعة أنَّ إرادةَ الله تعالى لشكر العباد مثلاً مقدَّمةٌ على وجودِ الشكر منهم، فحينئذ كيف ينساغُ حملُ الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاءً وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزيّاً؟ واللازمُ من ذلك عقلاً تقدُّم المراد ـ وهو الشكر ـ على الإرادة وهي الرضا، ولغةً تقدُّم المشروط على الشرط، فإذا ثبتَ بطلانُ حملِ الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً تعيَّن المحملُ الصحيحُ له، وهو المجازاةُ على الشكر بما عُهِد أنْ يُجازَى به المرضيُّ عنه من

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢١.
(٢) في الانتصاف ٤/ ٣٨٨-٣٩٠.

الثواب والكرامة، فيكون معنى الآية والله تعالى أعلم: وإن تشكروا يجازِكم على شكركم جزاءَ المرضيِّ عنه. ولا شكَّ أنَّ المجازاةَ مستقبلةٌ بالنسبة إلى الشكر، فجَرى الشرطُ والجزاءُ على مقتضاهما لغةً، وانتظم ذلك بمقتضى الأدِلَّة العقلية على بطلانِ تقدُّم المراد على الإرادة عقلاً، ومثلُ هذا يقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يجازي الكافرَ مجازاةَ المرضيِّ عنه، بل مجازاةَ المغضوبِ عليه من النكالِ والعقوبة[(١)]. انتهى.

لا يقال: حيثُ كان قوله تعالى: «فإن الله غني عنكم» جزاءً باعتبار الإخبار كما أشير إليه فيما سلف، فليكنْ قولُه تعالى «يرضه لكم» جزاءً بذلك الاعتبار، فحينئذ لا يلزم أن يكون نفسُ الرضا مؤخَّراً. لأنَّا نقول: مثلُ هذا الاعتبار شائعٌ في الجملة الاسمية المتحقِّق مضمونُها قبلَ الشرط، نحوُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧] وفي الفعل الماضي إذا وقَع جزاءً، نحوُ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧] وأما في الفعل المضارع فليس كذلك، والذوقُ السليم يأبى هذا الاعتبارَ فيه، ومع هذا أيُّ حاجةٍ تدعو إلى ذلك هنا؟! ولا أُراها إلَّا نصرةَ الباطل، والعياذ بالله تعالى.

ثم إنَّه يُعلمُ من مجموع ما قدَّمنا حقِّيَّة ما قالوا من أنَّه لا تلازُمَ بينَ الإرادة والرضا، كما أنَّ الرضا ليس عبارةً عن حقيقةِ الإرادة، لكنَّ ابن تيميةَ وتلميذَه ابنَ القيِّم قسَما الإرادة إلى قسمين: تكوينيَّةٍ وشرعيَّةٍ، وذكرا أنَّ المعاصيَ كالكُفْر وغيرِه واقعةٌ بإرادة الله تعالى التكوينيَّة دونَ إرادته سبحانَه الشرعيَّةِ، وعلى هذا فالرضا لا ينفكُّ عن الإرادة الشرعيَّة، فكلُّ مرادٍ لله تعالى بالإرادة الشرعيَّة مرضيٌّ له سبحانه[(٢)]. وهذا التقسيم لا أتعقَّلُه إلَّا أن تكونَ الإرادةُ الشرعيَّةُ هي الإرادةَ التي يُرتضَى المرادُ بها، فتدبَّرْ هذا.

وقرأ ابنُ كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائيُّ: «يَرْضَهُ» بإشباع ضمةِ

---

(١) الانتصاف ٣/ ٣٨٨-٣٩٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ١٨٨-١٨٩، وشفاء العليل لابن القيم ص١٠٣-١٠٤.

الهاء[1]. والقاعدة في إشباع الهاء وعدمِه أنَّها إنْ سكن ما قبلها لم تُشْبع نحوُ «عليه» و«إليه»، وإن تحرَّكَ أُشْبعت نحوُ «به» و«غلامه»، وهاهنا قبلَها ساكنٌ تقديراً، وهو الألف المحذوفة للجازم، فإنْ جُعلتْ موجودةً حكماً لم تُشْبع؛ كما في قراءةِ ابن عامر وحفص[2]، وإن قُطع النظرُ عنها أشْبعت؛ كما في قراءةِ مَنْ سمعتَ، وهذا هو الفصيح، وقد تُشْبع وتُختلس في غير ذلك، وقد يحْسُن إشباعها مع فقدِ الشرط لنُكتةٍ.

وقرأ أبو بكر: «يرضَهْ» بسكون الهاء[3]، ولم يَرْضَهُ أبو حاتم وقال: هو غلطٌ لا يجوز، وفيه أنَّه لغةٌ لبني كلاب وبني عقيل[4]، إجراءً للوصل مُجرى الوقف.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بيانٌ لعَدَم سراية كفر الكافر إلى غيره، وقد تقدَّم الكلام في هذه الجملة، وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ فتذكَّرْ.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ من مرضٍ وغيرِه من المكاره ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً ممن كان يدعوه في حالةِ الرَّخاءِ من دون الله عزَّ وجلَّ؛ لعلمِه بأنَّه بِمعزِل من القدرة على كشفِ ضرِّه.

وهذا وصفٌ للجنس بحالِ بعضِ أفرادِه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] واستظهر أبو حيان[5] أنَّ المرادَ بالإنسان جنسُ الكافر. وقيل: هو معيَّن كعتبة بن ربيعة.

---

(١) تفسير البيضاوي ٧/ ٣٢٩، وهي في البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص ٢٧٤ عن ابن كثير والكسائي وابن ذكوان راوية ابن عامر، وخلف، وابن وردان راوية أبي جعفر. وينظر التيسير ص ١٨٩، والنشر ١/ ٣٠٥ - ٣٠٩.

(٢) البحر ٧/ ٤١٧، وهي في البدور الزاهرة عن نافع وعاصم وحمزة ويعقوب.

(٣) البحر ٧/ ٤١٧، وهي في البدور الزاهرة عن السوسي راوية أبي عمرو، وابن جماز راوية أبي جعفر.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٤١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢١.

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٤١٨.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه نعمةً عظيمةً من جنابه من الخَوَل ـ بفتحتين ـ وهو تعهُّدُ الشيء، أي: الرجوعُ إليه مرةً بعدَ أخرى، وأُطْلِق على العطاءِ لِمَا أنَّ المعطِي الكريمَ يتعهَّدُ مَنْ هو ربيبُ إحسانِه ونَشْوُ امتنانه[1] بتكرير العطاءِ عليه مرَّةً بعدَ أُخْرى.

وقال بعضهم: معنى «خوَّله» في الأصل: أعطاه خَوَلاً ـ بفتحتين ـ أي: عَبيداً وخَدَماً، أو: أعطاه ما يحتاج إلى تعهُّدِه والقيام عليه، ثُمَّ عُمِّمَ لمطلَقِ العطاء.

وجوَّز الزمخشريُّ كونَه من: خال يخول خَوْلاً ـ بسكون الواو ـ إذا افتخر[2].

واعتُرِض بأنَّه صرَّح في «الصحاح» أنَّ «خال» بمعنى «افتخر» يائيٌّ[3]، والخُيَلاء بمعنى التكبُّر يدلُّ عليه دلالةً بينةً، وأيضاً «خوَّل» متعدٍّ إلى مفعولين، وأَخْذُه منه لا يقتضي أن يتعدَّى للمفعول الثاني.

وأجيب عن الأوَّل بأنَّ الزمخشريَّ من أئمَّة النقل، وقد ثبت عنده. وأصلُه من الخال الذي هو العَلَامةُ، وقد نُقِل فيه الواوُ والياء، ثم قيل لسِيْما الجمالِ والخير: خالٌ؛ من ذلك، وأُخِذ منه الخيالُ. وأمَّا الاختيالُ بمعنى التكبُّر فهو مأخوذٌ من الخيال؛ لأنَّه خالَ نفسه فوقَ قَدْرِه، أو جعلَ لنفسه خالَ الخير، كما يقال: أُعجِب الرجل، فقد وضَح أنَّ الاشتقاقَ يناسبُهما، ولا يُنكَرُ ثبوتُ الياء بدليل الخيلاء، لكنْ لا مانعَ من ثبوت الياء أيضاً، وليس الاختيال مأخوذاً من الخيلاء؛ بل الخيلاءُ هو الاسم منه، فلا يصلُح مانعاً، لكنْ يصلُح مُثبِتاً للياء.

وعن الثاني بأنَّه ليس المرادُ أنَّ «خوَّل» مضعَّفَ «خال» بمعنى «افتخر»، حتى يُشكِل تعديتُه للمفعول الثاني، بل إنَّه موضوعٌ في اللغة لمعنى «أعطى»، وما ذُكر بيانٌ لِمأخذِ اشتقاقه وأصلِ معناه الملاحظِ في وضعه له، ومثلُه كثيرٌ. فأصلُ «خوَّله»: جعله مفتَخِراً بما أنْعَم عليه، ثم قُطع النظرُ عنه، وصار بمعنى أعطاه مطلقاً.

---

(١) النَّشْو: أحداث الناس، فإذا طرحوا الهمزة قالوا: نَشْوٌ. تاج العروس (نشأ).

(٢) الكشاف ٣/ ٣٨٩.

(٣) الصحاح (خيل).

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: نسي الضُّرَّ الذي كان يدعو الله تعالى إلى إزالتِه وكشفِه ﴿مِن قَبْلُ﴾ التخويل، فـ «ما» واقعةٌ على الضُّرِّ، و«دعا» من الدعوة، وهو يتعدَّى بـ «إلى» يقال: دعا المؤذِّن الناسَ إلى الصلاة، ودعا فلانٌ الناسَ إلى مأدُبته، والدعوة مجازٌ عن الدعاء، والمعنى على اعتبار المضاف كما أشيرَ إليه.

ويجوز أن يراد بـ «ما» معنى «مَنْ» للدلالة على الوصفية والتفخيم؛ واقعاً عليه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣]، وقولِه سبحانه: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] والدعاءُ على ظاهره، وتعديتُه بـ «إلى» لتضمينه معنى الإنابة أو التضرُّعِ والابتهالِ، والمعنى: نَسِي ربَّه الذي كان يدعو منيباً أو متضرِّعاً إليه، وهو وجهٌ لا بأسَ به.

وما قيل من أنَّه تكلُّف، إذ لا يقال: دعا إليه، بمعنى: دعاه، ولا حاجةَ إلى جَعلِ «ما» بمعنى «من» = مردودٌ لحُسْن موقعِ التضمين واستعمالِ «ما» في مقام التفخيم. وفي «الإرشاد» أنَّ في ذلك الجعلِ إيذاناً بأنَّ نسيانَه بلغ إلى حيثُ لا يعرفُ مدعوَّه ما هو، فضلاً مِن أنْ يعرفَه مَن هو(١).

وقيل: «ما» مصدرية، أي: نسي كونَه يدعو.

وقيل: هي نافيةٌ، وتمَّ الكلامُ عندَ قوله تعالى: (نَسِيَ)، أي: نسي ما كان فيه من الضُّرِّ، ثم نَفَى أنْ يكونَ دعاءُ هذا الكافرِ خالصاً لله تعالى من قبل، أي: من قبلِ الضرِّ. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاءَ في العبادة، والظاهر من استعمالاتهم إطلاقُ الأنداد على الشركاء مطلَقاً، وفي «البحر»: «أنداداً» أي: أمثالاً يُضَادُّ بعضُها بعضاً ويعارِضُ(٢). قال قتادة: أي: الرجالَ يطيعهم في المعصية. وقال غيره: أوثاناً. ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناسَ بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ الذي هو التوحيد.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٤٤.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٨.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعيسى: «لِيَضِلَّ» بفتح الياء(١)، أي: ليزدادَ ضلالاً، أو: ليَثْبُتَ عليه، وإلَّا فأصْلُ الضَّلالِ غيرُ متأخِّر عن الجعل المذكور، واللّام لامُ العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] بيدَ أنَّ هذا أقربُ إلى الحقيقة؛ لأنَّ الجاعلَ هاهنا قاصدٌ بجعله المذكورِ حقيقةَ الإضلالِ والضلال، وإنْ لم يعرفْ بجهله أنهما إضلالٌ وضلال، وأمَّا آلُ فرعون فهم غيرُ قاصدين بالتقاطهم العداوةَ أصلاً.

﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الجاعلِ وبياناً لحالِه ومآله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتُّعاً قليلاً، أو: زماناً قليلاً، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ أي: مُلازِميها والمعذَّبين فيها على الدوام. وهو تعليلٌ لقلَّةِ التمتُّع، وفيه من الإقناط من النجاة وذمِّ الكفر ما لا يخفى؛ كأنه قيل: إذ قَدْ أبيتَ ما أُمِرْتَ به من الإيمان والطاعةِ فمِنْ حقِّك أن تُؤْمرَ بتركه لِتَذُوقَ عقوبتَه.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ إلخ من تمام الكلام المأمور به في قولِ، و«أم» إمَّا متَّصلةٌ قد حُذف مُعادِلُها ثقةً بدلالةِ مَساقِ الكلام عليه، كأنه قيل له تأكيداً للتهديد وتهكُّماً به: أأنتَ أحسنُ حالاً ومآلاً أم من هو قائمٌ بمَواجبِ الطاعات ودائمٌ على وظائف العبادات في ساعات الليل التي فيها العبادةُ أقربُ إلى القَبول وأبعدُ عن الرياء، حالتَي السرَّاء والضرَّاء، لا عندَ مَساسِ الضرِّ فقط كدأبك، حالَ كونه ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾!

وإلى كون المحذوف المُعادلَ الأوَّل ذهبَ الأخفش، ووافقه غيرُ واحد، ولا بأس به عند ظهور المعنى، لكن قال أبو حيان: إنَّ مثلَ ذلك يحتاج إلى سماعٍ من العرب(٢).

ونصبُ «ساجداً وقائماً» على الحالية كما أشير إليه، أي: جامعاً بين الوصفين المحمودين، وصاحبُ الحال الضميرُ المستتر في «قانت».

وجُوِّز كونُ الحال من ضمير «يحذر» الآتي، قدِّم عليه، ولا داعيَ لذلك.

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٩ عن ابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٧/ ٤١٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٨-٤١٩، وعنه نقل المصنف قول الأخفش.

وقرأ الضحَّاك: «ساجدٌ وقائمٌ»[١] برفع كلٍّ على أنَّه خبرٌ بعدَ خبر. وجوَّز أبو حيان كونَه نعتاً لـ «قانت»[٢]، وليس بذاك.

والواو ـ كما أشيرَ إليه ـ للجمع بينَ الصِّفتين. وتركُ العطف على «قانت» قيل: لأنَّ القنوتَ مطلقُ العبادة، فلم يكن مغايراً للسجود والقيام، فلم يُعْطَفا عليه، بخلاف السُّجود والقيام فإنَّهما وصفان متغايران، فلذا عُطف أحدُهما على الآخر.

وتقديمُ السجود على القيام لكونه أدخلَ في معنى العبادة، وذهب المعظم إلى أنَّه أفضلُ من القيام؛ لحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد»[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ حالٌ أُخرى على التداخُل أو الترادُف، أو استئنافٌ وقع جواباً عمَّا نشأ من حكايةِ حالِه؛ كأنَّه قيل: ما باله يفعل ذلك؟ فقيل: يحذرُ الآخرةَ، أي: عذابَ الآخرة؛ كما قرأ به ابنُ جُبير[٤].

﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ فينجو بذلك مما يحذَرُه، ويفوز بما يرجوه؛ كما ينبئ عنه التعرُّض لعنوان الربوبية المنبئةِ عن التبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضميرِ الراجي، لا أنَّه يحذَرُ ضرَّ الدنيا ويرجو خيرَها فقط.

وإمَّا منقطعةٌ، وما فيها من الإضراب للانتقال من التبكيت بتكليفِ الجواب الملجئِ إلى الاعتراف بما بينَهما من التباين البيِّن، كأنَّه قيل: بل أَمَّنْ هو قانتٌ.. إلخ، مثلُك أيها الكافر، وقدَّر الزمخشريّ: كغيره[٥].

وقال النَّحاس: «أم» بمعنى «بل»، و«مَنْ» بمعنى «الذي»، والتقديرُ: بل الذي هو قانتٌ.. إلخ أفضلُ مما قبله[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣، والبحر ٧/ ٤١٩.
(٢) البحر ٧/ ٤١٩.
(٣) سلف ٤/ ١٨٦.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣.
(٥) الكشاف ٣/ ٣٩٠، ووقع في (م): بل أمن هو قانت إلخ، وقدر الزمخشري كغيره مثلك أيها الكافر. والمثبت من الأصل، وهو الصواب.
(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥٨، وإعراب القرآن له ٤/ ٦. ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤١٩.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه لا فضلَ لمن قبلَه حتى يُجعل هذا أفضلَ، بل يقدَّر الخبر: من أصحاب الجنة، لدلالةِ مقابِله ـ أعني: «إنك من أصحاب النار» ـ عليه[1]. ولا يبعدُ أن يقدَّر: أفضل منك، ويكون ذلك من باب التهكُّم.

وقرأ ابنُ كثير ونافعٌ وحمزةُ والأعمش وعيسى وشيبةُ والحسن في رواية: «أَمَنْ» بتخفيف الميم[2]، وضعَّفها الأخفش وأبو حاتم[3]، ولا التفاتَ إلى ذلك، وخُرِّجتْ على إدخال همزة الاستفهام التقريري على «مَن»، والمقابلُ محذوفٌ، أي: آلذي هو قانت.. إلخ خيرٌ أم أنت أيها الكافر؟ ومثلُه في حذفِ المعادِل قوله:

دعاني إليها القلبُ إنِّي لأَمْرِه سميعٌ فما أدري أَرُشْدٌ طِلابُها[4]

فإنه أراد: أم غيٌّ.

وقال الفرَّاء[5]: الهمزة للنداء، كأنه قيل: يا من هو قانت، وجَعل قولَه تعالى: «قل» خطاباً له. وضعَّف هذا القولَ أبو علي الفارسيّ[6]، وهو كذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ على معنى: قل له أيضاً بياناً للحقِّ وتصريحاً به وتنبيهاً على شرَف العلم والعمل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون بمقتضى عِلْمِهم، ويَقْنُتون الليلَ سجَّداً وركَّعاً يحذَرون الآخرة ويرجون رحمةَ ربِّهم، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون بمقتضى جهلِهم وضلالِهم، كدأبك أيُّها الكافر الجاعلُ لله تعالى أنداداً. والاستفهام للتنبيه على أنَّ كونَ الأوَّلينَ في أعلى معارِج الخير، وكونَ الآخِرين في أقصى مدارج الشرِّ، من الظهور بحيثُ لا يكاد يخفى على أحدٍ من مُنْصفٍ ومكابر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٢) التيسير ص١٨٩، والنشر ٢/ ٣٦٢ عن نافع وابن كثير وحمزة، والكلام من البحر ٧/ ٤١٨.

(٣) كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢، والبحر ٧/ ٤١٨.

(٤) البيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ١/ ٧١، والبحر ٧/ ٤١٨، ورواية الديوان: عصاني إليها القلب، أي: ذهب إليها سَفَهاً.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤١٦.

(٦) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ٩٣.

ويُعلم مما ذكرنا أنَّ المرادَ بـ «الذين يَعْلَمون»: العاملون من علماء الديانة. وصرَّح بإرادة ذلك بعضُ الأجلَّة على تقديرَي الاتصال والانقطاع، وأنَّ الكلام تصريحٌ بنَفْي المساواةِ بينَ القانت وغيرِه المضمَّنةِ من حرفَي الاستفهام، أعني: الهمزة و«أم» على الاتصال، أو من التشبيه على الانقطاع، وعلى قراءة التخفيف أيضاً؛ وقال: إنمَّا[1] عُدل إلى هذه العبارة دلالةً على أنَّ ذلك مقتضى العلم، وأنَّ العلمَ الذي لا يترتَّب عليه العملُ ليس بعلم عندَ الله تعالى، سواء جُعل من بابِ إقامة الظاهر مُقامَ المضمَر للإشعار المذكور، أو استئناف سؤالٍ تبكيتيٍّ؛ توضيحاً للأوَّل من حيثُ التصريحُ، ومن حيثُ إنَّهم وُصِفوا بوصفٍ آخَرَ يقتضي اتصافهم بتلك الأوصاف، ومباينتَهم لطبقةِ مَنْ لا يتَّصف به[2]. وهذا أبلغُ وأظهر لفظاً لقوله تعالى: «قل».

وجوَّز أن يكون الكلامُ وَارِداً على سبيل التشبيه فيكونُ مقرِّراً لنَفْي المساواة، لا تصريحاً بمقتضى الأوَّل، أي: كما لا استواءَ بينَ العالِم وغيرِه عندَكم من غيرِ ريبةٍ، فكذلك ينبغي أن لا يكون لكم ارتيابٌ في نفْي المساواة بينَ القانت المذكور وغيره.

وكونُه للتصريح بنفي المساواة، وحَمْلُ «الذين يعلمون» على العامِلين من علماء الديانة على ما سمعتَ، مما لا ينبغي أن يُختارَ غيرُه لتكثير الفائدة.

وأمَّا مَن ارتابَ في ذلك الواضح فلا يبعدُ منه الارتيابُ في هذا الواضح أيضاً، فجوابُه أنَّ الاستنكافَ عن الجهل مركوزٌ في الطباع بخلاف الأول.

ويُشعر كلامُ كثيرٍ أنَّ قولَه تعالى: «أم من هو» إلخ غيرُ داخل في حيِّز القول، والمعنى عليه كما في الأول بتغييرٍ يسير لا يخفى.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه تلا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ الآية، فقال: نزلت في عثمانَ بن عفان[3].

---

(١) في (م): قال: وإنما.

(٢) قوله: به، ليس في (م).

(٣) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٣٢.

وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عبَّاس أنَّها نزلت في عمَّار بن ياسر(١).

وأخرج جُويبر عنه أنها نزلت في عمارٍ وابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة. وعن عكرمة الاقتصار على عمار(٢).

وعن مقاتل: المراد بـ «من هو قانت»: عمارٌ وصهيبٌ وابنُ مسعود وأبو ذرٍّ(٣).

وفي رواية الضحَّاك عن ابن عباس: أبو بكر وعمر(٤).

وقال يحيى بن سلَّام: رسول الله ﷺ(٥).

والظاهر أنَّ المرادَ المتَّصِفُ بذلك من غير تعيين، ولا يمنع من ذلك نزولُها فيمن علمتَ، وفيها دلالةٌ على فضل الخوف والرجاء، وقد أخرج الترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك»؟ قال: أرجو وأخاف، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يجتمعان في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطن إلَّا أعطاه الذي يرجو، وآمنه الذي يخاف»(٦).

وفيها ردٌّ على من ذمَّ العبادة خوفاً من النار أو رجاء الجنة، وهو الإمام الرازيُّ كما قال الجلال السيوطيُّ(٧). نعم؛ العبادةُ لذلك ليس إلَّا مذمومةٌ، بل قال بعضُهم بكفرِ من قال: لولا الجنة والنار ما عبدتُ الله تعالى، على معنى نَفْي الاستحقاق الذاتيِّ.

وفيها دلالةٌ أيضاً على فضل صلاة الليل وأنَّها أفضلُ مِنْ صلاةِ النهار.

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ٢٥٠، وتاريخ دمشق ٤٣/ ٣٧٧، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٣.
(٢) أسباب النزول للسيوطي ص٣١٩.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٤١٩.
(٤) تفسير البغوي ٦/ ٦٩، والبحر المحيط ٧/ ٤١٩.
(٥) النكت والعيون ٥/ ١١٧.
(٦) الترمذي (٩٨٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٣٤)، وابن ماجه (٤٢٦١).
(٧) في الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٢٤.

ودلَّ قولهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ إلخ على فضل العلم ورِفعة قَدْرِه، وكونِ الجهل بالعكس. واستدلَّ به بعضُهم على أنَّ الجاهلَ لا يكافئ العالِمَة كما أنَّه لا يكافئ بنتَ العالم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ كلامٌ مستقلٌّ غيرُ داخل عند الكافَّة في الكلام المأمور، واردٌ من جهته تعالى بعدَ الأمر بما تضمَّن القوارعَ الزاجرةَ عن الكفر والمعاصي؛ لبيانِ عدمِ تأثيرها في قلوبِ الكفرة لاختلال عقولهم، كما في قوله:

عُوجُوا فحَيُّوا لنُعْمَى دِمْنَةَ الدارِ ماذا تُحَيُّون من نُؤْيٍ وأَحْجارِ(١)

وهو أيضاً كالتوطئة لأفراد المؤمنين بعدُ بالخطاب والإعراض عن غيرهم، أي: إنَّما يتَّعظ بهذه البيانات الواضحة أصحابُ العقول الخالصة عن شوائب الخلل، وأما هؤلاء فبمعزلٍ عن ذلك.

وقرئ: «يذَّكَّرُ» بالإدغام(٢).

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أُمِرَ رسولُ الله ﷺ أنْ يذكِّر المؤمنين ويحملَهم على التقوى والطاعة إثْرَ تخصيصِ التذكُّرِ بأولي الألباب، وفيه إيذانٌ بأنَّهم هم، أي: قلْ لهم قَولي هذا بِعَينه، وفيه تشريفٌ لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيدُ اعتناءٍ بشأنِ المأمور به؛ فإنَّ نقلَ عينِ أمر الله تعالى أدخلُ في إيجاب الامتثال به.

وقولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ إلى آخره تعليلٌ للأمر؛ أو لوجوبِ الامتثال به، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو خبرٌ مقدَّم. وقولُه سبحانه: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّقٌ بـ «أحسَنوا»، واسم الإشارة للإحضار، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأ، وتنوينُه للتفخيم، أي: للمحسنين في الدنيا حسنةٌ في الآخرة أيُّ حسنةٍ، والمرادُ بها الجنة.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وقد سلف ١٧/ ١٠٧.
(٢) البحر ٧/ ٤١٩.

وقولُه عزَّ وجل: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ جملةٌ معترضة إزاحةً لِمَا عسى أنْ يُتوهَّم من التعلُّل في التفريط بعَدمِ التمكُّن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي على ما هي عليه. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ من تتمَّة الاعتراض، فكأنَّه قيل: اتقوا ربَّكم فإنَّ للمحسنين في هذه الدنيا الجنةَ في الأُخرى، ولا عُذْرَ للمفرِّطين في الإحسان بعدَمِ التمكُّن في الأوطان؛ فإنَّ أرضَ الله تعالى واسعةٌ وبلادَه كثيرةٌ، فليتحوَّلُوا - إن لم يتمكَّنُوا - عنها، وليهاجِرُوا إلى ربِّهم لنيلِ الرضوان، فإنَّ لهم في جنبِ ذلك ما يتقاصرُ عنه الجنَّة، ويستلذُّ له كلُّ محنة.

وكأنَّه لمَّا أزاحَ سبحانه عِلَّتَهم بأنَّ في أرضِ الله تعالى سعةً وقع في خَلَدِهم: هل نكون نحن ومن يتمكَّن من الإحسان في بلدته فارغَ البال رافغَ الحال[1] سواءً بسواء؟ فأجيبوا: «إنما يوفَّى الصابرون» الذين صبَروا على الهجرة ومفارقة المحابِّ والاقتداء بالأنبياء والصالحين «أجرَهم بغير حساب». وأصلُه: إنَّما توفَّون أجورَكم بغير حساب؛ على الخطاب، وعُدل عنه إلى المنزَّل تنبيهاً على أنَّ المقتضي لذلك صبرُهم، فيفيد أنكم توفَّون أجورَكم بصبركم كما وُفِّيَ أجرُ مَنْ قبلَكم بصبرهم. وهو محمولٌ على العموم شاملٌ للصبر على كلِّ بلاء غيرُ مخصوص بالصبر على المهاجرة؛ لكنَّه إنمَّا جيء به في الآية لذلك وليشمَلَ الصابرينَ على ألَمِ المهاجَرةِ شُمولاً أوَّليّاً.

والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال إمَّا من الأجر، أي: إنمَّا يوفَّون أجرَهم كائناً بغير حساب، وذلك بأن يُغرَفَ لهم غَرْفاً ويُصَبَّ عليهم صبّاً، وإمَّا من الصابرين، أي: إنمَّا يوفَّون ذلك كائنين بغيرِ حساب عليه. والمرادُ على الوجهين المبالغةُ في الكثرة، وهو المراد بقول ابن عباس: لا يهتدِي إليه حِسابُ الحُسَّاب ولا يُعْرف[2].

وجُوِّز جعلُ الحال من الصابرين على معنى: لا يحاسبون أصلاً، والمتبادِرُ ما يفيد المبالغةَ في كثرة الأجر، ومعنى القصر: ما يوفَّى الصابرون أجرَهم إلَّا بغير

---

(١) قوله: رافغ الحال، في اللسان (رفغ): عيشٌ رافغٌ: خصيبٌ واسع.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٩١، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٦.

حساب، جُعل الجارُّ والمجرور حالاً من المنصوب أو المرفوع؛ لأنَّ القصرَ في الجزء الأخير، وفيه من الاعتناء بأمرِ الأجر ما فيه. وأمَّا اختصاصُه بالصابرين دونَ غيرهم فمِنْ ترتُّب الحكم على المشتقِّ.

هذا، ونُقل عن السدِّيِّ أنَّ قوله تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّقٌ بـ «حسنة» من حيثُ المعنى[1]، فقيل: هو حينئذٍ حالٌ من «حسنة». ورُدَّ بأنَّها مبتدأ، ولا يجوزُ الحال منه على الصحيح. فإن قيل: يلتزمُ جعلها فاعلَ الظرف، قيل: لا يتسنَّى إلَّا على مذهب الأخفش، وهو ضعيف. وقيل: حالٌ من الضمير المستتر في الخبر الراجع إلى «حسنة».

وقال الزمخشريُّ[2]: هو بيانٌ لـ «حسنة»، والتقديرُ: هي في الدنيا، والمراد بها الصحةُ والعافية، أي: للمحسنين صحَّةٌ وعافيةٌ في الدنيا.

قال في «الكشف»: وإنما آثر كونَه بياناً مع جوازِ كونه حالاً عن الضمير الراجعِ إلى «حسنة» في الخبر؛ لأنَّ المعنى على البيان، لا على التقييد بالحال، وذلك لأنَّ المعنى على هذا الوجه: إنَّ للمحسنين جزاءً يسيراً في الدنيا هو الصحة والعافية، وإنما توفيةُ أجورِهم في الآخرة، ولو قُيِّد بالحال لم يلائم على ما لا يخفى.

وحَقُّ قولِه تعالى: «وأرض الله واسعة» على هذا أن يكونَ اعتراضاً إزاحةً لِمَا قد يختلِجُ في بعضِ النفوس من خلافِ ذلك الجزاءِ بواسطة اختلافِ الهواء والتُّربة وغيرِ ذلك مما يؤدي إلى آفاتٍ في البدن، فقيل: وأرضُ الله تعالى واسعة فلا يعدِم أحدٌ محلًّا يناسِبُ حالَه فليتحوَّلْ عنه إليه إن لم يلائمْه. ثم يكون فيه تنبيهٌ على أنَّ مَنْ جَعَل الأرضَ ذاتَ الطول والعرض قِطَعاً متجاوِراتٍ تكميلاً لانتعاشهم وارتياشهم يجب أن تُقابَل نِعَمُه بالشكر ليُعَدُّوا من المحسنين. ثم قيل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: توفيةُ الأجر لهؤلاء المحسنين إنمَّا يكون في الآخرة، والذي نالوه في الدنيا عاجلُ حظِّهم، وأمَّا الأجرُ الموَفَّى بغير حسابٍ فذلك للصابرين ومَن

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٧٨-١٧٩، والكشاف ٣/ ٣٩١.
(٢) في الكشاف ٣/ ٣٩١.

سَلَبْنَاه تلك العاجلَة تمحيصاً له وتقريباً، وفي ذلك تسليةٌ لأهل البلاء وتنشيطٌ للعباد على مكابَدة العبادات، وتحريضٌ على ملازمة الطاعات.

ثم قال: وهذا أيضاً وجهٌ حسنٌ دقيقٌ، والرُجحان للأوَّل من وجوه:

أحدها: أنَّ الاعتراضَ لإزاحةِ العِلَّة في التفريط أظهرُ؛ لأنَّه المقصودُ من السياق على ما يظهر من قوله تعالى: «اتقوا ربَّكم».

الثاني: أنَّه المطابِقُ لِمَا وَرَد في التنزيل من نحوِ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦].

الثالث: أنَّ تعلُّقَ الظرف بالمذكور المتقدِّم هو الوجه ما لم يَصْرِفْ صارفٌ.

الرابع: أنَّه على ذلك التقدير ليس بمطَّرِدٍ ولا أكثريٍّ، فإنَّ الحسنة بذلك المعنى في شأن المخالفين أتمُّ، والقولُ بأنَّها استدراجٌ في شأنهم لا حسنةٌ؛ ليس بالظاهر، فقد قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٣١]. انتهى.

ولعمري إنَّ ما رجَّحه بالترجيح حقيقٌ، وما استحسنه واستدقَّه ليس بالحَسَن ولا الدقيق. والذي نقله الطبرسيُّ[١] عن السديِّ تفسير الحسنة في الدنيا بالثناء الحَسَن والذكر الجميل والصحَّة والسلامة، وفسَّرها بعضُهم بولاية الله تعالى، وعليه فليس للمخالفين منها نصيبٌ.

وفي الآية أقوالٌ أُخَر، فعن عطاء: أرضُ الله تعالى المدينةُ، قال أبو حيَّان: فعلى هذا يكون «أحسنوا» هاجروا، و«حسنة» راحةٌ من الأعداء[٢].

وقال قوم: أرض الله تعالى الجنة. وتعقَّبه ابن عطية بأنَّه تحكُّمٌ لا دليلَ عليه[٣]. وقال أبو مسلم: لا يمتنع ذلك لأنَّه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى، ثم بيَّن سبحانه أنَّه مَن اتقى له في الآخرة الحسنةُ، وهي الخلودُ في الجنة، ثم بيَّن جلَّ

(١) في مجمع البيان ٥/ ١٤٣.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٩.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣.

شأنه أنَّ أرضَ الله واسعةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣][١]. والرجحانُ لِمَا سمعتَ أوّلاً، واختير فيه شمولُ «الحسنة» لحسنات الدنيا والآخرة.

والمراد بالإحسان الإتيانُ بالأعمال الحسنة القلبية والقالَبية، وقال النبيُّ ﷺ في تفسيره في حديثِ جبريلَ عليه السلام: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك»[٢].

والآيةُ على ما في بعض الآثار نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابِه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة[٣]. وفيها من الدلالة على فضل الصابرين ما فيها.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ أي: من كلِّ ما يخلُّ به من الشرك والرياء وغير ذلك، أُمِر عليه الصلاة والسلام ببيان ما أُمِر به نفسُه من الإخلاص في عبادة الله عزَّ وجل الذي هو عبارة عما أُمِر به المؤمنون من التقوى، مبالغةً في حثِّهم على الإتيان بما كُلِّفوه، وتمهيداً لِمَا يعقبه مما خوطِب به المشركون.

وعدمُ التصريح بالآمر لتعيُّنِ أنَّه اللهُ عز وجل. وقيل: للإشارة إلى أنَّ هذا الأمرَ مما ينبغي امتثالُه سواءٌ صدَر منه تعالى أم صدَر من غيره سبحانه.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: وأُمرتُ بذلك لأجلِ أن أكونَ مقدَّم المسلمين في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ إحرازَ قَصَب السَّبْق في الدين بالإخلاص فيه، وإخلاصُه عليه الصلاة والسلام أتمُّ من إخلاص كلِّ مخلصٍ، فالمرادُ بالأوَّلية الأوَّليةُ في الشرَف والرُّتبة. والعطف لمغايرةِ الثاني الأولَ بتقييده بالعلَّة، والإشعار بأنَّ العبادة المذكورةَ كما تقتضي الأمْرَ بها لذاتها تقتضيه لِمَا يلزَمُها من السَّبْق في الدين.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٢) سلف ١/ ٢٩٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣.

وإلى حذفِ متعلّق الأمر وكونِ اللّام تعليليةً ذهبَ البصريُّون في هذه الآية ونحوها. وذهب غيرُهم إلى أنَّها زائدة، واستُدِلَّ له بتركها في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [يونس:١٠٤]، ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام:١٤]، وكلُّ ذلك محتمِلٌ لتقدير اللّام؛ فلا تغفلْ، ولا تُزاد إلّا مع «أنْ» لفظاً أو تقديراً دونَ الاسم الصريح، وذلك لأنَّ الأصل في المفعول به أن يكون اسماً صريحاً، فكأنَّها زيدت عوَضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامَه، كما يعوَّض السين في: اسطاع، عوضاً من ترك الأصل الذي هو: أطْوَعَ، وهذه الزيادة وإن كانت شاذَّةً قياساً إلّا أنَّها لَمَّا كثُرت استعمالاً جاز استعمالها في القرآن والكلامِ الفصيح. ومثلُ هذا يقال في زيادتها مع فعل الإرادة نحو: أردت لأنْ أفعل.

وجعل الزمخشريُّ وجهَ زيادتها معه أنها لَمَّا كان فيها معنى الإرادة زيدت تأكيداً لها، وجعل وجهاً في زيادتها مع فعل الأمر أيضاً، لا سيَّما والطلبُ والإرادةُ عندَهم من بابٍ واحد. وفي المعنى أوجهٌ: أن أكون أوَّلَ مَن أسلم في زماني ومِن قومي، أي: إسلاماً على وفق الأمر، وأن أكونَ أولَ الذين دعوتُهم إلى الإسلام إسلاماً. وأن أكونَ أولَ مَن دعا نفسَه إلى ما دعا إليه غيرَه؛ لأكون مقتدًى بي قولي وفعلي جميعاً، ولا تكون صفتي صفةَ الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعلَ ما أستحقُّ به الأوَّليَّةَ والشرَفَ من أعمال السابقين، دلالةً على السبب - وهي الأعمال التي يُستحقُّ بها الشرفُ - بالمسبَّب وهو الأوَّلية والشرَفُ المذكور في النظم الجليل. ذكر ذلك الزمخشريُّ[2].

وفي «الكشف»: المختارُ من الأوجه الأربعةِ الوجهُ الثاني، فإنَّه المكرَّر الشائعُ في القرآن الكريم، وفيه سائرُ المعاني الأُخَر من موافقةِ القول الفعلَ، ولزومِ أوَّليَّة الشرَف من أوَّليَّة التأسيس، مع أنَّه ليس فيه أنّه أُمر بأن يكونَ أشرفَ وأسبق، فافهم.

---

(١) قوله تعالى: «وأمرت أن أكون من المؤمنين»، ساقط في الأصل، والمثبت من (م) والكشاف ٣/ ٣٩٢، والكلام منه.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٩٢.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميلِ إلى ما أنتم عليه من الشرك. وجُوِّز العموم، أي: أخافُ إن عصيتُه بشيء من المعاصي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ هو يومُ القيامة، ووَصفه بالعظمةِ لعظمةِ ما فيه من الدَّواهي والأهوال، وهو مجازٌ في الظرف أو الإسناد، وهو أبلغ، ولذا عُدل عن توصيف العذاب بذاك، والمقصودُ من قولِ ذلك لهم تهديدُهم والتعريضُ لهم بأنَّه عليه الصلاة والسلام مع عظمته لو عصى الله تعالى ما أمِن العذابَ، فكيفَ بهم.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ لا غيرَه سبحانه، لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ حالٌ من فاعلِ «أعبدُ»، فقيل: مؤكِّدةٌ؛ لِمَا أنَّ تقديمَ المفعول قد أفاد الحصرَ وهو يدلُّ على إخلاصه عن الشرك الظاهر والخفيِّ. وقيل: مؤسِّسةٌ.

وفسِّر إخلاصُ الدين له تعالى بعبادته سبحانه لذاته من غير طلبِ شيء؛ كقول رابعة: سبحانك ما عبدتُك خوفاً من عقابك ولا رجاءَ ثوابك.

ويفسَّر بتجريده عن الشرك بقِسْمَيه وأن يكونَ معه ما يَشينه من غير ذلك؛ كما أشير إليه آنفاً. والفرقُ بين هذا وقولِه سبحانه: (قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ) إلخ أنَّ ذاك أمرٌ ببيانِ كونِه عليه الصلاة والسلام مأموراً بعبادته تعالى مخلصاً له الدينَ، وهذا أمرٌ بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، إظهاراً لتصلُّبه ﷺ في الدين؛ وحسماً لأطماعهم الفارغةِ حيثُ إنَّ كفَّارَ قريشٍ دعوه ﷺ إلى دينهم فنزلت لذلك[1]، وتمهيداً لتهديدهم بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم﴾ أن تعبدوه ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ، وفيه من الدلالة على شدَّة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنَّهم لمَّا لم ينتهوا عمَّا نُهُوا عنه أُمِروا به كي يحلَّ بهم العقابُ.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران، وهو إضاعةُ ما يهمُّ[2] وإتلافُ ما لا بدَّ منه، لجمعهم أعاظمَ أنواعِ الخسران.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٣، ونسبه إلى مقاتل.

(٢) في (م): ما بهم. بالباء الموحدة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٦، والكلام منه.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ باختيارهم الكفرَ لهما، فالمراد بالأهلِ أتباعُهم الذين أضلُّوهم، أي: أضاعوا أنفسَهم وأضاعوا أهليهم وأتلفوهما ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النارَ حيثُ عرَّضوهما للعذاب السرمديِّ وأوقعوهما في هَلَكَةٍ ما وراءها هَلَكَةٌ.

ولو أُبقي «يومَ القيامة» على ظاهره - لأنَّه يتبيَّن فيه أمرُهم ويتحقَّق مبدأ خسرانهم - صحَّ على ما قيل.

وقيل: المرادُ بالأهل الأتباعُ مطلقاً، وخسرانُهم إياهم؛ لأنَّهم إنْ كانوا من أهل النار فقد خسِروهم كما خسروا أنفسَهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا إيابَ بعدَه. وتعقِّب بأنَّ المحذورَ ذهابُ مَن لو آب لانتفع به الخاسرُ، وذلك غير متصوَّرٍ في الشِّقِّ الأخير.

وقيل: المرادُ بالأهل ما أعدَّه الله تعالى لمن يدخلُ الجنة من الخاصَّة، أي: وخسِروا أهليهم الذين كانوا يكونونَ لهم في الجنة لو آمنوا؛ أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال: ليس أحدٌ إلَّا قد أعدَّ الله تعالى له أهلاً في الجنة إن أطاعه[(١)]. وأخرجا نحوَه عن مجاهد[(٢)]. وروي أيضاً عن ميمون بن مهرانَ، وكلُّهم ذكروا ذلك في الآية[(٣)].

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فيها أيضاً: خسِروا أهليهم من أهل الجنة كانوا أُعِدُّوا لهم لو عملوا بطاعة الله تعالى، فَغَبَنُوهم[(٤)]. وهو الذي يقتضيه كلامُ الحسن، فقد روي عنه أنَّه فسَّر الأهل بالحور العين[(٥)]. ولا يخفى أنَّ حملَ الآية على ذلك لا يخلو عن بُعد.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧١، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٤.
(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧١، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٤ ووقع في (م): وأخرج.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٣٢٤.
(٥) النكت والعيون ٤/ ١١٩.

وأيًّاما كان فليس المرادُ مجردَ تعريف الكاملين في الخسران بما ذُكر، بل بيان أنَّهم المخاطَبون بما تقدَّم؛ إمَّا بجعل الموصول عبارةً عنهم، أو بجعلِه عبارةً عمَّا هم مندرِجون فيه اندراجاً أوَّليًّا.

وما في قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ من استئناف الجملة، وتصديرِها بحرف التنبيه، والإشارةِ بـ «ذلك» إلى بُعدِ منزلةِ المشار إليه في الشَّرِّ، وأنَّه لِعظَمه بمنزلة المحسوس، وتوسيطِ ضميرِ الفصل، وتعريفِ «الخسران»؛ والإتيانِ به على «فُعلان» الأبلغِ من فعل[1]، ووصفِه بـ «المبين» = من الدلالة على كمالِ هَوله وفظاعتِه وأنَّه لا نوعَ من الخُسرِ وراءه ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إلى آخره نوعُ بيانٍ لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام، على أنَّ «لهم» خبرٌ لـ «ظلل»، و«من فوقهم» متعلِّقٌ بمحذوفِ حالٍ من ضميرها في الظرف المقدَّم، لا منها نفسِها؛ لضعف الحال من المبتدأ، وجعلُها فاعل الظرف حينئذٍ اتِّباعٌ لنظر الأخفش، وهو ضعيف. و«من النار» صفةٌ لـ «ظلل». والكلامُ جارٍ مَجرى التهكُّم بهم، ولذا قيل: «لهم»، وعبِّر عمَّا علاهم من النار بالظلل. أي: لهم كائنةً من فوقهم ظللٌ كثيرةٌ متراكمةٌ بعضُها فوقَ بعضٍ[2] كائنةٌ من النار.

﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كائنةٌ من النَّار أيضاً، والمرادُ أطباقٌ كثيرةٌ منها، وتسميتُها ظللاً من باب المشاكلة.

وقيل: هي ظللٌ لمن تحتَهم في طبقة أخرى من طبقات النار، ولا يطَّرِدُ في أهل الطبقة الأخيرة من هؤلاء الخاسرين، إلَّا أن يقال: إنَّها للشياطين ونحوِهم مما لا ذِكْر لهم هنا.

وقيل: إنَّ ما تحتهم يلتَهب ويتصاعد منه شيءٌ حتى يكونَ ظُلَّةً فسُمِّيَ ظلة باعتبار ما آلَ إليه أخيراً. وليس بذاك، والمرادُ أنَّ النارَ محيطةٌ بهم.

---

(١) بفتح الفاء مع تسكين العين وفتحها، وضم الفاء مع تسكين العين وضمها، قال في القاموس (خسر): خَسر كفرح وضرب، خَسْراً وخَسَراً وخُسْراً وخُسُراً وخُسْراناً. . .

(٢) في الأصل: بعضاً فوق بعضٍ، والمثبت من (م)، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٨.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الفظيع ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ يذكره سبحانَه لهم بآياتِ الوعيد ليخافوا فيجتنبوا ما يُوقِعُهم فيه. وخصَّ بعضُهم «العبادَ» بالمؤمنين؛ لأنَّهم المنتفعون بالتخويف، وعمَّم آخرون. وكذا في قوله سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ ولا تتعرَّضوا لِمَا يوجِبُ سَخَطِي. ويختلف المرادُ بالأمر على الوجهين كما لا يخفى، وهذه عِظَةٌ من الله جلَّ جلالُه وعمَّ نوالُه منطويةٌ على غاية اللطفِ والرحمة.

وقرئ: «يا عبادي» بالياء[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ إلخ، قال ابن زيد: نزلت في ثلاثة نفرٍ كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله: زيدِ بن عمرو بن نفيل، وسلمانَ، وأبي ذرٍّ[٢].

وقال ابن إسحاق: أشير بها إلى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد والزبير، وذلك أنه لمَّا أسلم أبو بكر سمعوا ذلك، فجاؤوه وقالوا: أسلمتَ؟ قال: نعم، وذكَّرهم بالله تعالى، فآمنوا بأجمعِهم، فنزلت فيهم[٣]. وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة.

و«الطَّاغُوْت»: فعلوت[٤]، من الطغيان كما قالوا ـ لا: فاعول، كما قيل ـ بتقديم اللام على العين، نحو: صاعقة، وصاقعة، ويدلُّ على ذلك الاشتقاقُ، وأنَّ طوغ وطيغ، مهملان.

وأصلُه: طغيوت، أو: طغووت، من الياء أو الواو؛ لأنَّ طغى يطغى، ويطغو، كلاهما ثابتان في العربية، نقله الجوهريُّ، ونقل أنَّ الطغيان والطغوان بمعنًى[٥]، وكذا الراغب[٦]. وجمعُه على الطواغيت يدلُّ على أنَّ الجمعَ بُني على الواو.

---

(١) النشر ٢/ ٣٦٤ عن رويس.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ١٨٥، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤٩.
(٣) نقله المصنف من البحر ٧/ ٤٢٠.
(٤) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر المحيط ٢/ ٢٧٢، والصواب كما في الدر المصون ٢/ ٥٤٨: فَلَعُوت. بدليل ما عقَّب عليه الآلوسي بقوله الآتي: بتقديم اللام على العين.
(٥) الصحاح (طغا).
(٦) المفردات (طغى).

وقولُهم: من الطغيان، لا يريدون به خصوصَ الياء، بل أرادوا المعنى، وهو على ما في «الصحاح»: الكاهنُ والشيطان، وكلُّ رأسٍ في الضلال[١].

وقال الراغب: هو عبارةٌ عن كلِّ متعدٍّ وكلِّ معبود من دون الله تعالى، وسمِّي به الساحرُ والكاهنُ والماردُ من الجِنِّ والصارفُ عن الخير، ويستعمل في الواحد والجمع[٢].

وقال الزمخشريُّ في هذه السورة: لا يطلق على غير الشيطان، وذكر أنَّ فيه مبالغاتٍ من حيثُ البِناءُ، فإنَّ صيغةَ: فعلوت، للمبالغة، ولذا قالوا: الرحموت: الرحمة الواسعة، ومن حيثُ التسميةُ بالمصدر، ومن حيثُ القلبُ، فإنَّه للاختصاص كما في: الجاه[٣]. وقد أطلقه في «النساء» على كعب بن الأشرف، وقال: سمِّي طاغوتاً؛ لإفراطه في الطغيان وعداوةِ رسولِ الله ﷺ، أو على التشبيه بالشيطان[٤]. فلعلَّه أراد: لا يطلق على غير الشيطان على الحقيقة، وكأنَّه جعل كعباً على الأول من الوجهين من شياطين الإنس.

وفي «الكشف»: كأنه لمَّا رآه مصدراً في الأصل، منقولاً إلى العين، كثيرَ الاستعمال في الشيطان؛ حكم بأنَّه حقيقةٌ فيه بعدَ النقل؛ مجازٌ في الباقي لظهور العلاقَة، إما استعارة وإما نظر إلى تناسُب المعنى.

والذي يغلب على الظن أنَّ «الطاغوت» في الأصل مصدرٌ نُقل إلى البالغ الغايةَ في الطغيانِ وتجاوُزِ الحدِّ، واستعمالُه في فردٍ من هذا المفهوم العامِّ ـ شيطاناً كان أو غيرَه ـ يكونُ حقيقةً ويكون مجازاً، على ما قرَّروا في استعمال العامِّ في فرد من أفراده، كاستعمال الإنسان في زيد، وشيوعُه في الشيطان ليس إلَّا لكونه رأسَ الطاغين.

---

(١) الصحاح (طغا).

(٢) المفردات (طغى).

(٣) الكشاف ٣/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٤) الكشاف ١/ ٥٣٦.

وفسَّره هنا بالشيطان مجاهدٌ. ويجوز تفسيرُها بالشياطين جمعاً على ما سمعتَ عن الراغب، ويؤيِّده قراءةُ الحسن: «اجتنبوا الطواغيت»(١).

﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ من «الطاغوت»، وعبادةُ غير الله تعالى عبادةٌ للشيطان؛ إذ هو الآمرُ بها والمزيِّنُ لها، وإذا فُسِّر «الطاغوتُ» بالأصنام فالأمر ظاهرٌ. ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه سبحانه معرضين عمَّا سِواه إقبالاً كلِّياً. ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ بالثواب من الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام، أو الملائكةِ عندَ حضور الموت وحين يحشرون وبعدَ ذلك.

﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ مدحٌ لهم بأنَّهم نُقَّادٌ في الدين يميِّزون بينَ الحَسَن والأحسن، والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجبٌ وندبٌ، اختاروا الواجبَ، وكذلك المباحُ والندبُ.

وقيل: يستمعون أوامرَ الله تعالى فيتَّبعون أحسنَها نحو القِصاصِ والعفو، والانتصارِ والإغضاء؛ والإبداء والإخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧١]. والفرق بين الوجهين أنَّ هذا أخصُّ لأنَّه مخصوصٌ بأوامرَ فيها تخييرٌ بين راجحٍ وأرجحَ كالعفو والقِصاص مثلاً، كأنَّه قيل: يتَّبعون أحسنَ القولين الواردين في معيَّن، وفي الأول: يتبعون الأحسنَ من القولين مطلقاً؛ كالإيجاب بالنسبة إلى الندب مثلاً. وعن الزجّاج: يستمعون القرآن وغيرَه، فيتبعون القرآن(٢).

وقيل: يستمعون القولَ ممن كان فيتبعون أَولاه بالقَبول وأرشدَه إلى الحقِّ. ويلزَمُ مِن وصفِهم بذلك أنَّهم يميِّزون القبيحَ من الحَسن ويجتنبون القبيح.

وأريد بهؤلاء العباد الذين اجتنَبوا وأنابوا لا غيرُهم؛ لئلَّا ينفكَّ النظم، فإنَّ قولَه تعالى: «فبشر» مرتَّبٌ على قوله سبحانه: «لهم البشرى»، ووضع الظاهر موضعَ الضمير ليشرِّفهم تعالى بالإضافة إليه؛ ولتكرير بيانِ الاستحقاق؛ وليدُلَّ

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٣٦، والبحر المحيط ٧/ ٤٢١.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٤٩.

على أنَّهم نَقَّادون[١] حرصاً على إيثار الطاعة ومزيدِ القرب عند الله تعالى، وفيه تحقيقٌ للإنابة وتتميمٌ حسن.

وقيل: الوقفُ على «عبادي»، فيكون «الذين» مبتدأً خبرُه جملةُ قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: لدينه، والكلامُ استئنافٌ بإعادةِ صفةِ مَن استُؤْنِف عنه الحديثُ. وما تقدَّم أرجحُ لِمَا سلف من الفوائد من إقامة الظاهر مقامَ المضمر والتتميم، فإنَّ ذلك دون الوصف لا يتمُّ، ولأنَّ محرِّك السؤال المجابِ بالجملة بعدَ قوله تعالى: «يتبعون أحسنه» أقوى؛ وذلك الأصلُ في حُسن الاستئناف.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ أي: هم أصحابُ العقول السليمة عن معارَضةِ الوهم ومنازعةِ الهوى المستحقُّون للهداية، لا غيرُهم. وفي الآية دلالةٌ على حطِّ قَدْر التقليد المحْضِ، ولذا قيل:

شمِّرْ وكُنْ في أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثلَ عَيْرٍ قِيْدَ فانقادا

واستُدِلَّ بها على أنَّ الهداية تحصُل بفعل الله تعالى وقَبول النفس لها كما ذهب إليه الأشاعرة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ بيانٌ لأضداد المذكورين على طريقة الإجمال، وتسجيلٌ عليهم بِحِرْمان الهداية وهم عَبَدَةُ الطاغوت ومتَّبِعو خطواتِها؛ كما يلوِّح به التعبير عنهم بـ «مَن حقَّ عليه كلمةُ العذاب»، فإنَّ المرادَ بتلك الكلمة قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] والآية على ما قيل: نزلت في أبي جهل وأضرابه[٢].

والهمزةُ للإنكار، والفاءُ للعطف على مقدَّر، و«مَن» شرطيةٌ على ما ذهب إليه الحوفي وغيرُه[٣]، وجواب الشرط «فأنت تنقذ» إلخ، والهمزة قبله لاستطالة الكلام على نحوِ قوله:

---

(١) أي: في الدِّين يميِّزون بين الحق والباطل. تفسير البيضاوي ٧/ ٣٣٢، وأبي السعود ٧/ ٢٤٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٢١.
(٣) كما في البحر المحيط ٧/ ٤٢١.

لقد عَلِم الحزبُ اليمانونَ أنَّني إذا قلتُ: أما بعد، أنِّي خطيبُها[١]

لأنَّ دخول الهمزة في الجواب أو الشرط كافٍ، تقول: أإن أكرمك تكرمه، كما تقول: إن أكرمك أتكرمه. ولا تكرِّرها فيهما إلَّا للتأكيد؛ لأنَّ الجملتين ـ أعني الشرطَ والجزاء ـ بعد دخول الأداة مفردان، والاستفهامُ إنَّما يتوجَّهُ على مضامين الجمل إذا كان المطلوبُ تصديقاً، والإنكارُ المُفادُ بالهمزة متعلِّقٌ بمضمون المعطوف والمعطوف عليه، إلَّا أنَّ المقصود في المعطوف إنكارُ الجزاء[٢]، والتقدير: أأنت مالكُ أمرِ الناس قادرٌ على التصرُّف فيه، فمن حقَّ عليه كلمةُ العذاب فأنت تنقذه؟ على معنى: لست أنتَ مالك أمرِ الناس ولا أنت تَقْدِر على الإنقاذ، بل المالكُ والقادرُ على الإنقاذ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

وعُدل عن: فأنت تنقذه، إلى ما في النظم الكريم؛ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد، مع ما فيه من الإشارة إلى أنَّه نُزِّل استحقاقُهم للعذاب وهم في الدنيا المشعِرُ به الشرطُ منزلةَ دخولهم النارَ، وأنَّه مُثِّل حالُه عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم والاجتهاد في دعائهم إلى الإيمان بحالِ مَن يريد أن يُنْقِذَ مَن في النار مِنها.

وفي «الحواشي الخفاجيَّة» نقلاً عن السعد أنَّ في هذه الآية استعارةً لا يعرفها إلَّا فُرسانُ البيان، وهي الاستعارة التمثيلية المكنية؛ لأنَّه نُزِّل ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: «أفمن» إلخ من استحقاقهم العذابَ وهم في الدنيا منزلةَ دخولهم النارَ في الآخرة، حتى يترتَّبَ عليه تنزيلُ بَذْلِه عليه الصلاة والسلام جهدَه في دعائهم إلى الإيمان منزلةَ إنقاذِهم من النار الذي هو من ملائمات دخول النار. ثم قال: وقد عرفتَ من مذهبه أنَّ قرينة المكنية قد تكون تحقيقيةً كما في نقضِ العهد[٣]. انتهى، فتأمَّل.

---

(١) البيت نسب إلى سحبان بن زفر الباهلي. جمهرة الأمثال ١/ ٢٤٨، وخزانة الأدب ١/ ٣١٥ وورد فيهما: الحيُّ، بدل: الحزب. وينظر المنتظم ٥/ ٢٨٣ وسلف البيت ١٠/ ٤٠٠.

(٢) ورد هنا في هامش الأصل ما نصه: الخلاف بين سيبويه ويونس في المستفهم عنه ـ إذا دخلت الهمزة على الشرط ـ هل المجموع، أو جواب الشرط؟ معروف بين النحاة. اهـ.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٤.

وقيل: إنَّ النارَ مجازٌ عن الضلال من باب إطلاق اسم المسبَّب على السبب، والإنقاذ بدلَ الهداية من ترشيح المجاز، أو مجازٌ عن الدعاء للإيمان والطاعة. وليس بذاك.

وجوِّز أن يكون الجزاءُ محذوفاً، وجملةُ «فأنت تنقذ» إلخ مستأنَفةٌ مقرِّرةٌ للجملة الأولى، والتقدير: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب فأنت تخلِّصه، أفأنت تنقذ من في النار؟.

ولا فرقَ بين الوجهين في أنَّ «الفاء» في الأولى للعطف على محذوف، ولا في كون المعنى على تنزيل استحقاقِ العذاب وهم في الدنيا منزلةَ دخولهم النارَ، وتمثيلِ حاله عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم بحالِ مَن يريد أن يُنْقِذَ مَن في النار منها، نعم الكلامُ على الأول جملة، وعلى الثاني جملتان.

واستظهر أبو حيان أنَّ «مَن» موصولةٌ مبتدأ، والخبر محذوف، وحَكى أنَّ منهم مَن يقدِّره: يتأسَّفُ عليه، ومنهم من يقدِّره: يتخلَّص منه، ومنهم من يقدِّره: فأنت تخلِّصه[1]. ولا يخفى أنَّ التقديرَ الأخير أولى. وذكر أنَّ النحاةَ على أنَّ «الفاء» في مثل هذا التركيب للعطف وموضعُها قبلَ الهمزة، لكن قدِّمت الهمزةُ لأنَّ لها صدر الكلام، وقال: إن القول بأنَّ كلًّا منهما في مكانه، قولٌ انفرد به الزمخشريُّ فيما علمنا[2].

وفي «المغني» ترجيحُ القول بأنَّ الهمزةَ مقدَّمة من تأخيرٍ[3]، وعليه يقدَّر المعطوف عليه: ما أنت مالكُ أمرِهم، أو: ما أخبر الله تعالى به واقعٌ لا محالةَ، أو: كلُّ كافرٍ مستحقٌّ للعذاب، أو نحوُ ذلك مما يناسبُ المعنى المراد.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢١.

(٢) البحر ٧/ ٤٢١، وقال: قدر الزمخشري بين الهمزة والفاء جملة حتى تقرأ الهمزة في مكانها والفاء في مكانها، فقال: التقدير: أأنت مالك أمرهم فمن حقَّ عليه كلمة العذاب، إلخ. ينظر الكشاف ٣/ ٣٩٣.

(٣) مغني اللبيب ص٢٢.

﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ استدراكٌ بينَ ما يشبه النقيضَين والضدَّين وهما المؤمنون والكافرون وأحوالهما، والمراد بـ «الذين اتقوا» الموصوفون بما عدِّد من الصفات الفاضلة. والغرفُ: جمعُ غرفةٍ، وهي العلِّيَّة، أي: لهم علاليُّ كثيرةٌ جليلة بعضُها فوقَ بعض.

﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ قيل: هو كالتمهيد لقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ أي: من تحت تلك الغُرَف الفوقانيات والتحتانيات ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي: مبنيةٌ بناءً يتأتَّى معه جريُ الأنهار من تحتها، وذلك على خلاف علاليِّ الدنيا، فيفيد الوصفُ بذلك أنَّها سُوِّيت تسويةَ البناء على الأرض وجُعلت سطحاً واحداً يتأتَّى معه جري الأنهار عليه على أنَّ مياهَ الجنة لمَّا كانت منحدرةً من بُطْنانِ العرش ـ على ما في الحديث[1] ـ فهي أعلى من الغُرف، فلا عجبَ من جري الماء عليها فوقاً وتحتاً، لكن لا بدَّ من وضعٍ يتأتَّى معه الجريُ، فالوصف المذكور لإفادة ذلك.

وقال بعض الأجلة: الظاهر أنَّ هذا الوصف تحقيقٌ للحقيقة وبيان أنَّ الغرف ليست كالظُّلَل حيثُ أُريد بها المعنى المجازيُّ على الاستعارة التهكُّميَّة.

وقال بعضُ فضلاءِ إخوانِنا المعاصرين: فائدةُ التوصيف بما ذُكر الإشارةُ إلى رفعةِ شأن الغرف حيثُ آذَنَ أنَّ الله تعالى بانيها، وماذا عسى يقال في بناءٍ بناهُ الله جلَّ وعلا.

وأقول والله تعالى أعلم: وُصفت الغرفُ بذلك؛ للإشارة إلى أنَّها مهيَّأةٌ معدَّةٌ لهم قد فُرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف، لا أنَّها تُبنى يوم القيامة لهم. وفي ذلك من تعظيم شأن المتقين ما فيه. وفي الآية على هذا ردٌّ على المعتزلة، وكأنَّ الزمخشريَّ لذلك لم يحُم حولَ هذا الوجه واقتصر على ما حكيناه أولاً، مع أنَّ ما قلناه أقربُ منه، فليُحْفظ.

---

(١) منه ما أخرجه البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة.. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة ـ أراهُ ـ فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة».

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجملة قبلَه فإنَّه وعدٌ أيُّ وَعْدٍ.

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠﴾ لِمَا في خُلْفه من النقص المستحيلِ عليه عزَّ وجلَّ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استئنافٌ واردٌ إمَّا لتمثيل الحياة الدنيا في سرعةِ الزوال وقُربِ الاضمحلال بما ذُكر من أحوال الزرع تحذيراً من الاغترار بزهرتها، أو للاستشهاد على تحقُّق الموعود من الأنهار الجارية من تحتِ الغُرَف بما يشاهَد من إنزال الماء من السماء وما يترتَّب عليه من آثارِ قدرتِه سبحانه وإحكام حكمتِه ورحمته.

والمرادُ بالماء المطرُ، وبالسماء جهةُ العلو. وقيل: الأجرامُ العُلوية، وكونُ إنزال المطر منها باعتبارِ أنَّه بأسبابٍ ناشئة منها، فإنَّ تصاعُد الأبخرة وتكوُّنَ الغيوم بسببِ جذبِ الشمس واختلافِ أوضاعها ونحو ذلك من الأسباب التي يعلمها الله تعالى.

وأمَّا كونُ إنزال المطر نفسِه من جِرم السماء المعروفة نفسها، فكثيراً ما يرتفع سحابٌ ويُمْطِرُ مطراً غزيراً، وهناك مَن هو على ذِروة جبلٍ لا سحابَ عنده ولا مطرَ.

والتزامُ أنَّ المطر في ذلك نازلٌ من جِرم السماء أيضاً على السحاب لكن لا يشاهده من هو مشرِفٌ على السحاب وواقفٌ[1] فوق الجبل = لا يخفى حالُه.

وقيل: المراد بالماء كلُّ ماء في الأرض، والمراد بالإنزال المذكور الإنزالُ في مبدأ الخليقة، وذلك أنَّه عزَّ وجلَّ لمَّا خَلَق الأرضَ خلقها خاليةً من الماء فأنزل من بحرٍ تحتَ العرش ماءً ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في ينابيع، أي: عيونٍ ومجاري كائنةٍ في الأرض كالعروق في الأجساد، فعلى الأول يقتضي ظاهرُ الآية أنَّ ماء العيون والقنوات من ماء المطر، وعلى الثاني ليس منه.

وشاع عن الفلاسفة أنَّ ماء العيون وما يجري مجراها من الأبخرة، قالوا: إنَّ البخار إذا احتبس في الأرض يميل إلى جهة ويتبرَّد[2] بها فينقلب مياهً مختلطة بأجزاءٍ

(١) في الأصل: وافق، بدل: واقف، وهو تصحيف.
(٢) في (م): وتبرد.

بخارية، فإذا كثر بحيثُ لا تَسعه الأرضُ أَوْجَبَ انشقاقَها فانفجر منها العيونُ.

وردَّه أبو البركات البغداديُّ فقال في «المعتبر»[1]: السببُ في العيون وما يجري مجراها هو ما يسيل من الثلوج ومياهِ الأمطار؛ لأنَّا نجدها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها، وأنَّ استحالة الأهوية والأبخرة المنحصرة في الأرض لا مدخلَ لها في ذلك، فإنَّ باطنَ الأرض في الصيف أشدُّ برداً منه في الشتاء، فلو كان سببَ هذه استحالَتُها[2] لوجب أن تكون العيونُ والقنواتُ ومياهُ الآبار في الصيف أَزْيَدَ، وفي الشتاء أنقص، مع أنَّ الأمرَ بخلاف ذلك على ما دلَّتْ عليه التجربة.

وقال المَيْبُذي[3]: الحقُّ أنَّ السببَ الذي ذكره صاحب «المعتبر» معتبرٌ لا محالة، إلَّا أنَّه غيرُ مانع من اعتبار السبب الذي ذُكر - يعني: ما شاع -، واحتجاجُه في المنع إنما يدلُّ على أنَّه لا يجوز أن يكون ذلك هو السببَ التامَّ، لا على أنَّه لا يجوز أن يكون ذلك سبباً في الجملة. اهـ.

وفي «شرح المواقف»: اختلفوا في أنَّ المياه متولِّدةٌ من أجزاءٍ مائيةٍ متفرِّقةٍ في عُمق الأرض إذا اجتمعت، أو مِن الهواء البخاريِّ الذي ينقلبُ ماء. وهذا الثاني وإن كان ممكناً إلَّا أنَّ الأول أَولى؛ لأنَّ مياهَ العيونِ والقنوات والآبار تَزيد بزيادة الثلوج والأمطار[4].

والأَوْلَى عندي أن يحمل الماء في الآية على المطر ونحوِه من الثلج، والآية تدلُّ على أنَّ ذلك الماء يسلُكه الله تعالى في ينابيعَ في الأرض، ولا تدلُّ على أنَّ ما في الينابيع ليس إلا ذلك الماء، فيجوز أن يكونَ بعضُ ما فيها هو الماءَ المنزلَ من السماء، والبعضُ الآخرُ حادثاً من الهواء البخاريِّ بانقلابه ماءً بأسبابٍ يعلمها الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) سلف كلامه ١٨/ ٤٣.

(٢) جاءت العبارة فيما سلف من كلامه ١٨/ ٤٣: فلو كان ذلك سبب استحالتها...

(٣) في الأصل و(م): المبيدي، والصواب ما أثبتناه، وهو حسين بن معين الدين المعروف بقاضي مير، وسلف كلامه بنحوه ١٨/ ٤٤.

(٤) شرح المواقف للجرجاني ٧/ ٢١٨.

وحمُل الإنزال على الإنزال في مبدأ الخليقة على ما سمعتَ ـ مع كونه مما لم أقفْ على خبرٍ صحيح يقتضيه ـ خلافُ الظاهر في الآية جدّاً؛ لأنَّ الخطابَ في «ألم تر» عامٌّ، ولا يتأتَّى العمومُ في رؤيةِ ذلك، وكأنه يتعيَّن عليه جعلُ الخطاب خاصّاً بسيِّد المخاطَبين ﷺ، والمراد: ألم تعلم ذلك بالوحي؟ ومع ذلك لا يخفى حال حمل الآية على ما ذُكر.

وقريبٌ مما قيل ما حكاه الزمخشريُّ في الآية عن بعضٍ مِنْ أنَّ كلَّ ماءٍ في الأرض فهو من السماء، ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البِقاع[(١)].

هذا، لكن يعكِّر على ما اخترناه ظاهرُ ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: ليس في الأرض ماءٌ إلَّا ما أنزل الله تعالى من السماء، ولكنْ عروقٌ في الأرض تُغيره، فمن سرَّه أن يعود الملحُ عذْباً فليصعد[(٢)]. وأخرج نحوه عن سعيد بن جبير والشعبي[(٣)]. فإنْ صحَّ هذا الخبرُ وقلنا: إنَّه في حكم المرفوع، فما علينا إذا قلنا بظاهره فالعقل لا يأباه، والله تعالى على كل شيء قدير.

هذا، وجوِّز أن تكون الينابيعُ جمعَ ينبوعٍ بمعنى النابع، فإنَّه كما يُطلَق على المَنْبَع يُطْلَق على ما ذُكر، وحينئذ تكونُ منصوبةً على الحال، والمعنى: فسلكه مياهاً نابعةً في الأرض. ولا يخلو من الكدر؛ لأنَّه لو قصد هذا كان الظاهر أن يقال: من الأرض، وعلى ما هو المشهور يكون «ينابيع» منصوباً بنزع الخافض كما أشرنا إليه.

واحتمالُ كونِه منصوباً على المصدرية في إطلاقَيه بأن يكون الأصلُ: فسلكه سلوكاً في ينابيع، أي: مجاري، فحذف المصدر وأقيم ما هو في موضع الصفة مقامه، أو يكون الأصلُ: فسلكه سلوكَ ينابيعَ، أي: مياهاً نابعةً، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامَه = بعيدٌ كما لا يخفى.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بواسطته؛ مراعاةً للحكمة، لا لتوقُّف الإخراج عليه في

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٤.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وفيه: فليُصْعِدْه. وفي إسناده عتبة بن يقظان، قال عنه النسائي: غير ثقة. وقال علي بن الحسين بن الجنيد: لا يساوي شيئاً. الميزان ٣/ ٣٠.

(٣) ذكره عنهما ابن كثير، وأخرجه عن الشعبي ابن جرير في تفسيره ٢٠/ ٢٥٦.

نفس الأمر. وقالت الأشاعرة: أي: يُخرِج عندَه بلا مَدْخليَّةٍ له بوجهٍ من الوجوه سوى المقارنة.

﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ﴾ أي: أنواعُه وأصنافُه من بُرٍّ وشعير وغيرِهما، أو: كيفياتُه المدرَكةُ بالبصر من خُضرة وحُمرة وغيرِهما، أو: كيفياتُه مطلقاً من الألوان والطعومِ وغيرِهما على ما قيل. وشَمَل الزرعُ المُقتاتَ وغيرَه. و«ثم» للتراخي في الرُّتبة أو الزمان، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يَيْبَس، وظاهرُ كلام أهل اللغة أنَّ هذا معنًى حقيقيٌّ للهيجان، ويُفْهَم من كلام بعض المفسرين أنَّ «يهيج» بمعنى «يثور»، واستعماله بمعنى «يَيْبَس» من مجاز المشارَفةِ؛ لأنَّ الزرع إذا يبس وتمَّ جفافُه يُشرف على أن يثورَ ويذهبَ من منابته. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ من بعدِ خُضرته ونضارته، وقرئ: «مصفارّاً»[1].

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فُتاتاً متكسِّراً كأنْ لم يغْنَ بالأمس، ولكونِ هذه الحالة من الآثار القويَّةِ علِّقت بجعل الله تعالى كالإخراج.

وقرأ أبو بشر: «ثم يجعلَه» بالنصب، قال صاحب «الكامل»: وهو ضعيفٌ[2]. ولم يبيِّن وجهَ النصب، وكأنَّه إضمارُ «أن» كما في قوله:

إنِّـي وقَـتْـلـي سُـلـيـكـاً ثـم أعـقِـلَـه[3]

ولا يخفَى وجهُ ضَعْفِه هنا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٤، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٥٠.

(٢) البحر ٧/ ٤٢٢، قال السمين في الدر ٩/ ٤٢١: يعني بصاحب الكامل: الهذليَّ، ولم يبيِّن هو (يعني: أبا حيان) ولا صاحب الكامل وجه ضعفه ولا تخريجه. فأما ضعفه فواضح حيث لم يتقدم ما يقتضي نصبه في الظاهر. اهـ. ثم ذكر تخريجه كما سيذكره المصنف. والهذلي هو أبو القاسم يوسف بن علي المغربي، وكتابه هو: الكامل في القراءات الخمسين. كشف الظنون ٢/ ١٣٨١.

(٣) هذا صدر بيت، وعجزه:

كـالـثـور يُـضْـرَبُ لـمَّـا عـافـت الـبـقـرُ

وقائله أنس بن مدركة الخثعمي. وموطن الشاهد فيه قوله: ثم أعقلَه حيث نصب الفعل المضارع بإضمار «أن» جوازاً بعد «ثم» عطفاً على اسم صريح. لسان العرب (ودع)، وشرح شذور الذهب ص٤٠٦.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر تفصيلاً، وما فيه من معنى البُعْدِ للإيذان ببُعْدِ منزلته في الغرابة والدَّلالةِ على ما قُصِد بيانُه، ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لَتذكيراً عظيماً ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخَلَل، وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال، يتذكَّرون بذلك حالَ الحياة الدنيا وسرعةَ تقضِّيها فلا يغترُّون ببَهْجتها ولا يُفْتنون بفتنتها، أو يجزمون بأنَّ مَن قَدَر على إنزالِ الماء من السماء والتصرُّفِ به على أتمِّ وجهٍ قادرٌ على إجراء الأنهارِ من تحتِ تلك الغرف. وكأنَّ الأول أولى ليكونَ ما تقدَّم ترغيباً في الآخرة وهذا تنفيراً عن الدنيا.

وقيل: المعنى: إنَّ في ذلك لتذكيراً وتنبيهاً على أنَّه لابدَّ لذلك من صانع حكيم، وأنَّه كائنٌ على تقدير وتدبيرٍ لا عن تعطيل وإهمال. وهو بمعزلٍ عمَّا يقتضيه السياقُ، على أنَّ الأنسبَ بإرادةِ ذلك ذكرُ الآثار غيرَ مسنَدةٍ إليه عزَّ وجلَّ، فحيثُ ذُكرتْ مسنَدَةً إليه سبحانه فالظاهرُ أن يكونَ متعلَّقُ التذكير والتنبيه شؤونَه تعالى أو شؤونَ آثاره حسبما أشير إليه، لا وجودَه جلَّ وعلا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ إلخ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل لِمَا قبله من تخصيص الذكرى بـ «أولي الألباب».

والشرحُ في الأصل: البسطُ والمدُّ للَّحم ونحوه، ويُكنى به عن التوسيع، وتجوِّز به هنا عن خَلْق النَّفْس الناطقة مستعدَّةً استعداداً تامّاً للقبول بجامع عدم التأبِّي عن القبول وسهولة الحصول، وذلك بعدَ التجوُّز في الصدر. وإرادةُ[1] النفس الناطقة منه من حيثُ إنَّه محلٌّ للقلب، وفي تجويفِه بخارٌ لطيف يتكوَّن من صفْوةِ الأغذية، وبه تتعلَّق النفسُ أوَّلاً، وبواسطته تتعلَّق بسائر البدن تعلُّقَ التدبير والتصريف، وتلك النفس هي التي تتصف بالإسلام والإيمان. وجعل بعضُ الأجلَّة «شرح الله صدره» استعارةً تمثيلية.

والهمزةُ للإنكار داخلةٌ على محذوفٍ على أحد القولين المارَّين آنفاً، والفاءُ للعطف على ذلك المحذوف، وخبرُ «من» محذوفٌ لدلالةِ ما بعده عليه، والتقدير:

(١) في الأصل: وأراد. بصيغة الماضي.

أكلُّ الناس سواءٌ، فمن شَرَح الله تعالى صدرَه وخَلَقَه مستعِدّاً للإسلام فبقي على الفطرة الأصلية ولم تتغيَّرْ بالعوارض المكتسبة القادحة فيها ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك مستقرٌّ ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو اللطفُ الإلهيُّ المشرق عليه من بُروج الرحمة عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها إلى الحقِّ، كمن قسا قلبُه وحرِج صدرُه بتبديل فطرةِ الله تعالى بسوء اختيارِه واستولى عليه ظلماتُ الغيِّ والضلال فأعرَضَ عن تلك الآيات بالكلِّية حتى لا يتذكَّرَ بها ولا يغتنمَها؟!

وعُدِل عن: فعندَه، أو: فله نور، إلى ما في النظم الجليل؛ للدلالة على استمرارِ ذلك واستقرارِه في النور، وهو مستعارٌ للُّطف والتوفيق للاهتداء، وقد يقال: هو أمرٌ إلهيٌّ غيرُ اللطف والتوفيق يُدرَك به الحقُّ، وجاء بروايةِ الثعلبيِّ في تفسيره، والحاكم في «مستدركه»، والبيهقيِّ في «شعب الإيمان»، وابن مردويه، عن ابن مسعود أنَّه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ إلخ، فقلنا: يا رسول الله، كيف انشراحُ الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلبَ انشرح وانفسح» قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهُّبُ للموت قبل نزوله»(١).

واستشكل ذلك بأنَّ ظاهر الآية ترتُّبُ دخول النور على الانشراح، لأنَّه الاستعدادُ لقبوله، وما في الحديث الشريف عكسُه، والظاهر أنَّ السؤال عمَّا في الآية، وأنَّ الجواب بيانٌ لكيفيته.

وأجيب بأنَّ الاهتداء له مراتبُ بعضُها مقدَّمٌ وبعضها مؤخَّر، وانشراح الصدر بحسب الفطرة والخَلْقِ وبحسب ما يطرأ عليه بعدَ فيضِ الألطاف عليه،

---

(١) المستدرك ٤/ ٣١١، وشعب الإيمان ٧/ ٣٥٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٥، وللثعلبيِّ الحافظ ابنُ حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٣، وأخرجه البيهقيّ في الزهد الكبير (٩٧٤)، وجاء في المستدرك وشعب الإيمان آية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، بدل آية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

وبينهما تلازم، والمراد بانشراح الصدر في الحديث ما يكون بعد التمكُّن فيه، وفي الآية ما تقدَّمه، وقِسْ عليه النورَ، والجواب من قبيل الأسلوب الحكيم، فتأمَّل[١].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أجل ذكره سبحانه الذي حقُّه أنْ تلينَ منه القلوبُ، أي: إذا ذُكر الله تعالى عندَهم أو آياتُه عزَّ وجلَّ اشمأزُّوا من ذلك وزادت قلوبُهم قساوةً.

وقرئ: «عن ذكر الله»[٢]، والمتواترةُ أبلغ؛ لأنَّ القاسيَ من أجل الشيء أشدُّ تأبِّياً من قبوله من القاسي عنه بسبب آخر.

وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ذُكِرَ شرحُ الصدر؛ لأنَّ توسِعَتَه وجَعْلَه محلًّا للإسلام دونَ القلب الذي فيه يدلُّ على شدَّتِه وإفراطِ كثرتِه التي فاضَتْ حتى ملأَتْ الصدرَ فضلاً عن القلب. وإسنادُه[٣] إلى الله تعالى الظاهرُ في أنَّه على أتمِّ الوجوه؛ لأنَّه فعلُ قادرٍ حكيمٍ، وقابَلَه بالقساوة مع أنَّ مقتضَى المقابلة أنْ يعبَّر بالضيق؛ لأنَّ القساوة ـ كما في الصخرة الصَّمَّاء ـ تقتضي عدمَ قبولِ شيء، بخلاف الضيق فإنَّه مُشْعِرٌ بقَبولِ شيء قليل.

وعُدل عن التعبير بما يفيدُ مجعوليةَ القساوةِ له تعالى وخلقَه إياها؛ للإشارة إلى غايةِ لُزومِها لهم، حتى كأنَّها لو لم تُجعل لتحقَّقَتْ فيهم بمقتضَى ذَوَاتِهم. وأمَّا إسنادُها إلى القلوب دونَ الصدور فللتنصيص على فسادِ هذا العُضْو الذي إذا فَسَد فَسَد الجسدُ كلُّه.

واعتُبِرَ الجمعُ في هؤلاء الكَفَرَةِ والإفرادُ في أولئك المؤمنين حيثُ قال سبحانه: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ) دون: أفمن شرح الله صدورهم، للإشارة إلى أنَّ المؤمنين وإن تعدَّدُوا كرجلٍ واحد، ولا كذلك الكُفَّار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البُعَداءُ المتَّصفون بما ذُكر من قساوة القلوب ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾، ظاهرٍ كونهُ ضلالاً لكلِّ أحدٍ.

---

(١) قوله: فتأمل، ليس في الأصل.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/٤١٨، والكشاف ٣/ ٣٩٤.

(٣) في الأصل: وأسنده. وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٥.

والآية نزلتْ في عليٍّ وحمزةَ رضي الله عنهما وأبي لهب وابنه، فعليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وحمزةُ رضي الله عنه ممن شرح الله تعالى صدرَه للإسلام، وأبو لهب وابنُه من القاسية قلوبهم[١].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ هو القرآنُ الكريم، وكونُه حديثاً بمعنى كونِه كلاماً محدَّثاً به لا بمعنى كونِه مقابِلاً للقديم. ومَن قال بالتلازُم مِنَ الأشاعرة القائلين بحُدوثِ الكلام اللفظيِّ جَعَلَ الأوصافَ الدَّالة على الحدوث لذلك الكلام.

وجوِّز أن يكون إطلاق الحديث هنا على القرآن من باب المشاكلة، عن ابن عباس أنَّ قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله، حدِّثْنا بأحاديثَ حِسَانٍ وبأخبارِ الدهر، فنزلت[٢].

وعن ابن مسعود أنَّ الصحابةَ ملُّوا مَلَّة، فقالوا له عليه الصلاة والسلام: حدِّثْنا، فنزلت[٣]. أي: إرشاداً لهم إلى ما يُزيل مَلَلَهم وهو تلاوةُ القرآن واستماعُه منه ﷺ غضّاً طريّاً.

وفي إيقاع اسم الله تعالى مبتدأً، وبناءِ «نزَّل» عليه تفخيمٌ لـ «أحسن الحديث»، واستشهادٌ على أحسنيَّتِه، وتأكيدٌ لاستنادِه إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ مثلَه لا يمكن أنْ يتكلَّمَ به غيرُه سبحانه، أمَّا التفخيمُ فلأنَّه من باب: الخليفة عند فلان، وأما الاستشهادُ على أحسنيَّتِه فلكونِه ممنْ لا يُتَصَوَّرُ أكملُ منه، بل لا كمالَ لشيءٍ مّا في جنبِه بوجهٍ، وأمَّا توكيدُ الاستنادِ إليه تعالى فمِن التقوِّي، وأما أنَّ مثلَه لا يمكِنُ أن يتكلَّمَ به غيرُه سبحانه فلِمَكان التناسُبِ؛ لأنَّ أكملَ الحديث إنَّما يكونُ من أكمل متكلِّم ضرورةً. ومذهبُ الزمخشريِّ أنَّ مثلَ هذا التركيب يفيدُ الحصر، وأنَّه لا تنافيَ بينَه وبينَ التقوِّي جَمْعاً، فافْهَمْ[٤].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري٢٠/ ١٩٣، ونقله المصنف عن البحر ٧/ ٤٢٣.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٨ عن عون بن عبد الله.

(٤) ينظر ما سلف ١٩/ ٣٢٢.

﴿كِتَابًا﴾ بدلٌ من: «أَحْسَنَ الحَدِيْث»، أو حالٌ منه كما قال الزمخشريُّ[(١)]، وليس مبنيّاً على القول بأنَّ إضافةَ أفعل التفضيل تفيدُه تعريفاً كما ظنَّ أبو حيان[(٢)]، فإنَّ مطلَق الإضافةِ كافيةٌ في صحَّةِ الحاليَّة كما لا يَخْفَى على مَن له أدْنَى إلمامٍ بالعربية. ووقوعُه حالاً مع كونه اسماً لا صفةً؛ إمَّا لوَصْفِه بقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، أو لكونه في قوّةِ: مكتوباً.

والمرادُ بكونه «متشابهاً» هنا تشابُهُ معانيه في الصحَّةِ والإحكامِ، والابتناءِ على الحقِّ والصدقِ، واستتباعِ منافع الخَلق في المعاد والمعاشِ، وتناسُب ألفاظِه في الفصاحة، وتجاوُب نَظْمِه في الإعجاز، وما أَشْبَهَ هذا بقولِ العرب في الوجه الكامل حُسْناً: وجهٌ متناصفٌ، كأنَّ بعضه أَنْصَفَ بعضاً في القسط من الجمال.

وقوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ صفةٌ أخرى لـ «كتاباً»، أو حالٌ أخرى منه، وهو جمعُ: مُثَنًّى ـ بضم الميم وفتح النون المشدَّدة على خلاف القياس، إذ قياسُه «مُثنَّيات» ـ بمعنى مردَّدٍ ومكرَّر؛ لِمَا كُرِّر وثُنِّيَ من أحكامه ومَواعِظِه وقِصَصِه، وقيل: لأنَّه يُثَنَّى في التلاوة.

وجوَّزَ أن يكون جمعَ: مَثْنَى ـ بالفتح مخفَّفاً ـ من التثنية بمعنى التكرير والإعادة، كما كان قولُه تعالى: ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] بمعنى: كرَّةً بعدَ كرَّة، وكذلك: لبيك وسعديك، والمراد أنَّه جُمِعَ لمعنى التكرير والإعادة كما ثُنِّيَ ما ذُكِر لذلك، لكنَّ استعمالَ المُثنَّى في هذا المعنى أكثرُ؛ لأنه أوَّلُ مراتبِ التكرار. ويحتمل أن يراد أنَّ مَثْنى بمعنى التكرير والإعادة كما أنَّ صريحَ المُثَنَّى كذلك في نحو «كرَّتين»، ثم جُمِع للمبالغة.

وقيل: جمعُ: مُثْنِيَةٍ، لاشتمالِ آياته على الثناء على الله تعالى، أو: لأنَّها تُثْنِي ببلاغتها وإعجازها على المتكلِّم بها. ولا يخفى أنَّ رعايةَ المناسَبة مع «متشابهاً» تَجْعَل ذلك مرجوحاً، وأنَّه حَسَنٌ إذا حُمل على الثناء باعتبار الإعجاز.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٩٤.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٢٣.

وفي «الكشف»: الأقْيسُ بحسب اللفظ أنَّ «مثانِي» اشتُقَّتْ من الثناء أو الثَّنى، جمعُ مَثْنَى ـ مَفْعل ـ منهما، إما بمعنى المصدر، جُمِع لَمَّا صُيِّرَ صفةً، أو بمعنى المكان في الأصل، نُقِل إلى الوصف مبالغةً نحو: أرضٌ مأسَدةٌ؛ لأنَّ محلَّ الثناء يقعُ على سبيل المجاز على الثاني والمَثْنيِّ عليه، وكذلك محلُّ الثَّنى. انتهى.

ووقوعُه صفةً لكتاب باعتبار تفاصيله، وتفاصيلُ الشيء هي جملتُه لا غير، ألا تراك تقول: القرآنُ أسباعٌ وأخماسٌ وسورٌ وآياتٌ، فكذلك تقول: هو أحكامٌ ومواعظُ وأقاصيصُ مثاني، ونظيرُه قولك: الإنسان عروق وعظام وأعصابٌ. إلَّا أنَّك تركْتَ الموصوفَ إلى الصفة، والأصلُ: كتاباً متشابهاً فصولاً مثانيَ، ويجوز أن يكون تمييزاً محوَّلاً عن الفاعل، والأصلُ: متشابهاً مثانيه، فحوِّلَ ونُكِّرَ؛ لأنَّ الأكثرَ فيه التنكيرُ، وهذا كقولك: رأيتُ رجلاً حسناً شمائلَ.

وقرأ هشام وأبو بشر: «مثانِيْ» بسكون الياء[1]، فاحتمل أن يكون خبرَ مبتدأ محذوفٍ، وأن يكونَ منصوباً، وسكّن الياء على لغةِ مَن يسكِّنُها في كلِّ الأحوال لانكسارِ ما قبلَها؛ استثقالاً للحركة عليها.

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: صفةٌ لـ «كتاباً»، أو حالٌ منه لتخصُّصِه بالصفة. وقال بعض: الأظهرُ أنَّه استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ آثارِه الظاهرةِ في سامعيه بعدَ بيان أوصافِه في نفسه، ولتقريرِ كونِه أحسنَ الحديث.

والاقشعرارُ: التقبُّض، يقال: اقشعرَّ الجِلْدُ، إذا تقبَّض تقبُّضاً شديداً، وتركيبه من القِشع، وهو الأديم اليابس، قد ضُمَّ إليه الراءُ ليكون رباعياً ودالًّا على معنًى زائدٍ، يقال: اقشعرَّ جِلدُه وقَفَّ شعرُه، إذا عرَض له خوفٌ شديدٌ من أمرٍ هائلٍ دَهَمَه بغْتةً، والمراد تصويرُ خوفِهم بذكرِ لوازمِه المحسوسة، ويطلق عليه التمثيل وإن كان من باب الكناية.

وقيل: هو تصويرٌ للخوف بذكرِ آثارِه وتشبيه حالةٍ بحالةٍ، فيكونُ تمثيلاً حقيقةً.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢٣.

والأولُ أحسنُ، لأنَّ تشبيهَ القِصَّة بالقصة على سبيل الاستعارة هاهنا لا يخلو عن تكلُّف.

واستُظْهِرَ كونُ المراد بيانَ حصولِ تلك الحالةِ وعروضِها لهم بطريق التحقيق، والمعنى أنهم إذا سمِعُوا القرآن وقوارعَ آياتِ وعيدِه أصابتْهم رهبةٌ وخشيةٌ تقشعرُّ منها جلودُهم، وإذا ذكَروا رحمةَ الله تعالى عند سَماعِ آياتِ وعدِه تعالى وألطافِه تبدَّلَتْ خشيتُهم رجاءً ورهبتُهم رغبةً، وذلك قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ساكنةً مطمئنةً إلى ذكر رحمته تعالى، وإنما لم يصرِّحْ بالرحمة؛ إيذاناً بأنَّها أولُ ما يخطرُ بالبال عند ذكره تعالى لأصالَتِها، كما يُرشِد إليه خبر: «سَبقَتْ رَحْمَتي غَضَبي»(١).

وذكرُ القلوب لتقدُّم الخشية التي هي من عوارضها، ولعلَّه إنَّما لم تُذْكر هناك على طِرْزِ ذكرِها هنا لأنَّها لا تُوصف بالاقشعرار وتوصف باللين.

وليس في الآية أكثرُ من نعتِ أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن، ثم سكونِهم إلى رحمته عزَّ وجلَّ، وليس فيها نعتُهم بالصَّعْق والتواجُد والصَّفْق كما يفعلُه بعضُ الناس؛ أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلتُ لجَدَّتي أسماء: كيف كان يصنعُ أصحابُ رسولِ الله ﷺ إذا قرؤوا القرآنَ؟ قالت: كانوا كما نَعَتَهم الله تعالى، تَدْمَعُ أعينُهم وتقشعِرُّ جلودُهم. قلت: فإنَّ ناساً هاهنا إذا سمِعوا ذلك تأخذُهم غَشْيةٌ. قالت: أعوذ بالله تعالى من الشيطان(٢).

وأخرج الزبير بن بكَّارٍ في «الموفَّقيات» عن عامر عن عبد الله بن الزبير قال: جئتُ أمي فقلت: وجدتُ قوماً ما رأيتُ خيراً منهم قطُّ، يذكرون الله تعالى فيرعدُ أحدُهم حتى يُغْشَى عليه من خشية الله تعالى. فقالت: لا تقعُدْ معهم. ثم قالت:

---

(١) سلف ١/ ١١٤.

(٢) سعيد بن منصور (٩٥ - تفسير)، وتاريخ دمشق ٦٩/ ١٩، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٦.

رأيتُ رسول الله ﷺ يتلو القرآنَ ورأيتُ أبا بكر وعمرَ يتلوانِ القرآنَ فلا يصيبُهم هذا، أَفَتراهم أَخْشَى من أبي بكر وعمر(١)؟!

وقال ابن عمر وقد رأى ساقطاً من سماع القرآن، فقال: إنَّا لنخشى الله تعالى وما نسقُط، هؤلاء يَدخُل الشيطانُ في جوفِ أحدِهم(٢).

وأخرج عبدُ الرزاق وعبدُ بن حُميد وابن المنذر عن قتادة أنَّه قال في الآية: هذا نعتُ أولياء الله تعالى، قال: تقشعرُّ جلودُهم وتبكي أعينُهم وتطمئنُّ قلوبُهم إلى ذكر الله تعالى، ولم ينعَتْهم اللهُ سبحانه بذَهاب عقولهم والغَشَيَانِ عليهم، إنَّما هذا في أهلِ البدَع، وإنَّما هو من الشيطان(٣).

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن جُبير قال: الصَّعْقةُ من الشيطان(٤).

وقال ابن سيرين: بيننا وبين هؤلاء الذين يُصْرَعون عند قراءة القرآن أن يُجْعل أحدُهم على حائطٍ باسطاً رِجليه، ثم يُقْرأ عليهم القرآنُ كلُّه، فإنْ رمى بنفسه فهو صادق(٥).

فهذه أخبارٌ ناعيةٌ على بعض المتصوِّفةِ صعقَهم وتواجُدَهم، وضربَ رؤوسِهم الأرضَ عند سَماع القرآن، ويقول مشايخُهم: إنَّ ذلك لضَعْفِ القلوب عن تحمُّل الوارد، وليس فاعلو ذلك في الكمال كالصحابة أهلِ الصدر الأول في قوَّةِ التحمُّل، فما هو إلَّا دليلُ النقص، بدليلِ أنَّ السالك إذا كمل رَسَخَ وقَوِيَ قلبه، ولم يصدُرْ منه شيءٌ من ذلك، ويقولون: ليس في الآية أكثرُ من إثبات الاقشعرار واللين، وليس فيها نفيُ أنْ يعترِيَهُمْ حالٌ آخَرُ، بل في الآية إشْعارٌ بأنَّ المذكورَ حالُ

(١) عزاه للزبير بن بكار السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٦، ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٦٧، وفيه: جئت أبي...، وكذا أخرجه الطبري كما في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٠.
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١١١.
(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧٢، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٥-٣٢٦.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٤٩، عن قيس بن حَبْتر بالمهملة، ثم الموحدة، ثم المثناة فوق. فقول المصنف: ابن جبير، تصحيف عن: ابن حبتر. ينظر المستطرف ١/ ٢٢٥، وتهذيب الكمال ٢٤/ ١٧.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٨.

الراسخين الكاملين حيثُ قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ [الأنبياء:٤٩] فعبَّر بالموصول، ومقتضَى معلوميَّة الصلة أنَّ لهم رسوخاً في الخشية حتى يُعْلَموا بها، فلا يلزم من كونِ حالهم ما ذُكر ليس إلا ـ على فرضِ دلالتها على الحصر ـ كونُ حالِ غيرهم كذلك، ثم إنَّه متى كان الأمرُ ضرورياً كالعُطاس لا اعتراضَ على من يتَّصفُ به. وفي كلام ابن سيرين ما يؤيِّد ذلك، وهذا غاية ما يقال في هذا المجال، ونحن نسأل الله تعالى أنْ يتفضَّل علينا بما تفضَّل به على أصحابِ نبيِّه ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى الكتاب الذي شرحَ أحوالَه ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من يشاءُ الله تعالى هدايتَه بأن يوفِّقَه سبحانه للتأمُّلِ فيما في تَضاعيفِه من شواهدِ الحقِّية ودلائلِ كونه مِنْ عندِه عزَّ وجلَّ.

وجوِّز أن يكونَ ضميرُ «يشاء» لـ «مَنْ»، والمعنى: يهدي به الله تعالى مَن يشاء هدايةَ اللهِ تعالى. وليس بذاك.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يخلقْ سبحانه فيه الضلالَ لإعراضِه عمَّا يُرشِده إلى الحقِّ بسُوءِ استعدادِه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ يُخَلِّصُه من وَرْطة الضلال.

وقيل: الإشارةُ بذلك إلى المذكور من الاقشعرار واللين، والمعنى: ذلك الذي ذُكِرَ مِنَ الخشية والرجاء أثَرُ هُداه تعالى، يهدي بذلك الأثرِ مَنْ يشاء من عباده، ومَنْ يُضْلِلْه، أي: ومَنْ لم يؤثِّر فيه لقَسْوةِ قلبِه وإصرارِه على فُجورِه (فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ) أي: مِنْ مؤثِّرٍ فيه بشيءٍ قطُّ. وهو كما ترى.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل لِمَا قبلَه مِنْ تبايُن حالِ المُهْتدِي والضالِّ. والكلام في الهمزة والفاءِ والخبرِ كالذي مرَّ في نظائره، ويقال هنا على أحد القولين: التقدير: أكلُّ الناس سواءٌ، فمَنْ شأنُه أن يتَّقِيَ بوجهه الذي هو أشرفُ أعضائِه يومَ القيامة العذابَ السيِّئَ الشديدَ لكون يدِه التي بها كان يتَّقي المكارهَ مغلولةً إلى عُنقِه، كَمَنْ هو آمِنٌ لا يعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى الاتِّقاء بوجه من الوجوه؟ فالوجهُ على حقيقته.

وقد يُحمل على ذلك من غيرِ حاجةٍ إلى حديثِ كونِ اليد مغلولةً، تصويراً

لكمالِ اتِّقائه وجِدِّه فيه، وهو أبلغ، وفي هذا المضمار يجري قولُ الشاعر:

يَلْقَى السيوفَ بوَجْهه وبنَحْرِه ... ويُقِيم هامَتَه مقامَ المِغْفَرِ[1]

وجوِّز أن يكون الوجه بمعنى الجملة، والمبالغةُ عليه دونَ المبالغة فيما قبله.

وقيل: الاتقاءُ بالوجه كنايةٌ عن عَدَمِ مَا يُتَّقى به؛ إذ الاتقاء بالوجه لا وجهَ له؛ لأنَّه مما لا يُتَّقى به. ولا يخلو عن خَدْش.

وإضافةُ «سوء» إلى «العذاب» من إضافةِ الصفة إلى الموصوفِ. و«يوم القيامة» معمولُ «يتَّقِي» كما أشرنا إلى ذلك.

وجوِّز أن يكون مِنْ تتمَّةِ سوءِ العذاب، والمعنى: أفمن يَتَّقي عذابَ يوم القيامة كالمُصِرِّ على كُفْرِه، وهو وجهٌ حسن، والوجهُ حينئذ ـ كما في الوجهِ السابق ـ إمَّا الجملةُ مبالغةً في تقواه، وإمَّا على الحقيقةِ تصويراً لِكمالِ تقواه وجِدِّه فيها، وهو أبلغ. والمتبادِرُ إلى الذهنِ المعنَى السابقُ. والآية قيل: نزلت في أبي جهل.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ عطفٌ على «يتقي»، أي: ويُقال لهم من جهةِ خَزَنَةِ النار. وصيغةُ الماضي للدَّلالة على التحقُّقِ والتقرُّر. وقيل: الواوُ للحالِ، والجملةُ حالٌ من ضميرِ «يتقي» بإضمارِ «قد» أو بدونه.

ووَضْعُ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ للتسْجِيلِ عليهم بالظلم، والإشعارِ بعلَّة الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: وبالَ ما كُنتم تكسِبُون في الدنيا على الدوام من الكُفرِ والمعاصِي.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ ما أصابَ بعضَ الكَفَرةِ من العذاب الدنيويِّ إثْرَ بيانِ ما يُصيبُ الكلَّ من العذابِ الأخرويِّ، أي: كذَّب الذين مِنْ قبلهم من الأُمَم السالفة ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المقدَّرُ لكُلِّ أمةٍ منهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ مِنَ الجهة التي لا يحتَسِبون، ولا يخطُرُ ببالهم إتيانُه منها، لأنَّ ذلك أشدُّ على النفس.

---

(١) نسب البيت إلى عبد الملك بن معاوية الحارثي، وأبي علي، وابن المولى، ونسب إلى غيرهم، ينظر الحماسة البصرية ١/ ٢٠، وسمط اللآلي ١/ ١٨٢، ٢٧٨.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ أي: الذُلَّ والصَّغار ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمسخِ والخَسْف والقتل والسَّبْيِ والإجلاء وغيرِ ذلك من فُنون النَّكالِ. والفاء قيل: تفسيريةٌ، مثلُها في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٧٦].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدَّته وسَرْمَديته ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لو كانوا مِن شأنِهم أن يعلَموا شيئاً لعَلِموا ذلك واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ العظيم الشأن ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجُ إليه الناظرُ في أمورِ دينه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كَي يتذكَّروا ويتَّعِظوا، أو: مرجُوّاً تذكُّرُهم واتِّعاظُهم، والرجاءُ بالنسبة إلى غيره تعالى، والتعليلُ أظهرُ.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من «هذا»، والاعتمادُ فيها على الصفة أعني: «عربيّاً»، وإلا ف «قرآنا» جامدٌ لا يصلُح للحالية، وهو أيضاً عينُ ذي الحال فلا يظهرُ حاله، فالحال في الحقيقة «عربيّاً»، و«قرآناً» للتمهيدِ، ونظيرُه: جاء زيدٌ رجلاً صالحاً. قيل: وذلك بمنزلةِ: عربيّاً محقَّقاً.

وجوِّز أن يكون منصوباً بمقدَّرٍ تقديرُه: أعني، أو: أخصُّ، أو: أمدحُ، ونحوه، وأن يكونَ مفعولَ «يتذكَّرون»، وهو كما ترى.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ لا اختلالَ فيه بوجهٍ من الوجوه، وهو أبلغُ من «مستقيم»، لأنَّ «عوجاً» نكرةٌ وقعَتْ في سياقِ النفي لِمَا في «غير» من معناه، والاستقامةُ يجوزُ أن تكونَ من وجهٍ دونَ وجهٍ، ونفْيُ مُصاحبةِ العِوَج عنه يقتضِي نفْيَ اتِّصَافِه به بالطريقِ الأولى، فهو أبلغُ من: غير مُعْوجٍّ.

والعِوَجُ ـ بالكسر ـ يقالُ فيما يُدْرَكُ بفكرٍ وبصيرةٍ، والعَوَج ـ بالفتح ـ يقال فيما يُدْرَك بالحسِّ، وعبَّر بالأول ليدلَّ على أنَّه بلغَ إلى حدٍّ لا يُدْرِك العقلُ فيه عِوَجاً فضلاً عن الحِسِّ، وتمامُ الكلام مرَّ في «الكهف».

وقيل: المرادُ بالعِوَج الشكُّ واللَّبس، ورويَ ذلك عن مجاهد[1]، وأنشدوا قولَ الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٤.

وقَدْ أتاكَ يقينٌ غيرُ ذي عِوَجٍ   مِن الإلهِ وقولٌ غيرُ مكذوبِ[(١)]

ولا استدلالَ به على أنَّ العِوَجَ بمعنى الشَّكِّ؛ لأنَّ عِوَجَ اليقينِ هو الشكُّ لا محالةَ، والقول في وجهِ الاستدلال أنَّ الشاعرَ فهِمَ هذا المعنى من الآية لأنَّه اقتباسٌ، وإذا فهِمَه الفصيحُ مع صحَّةِ التجَوُّزِ كان مَحْملاً = تعسفٌ ظاهرٌ، لأنَّه لم يتبيَّنْ أنَّه اقتبَسَه منها، ولو سلِّم يكونُ محتمِلاً لِمَا يحتمِله العوجُ في النظم الذي لا عوجَ فيه.

وقد يقال: مرادُ مَنْ قال: أي: لا لبسَ فيه ولا شكَّ، نفيُ بعضِ أنواعِ الاختلالِ، وعلى ذلك ما روي عن عثمانَ بن عفانَ مِنْ أنَّه قال: أي: غيرَ مضطرِبٍ ولا متناقِضٍ[(٢)]. وما قيل: أي: غيرَ ذي لَحْن.

وأخرجَ الديلميُّ في «مسند الفردوس» عن أنس عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «غيرَ ذي عوج: غيرَ مخلوق»[(٣)]. ولعلَّه ـ إن صحَّ الخبر ـ تفسيرٌ باللازم، فتأمَّلْ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ علَّةٌ أُخرى مترتِّبةٌ على الأولى.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ إيرادٌ لمَثَلٍ من الأمثالِ القرآنية بعدَ بيانِ أنَّ الحكمةَ في ضَرْبِها هو التذكُّر والاتِّعاظُ بها وتحصيلُ التقْوَى، والمرادُ بضربِ المَثَل هاهنا تطبيقُ حالةٍ عجيبةٍ بأخرى مثلِها، وجعلُها مثلَها.

و«مثلاً» مفعولٌ ثانٍ لـ «ضرب»، و«رجلاً» مفعولُه الأول، أُخِّر عن الثاني للتشويق إليه، وليتَّصلَ به مَا هو مِنْ تتمَّته التي هي العمدة في التمثيل. أو «مثلاً» مفعولُ «ضرب»، و«رجلاً» إلخ بدلٌ منه، بدلَ كلٍّ من كلٍّ.

وقال الكسائيُّ: انتصب «رجلاً» على إسقاطِ الخافض، أي: مثلاً في رجل[(٤)]. وقيل غير ذلك، وقد تقدَّم الكلامُ في نظيره. و«فيه» خبرٌ مقدَّمٌ، و«شركاء» مبتدأٌ،

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٩٦، وأبو حيان في البحر ٧/ ٤٢٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٤٢٤.

(٣) مسند الفردوس ٣/ ٢١٧. وأخرجه أيضاً القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٩٥، وفي إسناده عبد الرحمن بن محمد بن علويه الأبهري، حدَّث بأحاديث موضوعة كان يتهم بها. ينظر تنزيه الشريعة ١/ ٧٩ و١٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩، والبحر ٧/ ٤٢٤.

و«متشاكِسون» صفتُه، والنكرةُ ـ وإنْ وصفت ـ يَحْسُن تقديمُ خبرِها، والجملةُ صفةُ «رجلاً» والرابطُ الهاء أو الجارُّ والمجرورُ في موضع الصفة له، و«شركاءُ» مرتفعٌ به على الفاعلية لاعتمادِه على الموصوف. وقيل: «فيه» صلةُ «شركاء» وهو مبتدأ، خبرُه: «متشاكسون»، وفيه أنه ليس لتقديمه نكتةٌ ظاهرةٌ.

والمعنى: ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك ـ حَسْبَما يقودُ إليه مذهبُه مِن ادِّعاءِ كلٍّ مِنْ مَعْبودِيْه عبوديَّتَه ـ عبداً يتشارَكُ فيه جماعةٌ متشاجِرونُ لشَكاسةِ أخلاقِهم وسوءِ طبائِعهم يتجَاذَبونَه ويتعاوَرُونَه في مهماتِهم المتباينة، في تحيُّره وتوزُّعِ قلبِه، ﴿وَرَجُلًا﴾ أي: وضرب للموحِّد مَثَلاً رجلاً ﴿سَلَمًا﴾ أي: خالصاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ فردٍ ليس لغيرِه سبيلٌ إليه أصلاً، فهو في راحةٍ عن التحيُّر وتوزُّعِ القلب.

وضَرْبُ الرجُلِ مثلاً؛ لأنَّه أفطنُ لِمَا شقِيَ به أو سعِد، فإنّ الصبيَّ والمرأةَ قد يغفلان عن ذلك.

وقرأ عبد الله وابنُ عباس وعكرمةُ ومجاهدٌ وقتادةُ والزهريُّ والحسنُ بخلاف عنه والجَحْدَريُّ وابنُ كثير وأبو عمرو: «سَالِماً»، اسمُ فاعل من «سَلِم»[1]، أي: خالصاً له من الشركة.

وقرأ ابنُ جبير: «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام[2]، وقرئ: «سَلْماً» بفتحٍ فسكون[3]، وهما مصدران وُصِف بهما مبالغةً في الخلوصِ من الشركة.

وقرئ: «ورجلٌ سالمٌ» برفعهما[4]، أي: وهناكَ رجلٌ سالمٌ. وجُوِّز أن لا يقدَّر شيءٌ ويكون «رَجُلٌ» مبتدأ، و«سالمٌ» خبرهُ؛ لأنَّه موضعُ تفصيلٍ إذ قد تقدَّم ما يدلُّ عليه، فيكون كقول امرئ القيس:

إذا ما بَكى مِنْ خَلْفِها انْحَرَفَتْ له ... بشِقٍّ وشِقٌّ عندَنا لم يُحَوَّلِ[5]

---

(١) التيسير ص ١٨٩، والنشر ٢/ ٣٦٢ عن ابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٧/ ٤٢٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٩٧.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٩٧، والبحر ٧/ ٤٢٤.
(٥) ديوان امرئ القيس ص١٢، وقد سلف ١١/ ٤٩٤.

وقولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ إنكارٌ واستبعادٌ لاستوائهما، ونَفْيٌ له على أبلغ وجْهٍ وآكَدِهِ، وإيذانٌ بأنَّ ذلك من الجَلَاءِ والظهورِ بحيثُ لا يقدِر أحدٌ أن يتفوَّهَ باستوائهما أو يتلَعْثَمَ في الحكم بتبايُنِهما؛ ضرورةَ أنَّ أحدَهما في لَومٍ وعناءٍ والآخرُ في راحةِ بالٍ ورضاءٍ. وقيل: ضرورةَ أنَّ أحدَهما في أعلى عِلِّيين والآخرُ في أسفلِ سافلين.

وأيًّاما كان فالسرُّ في إبهام الفاضِل والمفضولِ الإشارةُ إلى كمال الظهور عندَ مَنْ له أدنَى شعور.

وانتصابُ «مثلاً» على التمييزِ المحوَّل عن الفاعل، إذ التقديرُ: هل يستوي مَثَلُهما وحالُهما؟ والاقتصارِ في التمييز على الواحدِ لبيان الجنسِ، والاقتصارُ عليه أوّلاً في قوله تعالى: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا).

وقرئ: «مَثَلَيْن»[1]، أي: هل يستوي مَثَلَاهما وحَالَاهما، وثُنِّي معَ أنَّ المقصودَ من التمييزِ حاصلٌ بالإفرادِ مِنْ غيرِ لَبْس؛ لقصدِ الإشعارِ بمعنًى زائدٍ وهو اختلافُ النوع.

وجوِّز أن يكونَ ضميرُ «يستويان» للمَثَلين، لأنَّ التقْديرَ فيما سبق: مثلُ رجلٍ ومثلُ رجلٍ، أي: هل يستوي المَثَلان مَثَلَيْن، وهو على نحوِ: كفَى بهما رجلَين، وهو من باب: لله تعالى دَرُّه فارِساً. ويرجع ذلك إلى: هل يَسْتَوِيان رجلَين فيما ضُرِب من المثال، ولمَّا كان المَثَلُ بمعنى الصفةِ العجيبة التي هي كالمثل، كان المعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفيَّة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقريرٌ لِمَا قبلَه مِنْ نَفْي الاستواءِ بطريقِ الاعتراضِ، وتنبيهٌ للموحِّدين على أنَّ ما لهم مِن المَزِيةِ بتوفيقِ الله تعالى، وأنَّها نِعمةٌ جليلةٌ تقتَضِي الدوامَ على حمدِه تعالى وعبادتِه. أو على أنَّ بيانَه تعالى بضَرْبِ المَثَل أنَّ لهم المَثَل الأعلى وللمشركين مثل السوء، صُنْعٌ جميلٌ ولطفٌ تامٌّ منه عزَّ وجلَّ مستوجِبٌ لحمدِه تعالى وعبادتِه.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٧، والبحر ٧/ ٤٢٥.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ إضرابٌ وانتقالٌ مِن بيانِ عدمِ الاستواء على الوجْهِ المذكورِ إلى بيانِ أنَّ أكثر الناسِ ـ وهم المشركون ـ لا يعلمون ذلكَ مع كمالِ ظهورِه، أو: ليسوا من ذوي العلم فلا يعلمون ذلك، فيَبْقَون في ورْطة الشرك والضلال.

وقيل: المرادُ أنَّهم لا يعلمون أنَّ الكلَّ منه تعالى، وأنَّ المحامِدَ إنَّما هي له عزَّ وجلَّ، فيشرِكون به غيرَه سبحانه. فالكلامُ مِنْ تتمَّةِ «الحمد لله»، ولا اعتراضَ. ولا يخفى أنَّ بناءَ الكلام على الاعتراض ـ كما سمعت ـ أَولى.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ تمهيدٌ لِمَا يَعْقبه من الاختصام يوم القيامة.

وفي «البحر»: أنَّه لمَّا لم يلتفِتُوا إلى الحقِّ ولم ينتفعوا بضَرْبِ المَثَل أخبَرَ سبحانه بأنَّ مصيرَ الجميع بالموت إلى الله تعالى، وأنَّهم يختصِمُون يومَ القيامة بينَ يديه وهو عزَّ وجلَّ الحَكَم العَدْل، فيتميَّزُ هناك المحِقُّ والمُبطِل[١].

وقال بعضُ الأجلَّة: إنَّه لمَّا ذُكِرتْ من أوَّل السورة إلى هنا البراهينُ القاطعةُ لعِرْق الشركة المسجِّلةُ لفَرْطِ جَهْلِ المشركين وعدَمِ رجوعهم، مع جُهْده ﷺ في ردِّهم إلى الحقِّ وحِرْصه على هدايتهم، اتَّجه السؤالُ منه عليه الصلاة والسلام بعدَما قاساه منهم بأن يقول: ما حالي وحالهم؟ فأجيب بـ: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) الآية.

وقرأ ابن الزبير وابن أبي إسحاق وابن محيصِنٍ وعيسى واليماني وابن أبي غوث وابن أبي عبلة: «إِنَّكَ مَائِتٌ وإنَّهُم مَائِتُون»[٢].

والفرقُ بين «ميِّت» و«مائِت» أنَّ الأولَ صفةٌ مشبَّهة وهي تدلُّ على الثبوت، ففيها إشعارٌ بأنَّ حياتَهم عينُ الموت، وأنَّ الموتَ طوقٌ في العُنق لازمٌ. والثاني اسمُ فاعل وهو يدلُّ على الحدوث، فلا يفيدُ هنا مع القرينةِ أكثرَ مِنْ أنَّهم سيَحْدُث لهم الموت.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠، والبحر ٤/ ٤٢٥.

وضميرُ الخطاب ـ على ما سمعت ـ للرسول ﷺ، قال أبو حيان: ويدخُل معه عليه الصلاة والسلام مؤمنو أمَّته. وضميرُ الجمع الغائب للكُفَّار[1]. وتأكيدُ الجملة في «إنَّهم مَيِّتُوْن» للإشعار بأنَّهم في غفلة عظيمةٍ كأنَّهم يُنْكرون الموتَ، وتأكيدُ الأُوْلى دفعاً لاستبعادِ موتِه عليه الصلاة والسلام. وقيل: للمشاكلة.

وقيل: إنَّ الموتَ مما تكرَهُه النفوسُ، وتكرَهُ سماعَ خبرِه طبعاً، فكان مظِنَّةَ أن لا يُلْتفَتَ إلى الإخبار به أو أن يُنْكَرَ وقوعُه ولو مُكابرةً، فأكَّدَ الحكمَ بوقوعه لذلك، ولا يَضُرُّ في ذلك عدمُ الكراهة في بعضٍ لخصوصيةٍ فيه، كسيِّد العالمين ﷺ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليبِ المخاطَب على الغيَّب[2] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: مالكِ أمورِكم ﴿تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ فتحتجُّ أنتَ عليهم بأنَّك بلَّغْتَهم ما أُرْسِلْتَ به من الأحكام والمواعظِ التي من جُملتها ما في تضاعيفِ هذه الآيات، واجتهدتَ في دعوتِهم إلى الحقِّ حقَّ الاجتهاد، وهم قد لجُّوا في المُكابَرةِ والعنادِ، ويعتذرون بالأباطيل مثل: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب:٦٧] و: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأنبياء:٥٣ والشعراء:٧٤] و: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦].

والجمعُ بينَ «يوم القيامة» و«عند ربكم» لزيادة التهويل ببيانِ أنَّ اختصامَهم ذلك في يومٍ عظيم عندَ مالكٍ لأمورهم نافذٍ حكمُه فيهم، ولو اكتفى بالأوَّل لاحتَمَلَ وقوعَ الاختصام فيما بينَهم بدونِ مرافعةٍ، أو بمرافعةٍ لكنْ ليستْ لدى مالكٍ لأمورِهم، والاكتفاءُ بالثاني ـ على تسليم فَهْمِ كونِ ذلك يومَ القيامة معه بدونِ احتمال ـ لا يقومُ مقامَ ذكرِهما، لِمَا في التصريح بما هو كالعَلَم من التهويلِ ما فيه.

وقال جمعٌ: المرادُ بذلك الاختصامُ العامُّ فيما جرى في الدنيا بين الأنام، لا خصوصُ الاختصامِ بينه عليه الصلاة والسلام وبينَ الكَفَرة الطَّغَامِ.

وفي الآثار ما يأبَى الخصوصَ المذكور؛ أخرج عبد الرزاق وعبد بنُ حميد وابن جرير وابن عساكر عن إبراهيم النخعيِّ قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكَ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢٥.

(٢) في الأصل: على المغيَّب، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٣٩٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٨.

مَيِّتٌ﴾ إلخ، فقالوا: وما خصومتُنا ونحن إخوان؟ فلمَّا قُتِل عثمان بنُ عفَّان قالوا: هذه خصومةُ ما بيننا[١].

وأخرج سعيد بنُ منصور عن أبي سعيد الخدريِّ قال: لمَّا نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، كنا نقول: ربُّنا واحدٌ، ودِيننا واحدٌ، فلمَّا كانَ يومُ صفِّين وشدَّ بعضُنا على بعضٍ بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا[٢].

وأخرج عبد بن حميد والنسائيُّ وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد لبثنا بُرْهةً من دهرِنا ونحن نرى أنَّ هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبلُ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، قلنا: كيف نختصم ونبيُّنا واحدٌ وكتابنا واحدٌ؟ حتى رأيتُ بعضَنا يضرِبُ وجوهَ بعضٍ بالسيف، فعرفتُ أنَّها نزلت فينا[٣].

وفي روايةٍ أخرى عنه بلفظِ: نزلت علينا الآيةُ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وما ندري فيمَ نزلت، قلنا: ليس بيننا خصومةٌ، فما التخاصُم؟ حتى وقعت الفتنةُ، فقلتُ: هذا الذي وَعَدَنا ربُّنا أن نختصِمَ فيه[٤].

وأخرج أحمد وعبد الرزاق وعبد بن حميد، والترمذيُّ وصحَّحه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقيُّ في «البعث والنشور» عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قلت: يا رسول الله أيُنْكَرُ علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب؟ قال: «نعم يُنْكر ذلك عليكم حتى يؤدَّى إلى كلِّ ذي حقٍّ حقُّه» قال الزبير: فوالله إنَّ الأمر لشديد[٥].

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧٢، وتفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٢، وتاريخ دمشق ٣٩/ ٤٩٣، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٧.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٢٧-٣٢٨، وعزاه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٣ للثعلبي.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٣٢٧، وهو في السنن الكبرى للنسائي (١١٣٨٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٢٣: رواه الطبراني ورجاله ثقات.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٢، وعزاه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٧ لعبد بن حميد وابن مردويه.
(٥) مسند أحمد (١٤٣٤)، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧٣، وسنن الترمذي (٣٢٣٦)، وتفسير ابنِ

وزعم الزمخشريُّ[1] أنَّ الوجهَ الذي يدلُّ عليه كلامُ الله تعالى هو ما ذُكر أولاً، واستَشهَد بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إلخ، وبقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ إلخ، لدلالتهما على أنَّهما اللذان تكونُ الخصومةُ بينَهما، وكذلك ما سبق من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ إلخ.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» فقال: أقولُ: قد نُقِل عن جلَّة الصحابةِ والتابعين ﷺ ما يدلُّ على أنَّهم فهِمُوا الوجهَ الثاني، أي: العمومَ، بل ظاهرُ قولِ النخعيِّ: قالت الصحابة: ما خصومتُنا ونحن إخوان؟! يدلُّ على أنَّه قولُ الكلِّ، فالوجهُ إيثارُ ذلك.

وتحقيقُه أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ كلامٌ مع الأُمَّة كلِّهم موحِّدِهم ومُشركهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ ﴿وَرَجُلًا﴾ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾، دون: بل هم، كالنصِّ على ذلك. فإذا قيل: «إنك ميِّت» وَجَب أن يكونَ على نحوِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ [الطلاق: ١] أي: إنَّكم أيُّها النبيُّ والمؤمنون، وأبْهَمَ ليعُمَّ القبيلين ولا يتنافر النظمُ، فقد رُوْعِيَ من مُفتتَح السورة إلى هذا المقام التقابلُ بين الفريقين، لا بينَه عليه الصلاة والسلام وحدَه وبينَ الكفَّار. ثم إذا قيل: «ثم إنكم» على التغليب، يكون تغليباً للمخاطَبين على جميع الناس، فهذا مِنْ حيثُ اللفظُ والمساقُ الظاهرُ.

ثم إذا كان الموتُ أمراً عمَّه والناسَ جميعاً كان المعنى عليه أيضاً. وأما حديثُ الاختصام والطباق الذي ذكره فليس بشيء؛ لأنَّه لِعُمومِه يشمَلُه شُمولاً أولياً كما حُقِّق هذا المعنى مراراً. والتعقيبُ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الآية: ٣٢] للتنبيه على أنَّه مصبُّ الغَرَض، وأنَّ المقصودَ التسلُّقُ إلى تلك الخصومةِ.

ولا أُنكِرُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ الاختصامَ يوم القيامة،

= أبي حاتم ١٠/ ٣٢٥٠، ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٣٥، والحلية ١/ ٩١، ولم نقف عليه في مطبوع البعث والنشور، ونقله المصنف من الدر المنثور ٥/ ٣٢٧، وهو في السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٩٣-٩٤.

(١) في الكشاف ٣/ ٣٩٨.

ولكنْ أُنكِر أنْ يختصَّ باختصامِ النبيِّ ﷺ وحدَه والمشركين، بل يتناولُه أوّلاً وكذلك اختصامَ المؤمنين والمشركين، واختصامَ المؤمنين بعضِهم مع بعض، كاختصام عثمانَ ﷺ يومَ القيامة وقاتليه، وهذا ما ذهب إليه هؤلاء، وهم هم ﷺ. انتهى.

وكأنَّه عنى بقوله: ولا أُنكِر.. إلخ، ردَّ ما يقال: إنَّ «عند ربكم» يدلُّ على أنَّ الاختصامَ يومَ القيامة، وقد صرِّح في النظم الجليل بذلك، فيكون تأكيداً مُشْعِراً بالاهتمام بأمرِ ذلك الاختصام، فليس هو إلَّا اختصامَ حبيبه ﷺ مع أعدائه الطَّغَام. ووجه الردِّ أنَّه إنْ سُلِّم أنَّ فائدةَ الجمع ما ذُكِر، فلا نُسَلِّم استدعاءَ ذلك لاعتبارِ الخصوص، بل يكفي للاهتمام دخولُ اختصامِ الحبيب مع أعدائه عليه الصلاة والسلام، فتأمَّله.

ثم أنت تعلم أنَّه لو لم يكن في هذا المقام سوى الحديثِ الصحيح المرفوع لكفى في كونِ المرادِ عمومَ الاختصام، فالحقُّ القولُ بعُمومه، وهو أنواعٌ شتَّى، فقد أخرج ابنُ جرير عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: يخاصِمُ الصادقُ الكاذِبَ، والمظلومُ الظالمَ، والمهتدِي الضالَّ، والضعيفُ المستكبِرَ(1).

وأخرج الطبرانيُّ وابنُ مردويه بسندٍ لا بأسَ به عن أبي أيوبَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أولُ مَنْ يختصِمُ يومَ القيامة الرجلُ وامرأتُه، والله ما يتكلَّمُ لسانُها، ولكنْ يداها ورِجلاها يشهدان عليها بما كان لزوجها، وتَشهَدُ يداه ورِجْلاه بما كان لها، ثمَّ يُدْعَى الرجلُ وخادمُه بمثلِ ذلك، ثم يُدْعَى أهلُ الأسواق، وما يوجَدُ ثَمَّ دانِقٌ ولا قراريطُ، ولكنْ حسناتُ هذا تُدْفَعُ إلى هذا الذي ظَلَمه، وسيئاتُ هذا الذي ظَلَمه توضَع عليه، ثم يُؤتى بالجبَّارِيْن في مقامعَ مِنْ حديدٍ، فيقال: أَوْرِدُوهم إلى النار، فوالله ما أدري يدخلُونها أو كما قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١](2)».

---

(1) تفسير الطبري ٢٠/٢٠١.

(2) المعجم الكبير ٤/١٤٨، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/٣٢٨.

وأخرج البزَّار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالأميرِ الجائرِ فتُخاصمه الرعية»(١).

وأخرج أحمدُ والطبرانيُّ بسندٍ حَسَنٍ عن عقبة بنِ عامرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ خصمين يومَ القيامة جارَان»(٢). ولعلَّ الأوليَّةَ إضافيةٌ؛ لحديثِ أبي أيوب السابقِ.

وجاء عن ابن عباس اختصامُ الروحِ مع الجسد أيضاً(٣)، بل أخرج أحمد بسندٍ حَسَنٍ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليختصمَنَّ يومَ القيامة كلُّ شيء حتى الشاتان فيما انتطحا»(٤).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن أضاف إليه سبحانه وتعالى الشريكَ أو الولدَ، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بالأمر الذي هو عينُ الحقِّ ونفسُ الصدق، وهو ما جاء به النبيُّ ﷺ ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: في أوَّل مجيئه من غير تدبُّرٍ فيه ولا تأمُّلٍ، فـ «إذ» فجائيةٌ كما صرَّح به الزمخشريُّ(٥)، لكن اشترط فيها في «المغني» أن تقعَ بعد «بينا» أو «بينما»، ونقله عن سيبويه(٦)، فلعلَّه أغلبيٌّ. وقد يقال: هذا المعنى يقتضيه السياقُ من غير توقُّفٍ على كونِ «إذ» فجائيَّة، ثم المرادُ أن هذا الكاذب المكذِّب أظلمُ مِن كلِّ ظالم.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وتعالى وسارَعوا إلى التكذيب بالصدْق. ووَضعُ الظاهر موضعَ الضمير للتسجيلِ عليهم بالكفر. والجمعُ باعتبارِ معنى «مَن»، كما أنَّ الإفراد في الضمائر

---

(١) مسند البزار (١٦٤٤ - كشف)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٥: فيه الأغلب بن تميم، وهو ضعيف.

(٢) مسند أحمد (١٧٣٧٢)، والمعجم الكبير ١٧/ ٣٠٣-٣٠٩.

(٣) عزاه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٨ لابن منده.

(٤) مسند أحمد (٩٠٧٢). وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٩٨.

(٦) مغني اللبيب ص١١٥.

السابقة باعتبارِ لفظها، أو لجنسِ الكَفَرة، فيشملُ أهلَ الكتاب ويدخل هؤلاء في الحكم دخولاً أوليًّا.

وأيًّاما كان فالمعنى على كفايةِ جهنَّمَ مجازاةً لهم، كأنه قيل: أليست جهنَّمُ كافيةً للكافرين مثوًى؟ كقوله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ [المجادلة: ٨] أي: هي تكفي عقوبةً لكفرِهم وتكذيبهم. والكفايةُ مفهومة من السياق كما تقول لمن سألك شيئاً: ألم أُنعِمْ عليك؟ تُريد: كفاكَ سابقُ إنعامي عليك.

واستُدِلَّ بالآية على تكفيرِ أهلِ البدَع؛ لأنَّهم مكذِّبون بما عُلِم صدقُه.

وتعقَّبَ بأنَّ «مَن كَذَبَ» مخصوصٌ بمن كذب الأنبياءَ شِفاهاً في وقتِ تبليغهم لا مطلقاً؛ لقوله تعالى: «إذ جاءه». ولو سلِّم إطلاقُه فهم لكونهم يتأوَّلون ليسوا مكذِّبين، وما نَفوه وكذَّبوه ليس معلوماً صدقُه بالضرورة، إذ لو عُلم من الدين ضرورةً كان جاحدُه كافراً كمنكِرِ فَرْضيَّةِ الصلاةِ ونحوها.

وقال الخفاجي: الأظهرُ أنَّ المرادَ تكذيبُ الأنبياء عليهم السلام بعد ظهور المعجزات في أنَّ ما جاؤوا به من عند الله تعالى، لا مطلقُ التكذيب[1].

وكأني بك تختارُ أنَّ المتأوِّلَ غيرُ مكذِّب، لكن لا عذرَ في تأويلٍ يَنْفي ما عُلم مِن الدين ضرورةً.

﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الموصولُ عبارةٌ عن رسول الله ﷺ كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس، وفسَّر الصدقَ بـ «لا إله إلا الله»[2]. والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحُكمِ التبعيَّة دخولَ الجند في قولك: نزل الأمير موضعَ كذا، وليس هذا من الجمع بين الحقيقةِ والمجازِ في شيء؛ لأنَّ الثاني لم يُقْصَد مِن حاقِّ اللفظِ، ولا يضرُّ في ذلك أنَّ المجيءَ بالصدقِ ليس وصفاً للمؤمنين الأتباعِ

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٤-٢٠٥، والأسماء والصفات (٢٠٦)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٨.

كما لا يخفى، والموصولُ على هذا مفردٌ لفظاً ومعنًى، والجمعُ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ٣٣﴾ باعتبارِ دخولِ الأتباع تبعاً. ومراتبُ التقوى متفاوتةٌ، ولرسولِ الله ﷺ أعلاها.

وجُوِّز أن يكون الموصول صفةً لمحذوفٍ، أي: الفوج الذي، أو: الفريق الذي.. إلخ، فيكون مفردَ اللفظ مجموعَ المعنى، فقيل: الكلامُ حينئذٍ على التوزيع؛ لأن المجيء بالصدق على الحقيقة له عليه الصلاة والسلام، والتصديقُ بما جاء به وإِنْ عمَّه وأتباعَه ﷺ، لكنَّه فيهم أظهرُ، فليُحْمَل عليه للتقابل.

وفي «الكشف»: الأَوْجَهُ أن لا يُحْمَل على التوزيع، غايةُ ما في الباب أنَّ أحدَ الوصفين في أحدِ الموصوفين أظهرُ، وعليه يحملُ كلام الزمخشريِّ الموهِمُ للتوزيع[1].

وحمل بعضُهم الموصولَ على الجنس، فإنَّ تعريفَه ـ كتعريف ذي اللام ـ يكون للجنس والعهد، والمرادُ حينئذ به الرسلُ والمؤمنون. وأيَّد إرادةَ ما ذَكر بقراءة ابن مسعود: «والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به»[2].

وزعم بعضهم أنه أريد: «والذين»، فحذفت النونُ كما في قوله:

إن الذي حانتْ بفَلْجٍ دماؤُهم هم القومُ كلُّ القوم يا أمَّ مالك[3]

وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنَّه ليس بصحيح؛ لوجوب جمع الضمير في الصلة حينئذٍ كما في البيت، ألا ترى أنَّه إذا حُذفت النونُ من «اللَّذان» كان الضمير مثنًّى كقوله:

أبني كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللذا قَتَلا الملوكَ وفكَّكا الأغلالا[5]

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢، والكشاف ٣/ ٣٩٨. وقد وردت قراءته بحذف النون أيضاً «والذي جاؤوا بالصدق وصدقوا به» كما في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والبحر ٧/ ٤٢٨.

(٣) البيت للأشهب بن رُميلة، وسلف ٣/ ٤٤٨.

(٤) البحر ٧/ ٤٢٨.

(٥) البيت للأخطل، وسلف ١٧/ ٣٢٣.

وقال عليٌّ[١] وأبو العالية والكلبيُّ وجماعة: «الذي جاء بالصدق» هو الرسولُ ﷺ، والذي «صدَّق به» هو أبو بكر ﷺ. وأخرج ذلك ابن جرير والباورديُّ في «معرفة الصحابة» وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان ـ وله صحبة ـ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[٢].

وقال أبو الأسود ومجاهدٌ في روايةٍ وجماعةٌ من أهل البيت وغيرُهم: الذي صدَّق به هو عليٌّ كرم الله تعالى وجهه[٣].

وأخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[٤].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدِّيِّ أنه قال: «الذي جاء بالصدق» جبريل عليه السلام، «وصدق به» هو النبيُّ ﷺ[٥].

قيل: وعلى الأقوال الثلاثة يقتضي إضمار «الذي»، وهو غيرُ جائزٍ على الأصحِّ عند النحاة من أنَّه لا يجوز حذفُ الموصول وإبقاءُ صلتِه مطلقاً، أي: سواءٌ عُطف على موصولٍ آخر أم لا. ويضعِّفه أيضاً الإخبار عنه بالجمع.

وأجيب بأنَّه لا ضرورةَ إلى الإضمار، ويراد بـ «الذي» الرسولُ ﷺ والصدِّيقُ أو عليٌّ ـ كرَّم الله تعالى وجهَهما ـ معاً، على أنَّ الصلة للتوزيع، أو يراد بـ «الذي» جبريلُ عليه السلام والرسولُ ﷺ معاً كذلك؛ وضميرُ الجمع قد يرجع إلى الاثنين وقد أريدا بـ «الذي».

ولا يخفى ما في ذلك من التكلُّف، والله تعالى أعلم بحال الأخبار، ولعلَّ ذِكْرَ أبي بكر مثلاً ـ على تقدير الصحَّة ـ من باب الاقتصارِ على بعضِ أفرادِ العامِّ لنكتةٍ،

---

(١) وقع في الأصل و(م): «علية»، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والبحر ٧/ ٤٢٨ والكلام وما بعده منه.

(٢) تفسير الطبري: ٢/ ٢٠٤-٢٠٥، وتاريخ دمشق ٣٠/ ٤٤٠، وعزاه للباوردي السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والبحر المحيط ٧/ ٤٢٨.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٣٢٨.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٥، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٨.

وهي في أبي بكرٍ ﷺ كونه أوَّلَ مَن آمن وصدَّق من الرجال، وفي عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه كونه أولَ مَن آمن وصدَّق من الصبيان. ويقال نحو ذلك على تقدير صحَّةِ خبرِ السدِّيِّ، ولا يكاد يصحُّ لقوله تعالى فيما بعد: «لِيُكفِّر» إلخ. وبما ذكر يُجمع بين الأخبار إن صحَّت، ولا يُعتبَر في شيء منها الحصرُ، فتدبَّر.

وقرأ أبو صالح وعكرمة بن سليمان: «وصَدَقَ به» مخففاً[١]، أي: وصدَق به الناسَ ولم يكذبْهم به، يعني: أدَّاه إليهم كما نزل عليه من غيرِ تحريفٍ، فالمفعولُ محذوفٌ؛ لأنَّ الكلامَ في القائم به الصدقُ وفي الحديثِ الصدقِ، والكلامُ على العموم دونَ خصوصِه عليه الصلاة والسلام، فإنَّ جملةَ القرآن حَفِظه الصحابةُ عنه عليه الصلاة والسلام وأدَّوه كما أنزل.

وقيل: المعنى: وصار صادقاً به، أي: بسببه؛ لأنَّ القرآن معجِزٌ والمعجزُ يدلُّ على صدقِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فالوصفُ خاصٌّ. وقد تجوَّز في ذلك باستعمال «صَدَق» بمعنى: صار صادقاً به، ولا كنايةَ فيه كما قيل.

وقال أبو صالح[٢]: أي: وعَمِلَ به. وهو كما ترى.

وقرئ: «وصُدِّق به» مبنيًّا للمفعول مشدَّداً[٣].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ بيانٌ لِمَا لأولئك الموصوفين بالمجيء بالصدقِ والتصديق به في الآخرة مِن حُسن المآب بعدَ بيانِ ما لهم في الدنيا مِن حُسن الأعمال، أي: لهم كلُّ ما يشاؤونه مِن جلْب المنافع ودفْع المضارِّ في الآخرة لا في الجنَّة فقط؛ لِمَا أنَّ بعضَ ما يشاؤونه من تكفيرِ السيئات والأمن من الفَزَع الأكبر وسائرِ أهوال القيامة إنما يقعُ قبلَ دخول الجنة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من حصولِ كلِّ ما يشاؤونه ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: الذين أحسنوا أعمالَهم، والمرادُ بهم أولئك المحدَّثُ عنهم لكن أقيمَ الظاهرُ مقامَ

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣١.

(٢) كما في القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٢٨.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٢٨.

الضمير تنبيهاً على العلة لحصول الجزاء. وقيل: المرادُ ما يعمُّهم وغيرَهم ويدخلون دخولاً أوليًّا.

وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ إلخ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: ليكفِّر الله عنهم ويجزيَهم خصَّهم سبحانه بما خصَّ. أو بما قبله باعتبارِ فحواه على ما قيل، أي: وعدَهم اللهُ جميعَ ما يشاؤونه من زوال المضارِّ وحصولِ المسارِّ ليكفِّر عنهم بموجب ذلك الوعدِ أسوأَ الذي عملوا. . إلخ، وليس ببعيدٍ معنًى عن الأوَّل.

وجوِّز أن يكون متعلِّقاً بقوله سبحانه: (ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ) أي: بما يدلُّ عليه من الثبوت، أو بـ «المحسنين» كما قال أبو حيان[١]، فكأنه قيل: وذلك جزاء الذين أحسنوا أعمالهم ليكفِّر الله عنهم أسوأَ الذي عملوه.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ ويعطيهم ثوابَهم ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وتقديمُ التكفير على إعطاء الثواب؛ لأنَّ درءَ المضارِّ أهمُّ مِن جلبِ المسارِّ.

وأقيم الاسم الجليلُ مقامَ الضمير الراجع إلى «ربهم» لإبراز كمالِ الاعتناء بمضمون الكلام، وإضافةُ «أسوأ» و«أحسن» إلى ما بَعْدَهما من إضافة أفعل التفضيل إلى غيرِ المفضَّل عليه للبيانِ والتوضيح، كما في: الأشجُّ أعدلُ بني مروانَ[٢]، ويوسفُ أحسنُ إخوته[٣]. والتفضيل ـ على ما قال الزمخشريُّ ـ للدلالة على أنَّ الزلَّة المكفَّرة عندَهم هي الأسوأ؛ لاستعظامهم المعصيةَ مطلقاً لشدَّةِ خوفِهم، والحَسَن الذي يعملونه عند الله تعالى هو الأحسنُ لحُسن إخلاصهم فيه[٤]. وذلك على ما قرِّر في «الكشف»، لأنَّ التفضيلَ هنا من باب الزيادةِ المطلقةِ من غير نظرٍ إلى مفضَّلٍ عليه، نظراً إلى وصولِه إلى أقصى الغاية الكمالية. ثم لَمَّا كانوا متَّقين كاملي التقى لم يكن في عملهم أسوأ إلَّا فرضاً وتقديراً.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الأشج: هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي. (توفي ١٠١هـ)، سمي بالأشج لشجَّة كانت في رأسه. سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٦.

(٣) ينظر ١٠/ ٩٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٩٨.

وقوله سبحانه: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دونَ: أحسن الذي كانوا يعملون، يدلُّ على أنَّ حَسَنَهم عند الله تعالى من الأحسن؛ لدلالته على أنَّ جميعَ أجرهم يجري على ذلك الوجه، فلو لم يعملوا إلَّا الأحسن كان التفضيلُ بحسب الأمرِ نفسِهِ. ولو كان في العمل الأحسنُ والحَسَنُ وكان الجزاءُ بالأحسن بأن يُنظَر إلى أحسن الأعمال فيجري الباقي في الجزاء على قياسه دلَّ أنَّ الحسَنَ عند المجازِي كالأحْسن، فصحَّ على التقديرين أنَّ حَسَنَهم عند الله تعالى هو الأحسنُ. ويُعلم من هذا أن لا اعتزالَ فيما ذكره الزمخشريُّ[1] كما توهَّمه أبو حيان، وأما قولُه في الاعتراض عليه: إنه قد استعمَل «أسوأ» في التفضيل على معتقَدهم، و«أحسنَ» في التفضيل على ما هو عندَ الله عزَّ وجلَّ، وذلك توزيعٌ في أفعل التفضيل وهو خلاف الظاهر[2]. فقد يسلَّم إذا لم يكن في الكلام ما يؤذِن بالمغايرة، فحيثُ كان فيه هاهنا ذلك على ما قرِّر، لا يسلَّم أنَّ التوزيعَ خلافُ الظاهر.

وقيل: إنَّ «أسوأ» على ما هو الشائع في أفعل التفضيل، وليس المرادُ أنَّ لهم عملاً سيئاً وعملاً أسوأ، والمكفَّر هو الأسوأُ، فإنَّهم المتقون الذين وإن كانت لهم سيئاتٌ لا تكون سيئاتُهم من الكبائر العظيمة، ولا يناسب التعرُّض لها في مقام مدحهم، بل الكلام كنايةٌ عن تكفير جميع سيئاتهم بطريق برهانيٍّ، فإنَّ الأسوأ إذا كفِّر كان غيرُه أولى بالتكفير، لا أنَّ ذلك صدَر منهم، ولا نسلِّم وجوبَ تحقُّقِ المعنى الحقيقيِّ في الكناية. وهو كما ترى.

وقال غير واحد: «أفعل» على ما هو الشائعُ، والأسوأ: الكفرُ السابق على التقوى والإحسان، والمراد تكفيرُ جميع ما سلَفَ منهم قبل الإيمان من المعاصي بطريق برهانيٍّ. وعلى هذا لا يتسنَّى تفسيرُ «وصدَّق به» بعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، إذ لم يسبقْ له كفْرٌ أصليٌّ، ولا يكاد يعبَّر عن الكفر التبعيِّ بأسوأ العمل.

وقيل: «أفعل» ليس للتفضيل أصلاً، فـ«أسوأ» بمعنى السيِّئ صغيراً كان أو كبيراً، كما هو وجهٌ أيضاً في: الأشجُّ أعدلُ بني مروان، وأُيِّدَ بقراءة ابن مقسم وحامد بن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٢٩.

يحيى عن ابن كثير روايةً عن البزيِّ عنه: «أسواء» بوزن «أفعال» جمع: سوء[1].

و«أحسن» عندَ أكثر أهل هذه الأقوال على بابه، على معنى أنَّه تعالى ينظُر إلى أحسنِ طاعاتهم فيُجْري سبحانه الباقي في الجزاء على قياسه لطفاً وكرماً.

وزعم الطبرسيُّ[2] أنَّ الأحسن الواجبُ والمندوبُ، والحسنَ المباحُ، والجزاءُ إنَّما هو على الأوَّلين دونَ المباح.

وقيل: المرادُ: يجزِيهم بأحسنَ مِنْ عملِهم وهو الجنة. وفيه ما فيه.

والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني دون الأول؛ للإيذانِ باستمرارِهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ إنكارٌ ونَفْيٌ لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه، كأنَّ الكفايةَ من التحقُّق والظهور بحيثُ لا يقدِرُ أحد على أن يتفوَّهَ بعدمِها أو يتلعثمَ في الجواب بوجودها.

والمراد بـ «عبده» إمَّا رسولُ الله ﷺ على ما روي عن السديِّ، وأيِّد بقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: الأوثان التي اتخذوها آلهةً؛ فإنَّ الخطابَ ـ سواءٌ كانت الجملة استئنافاً أو حالاً ـ له ﷺ. وقد روي أنَّ قريشاً قالت له عليه الصلاة والسلام: إنَّا نخافُ أن تخبلك آلهتُنا وتصيبك معرَّتُها؛ لعيبكَ إياها، فنزلت. وفي روايةٍ قالوا: لتكُفَّنَّ عن شتمِ آلهتِنا أو ليصيبنَّك منها خَبَلٌ، فنزلت[3]. أو الجنسُ المنتظِمُ له عليه الصلاة والسلام انتظاماً أوليًّا، وأيِّد بقراءة أبي جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائيِّ: «عبادَه» بالجمع[4]،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٢٩.

(٢) في مجمع البيان ٢٤/ ١٥٥.

(٣) نقلهما المصنف من تفسير أبي السعود ٧/ ٢٥٥، وروى عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٢ عن معمر في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال: قال لي رجل: إنهم قالوا للنبيِّ ﷺ: لتكفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلنَّك.

(٤) التيسير ص١٨٩، والنشر ٢/ ٣٦٢، عن حمزة والكسائي وأبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٤٢٩.

وفسّر بالأنبياء عليهم السلام والمؤمنين. وعلى الأول يرادُ أيضاً الأتباعُ كما سمعتَ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الآية: ٣٣]. و«يخوفونك» شاملٌ لهم أيضاً على ما سلف.

والتئام الكلام بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الآية: ٣٢] إلى هذا المقام؛ لدلالته على أنَّه تعالى يكفي نبيَّه ﷺ مُهِمَّ دينه ودنياه، ويكفي أتباعَه المؤمنين أيضاً المهمَّين. وفيه أنَّه سبحانه يكفيهم شرَّ الكافرين من وجهين: من طريق المقابلة، ومِن أنَّه داخلٌ في كفايةِ مهمَّي الرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعِه. وهذا ما تقتضيه البلاغةُ القرآنية، ويلائمُ ما بني عليه السورة الكريمة من ذكر الفريقَين وأحوالهما توكيداً لِمَا أمر به أوَّلاً من العبادة والإخلاص.

وقرئ: «بكافي عِبادِه» بالإضافة، و«يُكافِي عِبادَه» مضارع «كافى» ونصب «عباده»(١)، فاحتمل أن يكون مفاعلةً من الكفاية، كقولك: «يُجاري» في «يجري»، وهو أبلغ من «كفى» لبنائه على لفظ المبالغة، وهو الظاهر لكثرةِ تردُّدِ هذا المعنى في القرآن نحو ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ويحتمل أن يكون مهموزاً من المكافأة، وهي المجازاةُ. ووجه الارتباط أنه تعالى لَمَّا ذكر حالَ مَن كذَب على الله وكذَّب بالصدق وجزائِه، وحالَ مقابِله ـ أعني: الذي جاءَ بالصدق وصدَّق به ـ وجزاءَه، وعرَّض بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٣٤] بأنَّ ما سلف جزاءُ الكافرين المسِيْئين؛ لِمَا هو معروفٌ من فائدةِ البناء على اسم الإشارة، ثم عقَّبه تعالى بقوله عزَّ وجلَّ: «ليكفِّر» إلخ على معنى: ليكفِّرَ عنهم ويَجْزِيَهم خصَّهم بما خصَّ، فنبَّه على المقابِل أيضاً من ضرورةِ الاختصاصِ والتعليل، وفيه أيضاً ما يدلُّ على حكم المقابِل على اعتبارِ المتعلَّق غيرَ ما ذُكر كما يظهر بأدنى التفات = أَردفَ بقوله تعالى: «أليس الله يكافي عبادَه»(٢)، وحيث إنَّ مطمحَ النظر من العباد السَّيِّدُ الحبيبُ ﷺ، كان المعنى: الله تعالى يجازي عبدَه ونبيَّه عليه الصلاة والسلام هذا الجزاء المذكور. وفيه أنَّه الذي يجزيه

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٩٨-٣٩٩، والبحر ٧/ ٤٢٩.

(٢) وقع في (م): «بكاف عبده».

البتة، ويلائمه قولُه تعالى: (وَيُخَوِّفُونَكَ)، فإنَّه لَمَّا كان في مقابلةِ ذمِّ آلهتِهم كما سمعتَ في سبب النزول كان تحذيراً من جزاءِ الآلهة، فلا مغمزَ بعدم الملاءمَةِ. نعم لا ننكِر أنَّ معنى الكفاية أبلغُ كما هو مقتضَى القراءة المشهورة، فاعلم ذاك، والله تعالى يتولَّى هُداك.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ حتى غفَل عن كفايته تعالى عبدَه، وخوَّفَ بما لا ينفع ولا يضرُّ أصلاً ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ يهديه إلى خيرٍ مّا.

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ فيَجعل كونَه تعالى كافياً نُصْبَ عينِه عاملاً بمقتضاه ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ يصرفُه عن مقصدِه أو يصيبُه بسوءٍ يُخِلُّ بسلوكه، إذ لا رادَّ لفعله ولا معارِض لإرادته عزَّ وجلَّ كما ينطِقُ به قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ لا يُغالَب، منيعٍ لا يمانَع ولا ينازَع ﴿ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ ينتقم من أعدائِه لأوليائه. وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار؛ لتحقيقِ مضمونِ الكلام وتربيةِ المهابة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لظهورِ الدليل ووضوحِ السبيل، فقد تقرَّر في العقول وجوبُ انتهاء الممكنات إلى واجب الوجود[1]. والاسم الجليلُ فاعلٌ لفعلٍ محذوف، أي: خلقهنَّ الله.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ أي: إذا كان خالقُ العالم العلويِّ والسفليِّ هو اللهَ عزَّ وجلَّ كما أقررتُم، فأخبِروني أنَّ آلهتكم إن أرادني اللهُ سبحانه بضرٍّ هل هنَّ يَكْشِفْن عنِّي ذلك الضرَّ؟ فالفاء واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر. وقال بعضهم: التقديرُ: إذا لم يكن خالقٌ سواه تعالى فهل يُمكِن غيرَه كشفُ ما أراد من الضُّرِّ؟ وجوَّز أن تكون عاطفة على مقدَّرٍ، أي: أتفكَّرتم بعد ما أقررتم فرأيتم ما تدعون.. إلخ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي: أو: إنْ أرادني بنفعٍ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فيمنعُها سبحانه عنِّي.

---

(١) في الأصل: «واجب الوجوب»، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤٠، والكلام منه.

وقرأ الأعرج وشيبة وعمرو بن عبيد وعيسى بخلاف عنه وأبو عمرو وأبو بكر: «كاشفاتٌ» و«ممسكاتٌ» بالتنوين فيهما ونصبِ ما بعدهما[١].

وتعليقُ إرادة الضرِّ والرحمة بنفسه النفيسة عليه الصلاة والسلام للردِّ في نحورهم حيث كانوا خوَّفوه معرَّةَ الأوثان، ولِمَا فيه من الإيذان بإمحاضِ النصيحة. وقدَّم الضرُّ؛ لأنَّ دفعَه أهمُّ.

وقيل: «كاشفات» و«ممسكات» على ما يصفونها به من الأُنوثة؛ تنبيهاً على كمال ضعفها.

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ كافيَّ جلَّ شأنه في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشرِّ. روي عن مقاتل أنه ﷺ لَمَّا سألهم سكتوا؛ فنزل ذلك.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ﴾ لا على غيرِه في كلِّ شيء ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ لعِلْمِهم أنَّ كلَّ ما سواه تحتَ ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتِكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكَّنْتُم فيها، فإنَّ المكانةَ نُقلت من المكان المحسوس إلى الحالة التي عليها الشخصُ واستعيرتْ لها استعارة محسوسٍ لمعقول، وهذا كما تُستعار «حيث» و«هنا» للزمان بجامع الشمول والإحاطة. وجوِّز أن يكون المعنى: اعملوا على حسبِ تمكُّنِكم واستطاعتِكم.

وروي عن عاصم: «مكاناتكم» بالجمع[٢].

والأمرُ للتهديد، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي عَـٰمِلٌ﴾ وعيدٌ لهم، وإطلاقُه لزيادة الوعيد لأنَّه لو قيل: على مكانتي، لَتراءَى أنَّه عليه الصلاة والسلام على حالةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر ولا تزداد، فلمَّا أُطلِق أَشْعَرَ بأنَّ له ﷺ كلَّ زمانٍ مكانةٌ أخرى، وأنَّه لا يزال يزداد قوَّةً بنصر الله تعالى وتأييدِه، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فإنَّه دالٌّ على أنه ﷺ منصورٌ عليهم في الدنيا والآخرة بدليل قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ

---

(١) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٣ عن أبي عمرو ويعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٣٠.
(٢) هي رواية أبي بكر عن عاصم، كما في التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٦٣.

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ فإنَّ الأولَ إشارةٌ إلى العذاب الدنيويِّ وقد نالهم يوم بدر، والثاني إشارةٌ إلى العذاب الأخرويِّ، فإنَّ العذابَ المقيمَ عذابُ النار. فلو قيل: إنِّي عاملٌ على مكانتي، وكان إذ ذاك غير غالبٍ بل الأمرُ بالعكس؛ لم يلائم المقصود.

و«مَن» تحتمِلُ الاستفهام(١) والموصولية. وجملةُ «يخزيه» صفةُ «عذاب»، والمرادُ بـ «مقيم»: دائمٌ. وفي الكلام مجازٌ في الطرَف(٢) أو الإسناد، وأصلُه: مقيمٌ فيه صاحبُه.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، فإنَّه مناطُ مصالِحهم في المعاشِ والمعادِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حالٌ من مفعولِ «أنزلنا»، أو مِن فاعلِه، أي: أنزلنا الكتابَ ملتبِساً أو ملتبسينَ بالحقِّ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بأنْ عمِل بما فيه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعَ به نفسَه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمَلْ بموجبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لِمَا أنَّ وبالَ ضلاله مقصورٌ عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ لتُجبرهم على الهدى، وما وظيفتُك إلَّا البلاغ، وقد بلَّغتَ أيَّ بلاغٍ.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أي: يقبضُها عن الأبدان بأن يقطع تعلُّقَها ـ تعلُّقَ التصرُّفِ فيها ـ عنها ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: في وقت موتها، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ أي: ويتوفَّى الأنفسَ التي لم تَمُتْ ﴿فِى مَنَامِهَا﴾ متعلِّقٌ بـ «يتوفى»، أي: يتوفَّاها في وقت نومها على أنَّ مناماً اسمُ زمان. وجوِّز فيه كونُه مصدراً ميميًّا، بأن يقطعَ سبحانه تعلُّقَها بالأبدان تعلُّقَ التصرُّفِ فيها عنها أيضاً، فتَوَفِّي الأنفس حين الموت، وتَوَفِّيها في وقت النوم بمعنى قَبْضِها عن الأبدان وقطعِ تعلُّقِها بها تعلُّق التصرف، إلَّا أنَّ تَوَفِّيها حينَ الموت قطعٌ لتعلُّقِها بها تَعلُّقَ التصرُّف ظاهراً وباطناً، وتوفِّيها في وقتِ النوم

(١) في الأصل: «الاستفهامية»، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤١.
(٢) في (م): «الظرف»، بالظاء المعجمة، والمثبت من الأصل، وهو موافق لما في حاشية الشهاب ٧/ ٣٤١، وهو الصواب.

قطعٌ لذلك ظاهراً فقط، وكأنَّ التوفِّي الذي يكون عندَ الموت ـ لكونه شيئاً واحداً في أوَّلِ زمانِ الموت وبعد مُضِيِّ أيام منه ـ قيل: «حين موتها»، والتوفِّي الذي يكونُ في وقت النوم لكونه يتفاوَتُ في أوَّل وقت النوم وبعد مُضيِّ زمانٍ منه قوةً وضعفاً قيل: «في منامها»، أي: في وقتِ نومها، كذا قيل، فتدبَّره، ولمسلكِ الذهن السليم اتساعٌ.

وإسنادُ الموت والنوم إلى الأنفس قيل: مجازٌ عقليٌ؛ لأنَّهما حالَا أبدانِها، لا حالاها. وزعم الطبرسيُّ[1] أنَّ الكلامَ على حذف مضافٍ، أعني: الأبدان.

وجعل الزمخشريُّ «الأنفسَ» عبارةً عن الجملة دونَ ما يقابل الأبدان، وحَمل توفِّيها على إماتتها وسلبِ صحَّةِ أجزائها بالكلية، فلا تبقى حيَّةً حسَّاسةً درَّاكةً حتى كأنَّ ذاتَها قد سُلبت، وحيثُ لم يتحقَّق هذا المعنى في التوفِّي حينَ النوم؛ لأنَّه ليس إلَّا سلبَ كمال الصحة وما يترتَّبُ عليه من الحركات الاختيارية وغيرِها، قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، أي: يتوفَّاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] حيث لا تميِّزون ولا تتصرَّفون كما أنَّ الموتى كذلك[2].

وما يتخايل فيه من الجمع بين الحقيقة والمجاز يُدْفع بالتأمُّل. وتقديمُ الاسم الجليلِ وبناءُ «يتوفَّى» عليه؛ للحصر، أو للتقوِّي، أو لهما، واعتبارُ الحصر أوفقُ بالمقام من اعتبار التقوِّي وحده، أي: الله يتوفَّى الأنفسَ حقيقةً لا غيرُه عزَّ وجلَّ.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى﴾ أي: الأنفس التي ﴿قَضَىٰ﴾ في الأزل ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾، ولا يردُّها إلى أبدانها، بل يُبقيها على ما كانت عليه، وينضمُّ إلى ذلك قطعُ تعلُّقِ التصرُّفِ باطناً، وعبَّر عن ذلك بالإمساك ليناسِبَ التوفِّي.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وعيسى وطلحة والأعمش وابن وثاب: «قُضي» على البناء للمفعول، ورفع «الموت»[3].

---

(١) في مجمع البيان ٢٤/ ١٥٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٠.
(٣) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٣، عن حمزة والكسائي، والكلام من البحر ٧/ ٤٣١.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: الأنفس الأخرى ـ وهي النائمة ـ إلى أبدانها فتكون كما كانت حالَ اليقظة متعلِّقة بها تعلُّقَ التصرُّف ظاهراً وباطناً، وعبّر بالإرسال رعايةً للتقابل، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقت المضروبُ للموت حقيقةً، وهو غايةٌ لجنس الإرسال الواقعِ بعدَ الإمساك، لا لفردٍ منه، فإنَّه آنيٌّ لا امتدادَ له فلا يُغَيَّا. واعتبر بعضُهم كونَ الغاية للجنس لئلا يَرِدَ لزومُ أنْ لا يقع نومٌ بعد اليقظة الأولى أصلاً، وهو حَسن.

وقيل: «يرسل» مضمَّنٌ معنى الحفظ، والمراد: يرسل الأخرى حافظاً إياها عن الموت الحقيقيِّ إلى أجلٍ مسمًّى.

وروي عن ابن عباس أنَّ في ابن آدم نَفْساً وروحاً بينهما مثلُ شعاع الشمس، فالنفسُ هي التي بها العقلُ والتميزُ، والروحُ هي التي بها النَّفَسُ والتحرُّك، فيُتوفَّيان عند الموت، وتُتوفَّى النفس وحدها عند النوم[1]. وهو قولٌ بالفرق بين النفس والروح، ونسبه بعضُهم إلى الأكثرين.

ويعبَّر عن النفس بالنفس الناطقة؛ وبالروح الأمرية؛ وبالروح الإلهية، وعن الروح بالروح الحيوانية؛ وكذا بالنفس الحيوانية، والثانيةُ كالعرش للأولى.

قال بعض الحكماء المتألهين: إن القلب الصنوبري فيه بخارٌ لطيف هو عرشٌ للروح الحيوانية وحافظٌ لها وآلةٌ يتوقَّفُ عليها آثارُها، والروحُ الحيوانية عرشٌ ومرآةٌ للروح الإلهية التي هي النفس الناطقةُ، وواسطةٌ بينها وبينَ البدن، بها يصلُ حكم تدبير النفس إليه.

وإلى عدم التغاير ذهب جماعةٌ، وهو قول ابن جبير؛ وأحد قولين لابن عباس، وما روي عنه أولاً في الآية يوافقُ ما ذكرناه من حيث إنَّ النفس عليه ليست بمعنى الجملة كما قال الزمخشريُّ وادَّعى أنَّ الصحيحَ ما ذكره دون هذا المروي بدليلِ

(١) عزاه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٩ لابن أبي حاتم، ونقله المصنف من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٤١.

موتها ومنامها، والضمير لـ «الأنفس» وما أريد منها غيرُ متَّصفٍ بالموت والنوم، وإنما الجملة هي التي تتَّصِف بهما[(١)].

وقال في «الكشف»: ولأنَّ الفرق بين النفسين رأيٌ يدفعه البرهان، وإيقاع الاستيفاء أيضاً لا بدَّ له من تأويلٍ أيضاً، فلا ينبغي أن يُعدل عن المشهور الملائم - يعني حمل التوفِّي على الإماتة - فإنَّ أصلَه أخذُ الشيء من المستوفَى منه وافياً كَمَلاً وسلبُه منه بالكلية، ثم نُقل عن ذلك إلى الإماتة لِمَا أنَّه موجودٌ فيها حتى صارت المتبادرةَ إلى الفهم منه. وفيه دغدغةٌ.

والذي يشهد له كثيرٌ من الآثار الصحيحة أنَّ المتوفَّى الأنفسُ التي تُقابل الأبدانَ دون الجملة؛ أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أَوَى أحدُكم إلى فراشِه فَلْيَنفُضْه بداخلةِ إزاره فإنه لا يدري ما خَلَفَه عليه، ثم ليقل: اللهمَّ باسمك ربِّي وضعتُ جنبي وباسمك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فارحَمْها، وإن أرسلتَها فاحفظْها بما تحفظُ به الصالحين مِن عبادِك»[(٢)].

وأخرج أحمد والبخاريُّ وأبو داود والنسائيُّ وابن أبي شيبة عن أبي قتادة أنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم ليلة الوادي: «إنَّ الله تعالى قَبَضَ أرواحَكم حين شاء وردَّها عليكم حينَ شاء»[(٣)].

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنت مع النبيِّ ﷺ في سفرٍ فقال: «من يَكْلَؤُنَا الليلة»؟ فقلت: أنا، فنام ونام الناسُ ونمتُ فلم نستيقظ إلا بِحَرِّ الشمس، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أيُّها الناس، إنَّ هذه الأرواحَ عاريَّةٌ في أجسادِ العباد، فيقبِضُها اللهُ إذا شاء ويُرسِلُها إذا شاء»[(٤)].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٠.

(٢) صحيح البخاري (٦٣٢٠)، وصحيح مسلم (٢٧١٤).

(٣) مسند أحمد (٢٢٦١١)، وصحيح البخاري (٥٩٥)، وسنن أبي داود (٤٣٩)، وسنن النسائي ٢/ ١٠٦، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٦٦.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٣٢٩، وأخرجه أيضاً البزار (٣٩٦ - كشف)، والدولابي في الكنى (١٣٦٧)، والإسماعيلي في معجم الشيوخ ١/ ٤٤٥، وفي إسناده أبو عمرو عتبة بن يقظان، وهو ضعيف كما في التقريب.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أنَّ عمر بن الخطاب قال: العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيءَ لم يخطُر له على بالٍ فتكون رؤياه كأخذٍ باليد، ويرى الرجلُ الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً. فقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: أفلا أخبرُك بذلك يا أمير المؤمنين؟ يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ فالله تعالى يتوفَّى الأنفسَ كلَّها فما رأت وهي عنده سبحانه في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا أُرسِلَتْ إلى أجسادِها فهي الرؤيا الكاذبة؛ لأنَّها إذا أرسِلَتْ إلى أجسادها تلقَّتْها الشياطينُ في الهواءِ فكَذَّبَتْها وأخْبَرَتْها بالأباطيل فكذبتْ فيها. فعَجِبَ عمرُ من قولِه رضي الله عنهما[1].

وظاهرُ هذا الأثر أنَّ النفسَ النائمةَ المقبوضةَ تكون في السماء حتى تُرسَل، ومثلُ ذلك مما يجب تأويلُه على القول بتجرُّدِ النفس ولا يجب على القول الآخر. نعم لعلَّك تختارُه، وكأنَّك تقول: إنَّ النفسَ شريفةٌ علويةٌ هبطَتْ من المحلِّ الأرفع، وأرْسِلت من حِمًى ممنَّعٍ، وشُغلت بتدبيرِ منزلها في نهارها وليلها، ولم تزل تنتظِرُ فرصةَ العودِ إلى ذيَّاك الحمى، والمحلِّ الرفيع الأسمى، وعند النوم تنتهز تلك الفرصة، وتهونُ عليها في الجملة هاتيك الغصَّة، فيحصلُ لها نوعُ توجُّهٍ إلى عالم النور ومعلَم السرور الخالي من الشرور، بحيثُ تستعدُّ استعداداً مّا لقبولِ بعضِ آثاره، والاستضاءةِ بشيءٍ من أنواره، وجعلُها كذلك هو قبضُها، وبه لعمري بسطُها وفيضها، فمتى رأت وهي في تلك الحال مستفيضةً مِن ذلك العالم الموصوفِ بالكمال رؤيا، كانت صادقةً، ومتى رأتْ وهي في راجعة القهقرى إلى ما ابتُلِيَتْ به من تدبيرِ منزلٍ تَحُوم فيه شياطينُ الأوهام، وتزدَحِمُ فيه أيَّ ازدحامٍ، كانت رؤياها كاذبةً، ثم إنَّها في كلا الحالين متفاوِتةُ الأفراد فيما يكون من الاستعداد، والوقوف على حقيقة الحال لا يتمُّ إلَّا بالكشف دون القيل والقال.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ الإشارةُ إلى ما ذُكر من التوفِّي والإمساكِ والإرسال، والإفرادُ لتأويله بالمذكور أو نحوه، وصيغةُ البعيد باعتبارِ

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٢٩.

مبدئِه أو تقضّي ذكرِه أو بُعْدِ منزلته، والتنوينُ في «آياتٍ» للتكثير والتعظيم، أي: إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ كثيرةً عظيمةً دالَّةً على كمالِ قدرته تعالى وحكمتِه وشمولِ رحمتِه سبحانه لقومٍ يتفكَّرون في كيفيةِ تعلُّق الأنفس بالأبدان، وتوفِّيها عنها تارةً بالكلِّية عند الموت، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفنائها إلى أن يعيدَ الله تعالى الخلقَ، وما يعتريها من السعادة والشقاوةِ، وأخرى عن ظواهرِها فقط كما عند النوم، وإرسالها حيناً بعد حينٍ إلى انقضاءِ آجالها.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل اتَّخذَ قريشٌ، فـ «أم» منقطعةٌ والاستفهامُ المقدَّرُ لإنكارِ اتخاذهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ تشفَعُ لهم عندَ الله تعالى في رفع العذاب. وقيل: في أمورهم الدنيوية والأخروية. وجوّز كونُها متصلةً بتقدير معادلٍ، كما ذكره ابنُ الشيخ في «حواشي البيضاوي»، وهو تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

ومعنى «من دون الله»: من دونِ رضاه، أو إذنِه؛ لأنَّه سبحانه لا يشفَعُ عندَه إلَّا مَن أذِن له ممن ارتضاه(١)، ومثلُ هذه الجماداتِ الخسيسة ليست مرضيةً ولا مأذونةً. ولو لم يلاحَظ هذا اقتضى أنَّ الله تعالى شفيعٌ، ولا يطلَقُ ذلك عليه سبحانه. أو التقدير: أم اتخذوا آلهةً سواه تعالى لتشفع لهم؟! وهو يؤولُ لِمَا ذُكِر.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: أيشفعون حالَ تقديرِ عدم ملكهم شيئاً من الأشياء وعدم عقلهم إياه؟ وحاصله: أيشفعون وهم جمادات لا تقدر ولا تعلم؟ فالهمزة داخلة على محذوف، والواو للحال، والجملة حالٌ من فاعلِ الفعل المحذوف.

وذهب بعضهم إلى أنَّها للعطف على شرطيةٍ قد حُذفَتْ لدلالةِ «لو كانوا لا يملكون» إلخ عليها، أي: أيشفعون لو كانوا يملكون شيئاً ويعقلون ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ والمعنى على الحالية أيضاً، كأنه قيل: أيشفعون على كلِّ حال.

وقال بعضُ المحقِّقين من النحاة: إنها اعتراضيةٌ، ويعني بالجملة الاعتراضية

---

(١) في (م): أرضاه.

ما يتوسَّطُ بين أجزاء الكلام متعلِّقاً به معنًى، مستأنفاً لفظاً، على طريق الالتفات، كقوله:

فأنتِ طلاقٌ والطلاقُ أَلِيَّةٌ[1]

وقوله:

ترى كلّ مَنْ فيها وحاشاك فانيا[2]

وقد تجيء بعد تمام الكلام كقوله ﷺ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ»[3]. وفي احتياج أداةِ الشرط في مثل هذا التركيب إلى الجواب خلافٌ، وعلى القَول بالاحتياج هو محذوفٌ لدلالةِ ما قبلُ عليه، وتحقيقُ الأقوال في كتب العربية.

وجوَّز أن يكون مدخولُ الهمزة المحذوفُ هنا الاتخاذَ، أي: قل لهم: أتتَّخِذونهم شفعاءَ ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء ـ فضلاً عن أن يملكوا الشفاعةَ عند الله تعالى ـ ولا يعقلون؟!

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ لعلَّه كما قال الإمام ردٌّ لِمَا يجيبون به، وهو أنَّ الشفعاءَ ليست الأصنامَ أنفسَها، بل أشخاصٌ مقرَّبون هي تماثيلُهم، والمعنى أنَّه تعالى مالكُ الشفاعة كلِّها، لا يستطيع أحدٌ شفاعةً مّا إلا أن يكونَ المشفوعُ مرتضًى والشفيعُ مأذوناً له، وكلاهما مفقودان هاهنا.

وقد يُستدلُّ بهذه الآية على وجود الشفاعة في الجملة يوم القيامة؛ لأنَّ المِلكَ

---

(١) وعجزه:

ثلاثاً ومَن يَخْرِق أعقُّ وأظلمُ

وهو في الحماسة البصرية ٢/ ٣١٤، والمغني ص٧٦، والخزانة ٣/ ٤٥٩، وروايته في المغني: . . . والطلاق عزيمة، وصحح هذه الرواية البغداديُّ في الخزانة ٣/ ٤٦٠. وقوله: أَلِيَّةٌ، أي: يمين. ويَخْرِق: مضارع خرق: إذا عمل شيئاً لم يرفُق فيه. والشاهد فيه قوله: والطلاق ألية، وقع اعتراضاً بين قوله: فأنتِ طلاقٌ، وقوله: ثلاثاً. الخزانة ٣/ ٤٥٩.

(٢) عجز بيت للمتنبي وهو في ديوانه ٤/ ٤٢٧، وصدره:

وتَحْتَقِرُ الدنيا احتقار مجرِّبٍ

(٣) سلف ١٢/ ٣٧٨.

أو الاختصاصَ الذي هو مفادُ اللام هنا يقتضِي الوجودَ، فالاستدلالُ بها على نفْي الشفاعة مطلقاً في غاية الضعف.

وقولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ لكونِ الشفاعة جميعاً له عزَّ وجلَّ، كأنه قيل: له ذلك لأنَّه جلَّ وعلا مالكُ الملك كلِّه فلا يتصرَّف أحدٌ بشيء منه بدون إذنه ورضاه، فالسماوات والأرضُ كنايةٌ عن كلِّ ما سواه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ عطفٌ على قوله تعالى: «له ملك» إلخ، وكأنه تنصيصٌ على مالكية الآخرة التي فيها معظمُ نفع الشفاعة، وإيماءٌ إلى انقطاع المِلك الصوريِّ عما سواه عزَّ وجلَّ. وجوِّز أن يكونَ عطفاً على قوله تعالى: «لله الشفاعة». وجعلَه في «البحر»[(١)] تهديداً لهم، كأنَّه قيل: ثم إليه تُرجعون فتَعْلمون أنهم لا يشفعون لكم، ويخيب سعيكم في عبادتكم[(٢)] إياهم.

وتقديمُ «إليه» للفاصلة وللدلالة على الحصر، إذ المعنى: إليه تعالى لا إلى أحد غيرِه سبحانه ـ لا استقلالاً ولا اشتراكاً ـ ترجعون.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: مفرَداً بالذكر ولم تُذكرْ معه آلهتُهم. وقيل: أي: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: انقبضت ونفرت كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فُرادى أو مع ذكر الله عزَّ وجلَّ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ لفرْط افتتانهم بهم ونسيانهم حقَّ الله تعالى. وقد بولغ في بيانِ حالهم القبيحةِ حيث بيِّن الغايةَ فيهما، فإنَّ الاستبشارَ أن يمتلئَ القلبُ سروراً حتى تنبسطَ له بَشَرَةُ الوجهِ، والاشمئزازَ أن يمتلئَ غيظاً وغمًّا ينقبضُ عنه أديمُ الوجه كما يشاهَدُ في وجهِ العابس المحزون.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٣١.

(٢) في (م): عبادتهم.

و«إذا» الأولى شرطية محلُّها النصبُ على الظرفية، وعاملُها الجواب عند الأكثرين وهو «اشمأزت»، أو الفعلُ الذي يليها وهو «ذُكِرَ» عند أبي حيان[1] وجماعة، وليست مضافةً إلى الجملة التي تليها عندهم، وكذا «إذا» الثانية فالعاملُ فيها إما «ذُكر» بعدها، وإمَّا «يستبشرون». و«إذا» الثالثةُ فجائيةٌ رابطةٌ لجملةِ الجزاء بجملة الشرط كالفاء، فعلى القول بحرفيَّتها لا يعمل فيها شيءٌ، وعلى القول باسميَّتها وأنها ظرفُ زمانٍ أو مكانٍ عاملُها هنا خبرُ المبتدأ بعدَها.

وقال الزمخشريُّ[2]: عاملُها فعلٌ مقدَّر مشتقٌّ من لفظِ المفاجأة، تقديرُه: فاجؤوا وقتَ الاستبشار، فهي مفعولٌ به، وجوَّز أن تكون فاعلاً على معنى: فاجأهم وقت الاستبشار، وهذا الفعل المقدَّرُ هو جوابُ «إذا» الثانيةِ، فتتعلَّقُ به بناءً على قول الأكثرين من أنَّ العاملَ في «إذا» جوابُها، ولا يلزَمُ تعلُّقُ ظرفين بعاملٍ واحدٍ؛ لأنَّ الثانيَ منهما ليس منصوباً على الظرفية.

نعم قيل على الزمخشري: إنَّه لا سلفَ له فيما ذهب إليه، وأنت تعلم أنَّ الرجل في العربية لا يقلِّد غيره.

ومن العجيب قولُ الحوفي: إنَّ «إذا» الثالثة ظرفيةٌ جيء بها تكريراً لـ «إذا» قبلها وتوكيداً، وقد حذف شرطُها، والتقديرُ: إذا كان ذلك هم يستبشرون[3]. ولا ينبغي أن يُلتفتَ إليه أصلاً.

والآية في شأن المشركين مطلقاً؛ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنَّه فسَّر: «الذين لا يؤمنون بالآخرة» بأبي جهل بن هشام والوليد بن عقبةَ وصفوانَ وأُبيِّ بن خلف، وفسَّر: «الذين من دونه» باللات والعزى[4]. وكأن ذلك تنصيص على بعض أفراد العامِّ.

وأخرج ابن المنذر وغيرُه عن مجاهد أنَّ الآية حكت ما كان من المشركين يوم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٣٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٠١.

(٣) البحر ٧/ ٤٣١.

(٤) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣٠.

قرأ النبيُّ ﷺ: «والنجم» عند باب الكعبة[1]، وهذا أيضاً لا ينافي العمومَ كما لا يخفى.

وقد رأينا كثيراً من الناس على نحوِ هذه الصفة التي وصفَ الله تعالى بها المشركين يَهُشُّون لذكر أمواتٍ يستغيثون بهم ويطلبون منهم، ويطرَبون من سَماع حكاياتٍ كاذبةٍ عنهم توافِقُ هواهم واعتقادَهم فيهم، ويعظِّمون من يحكي لهم ذلك، وينقبِضون مِن ذكرِ الله تعالى وحدَه ونسبةِ الاستقلال بالتصرُّف إليه عزَّ وجلَّ وسردِ ما يدلُّ على مزيدِ عظمته وجلاله، وينفرون ممن يفعل ذلك كلَّ النَّفْرة، وينسُبونه إلى ما يكره، وقد قلت يوماً لرجلٍ يستغيث في شدَّةٍ ببعض الأموات وينادي: يا فلانُ، أغِثْني. فقلت له: قل: يا الله، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فغضِب، وبلغني أنَّه قال: فلانٌ منكرٌ على الأولياء. وسمعتُ عن بعضهم أنه قال: الوليُّ أسرعُ إجابةً من الله عزَّ وجلَّ. وهذا من الكفر بمكانٍ، نسأل الله تعالى أن يعصِمَنا من الزيغ والضلال[2].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أُمِر بالدعاء والالتجاء إلى الله تعالى لِمَا قاساه في أمرِ دعوتهم ونالَه من شدَّةِ شكيمتهم في المكابرة والعنادِ، فإنَّه تعالى القادرُ على الأشياء بجملتها، والعالمُ بالأحوال برُمَّتها، والمقصودُ من الأمر بذلك بيانُ حالهم ووعيدِهم، وتسليةُ حبيبه الأكرم ﷺ، وأنَّ جدَّه وسعْيَه معلومٌ مشكورٌ عنده عزَّ وجلَّ، وتعليمُ العباد الالتجاءَ إلى الله تعالى والدعاءَ بأسمائه العظمى.

ولله تعالى دَرُّ الربيع بن خثيم فإنَّه لَمَّا سئل عن قتل الحسين رضي الله عنه تأوَّه وتلا هذه الآية. فإذا ذُكر لك شيءٌ مما جرى بين الصحابة قل: «اللهم فاطر السموات» إلخ، فإنه من الآداب التي ينبغي أن تحفظ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/٢١٨-٢١٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/٣٢٩-٣٣٠.
(٢) في (م): والطغيان.

وتقديمُ المسنَد إليه في «أنت تحكم» للحصر، أي: أنت تحكم وحدَك بين العباد فيما استمرَّ اختلافُهم فيه حكماً يسلِّمه كلُّ مكابرٍ معاندٍ، ويخضَعُ له كلُّ عاتٍ ماردٍ، وهو العذابُ الدنيويُّ أو الأخرويُّ، والمقصود من الحكم بين العباد: الحكمُ بينه عليه الصلاة والسلام وبينَ هؤلاء الكَفَرَة.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إلخ قيل: مستأنَفٌ مسوقٌ لبيانِ آثارِ الحكم الذي استدعاه النبيُّ ﷺ وغايةِ شدَّته وفظاعتِه، أي: لو أنَّ لهم جميعَ ما في الدنيا من الأموال والذخائر ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: لجعلوا كلَّ ذلك فديةً لأنفسِهم من العذاب السيِّئ الشديد.

وقيل: الجملةُ معطوفةٌ على مقدَّرٍ، والتقدير: فأنا أحكم بينهم وأعذِّبهم، ولو علموا ذلك ما فعلوا ما فعلوا، والأولُ أظهر. وليس المراد إثباتَ الشرطية، بل التمثيل لحالِهم بحالِ مَن يحاولُ التخلُّصَ والفداءَ مما هو فيه بما ذُكر فلا يُتقبَّلُ منه، وحاصلُه أنَّ العذابَ لازمٌ لهم لا يخلَّصون منه ولو فُرض هذا المحالُ، ففيه من الوعيدِ والإقناطِ ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ - أي: ظهرَ لهم من فنُون العقوبات ما لم يكن في حسابهم - زيادةُ مبالَغةٍ في الوعيد، ونظيرُ ذلك في الوعد قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] والجملةُ قيل: الظاهرُ أنها حالٌ من فاعلِ «افتدوا».

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ حينَ تُعرض عليهم صحائفُهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: الذي كسبوه وعمِلوه، على أنَّ «ما» موصولةٌ، أو: كَسْبُهم وعملُهم على أنَّها مصدريةٌ، وإضافةُ «سيئات» على معنى «مِنْ» أو اللام.

﴿وَحَاقَ﴾ أي: أحاط ﴿بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: جزاءُ ذلك، على أنَّ الكلام على تقديرِ المضاف، أو على أنَّ هناك مجازاً بذكر السبب وإرادةِ مسبَّبه، و«ما» محتمِلَةٌ للموصوليةِ والمصدريةِ أيضاً.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبارٌ عن الجنسِ بما يغلب فيه، وقيل: المرادُ

بـ «الإنسان» [أبو] حذيفةُ بن المغيرة(١)، وقيل: الكَفَرة.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: أعطيناه إياها تفضُّلاً، فإنَّ التخويلَ على ما قيل: مختصٌّ به، لا يطلَقُ على ما أعطِيَ جزاءً.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي: على علمٍ منِّي بوجوهِ كسبِه، أو: بأنِّي سأُعطاه لِمَا لي من الاستحقاق، أو: على علمٍ من الله تعالى بي وباستيجابي.

و«إنما» للحصر، أي: ما أوتيته لشيء من الأشياء إلا لأجلِ علمٍ.

والهاء للنعمة، والتذكيرُ لتأويلها بشيءٍ من النِّعَم، والقرينة على ذلك التنكيرُ. وقيل: لأنَّها بمعنى الإنعام. وقيل: لأنَّ المرادَ بها المالُ، وقيل: لأنها تشتمِلُ على مذكَّرٍ ومؤنَّثٍ فغلَّبَ المذكَّرُ. وجوِّز أن يكون لـ «ما» في «إنما» على أنَّها موصولة، أي: إنَّ الذي أوتِيْتُه كائنٌ على علمٍ، ويُبعِد موصوليتَها كتابتُها متصلةً في المصاحف.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ ردٌّ لقوله ذلك، والضميرُ للنعمة باعتبارِ لفظِها كما أنَّ الأولَ لها باعتبارِ معناها، واعتبارُ اللفظ بعدَ اعتبارِ المعنى جائزٌ وإن كانَ الأكثرُ العكسَ. وجوِّز أن يكونَ التأنيثُ باعتبارِ الخبر. وقيل: هو ضميرُ الإتيانة. وقرئ بالتذكير(٢)، فهو للنعمة أيضاً كالذي مرَّ، أو للإتيان، أي: ليس الأمرُ كما يقول بل ما أوتِيَه امتحانٌ له أيشكُر أم يكفر؟ وأُخبِرَ عنه بالفتنة ـ مع أنَّه آلةٌ لها ـ لقصد المبالغة، ونحو هذا يقال على تقدير عود الضمير للإتيانة أو الإتيان.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أنَّ الأمرَ كذلك، وهذا ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بـ «الإنسان» الجنسُ، إذ لو أريد العهد لقيل: لكنَّه لا يعلم، أو: لكنهم لا يعلمون. وإرادةُ العهد هناك وإرجاعُ الضمير للمطلق هنا على أنَّه استخدامٌ نظير: عندي درهمٌ ونِصْفُه = تكلُّفٌ.

والفاءُ للعطف، وما بعدها عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ إلخ،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٣٠، وزاد المسير ٧/ ١٨٨، وما بين حاصرتين منهما.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٢.

وهي لترتيبه عليه، والغرضُ منه التهكُّم والتحميق، وفيه ذمُّهم بالمناقضة والتعكيس حيث إنهم يشمَئِزُّون عن ذكر الله تعالى وحدَه ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسَّهم ضرٌّ دعَوا مَن اشمأزُّوا مِنْ ذكره دونَ مَن استبشروا بذكره، وهذا كما تقول: فلانٌ يسيء إلى فلانٍ، فإذا احتاج سأله فأحسن إليه، ففي الفاء استعارةٌ تبعيةٌ تهكُّمِية.

وقيل: يجوز أن تكونَ للسببية داخلةً على السبب؛ لأنَّ ذِكرَ المسبَّب يقتضي ذكرَ سببِه؛ لأنَّ ظهورَ «ما لم يكونوا يحتسبون» إلخ مسبَّب عمَّا بعد الفاء إلا أنَّه يتكرَّرُ مع قوله تعالى الآتي: «والذين ظلموا منهم» إلى آخره إن لم يتغايرا بكون أحدهما في الدنيا والآخرِ في الأُخرَى. وإلى ما قدَّمنا ذهب الزمخشريُّ[1].

والجملُ الواقعة في البين عليه أعني قوله سبحانه: «قل اللَّهمَّ» إلى «يستهزئون» اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإنكار عليهم. وزعم أبو حيان أنَّ في ذلك تكلُّفاً واعتراضاً بأكثر من جملتين، وأبو علي الفارسيُّ لا يجيزُ الاعتراضَ بجملتين، فكيف يجيزه بالأكثر[2]. وأنا أقول: لا بأس بذلك لاسيَّما وقد تضمَّنَ معنًى دقيقاً لطيفاً، والفارسيُّ محجوجٌ بما وردَ في كلام العرب من ذلك.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ضميرُ «قالها» لقوله تعالى: (إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ) لأنَّها كلمةٌ أو جملةٌ. وقرئ بالتذكير[3]، أي: القولَ، أو: الكلامَ المذكور، و«الذين من قبلهم» قارونُ وقومُه، فإنَّه قالَ ورضُوا به، فالإسنادُ من بابِ إسنادِ ما للبعض إلى الكلِّ، وهو مجازٌ عقليٌّ.

وجوِّز أن يكون التجوُّز في الطرفِ، فـ «قالها الذين من قبلهم» بمعنى: شاعت فيهم، والشائع الأول، والمراد: قالوا مثلَ هذه المقالة، أو: قالوها بعينها، ولاتحادِ صورةِ اللفظ تُعَدُّ شيئاً واحداً في العرف.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾ من متاع الدنيا، ويجمعونه منه.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) البحر ٧/ ٤٣٣.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٢.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: أصابهم جزاءُ سيئاتِ كسبهم، أو: الذي كَسَبُوه؛ على أنَّ الكلامَ بتقدير مضافٍ، أو أنه تجوُّزٌ بالسيئات عما تسبَّب عنها، وقد يقال لجزاء السيئة: سيئةٌ، مشاكلةً، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فيكون ما هنا من المشاكلة التقديرية، وإذا كان المعنى على جعلِ جزاءِ جميعِ ما كسبوا سيِّئاً، دلَّ الكلامُ على أنَّ جميعَ ما كسبوا سيِّئٌ، إذ لو كان فيه حَسَنٌ جوزِيَ عليه جزاءً حَسَناً، وفيه مِن ذمِّهم ما فيه.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ المشركين، و«مِن» للبيان، فإنَّهم كلَّهم كانوا ظالمين إذ الشركُ ظلمٌ عظيمٌ، أو للتبعيض، فالمراد بـ «الذين ظلموا»: مَن أصرَّ على الظلم حتى تصيبَهم قارعةٌ، وهم بعضٌ منهم.

﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب الذين من قبلهم، والمراد به العذابُ الدنيويُّ، وقد قُحِطوا سبعَ سنين، وقتل ببدْرٍ صناديدُهم. وقيل: العذابُ الأخرويُّ. وقيل: الأعمُّ. ورُجِّح الأولُ بأنَّه الأوفقُ للسياق، وأشير بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ - أي: بفائتين على ما قيل - إلى العذاب الأخرويِّ.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يبسطَه له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء أن يقدِرَ له، مِن غيرِ أن يكونَ لأحدٍ ما مدخلٌ في ذلك، حيثُ حَبَس عنهم الرزقَ سبعاً ثم بسطه لهم سبعاً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذُكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالَّةً على أنَّ الحوادثَ كافةً مِن الله تعالى شأنه، والأسباب في الحقيقة ملغاةٌ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إذ هم المستدِلُّون بها على مدلولاتها.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أفرطوا في المعاصي جانين عليها. وأصلُ الإسراف: الإفراطُ في صَرْف المال، ثم استُعْمِل فيما ذُكر مجازاً بمرتبتين على ما قيل. وقال الراغب: هو تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فعلٍ يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر[(١)]. وهذا ظاهرٌ في أنه حقيقةٌ فيما ذكرنا، وهو حَسَنٌ.

---

(١) المفردات (سرف).

وضُمِّن معنى الجناية ليصحَّ تعدِّيه بـ «على»، والمضمَّن لا يلزم فيه أن يكون معناه حقيقيًّا. وقيل: هو مضمَّنٌ معنى الحمل.

وحَمل غيرُ واحد الإضافةَ في «عبادي» على العهد أو على التشريف، وذهبوا إلى أنَّ المرادَ بالعبادِ المؤمنون، وقد غلب استعمالُه فيهم مضافاً إليه عزَّ وجلَّ في القرآن العظيم، فكأنه قيل: أيُّها المؤمنون المذنبون ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتفضُّله عزَّ وجلَّ، على أنَّ المغفرةَ مُدْرَجةٌ في الرحمة، أو أنَّ الرحمةَ مستلزِمة لها؛ لأنه لا يُتصوَّر الرحمةُ لمن لم يُغْفر له.

وتعليلُ النهي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يقتضي دخولَها في المعلَّل، والتذييلُ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ كالصريح في ذلك.

وجوِّز أن يكونَ في الكلام صنعةُ الاحتباك، كأنه قيل: لا تقنطوا من رحمة الله ومغفرته، إنَّ الله يغفر الذنوبَ جميعاً ويرحم. وفيه بُعْدٌ.

وقالوا: المرادُ بمغفرة الذنوب التجافي عنها وعدمُ المؤاخذة بها في الظاهر والباطن وهو المرادُ بسترها.

وقيل: المرادُ بها مَحْوُها من الصحائف بالكلية مع التجافي عنها، وأنَّ الظاهرَ إطلاقُ الحكم، وتقييدُه بالتوبة خلافُ الظاهر، كيف لا وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] ظاهرٌ في الإطلاق فيما عدا الشرك، ويشهَدُ للإطلاق أيضاً أمورٌ:

الأول: نداؤهم بعنوان العبودية؛ فإنَّها تقتضي المذلَّة وهي أنسبُ بحال العاصي إذا لم يتُبْ، واقتضاؤها للترحُّم ظاهر.

الثاني: الاختصاص الذي تُشْعِر به الإضافةُ إلى ضميره تعالى، فإنَّ السَّيِّدَ مِن شأنه أن يرحَمَ عبدَه ويشفق عليه.

الثالث: تخصيصُ ضررِ الإسراف ـ المشعِرَة به «على» ـ بأنفسهم؛ فكأنه قيل: ضررُ الذنوب عائدٌ عليهم لا عليَّ، فيكفي ذلك من غيرِ ضررٍ آخرَ، كما في المثل: أحسِنْ إلى مَن أساء كفى المسيءَ إساءتُه، فالعبد إذا أساء ووقف بين يدي سيِّدِه

ذليلاً خائفاً عالماً بسخَطِ سيِّده عليه ناظراً لإكرامِ غيره ممن أطاع لَحِقَه ضررٌ؛ إذ استحقاقُ العقاب عقابٌ عندَ ذوي الألباب.

الرابع: النهيُ عن القنوط مطلقاً عن الرحمة، فضلاً عن المغفرة وإطلاقِها.

الخامس: إضافةُ الرحمةِ إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات، فإنَّ ذلك ظاهرٌ في سعَتها، وهو ظاهرٌ في شمولها التائبَ وغيرَه.

السادس: التعليلُ بقوله تعالى: «إن الله» إلخ، فإنَّ التعليلَ يحسُن مع الاستبعاد، وترك القنوط من الرحمة مع عدم التوبة أكثرُ استبعاداً مِن تركه مع التوبة.

السابع: وضعُ الاسم الجليل فيه موضعَ الضمير لإشعارِه بأنَّ المغفرةَ من مقتضياتِ ذاته لا لشيءٍ آخرَ من توبةٍ أو غيرها.

الثامن: تعريفُ الذنوب، فإنَّه في مقام التمدُّح ظاهرٌ في الاستغراق، فتشمل الذنبَ الذي تعقبه التوبةُ والذي لا تعقبُه.

التاسع: التأكيدُ بالجميع.

العاشر: التعليل بـ «إنه هو» إلخ.

الحادي عشر: التعبيرُ بالغَفور، فإنه صيغةُ مبالغةٍ، وهي إن كانت باعتبارِ الكمِّ شملت المغفرةُ جميعَ الذنوب، أو باعتبارِ الكيف شملت الكبائرَ بدون توبة.

الثاني عشر: حذفُ معمولِ «الغفور»، فإنَّ حذفَ المعمولِ يفيد العمومَ.

الثالث عشر: إفادةُ الجملة الحصرَ، فإنَّ مِن المعلوم أنَّ الغفرانَ قد يوصَفُ به غيرُه تعالى، فالمحصورُ فيه سبحانه إنما هو الكامل العظيمُ، وهو ما يكون بلا توبة.

الرابع عشر: المبالغةُ في ذلك الحصر.

الخامس عشر: الوعدُ بالرحمة بعد المغفرة، فإنَّه مشعِرٌ بأنَّ العبدَ غيرُ مستحِقٍّ للمغفرة لولا رحمتُه، وهو ظاهرٌ فيما إذا لم يتب.

السادس عشر: التعبيرُ بصيغة المبالغةِ فيها.

السابع عشر: إطلاقُها.

ومنَع المعتزلةُ مغفرةَ الكبائر والعفوَ عنها من غير توبةٍ، وقالوا: إنها وردت في غير موضعٍ من القرآن الكريم مقيَّدةً بالتوبة، فإطلاقُها هنا يُحمل على التقييد؛ لاتحاد الواقعة، وعدم احتمال النسخ، وكونِ القرآن في حكم كلام واحد. وأيَّدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فإنَّه عطفٌ على «لا تقنطوا» والتعليلُ معترِضٌ، وبعدَ تسليم حديثِ حملِ الإطلاقِ على التقييد يكونُ عطفاً لتتميمِ الإيضاح، كأنه قيل: لا تقنطوا من رحمة الله تعالى فتظنوا أنه لا يقبل توبتَكم، وأنيبوا إليه تعالى وأخلِصوا له عزَّ وجلَّ.

وأجاب بعضُ الجماعة بمنع وجوبِ حملِ الإطلاق على التقييد في كلامٍ واحدٍ نحو: أكرمُ الفضلاءِ أكرمُ الكاملين، فضلاً عن كلامٍ لا يسلَمُ كونُه في حكمِ كلامٍ واحدٍ، وحينئذٍ لا يكون المعطوفُ شرطاً للمعطوفِ عليه، إذ ليس من تتمَّته.

وقيل: إن الأمرَ بالتوبة والإخلاصِ لا يُخِلُّ بالإطلاق، إذ ليس المدَّعَى أن الآيةَ تدلُّ على حصولِ المغفرة لكلِّ أحدٍ من غير توبة وسبْقِ تعذيب لتُغْني عن الأمرِ بهما، وتُنافي الوعيدَ بالعذاب.

وقال بعض أجلَّةِ المدقِّقين: إنَّ قولَه تعالى: (يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟) خطابٌ للكافرين والعاصين وإن كان المقصودُ الأولى الكفَّارَ؛ لمكان القُرب وسبب النزول؛ فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنَّه قال: إنَّ أهلَ مكة قالوا: يزعم محمد ـ ﷺ ـ أنه مَن عَبد الأوثانَ، ودعا مع الله تعالى إلهاً آخرَ، وقتلَ النفس التي حرَّم الله، لم يُغْفَرْ له، فكيف نُهاجِر ونُسلِم، وقد عبدْنا الآلهة، وقتلْنا النفسَ، ونحن أهلُ شرك؟! فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلخ[1].

وأخرج ابن جرير عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآياتُ في عياش بن أبي ربيعة والوليدِ بن الوليد ونفرٍ من المسلمين، كانوا أسلموا، ثم فُتنوا وعُذِّبوا

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣١.

فافتُتِنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً، أقوامٌ أَسلموا ثم تركوا دينَهم بعذاب عُذِّبوه، فنزلت هؤلاء الآيات، وكان عمرُ ﷺ كاتباً فكتبها بيده ثم كتب بها إلى عياشٍ وإلى الوليدِ وإلى أولئك النفر، فأسلموا وهاجروا(١).

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآيات الثلاث: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ إلى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بالمدينة في وحشيٍّ وأصحابه(٢).

وتخلَّل قولُه تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) بين المعطوفين تعليلاً للجزء الأول قبل الوصول إلى الثاني؛ للدلالة على سعة رحمته تعالى وأنَّ مثلَه حقيقٌ بأن يُرجى وإن عظُم الذنبُ، لاسيما وقد عقَّب بقوله تعالى: (إِنَّهُۥ هُوَ) الآية الدالُّ على انحصار الغُفران والرحمة على الوجه الأبلغ، فالوجهُ أن يجريَ على عمومه ليناسِبَ عمومَ الصدر، ولا يقيَّدُ بالتوبة، لئلَّا ينافيَ غرضَ التخلُّل مع أنه جمعٌ محلًّى باللام، وقد أُكِّد بما صار نصًّا في الاستغراق. ولا يُغْني المعتزليَّ أنَّ القرآنَ العظيم كالكلامِ الواحدِ، وأنه سليمٌ من التناقُض، بل يضرُّه، وكذلك ما ذُكر من أسباب النزول. انتهى.

وقد تضمَّن الإشارةَ إلى بعضِ مؤكِّدات الإطلاقِ التي حكيناها آنفاً، والذي يترجَّحُ في نظري ما اختاره من عموم الخطاب في «يا عبادي» للعاصين والكافرين، وأمرُ الإضافة سهلٌ، وأنَّ قولَه تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) مقيَّد بـ «لِمَن يشاء» بقرينة التصريح به في قراءة عبد الله هنا(٣)، وكونِ الأمور كلِّها معلَّقةً بالمشيئة، ولا نسلِّم أنَّ متعلَّقَ المشيئةِ التائبُ وحدَه، وكونُها تابعةً للحكمة على تقدير صحَّته لا ينفع، إذ دونَ إثباتِ كون المغفرة لغير التائب منافيةً للحكمة خَرْطُ القَتاد.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢.

نعم لا تتعلَّقُ بالمشرك ما لم يؤمِنْ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، فمغفرةُ الشرك مشروطةٌ بالإيمان، فالمشركُ داخلٌ في «من يشاء» لكن بالشرط المعروف، واعتبارُ الشرط فيه لا يضرُّ في عدم اعتبار شرطِ التوبة في العاصي بما دونه.

ويشهد لذلك ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ثوبانَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما أُحِبُّ أنَّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، ومَن أشرَكَ؟ فسكت النبيُّ ﷺ ساعةً ثم قال: «ألا ومَنْ أشرَكَ» ثلاثَ مراتٍ[1].

لا يقال: المغفرةُ لِمَنْ أشركَ بشرط الإسلام أمرٌ واضحٌ، فلا يجوزُ أن تخفى على السائل وعليه عليه الصلاة والسلام حتى يسكُتَ لانتظار الوحي أو الاجتهاد. لأنا نقول: السؤالُ للاستبعاد مِن حيث العادةُ، والسكوتُ لتعليم سلوكِ طريق التأنِّي والتدبُّر، وإن كان الأمر واضحاً.

وقيل: الظاهر أنه لانتظارِ الإذنِ، أو الاجتهاد في التصريح بعموم المغفرة فإنَّهم ربما اتَّكلوا على ذلك فيُخشى التفريطُ في العمل، وهو لا ينافي التعليمَ فإنَّه عليه الصلاة والسلام إنما يعلِّمهم التدبُّرَ بعد أن يتدبَّرَ هو في نفسه ﷺ. وزعمُ أنَّ الحديثَ دالٌّ على اشتراط التوبة، ليس بشيء.

ويؤيِّدُ إطلاقَ المغفرة عن قيد التوبة ما أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسَّنه وابنُ المنذر، وابن الأنباري في «المصاحف» والحاكم وابن مردويه عن أسماءَ بنتِ يزيدَ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ: «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٣١، وهو في مسند أحمد (٢٢٣٦٢)، وتفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٨-٢٢٩، وشعب الإيمان (٧١٣٧) وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

ولا يبالي، إنه هو الغفور الرحيم»[١]. فإنه ليس لـ «لا يبالي» كثيرُ حُسْنٍ إن كانت المغفرةُ مشروطةً بالتوبة كما لا يخفى.

وكذا ما أخرجه ابنُ جرير عن ابن سيرين قال: قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: أيُّ آيةٍ أوسعُ؟ فجعلوا يذكرون آياتٍ من القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ الآية [النساء: ١١٠] ونحوَها، فقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: ما في القرآن أوسعُ آيةً مِن: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[٢].

والمؤكِّدات السابقةُ - أعني السبعةَ عشر - لا يخلو بعضُها عن بحثٍ، والظاهرُ أنَّ مغفرةَ ذنبٍ لا تجامِعُ العذابَ عليه أصلاً، وذهبَ بعضُهم إلى أنها تُجامِعه إذا كان أنقصَ[٣] من الذنب لا إذا كان بمقداره، فمن عذِّب بمقدارِ ذنبه في النارِ وأُخرِج منها لا يقال: إنه غُفر له. إذ السيئاتُ إنما تُجزى بأمثالها.

وقيل: تُجامِعه مطلقاً، وكونُ السيئات لا تُجزى إلا بأمثالها بلطفه تعالى أيضاً فهو نوعٌ من عفوِه عزَّ وجلَّ. وفيه ما فيه، فتأمَّل.

وأصل الإنابة: الرجوعُ، ومعنى: «وأنيبوا إلى ربكم» إلخ، أي: ارجعوا إليه سبحانه بالإعراض عن معاصيه والنَّدَم عليها، وقيل: بالانقطاع إليه تعالى بالعبادة، وذكرُ الربِّ كالتنبيه على العِلَّة.

وقال القشيريُّ: الإنابة: الرجوع بالكلية، والفرقُ بين الإنابة والتوبة أنَّ التائبَ يرجع من خوف العقوبة والمنيب يرجع استحياءً لكرمه تعالى. والإسلامُ له سبحانه الإخلاصُ في طاعاته عزَّ وجلَّ. وذَكَر أنَّ الإخلاص بعد الإنابة أن يَعلم العبدُ أنَّ

---

(١) مسند أحمد (٢٧٥٦٩)، وسنن الترمذي (٣٢٣٧)، والمستدرك ٢/ ٢٤٩ ولم نقف عليه في سنن أبي داود، وعزاه إليه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣١، وعنه نقل المصنف. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٨.

(٣) وقع في (م): أنقض، بالضاد المعجمة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤٤، والكلام منه.

نجاتَه بفضل الله تعالى، لا بإنابته، فبفضله سبحانه وصل إلى إنابته، لا بإنابته وصل إلى فضله، جلَّ فضلُه[١].

وعن ابن عباس من حديثٍ أخرجه ابن جرير وابن المنذر عنه: من آيَسَ العبادَ من التوبة فقد جَحَدَ كتابَ الله تعالى، ولكن لا يقدِرُ العبد أن يتوبَ حتى يتوبَ الله تعالى عليه[٢].

﴿وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ الظاهرُ أنَّه خطابٌ للعباد المخاطَبين فيما تقدَّم، سواءٌ أُريد بهم المؤمنون، أو ما يعمُّهم والكافرين، والمرادُ بـ «ما أنزل» القرآن، وهو كما أُنزِل إلى المؤمنين أُنزل إلى الكافرين؛ ضرورةَ أنه أنزِلَ عليه ﷺ لدعوة الناس كافَّة، والمرادُ بأحسنه ما تضمَّن الإرشادَ إلى خير الدارَين دونَ القِصَص ونحوها، أو المأمورُ به، أو العزائمُ، أو الناسخُ، و«أفعل» على الأولِ والثالثِ على ظاهره، وعلى الثاني والرابع فيه احتمالان.

وقيل: لعلَّ الأحسنَ ما هو أنْجَى وأسلمُ كالإنابة والمواظبة على الطاعة، و«أفعل» فيه على ظاهرِه أيضاً.

وجوِّز أن يكونَ الخطابُ للجنس، والمرادُ بـ «ما أنزل» الكتبُ السماوية، وبأحسنه القرآنُ. وفيه ارتكابُ خلافِ الظاهر، وفي ذكرِ الربِّ ترغيبٌ في الاتِّباع.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي: فَجْأَةً ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ لا تعلمون أصلاً بمجيئه فتتدارَكُون ما يدفعُه.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ في موضع المفعولِ له بتقدير مضافٍ، وقدَّره الزمخشريُّ «كراهةَ»[٣]، وهو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه ما قبلُ، أي: أنذِرُكم وآمُرُكم بأحسنِ ما أُنزلُ إليكم كراهةَ أن تقول. ومَن لا يشترِطُ للنصب اتحادَ الفاعل يُجَوِّز كونَ الناصب «أنيبوا» أو «اتبعوا».

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٨٨.

(٢) عزاه لابن جرير وابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٣١، ولم نقف عليه في مطبوع تفسير الطبري.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٤.

وأيَّاما كان فهذه الكراهةُ مقابِلَ الرضا دونَ الإرادة، فلا اعتزالَ في تقديرها، وهو أولى من تقدير: مخافةَ، كما فعل الحوفيُّ حيث قال: أي: أنذرْناكم مخافةَ أن تقول[1]، وابن عطية جعلَ العاملَ «أنيبوا» ولم يقدِّر شيئاً من الكراهة والمخافةِ حيثُ قال: أي: أنيبوا من أجلِ أن تقول[2]. وذهب بعضُ النحاة إلى أنَّ التقديرَ: لئلا تقول. وتنكيرُ «نفس» للتكثير بقرينةِ المقامِ كما في قول الأعشى:

وربَّ بقيعٍ لو هتفْتُ بِجَوِّه أتاني كريمٌ ينفُضُ الرأسَ مغْضَبا[3]

فإنَّه أرادَ أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً.

وجوِّز أن يكونَ للتبعيض؛ لأنَّ القائلَ بعضُ الأنفس. واستظهره أبو حيان[4]. قيل: ويكفي ذلك في الوعيد؛ لأنَّ كلَّ نفسٍ يحتمل أن تكونَ تلك.

وجوِّز أيضاً أن يكونَ للتعظيم، أي: نفسٌ متميزةٌ من الأنفس إمَّا بلَجاجٍ في الكفر شديدٍ، أو بعذابٍ عظيمٍ، وليس بذاك.

﴿يَحَسْرَتَىٰ﴾ بالألف بدل ياء الإضافة، والمعنى كما قال سيبويه: يا حسرتي احضُري فهذا وقتُكِ.

وقرأ ابن كثير في الوقف «يا حسرتاهْ» بهاء السكت[5].

وقرأ أبو جعفر «يا حسرتي» بياء الإضافة[6]، وعنه: «يا حسرتايْ» بالألف والياء التحتية مفتوحةً أو ساكنةً جمعاً بين العِوض والمعوَّض[7]، كذا قيل.

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٣٥.
(٢) المحرر الوجيز ٤/٥٣٨.
(٣) ديوان الأعشى ص٨.
(٤) في البحر المحيط ٧/ ٤٣٥.
(٥) البحر ٧/ ٤٣٥، وهي خلاف المشهور عن ابن كثير، وقرأ بها رويس عن يعقوب، كما في النشر ٢/ ١٣٦.
(٦) المحتسب ٢/ ٢٣٧، والبحر ٧/ ٤٣٥، والكلام منه.
(٧) البحر ٧/ ٤٣٥، والقراءة بفتح الياء هي رواية ابن جماز عن أبي جعفر، واختلف عن ابن وردان، فروي عنه الإسكان والفتح، قال في النشر ٢/ ٣٦٣: وكلاهما صحيح، نص عليهما عنه غير واحد.

ولا يخفى أنَّ مثلَ هذا غيرُ جائز، اللَّهم إلَّا شاذًّا استعمالا وقياساً، فالأَوْجه أن يكون ثنَّى الحسرة مبالغةً على نحو: لبيك وسعديك، وأقامَ بين ظهرَيْهم، وظهرانَيْهم، على لغة بلحارث بن كعب من إبقاء المثنى على الألف في الأحوال كلِّها، واختار ذلك صاحب «الكشف»، وجوَّز أبو الفضل الرازي أيضاً في كتابه «اللوامح» أن تكون التثنيةُ على ظاهرِها على تلك اللغة، والمراد حسرةُ فوت الجنة وحسرةُ دخول النار[1]. واعتبار التكثير أولى؛ لكثرةِ حسَرَاتهم يومَ القيامة.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي: بسبب تفريطي، فـ «على» تعليليةٌ و«ما» مصدرية كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] والتفريطُ: التقصير.

﴿فِى جَنۢبِ اللَّهِ﴾ أي: جانبه، قال الراغب: أصلُ الجنب: الجارحةُ، ثم يُستعار للناحيةِ والجهةِ التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك، نحو: اليمين والشمال[2]. والمراد هنا الجهةُ مجازاً، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: في جنب طاعة الله، أو: في حقِّه تعالى، أي: ما يحِقُّ له سبحانه ويلزم وهو طاعته عزَّ وجلَّ؛ وعلى ذلك قول سابق البربري[3] من شعراء الحماسة:

أما تَتَّقينَ اللهَ في جَنْبِ عاشقٍ ... له كبِدٌ حرَّى عليكِ تقطَّعُ[4]

والتفريطُ في جهة الطاعة كنايةٌ عن التفريط في الطاعة نفسها؛ لأنَّ من ضيَّع جهةً ضيَّع ما فيها بطريق الأَولى الأبلغِ لكونه بطريق برهانيٍّ، ونظيرُ ذلك قول زياد الأعجم:

---

(١) نقله المصنف من البحر ٧/ ٤٣٥.

(٢) المفردات (جنب).

(٣) هو أبو سعيد سابق بن عبد الله، والبربري لقبه، شاعر زاهد سكن الرقة، وَفَد على عمر بن عبد العزيز، وله معه حكايات. تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٨٦٩، والوافي بالوفيات ١٥/ ٦٩، وخزانة الأدب ٩/ ٥٣٢-٥٣٣.

(٤) البيت في الكشاف ٣/ ٤٠٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٤٧، والبحر ٧/ ٤٣٥، منسوب إلى سابق، وهو في جمهرة الأمثال ١/ ٢٢٨ دون نسبة. ونسب في الحماسة البصرية ٢/ ١٢٢ إلى كُثير، وهو في ديوانه ص١٧٧ بلفظ: حُبٌّ، بدل: جنب. وتصدَّع، بدل: تقطَّع. قوله: حرَّى: تأنيث حرَّان من الحرِّ، وهما للمبالغة، أي: لشدَّة حرِّها قد عَطِشَتْ ويبستْ من العطش. تاج العروس (حرر).

إنَّ السماحةَ والمروءةَ والندَى في قبةٍ ضُرِبَتْ على ابن الحَشْرَج[(١)]

ولا مانعَ مِن أن يكونَ للطاعة ـ وكذا حقُّ الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه ـ جهةٌ بالتبعية للمطيع كمكان السماحة وما مَعها في البيت، ومما ذكرنا يُعلم أنَّه لا مانعَ من الكناية كما تُوُهِّم.

وقال الإمام: سمِّي الجنبُ جنباً؛ لأنَّه جانبٌ من جوانب الشيء، والشيء الذي يكونُ من لوازم الشيء وتوابعِه يكون كأنَّه جندٌ من جنوده وجانبٌ من جوانبه، فلمَّا حصلَت المشابهةُ بين الجنب الذي هو العُضْو وبين ما يكون لازماً للشيء وتابعاً له، لا جرمَ حسُن إطلاقُ لفظِ الجنب على الحقِّ والأمر والطاعة[(٢)]. انتهى.

وجعلوا في الكلام عليه استعارةً تصريحيةً وليس هناك مضافٌ مقدَّرٌ، وليس بذاك.

وقولُ ابن عباس: يريدُ: على ما ضيَّعْتُ من ثواب الله. ومقاتل: على ما ضيَّعْتُ مِن ذكرِ الله. ومجاهد والسديِّ: على ما فرَّطتُ في أمر الله. والحسنِ: في طاعة الله. وسعيد بن جبير: في حقِّ الله[(٣)] = بيانٌ لحاصل المعنى.

وقيل: الجنبُ مجازٌ عن الذات كالجانب أو المجلس، يُستعمل مجازاً لربِّه، فيكون المعنى: على ما فرطتُ في ذات الله. وضعِّف بأنَّ الجنبَ لا يليق إطلاقُه عليه تعالى ولو مجازاً، وركاكتُه ظاهرةٌ أيضاً.

وقيل: هو مجازٌ عن القرب، أي: على ما فرطتُ في قرب الله. وضعِّف بأنَّه محتاجٌ إلى تجوُّزٍ آخر، ويرجع الأمرُ في الآخرة إلى طاعة الله تعالى ونحوها.

وبالجملة لا يمكن إبقاءُ الكلام على حقيقته؛ لتنزُّهه عزَّ وجلَّ من الجنب بالمعنى الحقيقيِّ.

---

(١) الأغاني ١٥/ ٣٨٦، ومعاهد التنصيص ٢/ ١٧٣-١٧٤، والبيت في مدح عبد الله بن الحشرج والي سابور، من سادات قيس وأمرائها.

(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٣٤-٢٣٥، وتفسير السمرقندي ٣/ ٥٥، وتفسير البغوي ٤/ ٨٥، وزاد المسير ٧/ ١٩٢.

ولم أقِفْ على عدِّ أحدٍ من السلف إيَّاه من الصفات السمعيَّة، ولا أعوِّل على ما في «المواقف»[١]، وعلى فرض العدِّ كلامُهم فيها شهيرٌ، وكلُّهم مُجمِعون على التنزيه، وسبحانَ مَن ليس كمثلِه شيء وهو السميع البصير.

وفي حرفِ عبد الله وحفصةَ: «في ذكر الله»[٢].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: المستهزئين بدين الله تعالى وأهلِه، و«إن» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة، والجملةُ في محلِّ النصب على الحال عند الزمخشريِّ، أي: فرَّطتُ في حالِ سخريتي[٣].

وقال في «البحر»: ويظهرُ أنَّها استئنافُ إخبارٍ عن نفسه بما كان عليه في الدنيا، لا حالٌ[٤]، والمقصودُ من ذلك الإخبارِ التحسُّرُ والتحزُّنُ.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: من الشرك والمعاصِي. وفسَّر غيرُ واحدٍ الهدايةَ هنا بالإرشاد والدلالةِ الموصِلَةِ بناءً على أنَّه الأنسبُ بالشرطية والمطابقُ للردِّ بقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ﴾ إلخ. وفسَّرها أبو حيان بخلق الاهتداء[٥]، وأيًّا ما كان فالظاهرُ أنَّ هذه المقالةَ في الآخرة.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رجوعاً إلى الحياة الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ في العقيدة والعمل، و«لو» للتمنِّي، «فأكونَ» منصوبٌ في جوابها. وجوَّز في «البحر» أن يكون منتصِباً بالعطف على «كرَّةً» إذ هو مصدر، فيكون مثل قوله:

فما لكَ عنها غيرُ ذِكرى وحَسرةٍ ... وتسألَ عن رُكبانها أين يَمَّمُوا[٦]

---

(١) المواقف ص٢٩٨.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٣٥.
(٥) المصدر السابق.
(٦) البحر ٧/ ٤٣٦، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٣، وفيه: «وحسبة»، بدل: «وحَسْرة»، وتفسير القرطبي ١٨/ ٣٠١، وفيه: وخشية، ولم نهتد إلى قائله.

وقول الآخر:

وَلُبْسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني أحبُّ إليَّ من لُبسِ الشُّفُوفِ(١)

ثم قال: والفرقُ بينهما أنَّ الفاءَ إذا كانت في جواب التمنِّي كانت «أنْ» واجبةَ الإضمارِ، وكان الكونُ مترتِّباً على حصولِ المتمنَّى لا متمنًّى، وإذا كانت للعطف على «كرَّةً» جاز إظهارُ «أنْ» وإضمارُها، وكان الكونُ متمنًّى(٢).

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ جوابٌ من الله عزَّ وجلَّ لِمَا تضمَّنه قولُ القائل: «لو أن الله هداني» مِن نفْي أن يكونَ اللهُ تعالى هداه؛ وردٌّ عليه، ولا يشترطُ في الجواب بـ «بلى» تقدُّمُ النفْي صريحاً، وقد وقعَ في موقعِه اللائقِ به؛ لأنَّه لو قدِّمَ على القرينة الأخيرةِ؛ أعني: «أو تقولَ حين ترى العذاب» إلخ، وأُوْقِعَ بعدَه غيرَ مفصول بينَهما بها، لم يحسُنْ، لتبتيرِ النظم الجليل، فإنَّ القرائنَ الثلاثَ متناسبةٌ متناسِقةٌ متلاصقةٌ، والتناسُب بينَهنَّ أتمُّ مِن التناسُبِ بينَ القرينةِ الثانيةِ وجوابِها، ولو أُخِّرَت القرينةُ الثانية وجُعِلَت الثالثةُ ثانيةً، لم يحسُن أيضاً، لأنَّ رعايةَ الترتيب المعنويِّ - وهي أهمُّ - تفُوت إذ ذاك، وذلك لأنَّ التحسُّرَ على التفريطِ عند تطايُرِ الصُّحُف على ما يدلُّ عليه مواضعُ من القرآن العظيم، والتعلُّلُ بعدم الهداية إنَّما يكون بعد مشاهدةِ حالِ المتقين واغتباطِهم، ولأنَّه للتسلِّي عن بعض التحسُّرِ أو مِن باب تمسُّكِ الغريق، فهو لاحِقٌ، وتمنِّي الرجوع بعد ذَوْقِ النار، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وكذلك لو حُمِل الوقوفُ على الحبس على شَفيرِها أو مشاهدتِها، وكلٌّ بعدَ مشاهدةِ حالِ المتقين وما لقوا من خِفَّةِ الحساب والتكريم في الموقف، ولأنَّ اللَّجَأَ إلى التمنِّي بعد تحقُّقِ أن لا جدوى(٣)؛ للتعليل.

(١) البيت لميسون بنت بحدل، وسلف ٤/ ٣١٢.
(٢) البحر ٧/ ٤٣٦.
(٣) في الأصل: «جدَى» بالقصر، وهما بمعنًى. ينظر الصحاح (جدى).

وقال الطيبيُّ: إنَّ النفسَ عندَ رؤية أهوالِ يوم القيامة يرى الناس مَجْزِيِّيْنَ بأعمالهم فيتحسَّر على تفويت الأعمال عليها، ثم قد يتعلَّلُ بأنَّ التقصيرَ لم يكن منِّي، فإذا نَظر وعَلِم أنَّ التقصيرَ كان منه تمنَّى الرجوعَ.

ثم الظاهرُ من السياق أنَّ النفوسَ جَمعت بين الأقوالِ الثلاثة، فـ «أو» لمنع الخلوِّ، وجيء بها تنبيهاً على أنَّ كلَّ واحدٍ يكفي صارفاً عن إيثار الكفر وداعياً إلى الإنابة واتباع أَحْسنِ ما أُنزل. وتذكيرُ الخطاب في «جاءتكَ» إلخ على المعنى؛ لأنَّ المرادَ بالنفس الشخصُ وإن كان لفظُها مؤنَّثاً سَماعياً.

وقرأ ابن يعمر والجحدريُّ وأبو حيوة والزعفرانيُّ وابنُ مقسم ومسعود بن صالح والشافعيُّ عن ابن كثير ومحمد بن عيسى في اختياره والعبسيُّ: «جاءتكِ» إلخ، بكسر الكاف والتاء[1]، وهي قراءةُ أبي بكر الصديق وابنته عائشةَ ﵄، وروتها أمُّ سلمةَ عن النبيِّ ﷺ[2].

وقرأ الحسنُ والأعمش والأعرج: «جَأَتْكَ» بالهمز من غير مدٍّ بوزن: فَعَتْكَ[3]، وهو على ما قال أبو حيان: مقلوبٌ من «جاءتك»، قُدِّمت لامُ الكلمة وأُخِّرت العينُ فسقطَت الألفُ[4].

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ العبدَ خالقٌ لأفعاله. وأجابَ الأشاعرةُ بأنَّ إسنادَ الأفعالِ إلى العبد باعتبارِ قدرتِه الكاسبةِ. وحقَّق الكورانيُّ أنه باعتبار قدرته المؤثِّرةِ بإذنِ الله عزَّ وجلَّ، لا كما ذهب إليه المعتزلةُ مِن أنَّه باعتبار قدرته المؤثِّرةِ أذِنَ الله تعالى أم لم يأذَنْ.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالُهم من الشدَّةِ التي تغيِّر ألوانَهم حقيقةً، ولا مانعَ من أن يُجعل سوادُ الوجوه حقيقةً علامة لهم غيرَ

(١) يريدُ بالتاء تاء: «فكذبتِ»، و«استكبرتِ»، و«كنتِ».

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١، والمحرر الوجيز ٤/٥٣٨، والبحر ٧/٤٣٦، وأخرجه عن أم سلمة الدوريُّ في جزء قراءات النبي ﷺ (٩٩).

(٣) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/٤٣٦.

(٤) البحر المحيط ٧/٤٣٦.

مترتِّبٍ على ما ينالهم، وجوِّز أن يكونَ ذلك من باب المجاز، لا أنَّها تكونُ مسودَّةً حقيقةً، بأن يقال: إنَّهم لِمَا يلحَقُهم من الكآبةِ ويظهرُ عليهم من آثار الجهل بالله عزَّ وجلَّ يُتوهَّم فيهم ذلك. والظاهرُ أنَّ الرؤيةَ بصريةٌ. والخطابُ إمَّا لسيِّد المخاطَبين عليه الصلاة والسلام، وإما لكلِّ مَن تتأتَّى منه الرؤيةُ.

وجملةُ «وجوهُهم مسودَّةٌ» في موضع الحال على ما استظهره أبو حيان[1]، وكونُ المقصود رؤيةَ سوادِ وجوهِهم لا ينافِي الحاليةَ كما توهِّم؛ لأنَّ القيدَ مَصَبُّ الفائدة، ولا بأسَ بتركِ الواو والاكتفاءِ بالضمير فيها، لاسيما وفي ذكرِها هاهنا اجتماعُ واوين وهو مستثقَلٌ.

وزعم الفرَّاءُ شذوذَ ذلك[2]، ومن سلَّمه جعلَ الجملةَ هنا بدلاً من «الذين» كما ذهب إليه الزجَّاج[3]، وهم جوَّزوا إبدالَ الجملة من المفردِ، أو مستأنفةً كالبيان لِمَا أشعرَتْ به الجملةُ قبلَها وأدْرَكه الذوقُ السليمُ منها مِن سوء حالهم، أو جعَلَ الرؤية علميةً والجملةَ في موضع الثاني، وأُيِّد بأنه قرئ: «وجوهَهم مسودةً» بنصبهما على أنَّ «وجوهَهم» مفعولٌ ثانٍ و«مسودَّةً» حالٌ منه. وأنت تعلم أنَّ اعتبارَ الرؤية بصريةً أبلغُ في تفضيحِهم وتشهيرِ فَظاعةِ حالِهم لاسيَّما مع عموم الخطاب، والنصْبُ في القراءة الشاذَّةِ يجوزُ أن يكونَ على الإبدال.

والمرادُ بـ «الذين ظلموا»[4] أولئك القائلون المتحسِّرون، فهو من باب إقامة الظاهر مقامَ المضمَر. وينطبقُ على ذلك أشدَّ الانطباقِ قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي: مقامٌ ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ الذين جاءتْهم آياتُ الله فكَذَّبوا بها واستكبروا عن قبولها والانقيادِ لها؟ وهو تقريرٌ لرؤيتهم كذلك، وينطبقُ عليه أيضاً قولُه الآتي: ﴿وَيُنَجِّي﴾ إلخ. وكذِبُهم على الله تعالى لوصفِهم له سبحانه بأنَّ له شريكاً ونحوِ ذلك؛ تعالى عمَّا يصفون علوًّا كبيراً. وقيل: لوصفهم له تعالى

---

(١) في البحر ٧/ ٤٣٧.

(٢) سلف هذا النقل عنه ٢/ ١٢٥.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٠.

(٤) كذا في الأصل و(م)، والصواب: «الذين كذبوا»، كما يدلُّ عليه السياق.

بما لا يليق في الدنيا، وقولِهم في الأخرى: «لو أنَّ الله هداني» المتضمِّنِ دعوى أنَّ اللهَ سبحانه لم يَهْدِهم ولم يُرشِدهم.

وقيل: هم أهل الكتابينِ.

وعن الحسن: أنَّهم القدريَّةُ القائلون: إن شِئْنا فعلْنا وإن لم يشأ الله تعالى، وإن شئنا لم نفعل وإن شاء الله سبحانه[1].

وقيل: المرادُ كلُّ مَن كذَب على الله تعالى ووَصَفَه بما لا يليق به سبحانه نفياً وإثباتاً، فأضافَ إليه ما يجب تنزيهُه تعالى عنه، أو نزَّهه سبحانه عمَّا يجب أن يضافَ إليه، وحُكي ذلك عن القاضي[2]، وظاهرُه يقتضي تكفيرَ كثيرٍ من أهل القبلة، وفيه ما فيه.

والأوفقُ لنظم الآية الكريمة ما قدَّمنا، ولا يبعُد أن يكونَ حكمُ كلِّ مَن كذَب على الله تعالى ـ عالماً بأنه كذَب عليه سبحانه، أو غيرَ عالم لكنَّه مستنِدٌ إلى شبهةٍ واهيةٍ ـ كذلك، وكلامُ الحسن ـ إن صحَّ ـ لا أظنه إلَّا من باب التمثيل. وتعريضُ الزمخشريِّ بأهل الحقِّ بما عرَّض[3] خارجٌ عن دائرة العدل، فما ذهبوا إليه ليس من الكذِب على الله تعالى في شيء، والكذِبُ فيه وفي أصحابه ظاهرٌ جدًّا.

وقرأ أُبَيٌّ: «أُجُوههم» بإبدالِ الواو همزةً[4].

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ ما اتَّصف به أولئك المتكبِّرُون من جهنمَ. وقرئ: «يُنْجِي» بالتخفيف من الإنجاء[5].

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ اسمُ مصدرٍ كالفَلَاح على ما في «الكشف»، أو مصدرٌ ميميٌّ على ما في غيره، من: فاز بكذا؛ إذا أفلح به وظفر بمرادِه منه، وقال الراغب: هي

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٩٣.

(٢) في التفسير الكبير ٢٧/ ٨، والقاضي هو عبد الجبار.

(٣) في الكشاف ٣/ ٤٠٥ بقوله: ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح وتجويزِ أن يخلقَ خلقاً لا لغرض، ويؤلم لا لعوضٍ.. إلخ.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٣٧.

(٥) النشر ٢/ ٢٥٩، وهي قراءة روح عن يعقوب.

مصدر فاز[١]، أو اسم الفوز، ويرادُ بها الظَّفَرُ بالبُغْية على أتمِّ وجهٍ كالفلاح، وبه فسَّرها السديُّ[٢].

والباء للملابسة متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من الموصول مفيدةٌ لمقارنةِ تنجيَتِهم من العذاب لنيل الثواب، أي: يَنجِّيهم الله تعالى من جهنَّمَ مثوى المتكبِّرين لتقواهم مما اتَّصف المتكبِّرون به ملتبسين بفلاحهم وظفرِهم بالبغية وهي الجنة، ومآلُه: ينَجِّيهم من النار ويُدْخِلُهم الجنةَ. وكونُ الجنة بغيةَ المتقي كائناً مَن كان مما لا شبهةَ فيه، نعم هي بغيةٌ لبعض المتقين مِن حيثُ إنَّها محلُّ رؤية محبوبهم التي هي غايةُ مطلوبهم، ولك أن تعمِّم البغيةَ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾ في موضع الحال أيضاً إما من الموصول، أو من ضميرِ «مفازتهم»، مفيدة لكونهم مع التنجية أو الفوز منفيًّا عنهم على الدوام مساسُ جنسِ السوءِ والحزن. والظاهرُ أنَّ هذه الحالَ مقدَّرةٌ. وقيل: إنها مقارِنةٌ مفيدةٌ لكونِ تنجيتهم أو مفازتهم بالجنَّة غيرَ مسبوقةٍ بمساسِ العذاب والحزن، ولا يخفَى أنه لا يتسنَّى بالنسبة إلى جميع المتقين إذ منهم مَن يَمَسُّه العذابُ ويحزَنُ لا محالةَ. وعدُّ وجودِ ذلك لقلَّته وانقطاعِه كَلَا وجودٍ، تكلُّف بعيدٌ.

وجوِّز أن يراد بالمفازة الفلاحُ، ويُجْعَلَ قولُه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾ إلخ استئنافاً لبيانها، كأنه قيل: ما مفازتُهم؟ فقيل: لا يمسُّهم إلخ. والباء حينئذٍ على ما في «الكشف» سببيَّةٌ متعلِّقةٌ بـ «ينجِّي»، أي: ينجِّيهم بنفْي السوء والحُزْنِ عنهم.

وتعقِّب بأنَّ في جعل عدم الحزن وعدم السوء سببَ النجاة تكلُّفاً، فهُمَا من النجاة، والظاهر أنَّه لو جُعلت الباءُ على هذا الوجه أيضاً للملابسة لا يَرِدُ ذلك.

وجوِّز كونُ المفازة اسمَ مكانٍ، أي: محلَّ الفوز، وفُسِّرت بالمنجاة مكانِ النجاة، وصحَّ ذلك لأنَّ النجاةَ فوزٌ وفلاحٌ، وجُعلت الباءُ عليه للسببيَّة، وهناك

---

(١) المفردات (فوز).
(٢) البحر ٧/ ٤٣٧.

مضافٌ محذوفٌ بقرينةِ باءِ السببيَّة وأنَّ المنجاةَ لا تصلحُ سبباً، أي: ينجِّيهم بسبب منجاتهم وهو الإيمان، وهو كالتصريح بما اقتضاه تعليقُ الفعل بالموصول السابق. وفسَّره الزمخشريُّ بالأعمال الصالحة، وقوَّاه بما حكاه عن ابن عباس ليتمَّ مذهبُه(١). أو لا مضافَ بل هناك مجازٌ بتلك القرينة من إطلاق اسم المسبَّب على السبب، والجملةُ بعدُ ـ على الاحتمالين في هذا الوجه ـ حالٌ، ولا يخفى أنَّ المفازة بمعنى المنجاة مكانِ النجاة هي الجنةُ، والإيمانُ أو العملُ الصالح ليس سبباً لها نفسِها، وإنَّما هو سببٌ لدُخولها، فلا بدَّ من اعتباره، فلا تغفل.

وجوَّز أن تكونَ المفازةُ مصدراً ميميًّا مِن: فاز منه، أي: نجا منه، يقال: طوبى لمن فاز بالثواب وفاز من العقاب، أي: ظفِرَ به ونجا، والباء إما للملابسة والجملةُ بيانٌ للمفازة، أي: ينجِّيهم اللهُ تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصَّة لهم، أي: بنفي السوء والحُزنِ عنهم، ولا يخفى ركاكةُ هذا المعنى.

وإما للسببيَّة: إمَّا على حذف المضاف، أو التجوُّزِ نظيرَ ما مرَّ آنفاً، ولا يحتاج هنا إلى اعتبار الدخول كما لا يخفى، والجملة في موضع الحال أيضاً.

وجوَّز على بعض الأوْجُه تعلُّقُ «بمفازتهم» بما بعده، ولا يخفى أنَّه خلافُ الظاهر.

وبالجملة الاحتمالاتُ العقلية في الآية كثيرةٌ؛ لأنَّ المفازةَ إما اسمُ مصدرٍ، أو مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمُ مكانٍ، مِن فازَ به: ظَفِر، أو مِن فازَ منه: نجا. والباءُ إما للملابسةِ أو للسببيةِ أو للاستعانةِ، وهي إما متعلِّقةٌ بما قبلَها، أو بما بعدها. وهذه ستَّة وثلاثونَ احتمالاً. وإذا ضممتَ إليها احتمالَ حذف المضاف في «بمفازتهم» بمعنى منجاتهم أو نجاتهم، واحتمالَ التجوُّز فيه كذلك، وكذا احتمالَ كون جملة «لا يمسُّهم» إلخ حالاً من الموصول، واحتمالَ كونها حالاً من ضمير «مفازتهم»، واحتمالَ كون الحال مقدَّرة، وكونِها مقارِنةً، زادت كثيراً، ولا يخفى أنَّ فيها المقبولَ ودونَه، بل فيها ما لا يتسنَّى أصلاً، فأمعِن النظرَ ولا تجمدْ.

---

(١) الكشاف ٣/٤٠٦.

وقرأ السلميُّ والحسن والأعرج والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر: «بمفازاتهم» جمعاً[1]؛ لتكونَ على طِبْق المضاف إليه في الدلالة على التعدُّد صريحاً.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خيرٍ وشرٍّ وإيمانٍ وكفرٍ لكنْ لا بالجبر، بل بمباشرةِ المتَّصِف بهما لأسبابهما، فالآيةُ رادَّةٌ على المعتزلة ردًّا ظاهراً.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ يتولَّى التصرُّفَ فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمةُ، وكأنَّ ذِكرَ ذلك للدلالة على أنَّه سبحانه الغنيُّ المطلَقُ وأنَّ المنافعَ والمضارَّ راجعةٌ إلى العباد.

ولك أن تقول: المعنى أنَّه تعالى حفيظٌ على كلِّ شيءٍ، كما قيل نحوُ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، وحاصلُه أنه تعالى يتولَّى حفظَ كلِّ شيءٍ بعدَ خلْقِه، فيكون إشارةً إلى احتياج الأشياء إليه تعالى في بقائها كما أنَّها محتاجةٌ إليه عزَّ وجلَّ في وجودِها.

﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيحُها، كما قال ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم[2]، فقيل: هو جمعٌ لا واحدَ من لفظه، وقيل: جمعُ: مقليد، وقيل: جمعُ: مِقْلاد، من التقليد بمعنى الإلزام، ومنه تقليدُ القضاء وهو إلزامه النظرَ في أموره، وكذا القلادةُ لِلُزومها للعُنُقِ، وجُعل اسماً للآلة المعروفةِ للإلزام بمعنى الحفظ. وهو على جميع هذه الأقوالِ عربيٌّ، والأشهرُ الأظهرُ كونُه معرَّباً، فهو جمعُ: إقليد، معرَّبُ: إكليد، وهو جمعٌ شاذٌّ؛ لأنَّ جمع إفعيل على مفاعيل مخالفٌ للقياس، وجاء: أقاليدُ، على القياس، ويقال في إكليد: كَلِيد، بلا همزةٍ.

وذكر الشهابُ أنه بلُغة الروم: إقليدس، وكليد، وإكليد منه[3]. والمشهورُ أنَّ كليد، فارسيٌّ، ولم يشتهرْ في الفارسية «إكليد» بالهمز.

---

(١) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٣ عن حمزة والكسائي وأبي بكر، والكلام من البحر ٧/ ٤٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٢، وتفسير البغوي ٤/ ٨٦.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣٤٩.

و: له مقاليدُ كذا؛ قيل: مجازٌ عن كونه مالكَ أمره ومتصرِّفاً فيه بعلاقة اللزوم، ويُكْنَى به عن معنى القدرة والحفظ.

وجوِّز كونُ المعنى الأولِ كنائيًّا، لكن قد اشتَهَرَ فنزِّلَ منزلةَ المدلول الحقيقيِّ، فكُنِيَ به عن المعنى الآخر، فيكونُ هناك كنايةٌ على كنايةٍ، وقد يقتصرُ على المعنى الأول في الإرادة، وعليه قيل هنا: المعنى: لا يملكُ أمرَ السماوات والأرض ولا يتمكَّنُ من التصرُّف فيها غيرُه عزَّ وجلَّ.

والبيضاويُّ بعد ذكرِ ذلك، قال: هو كنايةٌ عن قدرته تعالى وحفظِه لها[1]. وفيه مزيدُ دلالةٍ على الاستقلال والاستبداد لمكان اللام والتقديم.

وقال الراغب: «مقاليد السماوات والأرض»: ما يحيطُ بها، وقيل: خزائنها، وقيل: مفاتيحها، والإشارة بكلِّها إلى معنًى واحدٍ وهو قدرتُه تعالى عليها وحفظُه لها[2]. انتهى.

وجوِّز أن يكون المعنى: لا يملك التصرُّفَ في خزائن السماوات والأرض ـ أي: ما أُودِعَ فيها واستعدَّت له من المنافع ـ غيرُه تعالى.

ولا يخفى أنَّ هذه الجملةَ إنْ كانت في موضع التعليل لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ على المعنى الأول، فالأظهرُ الاقتصارُ في معناها على أنَّه لا يملك أمرَ السماوات والأرضِ ـ أي: العالم بأسرِه ـ غيرُه تعالى، فكأنَّه قيل: هو تعالى يتولَّى التصرُّفَ في كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه لا يملك أمرَه سواه عزَّ وجلَّ. وإن كانت تعليلاً له على المعنى الثاني فالأظهر الاقتصارُ في معناها على أنَّه لا قدرةَ عليها لأحدٍ غيرِه جلَّ شأنه، فكأنه قيل: هو تعالى يتولَّى حفظَ كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه لا قدرةَ لأحدٍ عليه غيره تعالى.

وجوِّز أن تكونَ عطفَ بيانٍ للجملة قبلَها، وأن تكونَ صفةَ «وكيل»، وأن تكونَ خبراً بعد خبرٍ، فأمعِن النظرَ في ذلك وتدبَّره.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٤٨.
(٢) المفردات (قلد).

وأخرج أبو يعلى، ويوسفُ القاضي[١] في «سننه»، وأبو الحسن القطّان[٢] في «المطولات»، وابن السنِّي في «عمل اليوم والليلة»، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان ﷺ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال: «لا إله إلا الله والله أكبر، سبحان الله والحمد لله، أستغفِرُ اللهَ الذي لا إلهَ إلّا هو، الأول والآخِر، والظاهر والباطن، يحيي ويُميتُ وهو حَيٌّ لا يموتُ، بيدِه الخيرُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ» الحديث[٣].

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس أنَّ عثمانَ جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال له: أخبِرْني عن «مقاليد السماوات والأرض»؟ فقال: «سبحان الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلا اللهُ والله أكبر، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيم، الأولِ والآخرِ والظاهرِ والباطنِ، بيده الخيرُ، يحيي ويميتُ وهو على كلِّ شيء قديرٌ، يا عثمان، مَن قالها إذا أصبح عشْر مرَّاتٍ وإذا أمسى، أعطاه الله سِتَّ خصالٍ: أمَّا أوَّلُهنَّ فيُحْرَسُ من إبليسَ وجنودِه، وأمَّا الثانيةُ فيُعْطى قِنْطاراً مِن الأجْرِ، وأمَّا الثالثةُ فيَتزوَّجُ من الحُورِ العِيْن، وأمَّا الرابعةُ فيُغْفَرُ له ذنوبُه، وأمَّا الخامسةُ فيكونُ مَعَ إبراهيمَ عليه السلام، وأمَّا السادسةُ فيَحْضُرُه اثنا عشَرَ ملَكاً عندَ موته يبشِّرُونه بالجنة ويزُفُّونه مِن قَبْرِه إلى الموقِف، فإن أصابه شيءٌ مِن أهاويلِ يومِ القيامة قالوا له: لا تَخَفْ إنَّكَ من الآمنين. ثُمَّ يحاسِبُه اللهُ حِساباً يسيراً، ثم يُؤْمَرُ به إلى الجنة، فيزُفُّونه إلى الجنة من

---

(١) هو أبو محمد يوسف بن يعقوب الأزدي، صاحب التصانيف في السنن، سمع مسلم بن إبراهيم وسليمان بن حرب وابن المديني وطبقتهم. كان ثقةً حافظاً، توفي (٢٩٧هـ). سير أعلام النبلاء ١٤/ ٨٥، وشذرات الذهب ٣/ ٤١٤.

(٢) هو علي بن إبراهيم القزويني، روى عن ابن ماجه «سننه»، وروى عن أبي حاتم وطبقته، جمع وصنف، كان ثقةً فاضلاً زاهداً، توفي سنة (٣٤٥هـ). تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٥٦، وشذرات الذهب ٤/ ٢٤١.

(٣) مسند أبي يعلى الكبير كما في المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي للهيثمي (١٦٤٧)، وعمل اليوم والليلة (٧٣). وعزاه ليوسف القاضي وأبي الحسن القطان وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٣٣-٣٣٤. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: غريب جدًا وفي صحَّته نظر، وفيه نكارة شديدة. اهـ. وقال الذهبي في الميزان ٤/ ٨٥: هذا موضوع فيما أرى.

موقِفه كما تُزَف العروسُ، حتى يُدْخِلوه الجنةَ بإذن الله تعالى والناسُ في شدَّة الحساب[١].

وفي رواية العقيليِّ، والبيهقيِّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عمرَ أنَّ عثمانَ سأل النبيَّ ﷺ عن تفسير ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «ما سألني عنها أحدٌ، تفسيرُها: لا إلهَ إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفرُ اللهَ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله، هو الأولُ والآخِرُ، والظاهرُ والباطن، بيده الخيرُ، يُحْيي ويُميتُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير»[٢].

وفي رواية الحارث بن أبي أسامةَ وابنِ مردويه عن أبي هريرةَ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «هي: سبحان الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلا اللهُ والله أكبر ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله»[٣].

وبالجملة اختَلَفت الرواياتُ في الجواب، وقيل في حديث ابن عمرَ ﵄: إنَّه ضعيفٌ، في سنده مَن لا تصلُح روايتُه، وابن الجوزي قال: إنه موضوعٌ[٤]. ولم يُسلَّم له[٥]. وحالُ الأخبار الأُخَر اللهُ تعالى أعلَمُ به، والظنُّ الضَّعْفُ[٦].

والمعنى عليها أنَّ للهِ تعالى هذه الكلمات يوحَّدُ بها سبحانه ويمجَّدُ، وهي مفاتيحُ خيرِ السماوات والأرضِ، من تكلَّم بها من المؤمنين أصابه، فوَجْهُ إطلاقِ المقاليد عليها أنَّها مُوصِلَةٌ إلى الخير كما تُوصِلُ المفاتيحُ إلى ما في الخزائن. وقد

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٣٤.

(٢) الضعفاء للعقيلي ٤/ ٢٣١-٢٣٢، والأسماء والصفات (١٩).

(٣) مسند الحارث بن أبي أسامة (١٠٤٥ - بغية الباحث) عن أبي هريرة عن عثمان بنحوه، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٤.

(٤) الموضوعات ٢/ ١٧٤.

(٥) يشير إلى قول الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٤٩: وقول ابن الجوزي: إنه موضوع، غير مسلم وموضوعاته أكثرها منتقدة.

(٦) نقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ١٩٢ عن ابن حجر أن هذا الحديث منكر من جميع طرقه، وعن النباتي قوله: لا يعرف من وجه يصح، وما أشبهه بالوضع.

ذَكَر ﷺ شيئاً من الخير في حديث ابن عباس، وعدَّ في الحديث قبلَه عشرَ خصالٍ لمن قالها كلَّ يوم مئةَ مرَّةٍ، وهو بتمامه في «الدر المنثور»(١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: «الله خالقُ كلِّ شيء» إلخ، أي: إنه عزَّ شأنُه متَّصِفٌ بهذه الصفاتِ الجليلة الشأنِ والذين كفروا وجَحَدوا ذلك أولئك هم الكاملون في الخسران.

وقيل: على قوله تعالى: «له مقاليد السماوات والأرض»، ولا يظهَرُ ذلك على بعض الأوجُهِ السابقة فيه.

وقيل: على مقدَّرٍ تقديرُه: فالذين اتقوا، أو: فالذين آمنوا بآيات الله هم الفائزون، والذين كفروا إلخ، وفيه تكلُّفٌ.

وجوِّز أن يكون معطوفاً على قوله تعالى: «وينجي الله».. إلخ. فيكونُ التقدير: وينجِّي الله المتقين، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون، وما بينهما اعتراضٌ للدلالة على أنَّه تعالى مهيمِنٌ على العباد مطَّلِعٌ على أفعَالهم مُجازٍ عليها، وفيه تأكيدٌ لثواب المؤمنين وفلاحِهم وعقابِ الكَفَرة وخُسرانِهم، ولم يقل: ويُهْلِكُ الذين كفروا بخسرانهم، كما قال سبحانه: «وينجي» إلخ؛ للإشعار بأنَّ العُمدةَ في فوز المؤمنين فضلُه تعالى فلِذا جَعل نجاتَهم مسنَدَةً له تعالى حادثةً لهم(٢) يومَ القيامة غيرَ ثابتةٍ قبلَ ذلك بالاستحقاق والأعمال، بخلاف هلاك الكَفَرة فإنَّهم قدَّموه لأنفسهم بما اتَّصفوا به من الكُفر والضلال، ولم يُسْند له تعالى ولم يعبر عنه بالمضارع أيضاً، وفي ذلك تصريحٌ بالوعد وتعريضٌ بالوعيد حيثُ قيل: «الخاسرون» ولم يُقَلْ: الهالكون، أو: المعذَّبون، أو نحوه، وهو قضيةُ الكرم.

وعطفُ الجملة الاسمية على الفعلية مما لا شبهةَ في جوازه عند النحويين، ومما ذكرنا يُعلَم ردُّ قولِ الإمام الرازيِّ: إنَّ هذا الوجهَ ضعيفٌ من وجهين:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٣٤، وهو حديث عثمان بن عفان الذي رواه أبو يعلى ويوسف القاضي والقطان وابن السني وغيرهم، وقد سلف قريباً.

(٢) في (م): حادثةٌ له، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤٩، وهو الصواب.

الأولُ: وقوعُ الفصل الكثير بين المعطوف والمعطوف عليه.

الثاني: وقوع الاختلاف بينهما في الفعلية والاسمية، وهو لا يجوز[١].

والإمام أبو حيان منع كونَ الفاصل كثيراً. وقال في الوجه الثاني: إنه كلامُ مَن لم يتأمَّل كلامَ العرب ولا نَظَر في أبواب الاشتغال[٢].

نعم قال في «الكشف»: يؤيِّد الاتصالَ بما يليه دون قوله تعالى: «وينجي» أنَّ قولَه سبحانه: «وينجي الله» متصلٌ بقوله تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا»، فلو قيل بعده: «والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون» لم يحسُنْ؛ لأنَّ الأحسنَ على هذا المساقِ أن يقدَّمَ على قوله تعالى: «وينجي الله» على ما لا يخفى؛ ولأنَّه كالتخلُّصِ إلى ما بعدَه مِن حديث الأمر بالعبادة والإخلاص إذ ذاك. وهو كلامٌ حَسَنٌ.

ثم الحصرُ الذي يقتضيه تعريفُ الطرفين[٣] وضميرُ الفصل باعتبار الكمال كما أشرنا إليه؛ لا باعتبار مطلَق الخسران فإنَّه لا يختصُّ بهم. وجوِّز أن يكونَ قصْرَ قلبٍ فإنَّهم يزعمون المؤمنين خاسرين.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أَبَعْدَ الآياتِ المقتضِيةِ لعبادته تعالى وحدَه غيرَ الله أعبُدُ؟! فـ «غير» مفعولٌ مقدَّمٌ لـ «أعبد»، و«تأمرونِّي» اعتراضٌ للدلالة على أنَّهم أمروه به عقيبَ ذلك وقالوا له ﷺ: استلِمْ بعضَ آلهتِنا ونؤمنُ بإلهك[٤]. لفَرْط غباوتهم، ولذا نُودوا بعنوان الجهل.

وجوِّز أن يكون «أعبد» في موضع المفعول لـ «تأمرونِّي» على أنَّ الأصلَ: تأمروني أن أعبدَ، فُحذِفَت «أن» وارتفع الفعلُ كما قيل في قوله:

ألا أيُّهذا الزاجري أحضُرُ الوغى[٥]

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٣٨.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: الطريفين، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤٩، والكلام منه.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٠٧.

(٥) وعجزه: وأنْ أَشهدَ اللذَّاتِ هل أنتَ مُخْلِدِ، والبيت لطرفة، وسلف ٢/ ٢٧٧.

ويؤيِّده قراءة من قرأ: «أعبدَ» بالنصب[١]، و«غير» منصوبٌ بما دلَّ عليه «تأمرونِّي أعبُدُ»، أي: تُعَبِّدونني غيرَ الله، أي: أتصيِّرونني عابداً غيرَه تعالى؟ ولا يصحُّ نصبُه بـ «أعبد»؛ لأنَّ الصلةَ لا تعمَلُ فيما قبلَها والمقدَّرُ كالموجود. وقال بعضهم: هو منصوبٌ به و«أن» بعدَ الحذف يُبطِل حكمَها المانعُ عن العمل.

وقرأ ابن كثير: «تأمرونِّيَ» بالإدغام وفتح الياء. وقرأ ابن عامر: «تأمرونَنِي» بإظهار النونين على الأصل، ونافع: «تأمرونِيَ» بنونٍ واحدةٍ مكسورةٍ وفتح الياء[٢].

وفي تعيينِ المحذوف من النونين خلافٌ، فقيل: الثانيةُ؛ لأنَّها التي حصَل بها التكرارُ، وقيل: الأولى؛ لأنَّها حرفُ إعرابٍ عرضةٌ للتغيير.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من الرسُل عليهم السلام ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أي: بالله تعالى شيئاً ما ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾. الظاهرُ أنَّ جملةَ «لئن» إلخ نائبُ فاعلِ «أوحي»، لكن قيل: في الكلام حذفٌ، والأصلُ: أوحي إليك لئن أشركتَ ليحبَطَنَّ عملك.. إلخ، وإلى الذين من قبلك مثلُ ذلك. وقيل: لا حذف. وإفرادُ الخطاب باعتبار كلِّ واحدٍ منه ﷺ والمرسلين الموحَى إليهم، فإنَّه أوحِيَ لكلٍّ: «لئن أشركت» إلخ بالإفراد.

وذهب البصريون إلى أنَّ الجملَ لا تكون فاعلةً فلا تقوم مقامَ الفاعل، ففي «البحر» أنَّ «إليك» حينئذٍ نائبُ الفاعل، والمعنى كما قال مقاتل: أوحي إليك وإلى الذين مِن قبلك بالتوحيد، وقوله تعالى: «لئن أشركت» إلخ استئنافٌ خوطِب به النبيُّ ﷺ خاصَّةً[٣]. وهو كما ترى.

وأيًّاما كان فهو كلامٌ على سبيل الفرض لِتَهْييج المخاطَب المعصوم وإقناطِ الكَفَرة؛ والإيذان بغاية شَناعةِ الإشراك وقُبحِه؛ وكونِه بحيث يُنْهَى عنه مَن لا يكاد

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٣٩.

(٢) التيسير ص١٩٠-١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٣-٣٦٤.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٣٩.

يباشرُه فكيف بمَن عَدَاه، فالاستدلالُ بالآية على جواز صدورِ الكبائر مِن الأنبياء عليهم السلام كما في «المواقف»[(١)]، ليس بشيء، فاحتمال الوقوع فرضاً كافٍ في الشرطيَّة لكن ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ استحالةَ الوُقوع شرعيَّةٌ.

ولاما «لقد» و«لئن» موطِّئتان للقسم، واللامان بعدُ للجواب.

وفي عدَم تَقْييد الإحباط بالاستمرار على الإشراك إلى الموت دليلٌ للحنفية الذاهبين إلى أنَّ الردَّةَ تُحبِط الأعمالَ التي قبلَها مطلقاً. نعم قالوا: لا يقْضِي منها بعدَ الرجوع إلى الإسلام إلا الحجَّ[(٢)].

ومذهبُ الشافعيِّ أنَّ الردَّةَ لا تُحبط العملَ السابقَ عليها ما لم يستمرَّ المرتدُّ على الكفر إلى الموت، وتركُ التقييد هنا اعتماداً على التصريح به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيَّد[(٣)].

وأجابَ بعضُ الحنفية بأنَّ في الآية المذكورة توزيعاً: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ناظرٌ إلى الارتداد عن الدين، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ إلخ ناظرٌ إلى الموت على الكفر، فلا مقيَّدَ ليُحمل المطلَقُ عليه[(٤)].

ومن هذا الخلاف نشأ الخلاف في الصحابيِّ إذا ارتدَّ ثم عاد إلى الإسلام بعد وفاته ﷺ، أو قبلَها ولم يَرَهُ، هل يقال له: صحابيٌّ أم لا؟ فمن ذهب إلى الإطلاق قال: لا، ومن ذهب إلى التقييد قال: نعم[(٥)].

وقيل: يجوز أن يكون الإحباطُ مطلقاً من خصائص النبيِّ عليه الصلاة والسلام؛ إذ شِرْكُه ـ وحاشاه ـ أقبح. وفيه ضعفٌ؛ لأنَّ الغرضَ تحذيرُ أمته وتصويرُ

(١) المواقف ص٣٥٩.

(٢) حاشية ابن عابدين ٢/ ٧٥.

(٣) المجموع ٣/ ٦.

(٤) حاشية ابن عابدين ٢/ ٧٦، وينظر بدائع الصنائع ١/ ٤٧٨.

(٥) ينظر فتح المغيث ٣/ ٩٩-١٠٠، وشرح شرح نخبة الفكر لعلي القاري ص٥٧٦ و٥٨٤.

فظاعةِ الكفر، فتقديرُ أمرٍ يختصُّ به لا يتعدَّى من النبيِّ إلى الأمة لا اتجاهَ له مع أنَّه لا مستَنَدَ له من نقلٍ أو عقلٍ.

والمرادُ بالخسران على مذهب الحنفية ما لَزِمَ من حَبْط العمل، فكان الظاهرُ: فتكون، إلَّا أنه عُدل إلى ما في النظم الجليل؛ للإشعار بأنَّ كلًّا من الإحباط والخسران يستقلُّ في الزجر عن الإشراكِ.

وقيل: الخلود في النار، فيلزَمُ التقييدُ بالموت كما هو عند الشافعي عليه الرحمة.

وقرئ: «ليُحْبِطَنَّ» مِن أَحْبَطَ، «عملَكَ» بالنصب، أي: ليُحْبِطَنَّ اللهُ تعالى - أو: الإشراكُ - عملَك. وقرئ بالنون ونصبِ «عملك» أيضاً[1].

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردٌّ لِمَا أمروه به مِن استلام بعضِ آلهتهم، والفاءُ جزائيةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: إن كنتَ عابداً أو عاقلاً فاعبُدِ الله، فحُذِف الشرطُ وجُعل تقديمُ المفعول عوضاً عنه، وإلى هذا ذهب الزمخشريُّ[2]، وسلَفه في كونها جزائيةً الزجَّاجُ[3]، وأنكر أبو حيان كونَ التقديم عوضاً عن الشرط[4].

ومذهب الفراء والكسائي أن الفاء زائدة بين المؤكِّد والمؤكَّد، والاسم الجليل منصوب بفعل محذوف والتقدير: اللهَ أَعبدُ، فاعبُدْه[5]. وقدِّر مؤخَّراً ليفيدَ الحصرَ.

وفي «الانتصاف»: مقتضى كلام سيبويه أنَّ الأصلَ: تنبَّهْ فاعبدِ الله، فحذفُوا الفعلَ الأوَّلَ اختصاراً، واستنكروا الابتداءَ بالفاء - ومن شأنها التوسُّط بين المعطوف والمعطوف عليه - فقدَّموا المفعولَ، فصارت الفاءُ متوسطةً لفظاً ودالَّةً على المحذوف، وانضافَ إليها فائدةُ الحصر لإشعار التقديم بالاختصاص[6].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٧، والبحر ٧/ ٤٣٩.
(٢) في الكشاف ٣/ ٤٠٧.
(٣) إعراب القرآن للزجاج ٤/ ٣٦١.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٣٩.
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٤، ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٠.
(٦) الانتصاف ٣/ ٤٠٨.

واعتبار الاختصاص قيل: مما لا بدَّ منه؛ لأنه لم يكن الكلامُ ردًّا عليهم فيما أمَروه به لولاه، فإنَّهم لم يطلبوا منه عليه الصلاة والسلام تركَ عبادةِ الله سبحانه، بل استلامَ آلهتهم والشركَ به عزَّ وجلَّ، اللهمَّ إلا أن يقال: عبادةُ الله سبحانه مع الشركِ كَلَا عبادةٍ، واللهُ جلَّ وعلا أغنى الشركاء، فمن أشرك في عمله أحداً معه عزَّ وجلَّ فعملُه لمن أشركَ، كما يدلُّ عليه كثيرٌ من الأخبار.

وقرأ عيسى: «بل اللهُ» بالرفع[١].

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ إنعامَه تعالى عليك الذي يضيق عنه نِطاقُ الحصر، وفيه إشارةٌ إلى موجِب الاختصاص.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظَّموه جلَّ جلالُه حقَّ عظَمتِه إذ عبدوا غيرَه تعالى وطلبوا من نبيه ﷺ عبادةَ غيره سبحانه، قاله الحسن والسديُّ[٢].

وقال المبرِّد[٣]: أصلُه من قولهم: فلان عظيمُ القدر، يريدونَ بذلك جلالَتَه. وأصلُ القدر اختصاصُ الشيء بعِظَمٍ أو صِغَرٍ أو مُساواةٍ.

وقال الراغب: أي ما عرفوا كنهه عزَّ وجلَّ[٤]. وتُعقِّب بأن عدمَ[٥] معرفةِ كنهه تعالى - أي: حقيقتِه سبحانَه - لا يَخُصُّ هؤلاء؛ لتعذُّرِ الوقوف على الحقيقة، ومن هنا قيل:

العجزُ عن دَرْك الإدراكِ إدراكُ ... والبحثُ عن كُنْهِ ذاتِ الله إشراكُ[٦]

ولا يخفى أنَّ المسألةَ خلافيةٌ، وما ذُكر على تقدير التسليم يُمكن دفعُه بالعناية.

نعم أولى منه ما قيل: أي: ما عرفوه كما يليق به سبحانه، حيثُ جعلوا له سبحانه شريكاً. وظاهر كلامِ بعضهم أنَّ الكلامَ على تقديرِ مضافٍ، أي: ما قدَروا

(١) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٣٩.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٥، والنكت والعيون ٥/ ١٣٤.
(٣) كما إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢١.
(٤) المفردات (قدر).
(٥) سقطت كلمة «عدم» من (م). والصواب إثباته.
(٦) البيت في الديوان المنسوب إلى علي ﷺ ص٧٣، ونسب إلى غيره.

في أنفسهم وما تصوَّرُوا عظَمةَ الله حقَّ التصوُّرِ فلم يعظِّموه كما هو حقُّه عزَّ وجلَّ، حيث وصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة من الشركة ونحوِها.

وأيَّاما كان فهو متعلِّقٌ بما قبلَه مِن حيث إنَّ فيه تجهيلَهم في الإشراك ودعائهم[1] رسولَه ﷺ إليه.

وقيل: المعنى: ما وصفوا الله تعالى حقَّ صفتِه إذ جحدوا البعثَ، ووصفوه سبحانه بأنَّه خالقُ الخلق عبثاً، وأنه سبحانه عاجزٌ عن الإعادة والبعث. وهو خلافُ الظاهر، وعليه يكون للتمهيد لأمر النفخ في الصور.

وضميرُ الجمع على جميع ما ذكر لكفَّارِ قريش كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وقيل: الضميرُ لليهود، تكلَّموا في صفات الله تعالى وجلالِه فألحدوا وجسَّموا وجاؤوا بكلِّ تخليط، فنزلت[3].

وقرأ الأعمش: «حقَّ قدَره» بفتح الدال. وقرأ الحسن وعيسى وأبو نوفل وأبو حيوة: «وما قدَّروا» بتشديد الدال «حقَّ قدَره» بفتح الدال[4].

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ الجملة في موضع الحال من الاسم الجليل، و«جميعاً» حالٌ من المبتدأ عندَ مَن يجوِّزه، أو مِن مقدَّرٍ كـ: أُثبِتُها جميعاً، كما قيل، وهو جارٍ مَجرى الحال المؤكِّدةِ في أنَّ العاملَ منتَزَعٌ من مضمون الجملة. وفي «التقريب»: هو حالٌ مِن الضمير في «قبضتُه»؛ لأنه بمعنى: مقبوضة، وكان الظاهرُ أن يؤخَّرَ عنه، وإنَّما قدِّم عليه ليُعلم أول الأمر أنَّ الخبرَ الذي يَرِد لا يقع عن أرضٍ واحدةٍ أو بعضٍ دونَ بعضٍ، ولكنْ عن الأرَضين كلِّها أو عن جميع أبعاضها. وجازَ هذا التقديمُ؛ لأنَّ المصدرَ لم يعمَل مِن حيث كونُه مصدراً، بل لكونه بمعنى اسمِ المفعول.

---

(١) وقع في (م): دعائهم، بالمثلثة، وفي الأصل: دعانهم، بالنون، والصواب المثبت، وهو ما يقتضيه السياق.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٤١، والبحر ٧/ ٤٣٩.

وقال الحوفي: العاملُ في الحال ما دلَّ عليه «قبضتُه» لا هي[1]. وهو كما ترى.

و«يوم القيامة» معمولُ «قبضته»؛ وهي في الأصل: المرَّةُ الواحدةُ من القَبض، وتُطلَق على المقدار المقبوضِ كالقُبضة بضمِّ القاف، وجُعلت صفةً مشبَّهةً حينئذٍ. وجوَّز كلٌّ مِن إرادة المقبوضة والمعنى المصدريِّ هنا، والكلامُ على الثاني على تقدير مُضافٍ، أي: ذواتُ قَبضتِه، أي: يقبِضُهنَّ سبحانه قَبضةً واحدةً.

وقرأ الحسن: «قبضتَه» بالنصب[2] على أنه ظرفٌ مختصٌّ مشبَّهٌ بالمبهَم؛ ولذا لم يصرَّحْ بـ «في» معه، وهو مذهب الكوفيين، والبصريون يقولون: إنَّ النصبَ في مثل ذلك خطأٌ غيرُ جائزٍ، وأنَّه لا بدَّ مِن التصريح بـ «في».

وقرأ عيسى والجحدري: «مطوياتٍ» بالنصب[3] على أنَّ «السماوات» عطفٌ على «الأرض» مشارِكةٌ لها في الحكم، أي: والسماواتُ قبضتُه، و«مطويات» حالٌ مِن «السماوات» عندَ مَن يجوِّز مجيءَ الحال مِن مثلِ ذلك، أو مِن ضميرها المستتِر في «قبضته» على أنَّها بمعنى: مقبوضته، أو من ضميرِها محذوفاً، أي: أثبِتُها مطوياتٍ، و«بيمينه» متعلِّقٌ بـ «مطويَّات». أو على أنَّ «السماوات» مبتدأ و«بيمينه» الخبرُ، و«مطويات» حالٌ أيضاً إمَّا من المبتدأ، أو من الضمير المحذوف، أو من الضمير المستتر في الخبر بناءً على مذهب الأخفش مِن جوازِ تقديم الحال في مثلِ ذلك.

والكلامُ عند كثيرٍ مِن الخلف تمثيلٌ لحالِ عظَمته تعالى ونفاذِ قدرته عزَّ وجلَّ، وحقارةِ الأفعال العِظام التي تتحيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافة إليها، بحالِ مَن يكونُ له قَبضةٌ فيها الأرضُ جميعاً، ويمينٌ بها يطوِي السماواتِ، أو بحالِ مَن يكونُ له قبضةٌ فيها الأرضُ والسماواتُ ويمينٌ بها يطوي السماواتِ مِن غير ذَهاب بالقبضةِ ولا باليمينِ إلى جهة حقيقة، أو مجازٌ بالنسبة إلى المُجرَى عليه وهو الله عزَّ شأنه.

---

(١) البحر ٧/ ٤٤٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٤٠.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٤٠.

وقال بعضهم: المراد التنبيهُ على مزيد جلالته عزَّ وجلَّ وعظَمتِه سبحانه بإفادةِ أنَّ الأرضَ جميعاً تحتَ مُلكه تعالى يوم القيامة فلا يتصرَّفُ فيها غيرُه تعالى شأنه بالكلية كما قال سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] والسماوات مطوياتٌ طيَّ السجِلِّ للكتُب بقدرته التي لا يتعاصاها شيءٌ. وفيه رمزٌ إلى أنَّ ما يُشركونه معه عزَّ وجلَّ أرضيًّا كانَ أم سماويًّا مقهورٌ تحتَ سلطانه جلَّ شأنه وعزَّ سلطانُه، فالقَبضة مجازٌ عن الملك أو التصرُّف، كما يقال: بلدُ كذا في قبضةِ فلانٍ، واليمينُ مجازٌ عن القدرةِ التامَّةِ.

وقيل: القبضةُ مجازٌ عمَّا ذُكر ونحوِه، والمرادُ باليمين القَسَم، أي: والسماوات مُفْنَياتٌ بسبب قَسَمِه تعالى؛ لأنه عزَّ وجلَّ أقسم أن يُفْنِيَها. وهو مما يُهْزَأُ منه لا مما يُهْتَزُّ استحساناً له.

والسلفُ يقولون أيضاً: إنَّ الكلامَ تنبيهٌ على مزيدِ جلالته تعالى وعظمته سبحانه، ورمزٌ إلى أنَّ آلهتهم أرضيةً أم سماويةً مقهورةٌ تحتَ سلطانه عزَّ وجلَّ، إلَّا أنَّهم لا يقولون: إنَّ القبضة مجازٌ عن الملك أو التصرُّفِ، ولا اليمين مجازٌ عن القدرة، بل ينزِّهونَ الله تعالى عن الأعضاء والجوارِح ويؤمنون بما نَسبه إلى ذاته بالمعنى الذي أراده سبحانه.

وكذا يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام؛ فقد أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وغيرُهم عن ابن مسعود قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنَّا نجد: اللهُ يحمِلُ السماواتِ يومَ القيامة على إصبعٍ، والأرَضينَ على إصبعٍ، والشجرَ على إصبعٍ، والماءَ والثرى على إصبعٍ، وسائرَ الخلقِ على إصبعٍ، فيقول: أنا الملِكُ، فضحِك رسولُ الله ﷺ حتى بدَتْ نواجذُه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسولُ الله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية[1].

(١) صحيح البخاري (٤٨١١)، وصحيح مسلم (٢٧٨٦)، وسنن الترمذي (٣٢٣٨)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٣٨٦)، وهو في مسند أحمد (٤٣٦٨).

والمتأوِّلون يتأوّلون الأصابعَ على الاقتدار وعدمِ الكلفة كما في قول القائل: أقتل زيداً بإصبعي. ويُبعِد ذلك ظاهرُ ما أخرجه الإمام أحمد، والترمذيُّ وصححه، والبيهقيُّ، وغيرُهم، عن ابن عباس قال: مرَّ يهودي على رسول الله ﷺ وهو جالسٌ؛ قال: كيف تقول يا أبا القاسم، إذا وضع الله السماواتِ على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرضين على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كلُّ ذلك يشيرُ بأصابِعه فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾(١).

وجعل بعضُ المتأوِّلين الإشارةَ إعانةً على التمثيل والتخييل.

وزعم بعضهم أنَّ الآيةَ نزلت ردًّا لليهوديِّ حيث شبَّه وذهب إلى التجسيم، وأنَّ ضحكَه عليه الصلاة والسلام المحكيَّ في الخبر السابق كان للردِّ أيضاً، وأنَّ «تصديقاً له» في الخبر من كلام الراوي على ما فهِم. ولا يخفى أنَّ ذلك خلافُ الظاهر جدًّا، وجعلوا أيضاً من باب الإعانة على التمثيل وتخييل العظمةِ فعْلَه عليه الصلاة والسلام حين قرأ هذه الآيةَ، فقد أخرج الشيخان والنسائيُّ وابنُ ماجه وجماعةٌ عن ابن عمرَ أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيةَ ذاتَ يومٍ على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ويحرِّكها يُقبِل بها ويُدْبِر «يمجِّدُ الربُّ نفسَه: أنا الجبارُ، أنا المتكبر، أنا المَلِك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجَف برسول الله ﷺ المنبرُ حتى قلنا: ليخِرَّنَّ به(٢).

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مقسم أنَّه نظر إلى ابن عمرَ كيف يحكي رسولَ الله ﷺ، قال: «يأخذُ اللهُ تعالى سماواتِه وأرضيه بيدَيه، ويقول: أنا الله ـ ويقبِضُ أصابعَه ويبسطها ـ أنا الملك»(٣).

---

(١) مسند أحمد (٢٩٨٨)، وسنن الترمذي (٣٢٤٠)، ونقله المصنف عن السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٥.

(٢) صحيح البخاري (٧٤١٢)، وصحيح مسلم (٢٧٨٨) بلفظٍ مختلف مختصراً، والسنن الكبرى للنسائي (٧٦٤٩)، وسنن ابن ماجه (١٩٨)، وهو في مسند أحمد (٥٤١٤).

(٣) صحيح مسلم (٢٧٨٨) (٢٥).

وفي «شرح الصحيح» للإمام النوويِّ نقلاً عن المازري أنَّ قبضَ النبيِّ ﷺ أصابعَه وبسطَها تمثيلٌ لقبضِ هذه المخلوقات وجمعِها بعدَ بسطِها، وحكايةٌ للمبسوط المقبوضِ وهو السماواتُ والأَرَضون، لا إشارةٌ إلى القبض والبسط الذي هو صفةٌ للقابضِ والباسطِ سبحانه وتعالى، ولا تمثيل لصفةِ الله تعالى السمعية المسماة باليد التي ليست بجارحةٍ[1]. انتهى.

ثم إنَّ ظاهرَ بعضِ الأخبار يقتضي أنَّ قبضَ الأرضِ بعد طيِّ السماوات، وأنَّه بيدٍ أخرى؛ أخرج مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله تعالى السماوات يومَ القيامة ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون؟»[2].

وفي «الشرح» نقلاً عن المازريِّ أيضاً: أنَّ إطلاقَ اليدَين لله تعالى متأوَّلٌ على القدرة، وكنى عن ذلك باليدين؛ لأنَّ أفعالَنا تقع باليدين فخُوطبنا بما نفهمه ليكونَ أوضحَ وأوكدَ في النفوس، وذكر اليمين والشمالَ حتى يتمَّ التأوُّل؛ لأنَّا نتناولُ باليمين ما نُكرمه وبالشمال ما دونه؛ ولأنَّ اليمينَ في حقِّنا تقوَى لِمَا لا تقوى له الشمالُ، ومعلومٌ أنَّ السماواتِ أعظمُ من الأرضِ فأضافها إلى اليمين وأضافَ الأرضين إلى الشمال ليظهر التقريبُ في الاستعارة، وإن كان اللهُ سبحانه وتعالى لا يُوصَف بأنَّ شيئاً أخفُّ عليه من شيء ولا أثقلُ من شيء[3]. انتهى.

والصوفيةُ يقولون بالتجلِّي الصوريِّ مع بقاء الإطلاق والتنزيهِ المدلولِ عليه بـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والأمرُ عليه سهلٌ جدًّا.

ثم إنَّ التصرُّفَ في الأرضِ والسماواتِ يكونُ والناس على الصراط، كما جاء في خبرٍ رواه مسلم عن عائشةَ مرفوعاً[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٣٢، والكلام فيه منسوب للقاضي عياض لا للمازري، وهو في إكمال المعلم ٨/ ٣١٩.
(٢) صحيح مسلم (٢٧٨٨) (٢٤).
(٣) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٣٢، وكلام المازري في المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٩٦.
(٤) صحيح مسلم (٢٧٩١).

ورَوَى أيضاً عن أبي سعيد الخدريِّ عن رسول الله ﷺ قال: «تكون الأرضُ يوم القيامة خبزةً واحدةً يكفَؤُها الجبَّارُ بيده كما يكفَأُ أحدُكم خبزتَه في السَّفَر؛ نزلاً لأهل الجنة»[١]. والكلام في هذا الخبر كالكلام في نظائره، وإياك من التشبيه والتجسيم، وكذا مِن نسبةِ ذلك إلى السلف، ولا تكُ كالمعتزلةِ في التحامُل عليهم والوقيعة فيهم، ويكفي دليلاً على جَهْلِ المعتزلة بربِّهم زعمُهم أنَّه عزَّ وجلَّ فوَّض العبادَ، فهم يفعلون ما لا يشاء، ويشاء ما لا يفعلون.

﴿سُبْحَانَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ أي: ما[٢] أبعدَ مَن هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم، أو عمَّا يُشركونه من الشركاء، فـ «سبحان» للتعجُّب، وتتعلَّقُ به «عن» بالتأويل بما ذُكر، و«ما» تحتمِلُ المصدريةَ والموصوليةَ.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ المشهورُ أنَّ النافخَ فيه ملَكٌ واحدٌ وأنه إسرافيل عليه السلام، بل حكى القرطبيُّ الإجماعَ عليه[٣]. وفي حديثٍ أخرجه ابن ماجه والبزار وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: أنَّ النافخَ اثنان[٤]. ويدلُّ عليه أيضاً أخبارٌ أُخَر، منها ما أخرجه أحمد والحاكم عن ابن عمرو[٥] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «النافخان في السماء الثانية، رأسُ أحدهما بالمشرق ورِجلاه بالمغرب، ينتظران متى يُؤْمران أن يَنْفخا في الصور فينفخا»[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٩٢).

(٢) قوله: ما، ليست في (م)، وأثبتناها من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٦٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٤٣٠.

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٧٣)، ومسند البزار (٣٤٢٤ - كشف)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣٨.

(٥) وقع في الأصل و(م): ابن عمر، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٦) أخرجه أحمد (٦٨٠٤) من طريق أسلم عن أبي مُريَّةَ عن النبي ﷺ، أو عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ. وإسناده ضعيف للشك بين إرساله ووصله، ولجهالة حال أبي مُرَيَّة.
قال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٩: أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو من غير شك. اهـ. وكذا عزاه للحاكم السيوطي في الدر ٥/ ٣٣٨ من حديث ابن عمر، ولم نقف عليه في مطبوع المستدرك.

وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنه واحدٌ وأنه شاخصٌ ببصره إلى إسرافيل عليه السلام، ما طَرَف منذُ خلقه الله تعالى، ينتظر[١] متى يشير إليه فينْفُخُ في الصور[٢].

والصورُ قرنٌ عظيمٌ فيه ثُقْبٌ بعدد كلِّ روحٍ مخلوقةٍ ونفسٍ منفوسةٍ، وأخرج أبو الشيخ عن وهب أنَّه من لؤلؤةٍ بيضاءَ في صفاءِ الزجاجة، به ثُقْبٌ دقيقةٌ بعدد الأرواح، وفي وسَطهِ كُوَّةٌ كاستدارةِ السماء والأرض[٣].

ونحن نؤمن به ونفوِّضُ كيفيتَه إلى علَّام الغُيوب جلَّ شأنه. وأنكر بعضُهم ذلك، وقال: هو جمعُ صورة، كما في قراءة قتادةَ وزيد بن عليٍّ: «في الصُّوَر» بفتح الواو[٤]، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك[٥].

والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، وبُني الفعلُ للمفعول؛ لعدم تعلُّق الغرض بالفاعل، بل الغرضُ إفادةُ هذا الفعل من أيِّ فاعلٍ كان، فكأنه قيل: ووقع النفخُ في الصور.

﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ماتوا بسبب ذلك، ويحتمِلُ أنَّهم يُغشى عليهم أوّلاً ثم يموتون، ففي «الأساس»: صَعِقَ الرجلُ [وصُعِقَ]: إذا غُشي عليه من هدَّةٍ أو صوتٍ شديدٍ يسمعه، وصَعِقَ: إذا مات[٦].

وفي «صحيح مسلم» من حديثٍ طويل فيه ذكرُ الدجال: «ثم يُنْفَخ في الصُّور فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى لِيتاً[٧] ورفع لِيتاً، فأوّلُ من يسمعه رجلٌ يلوطُ حوضَ إبله، فيصعَقُ ويصعق الناس»[٨].

---

(١) تحرَّف في الأصل إلى: ينظر.
(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٨٠) عن أبي بكر الهذلي، وهو متروك الحديث.
(٣) العظمة (٣٩١).
(٤) البحر ٧/ ٣٤١.
(٥) ينظر ٧/ ١٩١.
(٦) أساس البلاغة (صعق) وما بين حاصرتين منه.
(٧) في هامش الأصل: الليت: صفحة العنق. وأصغى: أمال.
(٨) صحيح مسلم (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

وقرئ: «فصُعِقَ» بضمِّ الصاد[1].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال السديُّ: جبريلُ وإسرافيلُ وميكائيلُ وملَكُ الموت عليهم السلام[2]. وقيل: هم وحَمَلةُ العرش، فإنَّهم يموتون بعدُ. وفي ترتيب موتهم اضطرابٌ مذكورٌ في «الدر المنثور»[3].

وقيل: رضوانُ والحورُ ومالكٌ والزبانيةُ. وروي ذلك عن الضحاك.

وقيل: مَن مات قبل ذلك، أي: يموت مَن في السماوات والأرض إلا من سبق موتُه؛ لأنهم كانوا قد ماتوا. قال في «البحر»[4]: وهذا نظيرُ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

ومن الغريب ما حُكي فيه أنَّ المستثنى هو اللهُ عزَّ وجلَّ، ولا يخفى عليك حالُه متصلاً كانِ الاستثناءُ أم منقطعاً.

وقيل: هو موسى عليه السلام. وسيأتي الكلامُ إن شاء الله تعالى في تحقيق ذلك. وقيل غير ذلك.

ويراد بـ: «السماوات» على أكثر الأقوال جهةُ العلوِّ، وإلَّا لم يتَّصل الاستثناءُ، فإنَّ حملةَ العرش مثلاً ليسوا في السماواتِ بالمعنى المعروف، وقيل: إنه لم يَرِدْ في التعيين خبرٌ صحيحٌ.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي: في الصور، وهو ظاهرٌ في أنه ليس بجمع، وإلا لقيل: فيها. ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي: نفخةٌ أخرى، وهو يدلُّ على أنَّ المرادَ بالأول: ونُفِخ في الصور نفخةٌ واحدةٌ، كما صرِّح به في مواضع؛ لأنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ، فلو أريد المطلقُ الشاملُ للأخرى لم يكن لذكرِها هاهنا وجهٌ، و«أخرى» تحتمِلُ النصبَ على أنها صفةُ مصدرٍ مقدَّر، أي: نفخةً أخرى، والرفعَ على أنها صفةٌ لنائِب الفاعل، وعلى الأول كان النائبُ عنه الظرفَ.

(١) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٤١.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٥٤.
(٣) ٥/ ٣٣٦ وما بعدها.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٤١.

وصحَّ في صحيحَي البخاريِّ ومسلم أنَّ الله تعالى يُنْزِلُ بينَ النفختين ماءً من السماء ـ جاء في بعض الروايات أنه كالطَّلِّ بالمهملة، وفي بعضها: كمنيِّ الرجال ـ فتنبُتُ منه أجسادُ الناس، وأنَّ بين النفختين أربعين، وهذا عن أبي هريرة مرفوعاً، لم يبيِّن فيه ما هذه الأربعون(١).

وفي حديثٍ أخرجه أبو داود أنها أربعون عاماً(٢).

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن العاص(٣) قال: يُنفخ في الصور النفخة الأولى من باب إيلياء الشرقيِّ، أو قال: الغربيِّ، والنفخةُ الثانيةُ من بابٍ آخرَ.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ينتظرون ما يُؤمَرون، أو: ينتظرون ماذا يُفعل بهم. وقيل: يُقلِّبون أبصارَهم في الجهات نظرَ المبهوت إذا فاجأه خطْبٌ عظيمٌ. وتُعقِّب بأنَّ قولَهم عند قيامهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢] يأباه ظاهراً نوعَ إباءٍ.

وجوِّز أن يكون «قيام» من القيام مقابِلَ الحركة، أي: فإذا هم متوقِّفون جامدُون في أمكنتهم لتحيُّرهم. واعترِض بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] ظاهرٌ في خلافه؛ لأن النسل: الإسراعُ في المشي، وكذا قولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «قياماً» بالنصب(٤) على أنَّ جملةَ «ينظرون» خبرُ «هم»،

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٥)، وصحيح مسلم (٢٩٥٥)، ورواية: «كالطل»أخرجها الإمام أحمد في مسنده (٦٥٥٥)، ومسلم في صحيحه (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو، ورواية: «كمنيِّ الرجال» أخرجها الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٩٧، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وسلف ٢١/ ١٠٦ و٢٢/ ١٧٥.

(٢) قوله: أبو داود، كذا في الأصل و(م) ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٣٧، وهو تصحيف، والصواب: ابن أبي داود، وهي رواية شاذة كما في فتح الباري ٨/ ٥٥٢. وينظر ما سلف ٢٠/ ٤٩٥.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٣٩، والصواب: عبد الله بن عمرو بن العاص، كما أخرجه عنه الدولابي في الكنى (١٦٠٣).

(٤) البحر ٧/ ٤٤١.

و«قياماً» حالٌ من ضميرِ «ينظرون» قدِّم للفاصلة، أو من المبتدأ عند من يجوِّز ذلك.

وفي «البحر»: النصبُ على الحال، وخبرُ المبتدأ الظرفُ الذي هو «إذا» الفجائيةُ، وهي حالٌ لا بدَّ منها، إذ هي محطُّ الفائدةِ، إلا أن يقدَّرَ الخبرُ محذوفاً، أي: فإذا هم مبعوثون، أو: موجودون قياماً، وإذا نُصِب «قياماً» على الحال فالعامل فيها ذلك الخبرُ المحذوفُ إن قلنا به، وإلا فالعاملُ هو العامل في الظرف، فإن كان «إذا» ظرفَ مكان على ما يقتضيه ظاهرُ كلامِ سيبويه، فتقديرُه: فبالحضرة هم قياماً، وإن كان ظرفَ زمانٍ كما ذهب إليه الرياشيُّ، فتقديره: ففي ذلك الزمان الذي نفخ فيه هم، أي: وجودُهم، واحتيج إلى تقدير هذا المضاف لأنَّ ظرفَ الزمانِ لا يكون خبراً عن الجثة، وإن كانت «إذا» حرفاً كما زعم الكوفيون فلا بدَّ من تقدير الخبر، إلا إن اعتقدنا أنَّ «ينظرون» هو الخبرُ، ويكون عاملاً في الحال(١). انتهى.

ولعمري إنَّ مذهب الكوفيين أقلُّ تكلُّفاً.

هذا، وهاهنا إشكالٌ بناءً على أنَّهم فسَّروا نفخةَ الصعق بالنفخة الأولى التي يموت بها من بقي على وجه الأرض؛ فإنه قد أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وابن ماجه والإمام أحمد وغيرُهم عن أبي هريرة قال: قال رجلٌ من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر. فرفع رجلٌ من الأنصار يدَه فلطمه، قال: أتقول هذا وفينا رسول الله ﷺ؟ فذكرتُ ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: «قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فأكونُ أوَّلَ من يرفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أرَفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى اللهُ تعالى»(٢). وهو يأبى تفسيرَ النفخة بذلك ضرورةَ أنَّ موسى عليه السلام قد مات قبل تلك النفخة بألوفِ سنين، واحتمالُ أنه عليه السلام لم يمت كما قيل

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند أحمد (٩٨٢١)، وصحيح البخاري (٢٤١١)، وصحيح مسلم (٢٣٧٣)، وسنن الترمذي (٣٢٤٥)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٤).

في الخضر وإلياس مما لا ينبغي أن يتفوّه به حيٌّ، ويدلُّ كما قال بعض الأ . . على أنها نفخة البعث.

وقال القاضي عياض(١): يحتمل أن تكونَ هذه صعقةُ فَزَعٍ بعد النشر حين تنشقُّ السماواتُ، فتتوافقُ الآياتُ والأحاديثُ، وتكون النفخاتُ ثلاثاً. وهو اختيار ابن العربي، وردَّه القرطبيُّ بأنَّ أخذَ موسى عليه السلام بقائمة العرش إنما هو عند نفخة البعث، وادَّعى أنَّ الصحيحَ أنْ ليس إلا نفختان، لا ثلاث ولا أربع كما قيل. ثم قال: والذي يُزيح الإشكال ما قال بعضُ مشايخنا: إنَّ الموتَ ليس بعدمٍ محضٍ بالنسبة للأنبياء عليهم السلام والشهداءِ، فإنَّهم موجودون أحياءُ وإن لم نَرَهم، فإذا نُفِخَتْ نفخةُ الصعق صَعِق كلُّ مَن في السماء والأرض، وصعقةُ غيرِ الأنبياء موتٌ، وصعقتُهم غشيٌ، فإذا كانت نفخةُ البعث عاش من مات وأفاق من غُشي عليه، ولذا وقع في الصحيحين: «فأكون أوَّل من يفيق»(٢). انتهى.

ولا يخفى أنَّه يحتاج إلى القول بجواز استعمال المشتَرَكِ في معنَيَيْهِ معاً، أو إلى ارتكاب عموم المجاز، أو التزام إرادة غشي عليهم، وأنَّ موتَ مَن يموت بعد الغشي مُفادٌ من أمرٍ آخر، فتدبَّر.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: أرضُ المحشر وهي الأرض المبدَّلةُ من الأرض المعروفة. وفي الصحيح: «يُحْشَرُ الناسُ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقُرْصَةِ النَّقِيِّ، ليس فيها علَمٌ لأحدٍ»(٣). وهي أوسع بكثير من الأرض المعروفة، وفي بعض الروايات أنها يومئذ من فضَّة(٤)، ولا يصحُّ.

أي: أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ هو على ما روي عن ابن عباس: نورٌ يَخلُقه الله

---

(١) في إكمال المعلم ٧/ ٣٥٧.

(٢) التذكرة ص١٦٩ و١٨٤، وحديث: «فأكون أول من يفيق» أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) (١٦٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٩٠) من حديث سهل بن سعد، قوله: عفراء: قال النووي: بيضاء إلى حمرةٍ. قوله: النقِيُّ: قال: هو الدقيق الحوَّاري. شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٣٤.

(٤) سلف ١٣/ ٣٥٩-٣٦٠.

تعالى بلا واسطةِ أجسامٍ مُضيئةٍ كشمسٍ وقمرٍ[١]. واختاره الإمام وجعل الإضافةَ من باب: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣][٢].

وعن محيي السنة تفسيرُه بتجلِّي الربِّ لفصل القضاء[٣]. وعن الحسن والسديِّ تفسيرُه بالعدل[٤]، وهو من باب الاستعارة، وقد استُعير لذلك وللقرآن والبرهانِ في مواضعَ من التنزيل، أي: وأشرقت الأرضُ بما يقيمه فيها من الحقِّ والعدل ويَبسُطه سبحانه من القسط في الحساب ووزنِ الحسنات والسيئات.

واختار هذا الزمخشريُّ وصحَّح أولاً تلك الاستعارةَ بتكرُّرها في القرآن العظيم.

وحقَّقها ثانياً بقوله: وينادي على ذلك إضافتُه إلى اسمه تعالى؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ هو الحقُّ العدلُ إشارةً إلى الصارف إلى التأويل.

وعيَّنها ثالثاً بإضافةِ اسمه تعالى الربِّ إلى الأرض؛ لأنَّ العدلَ هو الذي يتزيَّنُ به الأرض لا البرهان مثلاً.

ورابعاً بما عُطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب، والمجيء بالنبيين والشهداءِ، والقضاءِ بالحقِّ؛ لأنَّه كلُّه تفصيلُ العدل بالحقيقة.

وأيَّدها خامساً بالعرف العامِّ؛ فإنَّ الناسَ يقولون للملك العادل: أشرقَتِ الآفاقُ بعَدْلك، وأضاءتِ الدنيا بقِسطك.

وسادساً بقوله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[٥] فإنَّه يقتضي أن يكون العدلُ نوراً فيه.

وسابعاً بأنَّ فتحَ الآية وختمَها بنفي الظلم يدلُّ عليه ليكونَ من باب ردِّ العَجُز على الصدر على طريقة الطرد والعكس[٦].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٤٢.
(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ١٩.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٨٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) سلف ١٨/ ٤٠٠.
(٦) الكشاف ٣/ ٤١٠.

ورجّح ما اختار الإمامُ بأنَّ الأصلَ الحقيقةُ، ولا صارفَ، لأنَّ الإضافةَ تصحُّ بأدنى ملابسةٍ. وأيّد ما حُكي عن محيي السنة ببعض الأحاديث.

وتعقَّب ذلك صاحبُ «الكشف» فقال: إن إضافة الملابسة مجازٌ[(١)]، والترجيحُ لِمَا اختاره جارُ الله لِما ذُكِر من الفوائد، ولأنَّه الشائعُ في استعمال القرآن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وأما تجلِّي الربِّ سبحانه فسواءٌ حُمل على تجلِّي الجلال أو تجلِّي الجمال لا يقتضي إشراقَ الأرض بنورٍ إلَّا بأحد المعنيين، أعني: العدلَ، أو عرضاً يخلقهُ الله تعالى عند التجلِّي في الأرض، فلو تُوهِّم من تجلِّيه تعالى أنَّه ينعكس نورٌ منه على الأرض لاستحال إلا بالتفسير المذكور، فليس قولاً ثالثاً ليُنْصر ويؤيَّدَ بالحديث الذي لا يدلُّ على أنه تفسيرُ الآية المشتمِلِ على حديث الرؤية وإلقاءِ ستره تعالى على العبد يذكر ما فَعل به وما جنى. انتهى.

ولعلَّ الأوفقَ بما يُشعر به كثيرٌ من الأخبار أنَّ قوله سبحانه: (وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) إشارةٌ إلى تجلِّيه عزَّ وجلَّ لفصل القضاء، وقد يعبَّر عنه بالإتيان، وقد صرِّح به في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ولم يتأوَّلْ ذلك السلفُ، بل أثبتوه له سبحانه ـ كالنزول ـ على الوجه الذي أثبته عزَّ وجلَّ لنفسه.

ولا يبعُد أن يكون هذا النورُ هو النورَ الواردَ في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القِسْطَ ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبلَ عمل النهار، وعملُ النهار قبلَ عمل الليل، حجابه النورُ»[(٢)]. ويقال فيه: كالحجاب، نحوَ ما قال السلف في سائر المتشابهات، أو هو نورٌ آخرُ يظهر عند ذلك التجلِّي، ولا أقول: هو نورٌ منعكسٌ من الذات المقدَّس انعكاسَ نورِ الشمس مثلاً من الشمس، بل الأمرُ فوقَ ما تنتهي إليه العقولُ، وأنَّى وهيهات وكيف ومتى يتصوَّرُ إلى حقيقة ذلك الوصول؟ ويُومئُ إلى أنَّ ذلك التجلِّي مقرونٌ بالعدل التعبيرُ بعنوان الربوبية مضافاً إلى ضمير الأرض، والله تعالى أعلم بمراده.

---

(١) ورد هنا في هامش الأصل و(م) ما نصه: هو اختيار لأحد قولين في المسألة. اهـ منه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) عن أبي موسى ﷺ.

وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير وأبو الجوزاء: «أُشرقت» بالبناء للمفعول[١].

قال الزمخشريُّ: مِن شرِقَتْ بالضوء تَشْرَقُ: إذا امتلأت به واغتصَّت، وأشرقها الله تعالى، كما تقول: ملأ الأرضَ عدلاً، وطبَّقها عدلاً[٢].

وقال ابن عطية: هذا إنما يترتَّبُ من فعلٍ يتعدَّى، فهذا على أن يقال: أشرق[٣] البيتُ وأشرقَه السراجُ، فيكون الفعل مجاوزاً وغير مجاوزٍ.

وقال صاحب «اللوامح»: وجب أن يكون الإشراقُ على هذه القراءة منقولاً من: شرقت الشمس، إذا طلعت، فيصيرُ متعدِّياً، والمعنى: أُذهبَت ظلمةُ الأرض، ولا يجوز أن يكون من: أشرقَتْ، إذا أضاءت، فإنَّ ذلك لازمٌ، وهذا قد يتعدَّى إلى المفعول.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قال السديُّ: الحساب[٤]، فالكتاب مجازٌ عن الحساب، ووضْعُه ترشيحٌ له، والمراد به الشروعُ فيه، ويجوز جعل الكلام تمثيلاً.

وقال بعضهم: صحائفُ الأعمال وُضعت بأيدي العُمَّال، فالتعريفُ للجنس أو الاستغراق.

وقيل: اللوحُ المحفوظ، وضع ليقابَل به الصحائفُ. فالتعريفُ للعهد، وروي هذا القول عن ابن عباس، واستبعده أبو حيان، وقال: لعلَّه لا يصحُّ عن ابن عباس[٥].

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قيل: ليُسألوا: هل بلَّغوا أُمَمَهم؟ وقيل: ليحضُروا حسابَهم.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قال عطاء ومقاتل وابن زيد: الحفَظَة[٦]. وكأنَّهم أرادوا أنَّهم يشهدون على كلٍّ مِن الأمم أنَّهم بُلِّغوا، أو يشهدون على كلٍّ بعمله، كما قال سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٣٩، والبحر ٧/ ٤٤١.
(٢) الكشاف ٣/ ٤١٠.
(٣) في الأصل: أشرقت، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز ٤/ ٥٤٢.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٦٢.
(٥) البحر ٧/ ٤٤٢.
(٦) المصدر السابق.

وفي بعض الآثار: أنَّه يُؤتى باللوح المحفوظ وهو يرتَعِد، فيقال له: هل بلَّغتَ إسرافيل؟ فيقول: نعم يا ربِّ، بلَّغتُه. فيؤتى بإسرافيل وهو يرتعد، فيقال له: هل بلَّغك اللوح؟ فيقول: نعم يا رب. فعند ذلك يسكُن رَوعُ اللوح، ثم يقال لإسرافيل: فأنت هل بلَّغْتَ جبرائيل؟ فيقول: نعم يا رب. فيؤتى بجبرائيل وهو يرتعد، فيقال له: هل بلَّغك إسرافيل؟ فيقول: نعم يا رب. فعند ذلك يسكُن رَوع إسرافيل، ثم يقال لجبرائيل: فأنت هل بلَّغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيؤتى بالمرسلين وهم يرتعدون، فيقال لهم: هل بلَّغكم جبرائيل؟ فيقولون: نعم. فيسكُن عند ذلك رَوع جبرائيل، ثم يقال لهم: فأنتم هل بلَّغتم؟ فيقولون: نعم. فيقال للأمم: هل بلَّغكم الرسل؟ فيقول كَفَرَتُهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيعظُمُ على الرسل الحالُ ويشتدُّ البَلْبال(١)، فيقال لهم: من يشهَدُ لكم؟ فيقولون: النبيُّ الأميُّ وأمته، فيؤتى بالأمة المحمدية فيشهدون لهم أنهم بلَّغوا، فيقال لهم: من أين علِمْتُم ذلك؟ فيقولون: من كتابٍ أنزله الله تعالى علينا، ذَكر سبحانه فيه أنَّ الرسلَ بلَّغوا أمَمَهم، ويزكِّيهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣](٢). ومن هنا قيل: المراد بالشهداء في الآية أمةُ نبيِّنا ﷺ.

وقال الجبائي وأبو مسلم: هم عدول الآخرة يشهدون للأمم وعليهم(٣).

وقيل: جميعُ الشهداء من الملائكة وأمة محمد صلى الله عليه وسلم والجوارح والمكان.

وأيًّاما كان فالشهداءُ جمع: شاهدٍ. وقال قتادة والسديُّ: المراد بهم المستشهَدُون في سبيل الله تعالى(٤). فهو جمعُ شهيدٍ، وليس بذاك.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين العباد المفهوم من السياق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا

(١) البَلْبال: الهمُّ ووِسواس الصدر، مختار الصحاح (بلل).
(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٨.
(٣) مجمع البيان ٥/ ١٧٣.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٦٣، وزاد المسير ٧/ ١٩٨.

﴿يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾ بنقص ثوابٍ أو زيادةِ عقابٍ على ما جَرى به الوعدُ، بناءً على أنَّ الظلم حقيقةً لا يُتَصَوَّرُ في حقِّه تعالى، فإنَّ الأمرَ كلَّه له عزَّ وجلَّ.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: أُعطيَتْ جزاءَ ذلك كاملاً ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ فلا يفوته سبحانه شيءٌ من أعمالهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلخ تفصيلٌ للتوفية وبيانٌ لكيفيتها، والفاءُ ليس بلازم، والسَّوقُ يقتضي الحثَّ على المسير بعُنْفٍ وإزعاجٍ وهو الغالبُ، ويُشعِر بالإهانة، وهو المراد هنا، أي: سِيْقوا إليها[1] بالعنف والإهانة أفواجاً متفرِّقة بعضها في إثرِ بعض مترتِّبةً حسبَ ترتُّبِ طبقاتهم في الضلالة والشرارة.

والزُّمَرُ جمعُ زُمْرَةٍ، قال الراغب: هي الجماعةُ القليلةُ، ومنه قيل: شاة زَمِرَةٌ: قليلةُ الشعر، ورجلٌ زَمِرٌ: قليلُ المروءة، ومنه اشتُقَّ الزَّمْرُ، والزمَّارةُ كنايةٌ عن الفاجرة[2].

وقال بعضُهم: اشتقاقُ الزُّمْرَةِ من الزَّمْر وهو الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ ليدخلوها وكانت قبلَ مجيئهم غيرَ مفتوحةٍ، فهي كسائر أبواب السجون لا تزال مغلقةً حتى يأتي أصحابُ الجرائم الذين يُسجنون فيها فتُفتح ليدخلوها، فإذا دخلوها أُغلقت عليهم. و«حتى» التي تُحكى بعدَها الجملةُ، والكلامُ على «إذا» الواقعةِ بعدَها قد مرَّ في الأنعام[3].

وقرأ غيرُ واحد: «فتِّحت» بالتشديد[4].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: مِن جنسكم، تفهمون ما ينبِّئونكم به ويسهُلُ عليكم مراجعتُهم.

---

(١) في الأصل: إلينا، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٦٣، والكلام منه.
(٢) المفردات (زمر).
(٣) في تفسير الآية (٦١).
(٤) وهي قراءة غير الكوفيين من العشرة، كما في التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٤.

وقرأ ابن هرمز «تأتكم» بتاء التأنيث[١]. وقرئ: «نُذُرٌ منكم»[٢].

﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ المنزَّلةَ لمصلحتكم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وقتِكم هذا، وهو وقتُ دخولكم النارَ؛ لأنَّ المنذَرَ به في الحقيقة العذابُ ووقتُه، وجوِّز أن يرادَ به يومُ القيامةِ والآخرة؛ لاشتماله على هذا الوقت أو على ما يختصُّ بهم من عذابه وأهواله، ولا ينافيه كونُه في ذاته غيرَ مختصٍّ بهم، والإضافةُ لاميَّةٌ تفيدُ الاختصاص؛ لأنه يكفي للاختصاص ما ذكر، نعم الأولُ أظهرُ فيه.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّه لا تكليفَ قبلَ الشرع؛ لأنهم وبَّخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارِهم، ولو كان قبحُ الكفر معلوماً بالعقل دونَ الشرع لقيل: ألم تعلموا بما أودَع الله تعالى فيكم من العقل قبحَ كفركم؟ ولا وجهَ لتفسير الرسل بالعقول؛ لإباء الأفعال المستندة إليها عن ذلك، نعم هو دليلٌ إقناعيٌّ؛ لأنَّه إنَّما يتمُّ على اعتبارِ المفهوم وعمومِ «الذين كفروا»، وكلاهما محلُّ نِزاعٍ.

وقيل في وجه الاستدلال: إنَّ الخطابَ للداخلين عموماً يقتضي أنَّهم جميعاً أنذَرَهم الرسلُ، ولو تحقَّق تكليفٌ قبلَ الشرع لم يكن الأمرُ كذلك. وتعقِّب بأنَّ للخصم أن لا يسلِّم العمومَ، ولمن قال بوجوب الإيمان عقلاً أن يقول: إنَّما وبَّخُوهم بالكفر بعد التبليغ؛ لأنَّه أبعدُ عن الاعتذار وأحقُّ بالتوبيخ والإنكار.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قد أتانا رسلٌ منَّا تلَوا علينا آياتِ ربِّنا وأنذرونا لقاءَ يومِنا هذا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ﴾ أي: وجبتْ ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: كلمةُ الله تعالى المقتضيةُ له ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ والمرادُ بها الحكمُ عليهم بالشقاوة وأنَّهم من أهل النار؛ لسوء اختيارهم، أو قولُه تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] ووَضَعُوا «الكافرين» موضعَ ضميرهم للإيماء إلى عِلِّيَّة الكفر، والكلام اعترافٌ لا اعتذارٌ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٤٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٤١٠.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدَّراً خلودُكم فيها، والقائلُ يَحتمل أن يكونَ الخزنةَ وتُرك ذكرُهم للعلم به مما قبلُ، ويَحتمل أن يكون غيرَهم ولم يُذكر لأنَّ المقصودَ ذكرُ هذا المقول المهول من غير نظرٍ إلى قائله.

وقال بعض الأجلَّة: أبهم القائل؛ لتهويل المقول.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ «أل» فيه سواءٌ كانت حرفَ تعريفٍ أم اسمَ موصولٍ للجنس، وفاءٌ بحقِّ فاعلِ بابِ: نِعْمَ وبئسَ[١]، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ ثقةً بذكره آنفاً، أي: فبئس مثواهم جهنمُ. والتعبير بالمثوى لمكان «خالدين».

وفي التعبير بـ «المتكبرين» إيماءٌ إلى أنَّ دخولَهم النارَ لتكبُّرهم عن قبولِ الحقِّ والانقيادِ للرسل المنذِرين عليهم الصلاة والسلام، وهو في معنى التعليل بالكفر، ولا ينافي تعليلَ ذلك بسبقِ كلمة العذاب عليهم[٢]؛ لأنَّ حكمَه تعالى وقضاءَه سبحانه عليهم بدخول النار ليس إلا بسببِ تكبُّرِهم وكفرهم؛ لسوء اختيارهم المعلومِ له سبحانه في الأزل، وكذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ [ص: ٨٥] فهناك سببان قريبٌ وبعيدٌ، والتعليلُ بأحدهما لا ينافي التعليلَ بآخر، فتذكَّرْ وتدبَّرْ.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ جماعاتٍ مرتَّبةً حسبَ ترتُّب طبقاتهم في الفضل، وفي «صحيح مسلم» وغيرِه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زمرةٍ تدخلُ الجنة من أمتي على صورة القمر ليلةَ البدر، ثم الذين يلونهم على أشدِّ نجمٍ في السماء إضاءةً، ثم هم بعدَ ذلك منازل»[٣].

والمراد بالسَّوق هنا الحثُّ على المسير للإسراع إلى الإكرام، بخلافه فيما تقدَّم فإنَّه لإهانة الكَفَرة وتعجيلِهم إلى العقاب والآلام، واختير للمشاكلة، وقولُه سبحانه: «إلى الجنة» يدفع إيهامَ الإهانة، مع أنه قد يقال: إنَّهم لَمَّا أحبُّوا لقاءَ الله

---

(١) لأن فاعل هذا الباب يكون عامًّا معرَّفاً بلام الجنس، أو مضافاً للمعرَّف بها. حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٤.

(٢) كلمة «عليهم» سقطت من الأصل، والمثبت من (م) وتفسير البيضاوي ٧/ ٣٥٤، والكلام منه.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٣٤): (١٦)، وهو في مسند أحمد (٧٤٣٥).

تعالى أحبَّ الله تعالى لقاءهم فلذا حُثُّوا على دخول دار كرامته جلَّ شأنُه. قاله بعض الأجلَّة.

واختار الزمخشريُّ أنَّ المراد هنا بسَوقهم سَوْقُ مراكبهم؛ لأنَّه لا يُذهَبُ بهم إلا راكبين، وهذا السَّوق والحثُّ أيضاً للإسراع بهم إلى دار الكرامة(١).

وتعقِّب بأنه لا قرينةَ على إرادةِ ذلك، وكونُ جميع المتقين لا يُذهب بِهم إلَّا راكبين يحتاجُ إلى دليلٍ، والاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] لا يتمُّ إلَّا على القول بأنَّ الوفدَ لا يكونون إلا رُكباناً، وأنَّ الركوبَ يستمرُّ لهم إلى أن يدخلوا الجنة.

وفي «الكشف» أنَّه تفسيرٌ ظاهرٌ يؤيِّدُه الأحاديث الكثيرةُ، ويناسب المقامَ؛ لأنَّ السَّوقَيْن بعد فصل القضاء، واللطف الخالص في شأن البعض، والقهر الخالص في شأن البعض، ولا ينافي مقامَ عظمة مالك الملوك على ما توهم. انتهى.

وأقول: إنْ حُمِلَ «الذين اتقوا» على المخلِصين فالقولُ بركوبهم قولٌ قويٌّ، وإن حُمل على المحترِز عن الشِّرك خاصَّةً ليشمَل المخلصين فالقولُ بذلك قولٌ ضعيفٌ؛ إذ منهم من لا يدخلُ الجنةَ إلا بعدَ أن يدخُلَ النارَ ويعذَّبَ فيها، وظاهرُ كثيرٍ من الأخبار أنَّ مِن هذا الصنف مَن يذهب إلى الجنة مَشْياً؛ ففي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «آخِرُ مَن يدخلُ الجنة رجلٌ، فهو يمشي مرَّةً ويكبو أخرى، وتَسْفَعُه النارُ مرَّةً، فإذا ما جاوزها التَفَتَ إليها فقال: تبارك الذي نَجَّاني منكِ، لقد أعطاني الله تعالى شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخِرين. فتُرفع له شجرةٌ فيقول: أي ربِّ، أدنِني من هذه الشجرة فلأستظلَّ بظلِّها فأشربَ من مائها. فيقول الله تعالى: يا ابنَ آدم، لعلِّي إن أعطيتُكها سألتني غيرَها؟ فيقول: لا يا ربِّ. ويعاهِدُه أن لا يسألَه غيرَها، وربُّه يَعذِرُه لأنَّه يرى ما لا صبرَ له عليه فيُدنِيه». الحديث(٢).

---

(١) الكشاف ٣/ ٤١٠.

(٢) صحيح مسلم (١٨٧).

وقال بعض العارفين: إنَّ المتقين يُساقُون إلى الجنة لأنَّهم قد رأوا الله تعالى في المحشر، فلرغبتهم في رؤيته عزَّ وجلَّ ثانياً لا يُحِبُّون فراقَ ذلك الموطِنِ الذي رأوه فيه، ولشدَّةِ حبِّهم وشَغَفِهم لا يكادُ يخطرُ لهم أنَّهم سيرونه سبحانه إذا دخلوا الجنة، والمحبَّةُ إذا عظُمت فعلَتْ بصاحبِها أعظمَ من ذلك وأعظم، فكأنها غلبتْهم حتى خَيَّلَتْ إليهم أنَّ ذلك الموطن هو الموطنُ الذي يُرى فيه عزَّ وجلَّ، وهو محلُّ تجلِّيه على مُحبِّيه جل جلاله وعظُم نوالُه، فأحْجَموا عن المسير ووقفوا منتظرين رؤيةَ اللطيف الخبير، وغدا لسانُ حالِ كلٍّ منهم يقول:

وقف الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي مـتـأخَّـرٌ عـنـه ولا مـتـقـدَّمُ[١]

ويدلُّ على رؤيتهم إياه عزَّ وجلَّ هناك ما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: إنَّ أناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضارُّون في القَمَر ليلةَ البدْرِ»؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: «هل تُضارُّون في الشمس ليس دونَها سَحَابٌ»؟ قالوا: لا. قال: «فإنَّكم ترونه كذلك، يجمعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامة فيقول: مَن كان يعبُد شيئاً فليتَّبِعْه، فيتَّبِعُ مَن يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتَّبعُ مَن يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتَّبعُ مَن يعبُدُ الطواغيتَ الطواغيتَ، وتبقى هذه الأمةُ فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورةٍ غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: نعوذُ بالله منك، هذا مكانُنا حتى يأتينا ربُّنا، فإذا جاء ربُّنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: أنت ربُّنا. فيتَّبِعُونه، ويُضرب الصراطُ بين ظهرانَي جهنَّم فأكونُ أنا وأمتي أوَّل من يجيز، ولا يتكلَّمُ يومئذٍ إلا الرسلُ، ودعوى الرسل يومئذ: اللَّهم سلِّم سلِّم» الحديث[٢]. ومع هذا فسَوقُهم ليس كسَوق الذين كفروا كما لا يخفى.

وقيل: السائق للكَفَرة ملائكةُ الغَضَب، والسائقُ للمتقين شوقُهم إلى مولاهم، فهو سبحانه لهم غايةُ الأرب، وليست الجنةُ عندَهم هي المقصودةَ بالذات،

(١) البيت لأبي الشيص الخزاعي، وسلف ١١/ ١٦٥.
(٢) صحيح مسلم (١٨٢).

ولا مجرَّدُ الحلول بها أقصَى اللذاتِ، وإنَّما هي وسيلةٌ للقاءِ محبوبِهم الذي هو نهايةُ مطلوبهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وقرئ بالتشديد[1]، والواوُ للحال، والجملةُ حاليةٌ بتقديرِ «قد» على المشهور، أي: جاؤوها وقد فتحت لهم أبوابها، كقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]، ويُشعر ذلك بتقدُّم الفتح، كأنَّ خَزَنَةَ الجناتِ فتحوا أبوابَها ووقفوا منتظرين لهم، وهذا كما تَفْتَح الخدَمُ بابَ المنزل للمدعوِّ للضيافة قبلَ قدومه وتقف منتظرَةً له، وفي ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه.

والظاهرُ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ إلخ عطفٌ على «فتحت أبوابها»، وجوابُ «إذا» محذوفٌ مقدَّرٌ بعد «خالدين» للإيذان بأنَّ لهم حينئذٍ من فنون الكرامات ما لا يُحيط به نِطاقُ العبارات، كأنه قيل: إذا جاؤوها مفتَّحةً لهم أبوابُها، وقال لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: من جميع المكاره والآلام، وهو يحتمل الإخبارَ والإنشاءَ.

﴿طِبۡتُمۡ﴾ أي: من دَنَس المعاصي. وقيل: طبتم نفساً بما أُتيح لكم من النعيم المقيم، والأولُ مرويٌّ عن مجاهد وهو الأظهرُ، والجملةُ في موضع التعليل.

﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ أي: مقدّرين الخلودَ[2]، كان ما كان[3] مما يقصُر عنه البيانُ، أو: فازوا بما لا يعَدُّ ولا يُحصى من التكريم والتعظيم، وقدَّره المبرِّد: سعِدوا، بعد: «خالدين» أيضاً. ومنهم من قدَّره قبلَ: «وفتحت»، أي: حتى إذا جاءوها، جاؤوها وقد فتحت، وليس بشيء. ومنهم من قدَّره نحوَ ما قلنا قبلَ «وقال»، وجعلَ جملةَ «قال» إلخ معطوفةً عليه، وما تقدَّم أقوى معنًى وأظهر.

---

(١) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٤ عن نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر.

(٢) قوله: مقدّرين، هو بصيغة الفاعل أو المفعول، إشارة إلى أنها حالٌ مقدَّرة. حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٧.

(٣) قوله: كان ما كان...، هو تقدير لجواب «إذا» الشرطية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾.

وقال الكوفيون: واوُ «وفتحت» زائدةٌ، والجوابُ جملةُ «فتحت». وقيل: الجوابُ: «قال لهم خزنتها»، والواو زائدة.

والمعوَّل عليه ما ذكرنا أولاً، وبه يُعلم وجهُ اختلاف الجملتين، أعني قولَه تعالى في أهل النار: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا)، وقولَه جلَّ شأنه في أهل الجنة: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا) حيثُ جيء بواوٍ في الجملة الثانية وحُذف الجواب، ولم يُفعل كذلك في الجملة الأولى، فما قيل: إنَّ الواو في الثانية واو الثمانية لأنَّ المفتَّح ثمانيةُ أبوابٍ، ولَمَّا كانت أبوابُ النار سبعةً لا ثمانيةً لم يؤتَ بها = وجهٌ ضعيفٌ لا يعوَّل عليه.

واستدلَّ المعتزلةُ بقوله: «طبتم فادخلوها» ـ حيثُ رتَّب فيه الأمرَ بالدخول على الطيب والطهارة من دَنَسِ المعاصي ـ على أنَّ أحداً لا يدخلُ الجنةَ إلا وهو طيِّبٌ طاهرٌ من المعاصي، إمَّا لأنَّه لم يفعلْ شيئاً منها، أو لأنه تاب عما فعلَ توبةً مقبولةً في الدنيا. ورُدَّ بأنَّه وإن دلَّ على أنَّ أحداً لا يدخلها إلا وهو طيِّبٌ، لكن قد يحصُل ذلك بالتوبة المقبولة، وقد يكون بالعَفْو عنه، أو الشفاعةِ له، أو بعدَ تمحيصِه بالعذاب. فلا متمسَّك فيها للمعتزلة.

وقيل: المرادُ بـ «الذين اتقوا»: المحترِزون عن الشرك خاصَّةً، فـ «طبتم» على معنى: طبتم عن دنس الشرك، ولا خلافَ في أنَّ دخولَ الجنةِ مسبَّبٌ عن الطِّيْب والطهارة عنه. وتعقِّب بأنَّ ذاك خلافُ الظاهر؛ لأنَّ التقْوى في العرف الغالبِ تقع على أخصَّ مِن ذلك، لاسيما في معرِض الإطلاق والمدحِ بما عقَّبه من قوله تعالى: (فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ) فتدبَّر.

﴿وَقَالُواْ﴾ عطفٌ على «قال»، أو على الجواب المقدَّر بعدَ «خالدين»، أو على مقدَّرٍ غيره، أي: فدخلوها وقالوا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ يريدون المكانَ الذي استقرُّوا فيه، فإن كانت أرضُ الآخرة التي يُمشى عليها تسمَّى أرضاً حقيقةً فذاك، وإلَّا فإطلاقُهم «الأرضَ» على ذلك من باب الاستعارة تشبيهاً له بأرض الدنيا، والظاهرُ الأولُ.

وحُكي عن قتادة وابن زيد والسديِّ أنَّ المرادَ أرضُ الدنيا(١). وليس بشيء.

وإيراثها تمليكُها مخلَفةً عليهم من أعمالهم، أو تمكينُهم من التصرُّفِ فيها تمكينَ الوارث فيما يرثه، بناءً على أنَّه لا مِلكَ في الآخرة لغيره عزَّ وجلَّ، وإنما هو إباحة التصرُّفِ والتمكينِ مما هو ملكُه جلَّ شأنه.

وقيل: ورِثوها من أهل النار، فإنَّ لكلٍّ منهم مكاناً في الجنة كُتب له بشرط الإيمان.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: يتبوَّأ كلٌّ مِنَّا في أيِّ مكانٍ أراده مِن جنته الواسعة، لا أنَّ كلًّا منهم يتبوَّأ في أيِّ مكانٍ من مطلَق الجنة أو من جنات غيره المعيَّنة لذلك الغير، فلا يقال: إنَّه يلزم جوازُ تبوُّء الجميع في مكانٍ واحدٍ وحدةً حقيقةً وهو محال(٢)، أو أن يأخذَ أحدُهم جنةَ غيره وهو غيرُ مرادٍ.

وقيل: الكلامُ على ظاهره، ولكلٍّ منهم أن يتبوَّأ في أيِّ مكانٍ شاء من مطلَق الجنة ومن جنات غيره، إلَّا أنه لا يشاء غيرَ مكانه لسلامةِ نفسه وعصمةِ الله تعالى له عن تلك المشيئة. وقال الإمام: قالت حكماء الإسلام: إنَّ لكلٍّ جنتين جسمانيةً وروحانيةً، ومقاماتُ الثانية لا تمانُعَ فيها(٣). فيجوزُ أن يكونَ في مقامٍ واحدٍ منها ما لا يتناهى من أربابِها.

وهذه الجملةُ حاليةٌ، فالمعنى: أورثَنا مقاماتِ الجنة حالةَ كوننا نسرَحُ في منازل الأرواح كما نشاء.

وقد قال بعضُ متألِّهي الحكماء: الدارُ الضيِّقة تسع ألفَ ألفٍ من الأرواح والصوَرِ المثالية التي هي أبدانُ المتجرِّدين عن الأبدان العُنصرية لعدم تمانُعِها كما قيل:

---

(١) البحر ٧/ ٤٤٣. وأخرج الطبري ٢٠/ ٢٧٠ عن الثلاثة أنهم قالوا: أرض الجنة.

(٢) يعني لو حمل النظم على ظاهره وأراد خلقٌ كثير مكاناً واحداً منها، لزم تبوُّءُ الجميع مكاناً واحداً بالوحدة الحقيقية، وهو محال. حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٥.

(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٣.

سَمُّ الخِياطِ مع الأحبابِ مَيدانُ(١)

وفسَّر المقام الروحانيّ بما تُدركه الروحُ من المعارف الإلهية، وتُشاهِده من رضوان الله تعالى وعنايتِه القُدْسية، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت.

وتعقَّب بأنَّ هذا إن عُدَّ من بطون القرآن العظيم فلا كلامَ، وإلَّا فحملُ الجنة على مثلِ ذلك مما لا تعرفه العربُ، ولا ينبغي أن يفسَّر به، على أنَّه ربما يقال: يرِدُ عليه أنه يقتضي أنَّ لكلِّ أحدٍ أن يصِلَ إلى مقامٍ روحانيٍّ من مقاماتها، مع أنَّ منها ما يَخُصُّ الأنبياءَ المكرَّمين والملائكة المقرَّبين، والظاهرُ أنَّه لا يصل إلى مقاماتهم كلُّ أحدٍ من العارفين، فافهمْ ولا تغفلْ.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٧٤﴾ من كلامِ الداخلين عندَ الأكثر، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ، أي: هذا الأجرُ أو الجنةُ. ولعلَّ التعبير بـ «أجر العاملين» دونَ: أجرنا؛ للتعريض بأهل النار أنَّهم غيرُ عاملين.

وقال مقاتل: هو من كلام الله تعالى.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ أي: مُحدِقين، من الحِفاف بمعنى الجانب، جمعُ: حافٍّ، كما قال الأخفش، وقال الفرَّاء(٢): لا يفرد. فقيل: أراد أنَّ المفردَ لا يكون حافًّا، إذ الإحداقُ والإحاطةُ لا يُتصوَّر بفرد وإنَّما يتحقَّق بالجمع. وقيل: أراد أنَّه لم يَرِد استعمالُ مفردِه.

وأُوردَ على الأول أنَّ الإحاطة بالشيء بمعنى محاذاةِ جميع جوانبه، فتُتَصوَّر في الواحد بدَوَرانه حولَ الشيء، فإنه حينئذٍ يحاذِي جميعَ جوانبِه تدريجاً، فيكون الحفوفُ بمعنى الدوَران حولَه، أو يراد بكونه حافًّا أنَّه جزءٌ من الحافِّ، وله مدخلٌ في الحفوف، ولو صحَّ ما ذكر لم يصحَّ أن يقال: طائفٌ أو محدِقٌ أو محيطٌ أو نحوُه مما يدلُّ على الإحاطة.

---

(١) وصدره: وأطيب الأرض ما للقلب فيه هوى، وقائله إبراهيم العنزي، كما في المدهش ص٣٨٥، والكشكول ١/ ٢٨٨. قوله: سمُّ الخياط، السمُّ بالفتح والضم: الثقب.
(٢) كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣، والبحر ٧/ ٤٤٣، وعنه نقل المصنف.

وأُورِدَ على الثاني أنَّا لم نجد وُرودَ جمعٍ سالمٍ لَم يَرِدْ استعمالُ مفرده، فبعدَ وُرودِ «حافِّين» الظاهرُ وُرودُ: حافٌّ، كما لا يخفى.

والخطاب لسيِّد المخاطَبين ﷺ، وجوِّز أن يكونَ لكلِّ مَن تصحُّ منه الرؤيةُ، كأنه قيل: وترى أيها الرائي الملائكةَ حافِّين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: حولَ العرش، على أنَّ «من» مزيدةٌ على رأي الأخفش[1]، وهو الأظهرُ.

وقيل: هي للابتداء، فـ «حول العرش» مبتدأُ الحفوف، وكأنَّ الحفوفَ حينئذٍ للخلق. وفي بعض الآثار ما هو ناطقٌ بذلك، وفيها ما يدلُّ على أنَّ العرشَ يومَ فصل القضاء يكون في الأرض حيث يشاء الله تعالى، والأرضُ يومئذٍ غيرُ هذه الأرض، على أنَّ أحوالَ يوم القيامة وشؤونَ الله تعالى وراءَ عقولنا، وسبحانَ مَن لا يُعجِزُه شيءٌ.

والظاهر أنَّ الرؤيةَ بَصَريَّة، فـ «حافِّين» حالٌ أُولى، وقولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حالٌ ثانيةٌ. ويَجوز أن يكون حالاً من ضمير «حافِّين» المستتِر. وجوِّز كونُ الرؤية عِلْميةً، فـ «حافِّين» مفعولٌ ثانٍ، وجملةُ «يسبحون» حالٌ مِن «الملائكة»، أو من ضميرهم في «حافِّين».

والباءُ في «بحمده» للملابسة، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، أي: ينزِّهونه تعالى عمَّا لا يليق به ملتبسين بحمدِه، وحاصلُه: يذكرون اللهَ تعالى بوصفي جلالِه وإكرامه تبارك وتعالى، وهذا الذكرُ إمَّا من باب التلذُّذِ فإنَّ ذكرَ المحبوب من أعظم لذائذِ المحبِّ كما قيل:

أجد الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حُبًّا لذكركِ فليلُمْني اللُّوَّمُ[2]

أو من باب الامتثال، ويُدَّعى أنَّهم مكلَّفون، ولا يسلَّم أنَّهم خارجون عن خطَّة التكليف أو يخرجون عنها يوم القيامة، نعم لا يرون ذلك كُلْفةً وإن أُمروا به. وفي حديثٍ طويلٍ جدًّا أخرجه عبد بن حميد وعليُّ بن معبد في «كتاب الطاعة

(١) البحر ٧/ ٤٤٣.
(٢) البيت لأبي الشيص الخزاعي، وقد سلف ١٣/ ٥٤٣.

والمعصية»[١] وأبو يعلى، وأبو الحسن القطَّان في «المطولات»، وأبو الشيخ في «العظمة»، والبيهقيُّ في «البعث والنشور»، عن أبي هريرة: «فبينما نحن وقوف - أي: في المحشر - إذ سمعنا حسًّا من السماء شديداً، فينزِلُ أهل سماء الدنيا بمثلَي مَن في الأرض مِن الجنِّ والإنس، حتى إذا دنَوا من الأرض أشرقت الأرضُ بنورهم، وأخذوا مصافَّهم، ثم تنزل أهلُ السماء الثانية بمثلَي مَن نزل مِن الملائكة ومثلَي مَن فيها من الجنِّ والإنس، حتى إذا دنَوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافَّهم، ثم تنزل أهلُ السماء الثالثة بمثلَي مَن نزل مِن الملائكة ومثلَي مَن فيها من الجنِّ والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافَّهم، ثم ينزلون على قَدْرِ ذلك من التضعيف إلى السماوات السبع، ثم ينزل الجبَّارُ في ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ، تحمل عرشَه يومئذٍ ثمانيةٌ، وهم اليومَ أربعةٌ، أقدامُهم على تُخوم[٢] الأرض السفليِّ، والأرضون والسماواتُ إلى حُجَزِهم، والعرشُ على مناكبهم، لهم زجَلٌ[٣] بالتسبيح فيقولون: سبحان ذي العزَّة والجبروت، وسبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحيِّ الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبُّوحٌ قدُّوسٌ ربُّ الملائكة والروح، سبحان ربِّنا الأعلى الذي يميت الخلائقَ ولا يموت، فيضع عرشَه حيث يشاء مِن الأرض، ثم يهتف سبحانه بصوته فيقول عزَّ وجلَّ: يا معشرَ الجنِّ والإنس، إنِّي قد أنصتُّ لكم منذُ يوم خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأُبصر أعمالكم فأنصِتوا إليَّ، فإنما هي أعمالكم وصُحفكم تُقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجدَ غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه» الحديث[٤].

---

(١) وقع في الأصل و(م) ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٣٩ (والكلام منه): علي بن سعيد في كتاب الطاعة والعصيان، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه، كما أورده الزيلعي في نصب الراية ٤/ ٣٤٦، والعراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١/ ١٥٠، ٢/ ٣٠٨، ٢/ ٣١١، والحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨-٣٦٩، وفي لسان الميزان ٥/ ٤٢.

(٢) تخوم: جمع: تَخم، وهو منتهى كل أرض، وقال الفراء: تخومها: حدودها. الصحاح (تخم).

(٣) الزَّجَل - متحركة -: رَفْع الصوت. القاموس (زجل).

(٤) كتاب العظمة (٣٨٨)، والبعث والنشور (٦٦٩)، وعزاه لعبد بن حميد وعلي بنِ

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بينَ العباد كلِّهم بإدخالِ بعضهم الجنةَ وبعضِهم النارَ، فإنَّ القضاءَ المعروف يكون بينهم، ولوضوحِ ذلك لا يضرُّ كونُ الضمير لغير الملائكة مع أنَّ ضميرَ «يسبِّحون» لهم، إذ التفكيكُ لا يمتنع مطلقاً كما تُوهِّم.

وقيل: ضميرُ «بينهم» للملائكة، واستظهره أبو حيان، وثوابُهم ـ وإن كانوا كلُّهم معصومين ـ يكون على حسب تفاضُلِ أعمالهم، فيختلفُ تفاضلُ مراتبِهم، فإقامةُ كلٍّ في منزلته حسبَ عمله هو القضاءُ بينهم بالحقِّ(١).

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: على ما قَضَى بيننا بالحقِّ، والقائل قيل: هم المؤمنون المقضيُّ لهم، لا ما يعمُّهم والمقضيَّ عليهم، وحمدُهم الأوَّل على إنجازِ وعده سبحانه وإيراثِهم الأرضَ يتبوَّؤون من الجنة ما شاؤوا، وحمدُهم هذا على القضاء بالحقِّ بينهم فلا تكرار.

وقال الطيبيُّ: إنَّ الأولَ للتفصِلة بين الفريقين بحسب الوعد والوعيد والسخط والرضوان، والثاني للتفرِقة بينهما بحسب الأبدان، ففريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير. والأول أحسن.

وقيل: هم الملائكة يحمَدونه تعالى على قضائه سبحانه بينهم بالحقِّ وإنزالِ كلٍّ منهم منزلتَه. وعليه ليس في الحمدَين شائبةُ تكرارٍ لتغايُرِ الحامدِين.

وقيل: «قيل» دون: قالوا؛ لتعيُّنهم وتعظيمهم. وجوِّز كونُ القائل جميعَ العباد مُنعَّمِهم ومُعذَّبِهم؛ وكأنَّه أُريد أنَّ الحمدَ من عموم الخلق المقضيِّ بينهم هنا إشارةٌ إلى التَّمام وفصلِ الخصام كما يقوله المنصرفون مِن مجلسِ حكومةٍ ونحوها،

= معبد وأبي يعلى وأبي الحسن القطان السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٣٩، وأخرجه الطبري مطولاً ومختصراً في تفسيره ٢/ ٦١١، ٢٠/ ٢٥٦. وإسناده ضعيف فيه جهالة واضطراب، وأورده الحافظ ابن كثير بطوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ثم قال: هذا حديث مشهور، وهو غريب جدًّا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة. وقال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨: مداره على إسماعيل بن رافع، واضطَرَب في سنده مع ضعفه. وقال ابن عدي في إسماعيل بن رافع: أحاديثه كلها فيها نظر، إلّا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. الكامل ١/ ٢٧٩.

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٤٣.

فيحمَدُه المؤمنون لظهور حقِّهم، وغيرُهم لعدله واستراحتِهم من انتظار الفصل، ففي بعض الآثار أنَّه يطول الوقوف في المحشر على العباد حتى إنَّ أحدَهم ليقول: ربِّ أرِحْني ولو إلى النار(١). وقيل: إنَّهم يحمدونه إظهاراً للرضا والتسليم.

وقال ابن عطية: هذا الحمدُ ختمٌ للأمر يقال عند انتهاء فصلِ القضاء، أي: إنَّ هذا الحاكم العدْلَ ينبغي أن يُحْمَدَ عند نفوذ حكمِه وإكمالِ قضائه، ومن هذه الآية جُعلت «الحمد لله رب العالمين» خاتمةَ المجالس في العلم(٢).

هذا والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على رسوله محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

ومن باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: اعبدْه تعالى بنفسك وقلبك وروحك مُخلِصاً، وإخلاصُ العبادة بالنفس التباعُدُ عن الانتقاص، وإخلاصُ العبادة بالقلب العمى عن رؤية الأشخاص، وإخلاصُ العبادة بالروح نفْيُ طلبِ الاختصاص. وذُكر أنَّ المخلصَ مَن خَلُص بالجود عن حبْس الوجود.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى تهديد مَن يدَّعي رتبةً من الولاية ليس بصادقٍ فيها، وعقوبتُه حرمانُ تلك الرتبة.

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أحوالِ السائرين إلى الله سبحانه من القبض والبسط، والصحْوِ والسكر، والجمع والفرق، والستر والتجلِّي، وغير ذلك.

﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ قيل: يشير إلى ظلمة الإمكان، وظلمة الهيولى، وظلمة الصورة.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٩٨٢)، وابن حبان (٧٣٣٥)، والطبراني في الكبير (١٠٠٨٣) من حديث ابن سعود ﷺ مرفوعاً. وأخرجه الطبراني في الكبير (٨٧٧٩) عن ابن مسعود موقوفاً.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٤.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يشير إلى القيام بآداب العبودية ظاهراً وباطناً من غير فُتورٍ ولا تقصير. ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ ونعيمَها كما يحذر الدنيا وزينتَها ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ رضاه سبحانه عنه وقربَه عزَّ وجلَّ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ قدرَ معبودِهم جلَّ شأنه فيطلبونه ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيطلبون ما سواه، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ حقيقةَ الأمر ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم الذين انسلخوا من جِلْدِ وجودهم وصَفَوا عن شوائب أنانيتهم.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بي شوقاً إليَّ ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ فلا تطلبوا غيرَه سبحانه.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ في طلبي ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن لم يطلبوا مني غيري ﴿حَسَنَةٌ﴾ عظيمةٌ وهي حسنةُ وِجداني ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ وهي حضرةُ جلاله وجماله فإنَّها لا نهايةَ لها، فليَسر فيها ليَرى ما يرى، ولا يَظُنَّ بما فُتِحَ عليه انتهاءَ السير وانقطاعَ الفيض ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على صدق الطلب ﴿أَجْرَهُم﴾ من التجلِّيات ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، إذ لا نهايةَ لتجلِّياته تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بطلبِ ما سواه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب القطيعة والحرمان.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ فلا أطلب دنيا ولا أخرى، كما قيل:

وكلٌّ له سؤلٌ ودينٌ ومذهبٌ ... ولي أنتمُ سؤلٌ وديني هواكمُ

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: الذين تبيَّن خسرانُ أنفسهم بإفساد استعدادِها للوصول والوصال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ من القلوب والأسرار والأرواح بالإعراض عن طلب المولى ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الذي تتبيَّنُ فيه الحقائق ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا خفاءَ فيه لفوات رأس المال وعدم إمكان التلافي.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ للإنسان قوتين يستكمل بإحداهما علماً وبالأخرى عملاً، والآلة الواسطةُ في القسم الأول هي العلومُ المسمَّاةُ بالمقدِّمات، وترتيبُها على الوجه المؤدي إلى النتائج التي هي بمنزلةِ الربح يشبه تصرُّفَ التاجر في رأس المال بالبيع والشراء. والآلةُ في القسم العمليِّ هو القُوَى البدنية وغيرُها من

الأسباب الخارجية المُعِينةِ عليها، واستعمالُ تلك القوى في وجوه أعمالِ البرِّ التي هي بمنزلة الربح يُشبه التجارةَ، فكلُّ مَن أعطاه الله تعالى العقلَ والصحَّةَ والتمكينَ، ثم إنَّه لم يستفِدْ منها معرفةَ الحقِّ ولا عملَ الخير، فإذا مات فات رِبْحه وضاع رأسُ ماله، ووقع في عذابِ الجهل وألَم البُعْدِ عن عالَمه والقربِ مما يضادُّه أبدَ الآباد، فلا خسرانَ فوق هذا، ولا حرمانَ أبينُ منه، وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وهذا على الأول إشارةٌ إلى إحاطةِ نارِ الحسرة بهم.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قيل: الغرف المبنيةُ بعضُها فوق بعض إشارةٌ إلى العلوم المكتسَبة المبنيَّةِ على النظريات، وأنَّها تكون في المتانة واليقين كالعلوم الغريزية البديهية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن سماءِ حضرته سبحانه، أو من سماء القلب ﴿مَآءً﴾ ماءَ المعارف والعلوم ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ﴾ مداركَ وقوًى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ البشرية ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ من الأعمال البدنية والأقوال اللسانية.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ إشارةٌ إلى أفعال المُرائين وأقوالهم؛ تُرى مخضرَّة وفقَ الشرع، ثم تصفرُّ مِن آفةِ الرياء، ثم تكون حطاماً لا حاصلَ لها إلا الحسرةُ.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ للانقياد إليه سبحانه ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يستضيء به في طلبه سبحانه. ومن علاماتِ هذا النور محْوُ ظلمات الصفات الذميمة النفسانية، والتحليةُ بالأخلاق الكريمة القدسية.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إذا قَرعَتْ صفاتُ الجلال أبوابَ قلوبهم ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالشوق والطلب.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ يتجاذبونه، وهم: شغلُ الدنيا وشغلُ العيال وغيرُ ذلك من الأشغال، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ إشارةٌ إلى المؤمن الخالص الذي لم يشغلْه شيء عن مولاه عزَّ شأنه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يشير إلى حال الكاذبين في دعوى الولاية ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ يشير إلى حالِ أقوامٍ نبذوا الشريعةَ وراءَ ظهورهم وقالوا: هي قشرٌ. والعياذ بالله تعالى.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ قيل: هو سوادُ قلوبهم ينعكس على وجوههم.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قيل: المتقون قد عبدوا الله تعالى لله جلَّ شأنه لا للجنة، فتصير شدَّةُ استغراقهم في مشاهدة مطالعِ الجمال والجلال مانعةً لهم عن الرغبة في الجنة، فلا جرمَ يفتقرون إلى السَّوق.

وقيل: كلُّ خصلةٍ ذميمةٍ أو شريفةٍ في الإنسان، فإنها تجرُّه من غير اختيارٍ ـ شاء أم أبَى ـ إلى ما يضاهي حالَه، فذاك معنى السَّوق في الفريقَين.

وقيل: القومُ أهلُ وفاءٍ، فهم يقولون: لا ندخلُ الجنةَ حتى يدخُلَها أحبابُنا، فلذا يُساقون إليها ولكن لا كسَوقِ الكَفَرة.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلى أنه ﷺ في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدرٍ، بناءً على أنَّ العرش لا يتحوَّل.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إشارةٌ إلى نعيمهم ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أعطيَ كلُّ ما يستحقُّه ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على انقضاء الأمر، وفصل القضاء بالعدل الذي لا شبهةَ فيه ولا امتراءَ.

هذا، والحمد لله تعالى على أفضاله، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله.

انتهى بعون الله تعالى الجزء الثالث والعشرون من روح المعاني

ويليه إن شاء الله الجزء الرابع والعشرون ويبدأ

بسورة غافر